مؤلفات
محمود البدوى

٢



العربة الأخيرة
الذئاب الجائعة
فندق الدانوب

مؤلفـــات
محمود البدوى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

مؤلفات محمود البدوي

- العربة الأخيرة
- الذئاب الجائعة
- فندق الدانوب

الأعمال الفنية كاملة

الغربة الأخيرة

وقصص أخرى

العربة الأخيرة

كانت عربة الترام الأخيرة التى تتحرك من ميدان العتبة فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشر بعد منتصف الليل إلى الجيزة . . ولم تكن تكتظ بالركاب ، قليل منهم يركب من الميدان وكثير منهم يركب فى الطريق .

وكانت هذه العربة تجمع خليطا عجيبا من الناس ، رواد الملاهى ودور السينما فى الحفلات الأخيرة ، وبنات الليل اللواتى يتسكعن على الأرصفة ، والسكارى الذين يقضون الليل فى الحانات ، والغلمان الذين يجمعون أعقاب السجائر فى أخريات الليل ، ثم عمال الترام الذاهبين إلى منازلهم .

وكان سائق العربة يتحرك من الميدان بعد دقة ساعة البريد ويمضى على الشريط وهو فى أقصى سرعته ، فإذا اقترب من ميدان الأزهر خفف من سيره قليلا . . فمن هنا يبدأ الركاب فى الصعود والنزول .

وكان الركاب متجمعين فى وسط العربة ، وقد جلسوا فى صمت ، فقد كان التعب باديا على وجوههم جميعا ، والسكارى منهم كانوا يصخبون فى أول الأمر . . فلما قرصهم برد الشتاء انكمشوا وعادوا إلى السكون .

وعذارى الليل اللواتى جلسن فى ركن من العربة ، كانت وجوههن ذابلة ، وعليها ضروب مختلفة من المساحيق ، وكان التعب باديا على وجوههن ، ومع هذا فقد كن يبتسمن ليقعن على صيد جديد !

وكان السكارى إذا بصروا بواحدة من هاته النسوة واقفة فى المحطة . . يمدون إليها أعناقهم ، ويلوحون لها بأيديهم . فإذا ركبت العربة صمتوا كأنهم ما رأوها من قبل .

وكان الترام فى شارع قصر العينى ينطلق مسرعا ، وتصفر عجلاته وتدوى فى سكون الليل ، وفى سرعة ينزل منه الركاب وفى سرعة يمضى . .

وكان سائق العربة يقف وحيدا فى الجزء الأمامى منها . . فما من أحد يستطيع أن يشاركه موقفه فى هذه البرودة الشديدة . كان يتلقى البرد كله وحده . وكان الهواء يصفر فى أذنيه ويلفح وجهه ، فقد كانت العربة مكشوفة ولا زجاج أمامى لها . وكانت يده تتحرك على المفتاح . . والطريق يلمع أمامه على ضوء المصابيح البراقة . . وكانت رأسه تدور كما تدور يده بالمفتاح ، فقد ترك والدته فى البيت فى نزعها الأخير . . ولم يكن يدرى من أين يأتى لها بمصاريف الدفن . كان قد أتعب ذهنه طول النهار دون أن يصل الى نتيجة .

وكان يقف فى المحطات ويتحرك منها بحركة رتيبة وهو شبه مذهول . كانت يده تتحرك من تلقاء نفسها كأنما يحركها لولب ، وكان ذهنه قد كف عن التفكير ، وعيناه قد ثبتت على الطريق المقفر .

وكان الشارع يلمع فى أخريات الليل ، وظهر الكناسون وهم يدفعون المياه إلى البالوعات الجانبية ، ويتحركون فى صف طويل .

وكان البرد قد اشتد فى الساعات الأولى من الصباح فضم السائق معطفه على صدره وانطلق

وكان يجلس فى هذه العربة يوسف النجار ، وهو سمسار عقارات فى الأربعين من عمره ، ضئيل الجسم مستدير الوجه أبرص . . أفطس الأنف ضيق العينين . . ولكنه كبير الرأس جم النشاط . يظل النهار كله يلف على عملائه كالنحلة . . متنقلا من مكان إلى مكان . فإذا هبط الليل نفض يده من هذا كله ، وذهب إلى حانة صغيرة فى شارع محمد على ، وجلس فى ركن مظلم ، وأمامه مائدة خشبية قذرة وزجاجة من الخمر . . وأخذ يشرب ويراجع فى ذهنه أعماله فى النهار ، فاذا أغلق الحان أبوابه خرج منه وكأنه ما شرب شيئاً . وأخذ يضرب فى الطرقات كعادته فى النهار . . فاذا اقتربت الساعة من الواحدة صباحاً ، رجع إلى الميدان وركب الترام .

ولم يكن يوسف متزوجاً ، وليس فى تاريخ حياته كلها امرأة واحدة . . ومع هذا فقد كان سعيداً قانعاً من حظه فى الحياة ، وراضياً عن نفسه كل الرضى . . لم يكن يتصور أن شيئاً ينقصه ، لم يدر بخلده هذا قط . .

وكان إذا ركب الترام أكثر من التدخين ، وأطال الصمت .

وكانت تجلس أمامه نرجس كامل ، وهى امرأة فشلت فى حياتها الزوجية ثم احترفت الرقص فى شبابها الأول . . وأولاها الدهر ظهره فوجدت نفسها فى الشارع . . وأخيراً أشفق عليها صاحب ملهى ، وجعلها عاملة فى شباك التذاكر . . وكانت تغلق الشباك وتذهب إلى المشرب ، وهناك تشرب لتنسى مجدها الآفل . . فإذا انتهى المرقص خرجت من

الباب الخلفى إلى الترام الأخير . وجلست وحيدة فإذا رأت شابا فى العربة نظرت إليه فى اشتهاء وألم . . إنها لا تستطيع أن تحصل على شىء الآن . . لقد ذهب هذا مع شبابها الأول . . كانت تحلم وهى جالسة وحدها بشاب قوى يأخذها بين ذراعيه ، ثم تستفيق على زمارة الكمسارى وتعود إلى نفسها .

وكان يجلس أمامها جمال الدين عاصم . . وهو مقامر محترف فى الخامسة والثلاثين من عمره ، طويل نحيل ، أقنى الأنف ، بارز الذقن ، عريض الجبهة ، حاد البصر . قامر بكل شىء معه حتى بزوجته ، وانتقل من حانات الكورسال والبارزيانا . . إلى السلسلة والنجم الذهبى فى أقذر أحياء العاصمة وكان يقامر بالجنيهات ، فأصبح يقامر بالملاليم .

وكان وهو جالس ينظر إلى نرجس فى استهزاء وسخرية . . ويدخن بشراهة . وكان خارجا من الحلبة خاسرا كعادته . . وكان يقابل الخسائر من قبل باستخفاف المقامر دائما . . ولكنه فى هذه الليلة شعر بقنوط شديد ، وبحالة من بلغ أعماق الهاوية .

وكان يجلس أمامه عباس الضو . . وهو نشال بارع فى العشرين من عمره ، خارق الذكاء بارع الحيلة . وكان يستعرض الجالسين معه فى العربة وعلى شفتيه ابتسامة . . ويراجع فى ذهنه الحوادث التى مرت به طول النهار ، والتى تدل على غفلة الجماهير وبلادة

وكان يجلس إلى جواره عبد العاطى منصور . . وهو شيخ من الريف ضخم الجثة فارع القامة قدم القاهرة لبعض أعماله . . وكان فى مرقص صاخب وكان منذ ركب الترام ، لا يحول وجهه عن فتاة بيضاء لعوب جلست أمامه ، وبجوارها شاب هزيل أسمر ، يطارحها الهوى على مرأى من الناس ! . وكان الشيخ ينظر إليها ، ويقارن بينها وبين زوجته منيرة التى ذهب شبابها فى عمل البيت وتربية الأولاد . . ويتمنى أن يجدد شبابه بتمضية ليلة مع فتاة كهذه . . وشردت به الخواطر . . والضو يرقب شروده هذا بعين ساهرة !

وكان يجلس أمامه زكى جاد . . وهو شاب فى الثلاثين من عمره . . مفلس دائما . . ضاحك أبدا . . كان آخر من يركب الترام من الميدان ، لأنه لم يكن يحسب حساب الزمن ولم يكن يدرى كيف تمضى به الحياة ، أو يمضى هو فيها . . كان آخر من يطوف بالقاهرة فى الليل ، وأول من يبكر فيها فى الصباح . . ومع هذا فما كان يؤدى أى عمل . . لأنه لم يكن يفكر فى هذا ومثله . . وكانت توافه الحياة وعظائم الأمور تستوى فى نظره . . كلها فى نظره توافه . ولم يكن يحزن لشىء ، لأنه لم يكن يأسف على شىء فى الحياة . وملهاة الحياة كمآسيها تمران أمامه والبسمة المشرقة لا تبرح شفتيه قط . .

كانت قد فرغت علبة سجائره . فتناول سيجارة من الشيخ عبد العاطى وأشعلها منه دون أن يشكره . . ثم وجد أن المقامر ينظر إليها فى اشتهاء . فأعطاها له ، وتناول غيرها من الشيخ وهو يضحك . . وكانت السيجارة فاتحة التعارف مع كل من بقى فى العربة . . فقد أخذ يحادثهم بصوت عال حتى تحولت إليه الأنظار . . وكانت له قصة يجب أن يحكيها لكل الناس ، وقد وجد الوقت مناسبا ليقصها على الركاب . .

رفع وجهه وقال :

– منذ سنوات كنت أدرس فى جامعة ليون . . وذهبت فى العطلة الصيفية إلى باريس . . ونزلت فى فندق من فنادق الدرجة الثالثة فى الحى اللاتينى . . وقابلت فى الفندق فتاة لم أعرف جنسيتها إلى اليوم ! وقد جاءت إلى بعد ثلاثة أيام من اتصالى بها تبكى . . وتقول بأنها حبلى ، وأنها ستغرق نفسها فى نهر السين لتتخلص من هذا العار ، وبسذاجة وغفلة صدقتها وأعطيتها كل ما معى من فرنكات ! ! . .

وضحك زكى . . وضحك الركاب .

واجتاز الترام مستشفى قصر العينى ، واقترب من فم الخليج ، وكان ينطلق سريعاً . وقبل محطة فم الخليج سمع السائق صفارة الكمسارى تدوى فى الليل ، وبعدها صياح عال ، وهرج شديد . . فأدار المفتاح بسرعة وجاهد حتى توقف الترام .

ونزل السائق من العربة وجرى إلى حيث الكمسارى وجمع من الركاب يجرون إلى الخلف على الشريط . . وكان أحد الركاب قد سقط وهو يحاول النزول فى أثناء سير الترام ، وكان هو المقامر جمال الدين . . وتجمع عليه الناس . . وكان قد جرح ولكن جرحه لم يكن بالغاً . .

وجاءت عربة الإسعاف وحملت الرجل . .

ونزل الركاب جميعاً من العربة بعد الحادث ، ليقطعوا ما بقى من الطريق سيراً على الأقدام . . ونزل يوسف النجار فيمن نزل . وسار قدماً فى الطريق . . وكان بطبيعته سريع الحركة جاد السير . ولكنه سمع وقع أقدام خفيفة وراءه فتلفت ، فرأى امرأة تمضى سريعاً . . إنها واحدة من الركاب دون شك . . وتمهل حتى اقتربت منه . ثم جاوزته . . إنها نرجس . . ومر فى ذهنه خاطر . . لماذا لا يحادثها . . ويدعوها إلى بيته إنها غانية من الغوانى فلماذا لا يفعل هذا كغيره من الرجال . . لماذا يقضى حياته وحيدا محروما من متع الحياة وملذاتها ! ما لذة العمل وما جدوى الحياة إذا خلت من امرأة ؟ لقد عاش حتى الآن فى صحراء جرداء . . لم يفىء إلى ظل واحة ولم يشرب من نبع صاف . . إنه الليلة ظمآن وفى أشد حالات الظمأ .

وكان فى خلال خواطره قد أحس بجسمه يضطرب ، وبأنفاسه تتلاحق ، وكان يقترب من نرجس ويبتعد عنها . . ويتقدم ويتأخر . . . كانت تنقصه الجرأة ، وأخيرا شعر بشىء قوى يدفعه إليها دفعا ، فانطلق حتى اقترب منها . . ونظر إليها وقال بصوت خافت :

- مساء الخير . .

ونظرت إليه وحولت وجهها عنه ، كانت تتمنى أن تجد غيره ولكنه سار بجوارها ، وظل يحادثها وهى صامتة .

وأخيرا قال لها :

- سأعطيك كل ما تطلبين . . خمسة جنيهات . . عشرة . . وها هى النقود .

ونظرت إلى الأوراق المالية وفتحت عينيها جدا . .

وأخيرا رافقته إلى بيته .

جلست نرجس فى صالة البيت ، بعد أن خلعت معطفها . . ووضع يوسف أمامها مائدة صغيرة عليها زجاجة من الخمر ، وجلس يشرب معها ويتحدث . وكان يود أن يتشجع ويطرد من جسمه برودة الشتاء . . وكانت تود أن تسكر لتنسى نفسها وتغيب عن وعيها ، ولا تعود ترى وجهه الدميم الأبرص . .

وكان هو ينظر إليها بعينين نهمتين شرهتين . . ويحلق بشدة فى نحرها العارى ، وجيدها وكل جزء من أجزاء جسمها . كان كأنه يرى امرأة لأول مرة فى حياته . . وكان فى حركاته ما يبعث السخرية والاشمئزاز فى نفسها . . وكان لا يصدق نفسه ، أحقا أنه مع امرأة ، وبعد قليل سيضمها إلى صدره ويطفىء نار وجده . . ويشرب من شفتيها . . هل سيحدث هذا حقا بعد كل هذه السنين الطوال من الحرمان والجدب ؟

واستكثر على نفسه كل هذا ، واخضلت عيناه بالدمع !

وأخيراً جثا تحت قدميها ، وأخذ يبكى ويغمر رجليها بالقبلات .

كانت نرجس ثملة متعبة فى الليل . . واستيقظت قبل رفيقها فى الصباح . ونظرت إلى وجهه بجوارها . . نظرت إلى وجهه وجسمه وصرخت ! إن برصه ودمامته لا حد لبشاعتها . . شعرت بتقزز شديد وغثيان مفرط . . ونهضت من الفراش مسرعة وصرخت . وفتح عينيه ونظر إليها كالكلب الذليل ، وقال بصوت مرتعش :

- ما الذى جرى ؟ . .

ونظرت إليه فى احتقار . . وكان جسمها كله ينتفض من فورة الغضب . وصاحت بأعلى صوتها :

- أيها الكلب القذر . . كيف سوغ لنفسك أن تقترب من امرأة ؟ لقد قتلتنى . . لا يمكن أن أنسى هذه الليلة . . لا يمكن أن أنساها . . لا يمكن أن أمحو صورتك البشعة من خيالى . . خذ نقودك . .

وألقت فى وجهه بالورقة المالية التى أعطاها لها فى الليل وخرجت . .

ودفن وجهه فى الفراش وبكى .

ولما ارتفعت الشمس ارتدى ملابسه وخرج إلى عمله ، ولكن بجسم غير جسمه الأول ، وبنفس غير التى كانت بين جنبيه . . شعر بتغير مطلق فى كل ما يحيط به ، وأحس بثقل الحياة ومتاعبها يحطان على صدره فجأة . ولأول مرة فى حياته يتردد وهو يقدم على عمل جديد . . ويشعر بالحيرة والارتباك وبأن الناس والعملاء على الخصوص يسخرون من دمامته ويستبشعونها ، فود لو غاصت من تحته الأرض ودفن فى الأعماق . لقد رمته هذه المرأة اللعينة بسهم قاتل . . واستلت منه سكينة النفس ، والرضا بما هو كائن ، والقناعة بما تأتى به الحياة . لم يذكر له واحد من عملائه قط أنه دميم أو أبرص . ولقد نسى هذا كله باستغراقه فى عمله ، وكان يؤديه على أحسن وجه ، لم يكن هناك من هو فى مثل نشاطه .

أما الآن بعد أن رمته الأقدار بهذه المرأة فقد قتلت روحه وتحطم إلى الأبد .

مرت أيام ولم يستطع فى خلالها أن يعمل شيئا . . تغيرت نظرته للحياة ونظرته للناس . . وأصبح قلق النفس ، مضطربا صامتا ، حزينا حزن الخصيان الأبدى . .

كان يسير فى الطريق شارداً كالمذهول ، ويود لو ينقلب النهار المبصر إلى ظلام دامس سرمدى ، لكى لا يرى أحداً ولكى لا تقع عليه عين إنسان .

كان يسكر وينام ، وقد وجد فى النوم خلاصه الوحيد من شر نفسه وشر الناس .

وفى ليلة من الليالى تحرك من ميدان إبراهيم إلى الترام الأخير ، وكان ثملا . وجلس فى ركن من العربة وأطرق . . وتحرك الترام ورفع عينيه ، وكانت أضواء المصابيح ترقص فى الطريق ! كان فى أشد حالات السكر ، وكان غمام كثيف يزحف أمام عينيه ، وسقط رأسه على صدره وأغفى ، وتنبه على حس امرأة ففتح عينيه وتلفت . إنه يعرف صاحبة هذا الصوت . . إن العهد بها لم يكن بعيدا . . ودار ببصره ثم حدق . . إنها نرجس . ورآها واقفة فى الممشى الخارجى . . وكان الترام قد وقف فى المحطة فنزلت . . ورآها وهى تنزل فنهض من مقعده واندفع وراءها . . ولم يكن يدرى لماذا تحرك وإنما شعر بيديه فى الهواء كأنما تطبقان على عنقها . كان يحمل لها حقداً دفيناً .

وسقط على الأرض وهو نازل من الترام . . ولم يشعر به أحد ، كان الركاب يستمعون بانتباه شديد إلى بطل العربة الدائم الأستاذ زكى جاد . . وهو يقص عليهم قصته الخالدة ! قصة الفتاة التى استغفلته فى باريس !

رجـــل على الطـــريق

اشتغلت وأنا فى العشرين من عمرى فى شركة من شركات الملاحة بالسويس براتب تافه ، كنت أسكن بنصفه . وأشرب بالنصف الآخر جعة ولا أحفل بعد ذلك بشىء فى الوجود ، وكنت أقيم مع أسرة إيطالية تسكن فى منزل صغير على شط القناة فى بور توفيق ، وتعيش عيش الكفاف .

وقد كانت الحياة شاقة على شاب فى مثل سنى ونشاطى فى هذه المدينة الصغيرة التى ليس فيها سوى القناة . ومنازل الشركة المتناثرة على الشاطىء ، وسكانها جميعا من الأجانب الذين وضعتهم الأقدار العجيبة فى هذا المكان ، ولا صلة تربطهم بالمواطنين ولا مودة ولا إخاء .

على أن ولعى بالمطالعة ، وحبى للهدوء ، خففا مما كنت ألاقيه من وحدة ووحشة فى هذه الضاحية . وكنت أذهب كل مساء إلى السويس لأشرب الجعة فى مشرب صغير ، وأتمشى فى طريق الزيتية . . ثم أعود إلى بور توفيق لأنام .

وكنت أجد على رأس الطريق الموصل لبيتى رجلا غريب الأطوار ، يجلس على الحشائش قرب القناة وبجواره كلب ضخم وزجاجة فارغة ! . . وكان الرجل ينظر دائما إلى ناحية القناة ، ويخط باهتمام فى دفتر أمامه . . ويجلس هكذا معظم النهار فإذا غربت الشمس حمل متاعه ومضى ووارءه كلبه واختفى مع الظلام .

وكان موضع السخرية من العابرين فى الطريق . . وكان أكثر الناس سخرية منه العمال الذاهبون إلى ورش الميناء . . وما كان الرجل يعبأ بسخريتهم أو يحفل بكلامهم . . كان يمضى فى عمله ولا يجيب .

ولعلى كنت الوحيد الذى يمر به فى الصباح والمساء ولا يسمعه كلمة نابية ، ولذلك كان ينظر إلى فى استغراب ودهشة ، وكنت أخرج لأتمشى كل أصيل ومعى كتاب . . وأتخذ

طريق القناة عادة . . وأجلس هناك على كرسى حجرى أطالع ، والرجل على مقربة منى يكتب فى كراسته ، ودنوت منه ذات مرة ، وجلست إلى جواره فوق العشب ، وحييته فحيانى بهزة من رأسه وهو يبتسم ، ومر مركب فى القناة فانحنى على كراسته وكتب شيئا فى تمهل وعناية . .

فسألته ؟

- ماذا تكتب :

فنظر إلى بوجه ضاحك وقال :

- إننى أتلهى . .

ثم أضاف وقد لمعت عيناه بعض الشىء :

- لقد كنت ملاحظ «فنار» فى البحر الأحمر ، وكان هذا هو عملى فى النهار والليل . . أرقب السفن وأدون أسماءها ، وأنا أفعل هذا الآن بحكم العادة ، وأجد فى ذلك لذة تنسينى متاعب الحياة . .

- لاشك أن العمل فى المنارة وسط البحر ممتع للغاية .

- جرب وسترى . .

ثم شاعت فى وجهه ذى التجاعيد ابتسامة عريضة وسألنى :

- هل أنت متزوج ؟

- لا . .

- إذن فيمكنك أن تركب البحر إلى هناك . . ولا بأس عليك . . كتاب وفونوغراف ، وكل شىء سيمضى على سننه . . أما إذا كنت متزوجا فستعود من هناك نصف مجنون !

- هل اعتزلت هذا العمل من مدة ؟

- مدة طويلة جدا يا ابنى . . منذ سنين وسنين . .

وتغير صوته وأطرق . . فأدركت أنه تذكر شيئا يؤلمه . . فتحولت بوجهى عنه ، وأخذت أقلب صفحات الكتاب الذى معى حتى أقبل المساء ، فحييته وانصرفت . .

***

والتقيت به بعد ذلك كثيرا فى هذا المكان حتى توثقت بيننا مودة صادقة ، وكان الرجل مخمورا أبدا ، وما رأيته غير ثمل فى نهار أو ليل . وكانت زجاجة الخمر معه لاتبارحه قط . . وكان إدراكه الصحيح للحياة قد جعله لا يعبأ بشىء مما تواضع عليه الناس ، فهو يسكر وينام فى الطريق .

وما رأيته متبرما بشيء ، أو شاكيا من شيء

ورآني مرة في حانة صغيرة في مدينة السويس . . أتحدث مع زوجة صاحب الحان . . فلما انصرفت المرأة لعملها جاء وجلس إلى مائدتي . .

وسألني :

- لماذا تسكر في هذا السن ؟
- لأنني أشعر في أعماق نفسي بالتعاسة . .
- إن هذا أحسن جواب لسكير !
- ولماذا النساء . .

فصمت ولم أقل شيئا . .

واستطرد هو :

- إنك تسكر لأنك وحيد . . ولا رفيق ولا أنيس لك في هذه المدينة الكئيبة ومع كل مساوىء الخمر فإنها قربتك مني ولم تجعلك تسخر من ضعفي ، وأنا أشرب على قارعة الطريق في بورتوفيق ، إنك تدرك الضعف الإنساني لأنك إنسان !

- إن هذا لا يغير من نظرة المجتمع إلى السكير . .

- هذا صحيح . . ولكنني أسكر رغم أنفي وكذلك أنت . . وهناك شيء فوق إرادة الإنسان يربطنا بهذه الدنان . وان تشرب في ساعة مظلمة من حياتك ثم تصحو . . إن هذا لا شيء . . ولكن النساء ، هذا شيء آخر . . إنك لا تستفيق من خمرهن إلا وأنت ساقط في الهاوية . .

وجاء له الساقي بكأس فشربها وعض على نواجذه . . ثم أشعل لفافة من التبغ ، وأخذ يسرح الطرف في سماء الحان . .

فسألته ، وأنا أنظر إلى وجهه ، وقد غضنته السنون :

- لماذا تركت البحر ؟

- إنها الأقدار . .

ثم صمت . . وأمسك بالكأس البللورية الفارغة . . ورفعها إلى عينيه كأنه يقرأ من لوح الغيب . .

ثم سألني :

- أركبت البحر ؟
- ذهبت منذ سنتين إلى استامبول . .

– أشاهدت منارات فى الطريق ؟
– أجل . .
– سأحدثك عن قصة منارة من هذه المنارات . .

ووضع الكأس البللورية على المائدة . . وأشعل لفافة أخرى وأقبل على يتحدث :

– كنت أعمل فى منارة بالبحر الأحمر منذ سنين . . وكان معى زميل لى يساعدنى على العمل . أمضيت شهرين فى المنارة وسط البحر . . ولا شىء تراه هناك غير البحر . . وكنا نطالع ونصطاد السمك ، ونسمع الفونوغراف . . وننير المنارة فى الليل للسفن ، ونغنى ونفعل كل شىء لنتلهى ، ولكنك فى ساعة من الساعات تحس كأن شيئا يثور ويضطرب فى أعماق نفسك ، فتكاد تمزق الكتاب وتحطم الفونوغراف . . وتشعر بسأم . . وتضيق ذرعا بكل شىء . . وتحس بالاختناق . . وتنظر ولا ترى حولك غير البحر ، وبينك وبين الأرض سفر أيام ، فى هذه الساعات كنت أجلس على سلم المنارة وأدلى بساقى فى الماء . . وأحلم بعرائس البحر التى قرأت عنها فى الأساطير . . وأتصور أن واحدة منهن ستطلع وتجىء إلى . . وتمر سفينة من بعيد ، وأنوارها ترقص على الموج ، وأتصور أننى أسمع ضحكات نساء . . ورقص نساء . . وأرى بعين الخيال واحدة منهن تتجرد من ثيابها وتتهيأ للنوم ، فيأخذنى السعار . . وأظل أفكر وأحلم بالمرأة . . ولا شىء غير المرأة . . إنها تأخذ عليك مسالك تفكيرك ، وتشغل حواسك ، فإذا رأيت شيئا أبيض يلوح فى سفينة من بعيد تصورته امرأة . . إنك تراها فى كل شىء ولا تراها . .

وكنت أنا وزميلى أحسن صديقين . . كنا نعمل فى صفاء ووئام . . وكان الطعام لا بأس به ، ووسائل التسلية متوفرة . . أما إذا جن الليل وثارت الغريزة فقد انقلب كل شىء إلى جحيم . .

وكان صاحبى متزوجا وكنت عزبا ، وكان يحب زوجته ويحدثنى كثيرا عنها . .

ومضت شهور ، واقترب موعد عودتى إلى السويس لأستريح فى الأجازة المقررة لأمثالنا . .

وجاءت الباخرة التى ستقلنى إلى السويس ، وأعطانى صاحبى رسالة إلى زوجته . .

***

وأمضيت أياما فى السويس ، والرسالة موضوعة فى جيبى حتى كدت أنساها . . وفى أصيل يوم ذكرتها ، فاتجهت إلى بيت صاحبى وكان فى أقصى المدينة . . وتقدمت فى الشارع الضيق ، وشمس الأصيل تضرب رؤوس المنازل البيضاء بأنوارها الساطعة ، وكل شىء يسبح فى الضوء الباهر . .

ووقفت أمام البيت ، واجتزت العتبة ، ورأيت فتاة فى مقتبل العمر تمسح الدرج وقد شمرت عن ساقيها . . ولما رأتنى توقفت عن العمل ، ونظرت إلى فى سكون فاقتربت منها وسألتها وأنا مفتون بجمالها :

- أهذا منزل عبد السلام أفندى ؟
- أجل . .
- أريد أن أقابل زوجته . .
- أنا زوجته . .

فابتسمت وظهر على وجهى الارتباك . فما كنت أتوقع أن تكون زوجة صاحبى صغيرة وجميلة هكذا . .

ورأيت أمامى فتاة فوق العشرين بقليل ، خمرية اللون سوداء العينين ، جذابة الملامح إلى حد الفتنة ، وعرفتها بنفسى وسلمتها الرسالة . . فأخذتها فى لهفة ، ثم ردتها إلى وهى تضحك وقالت بصوت ناعم :

- أرجو أن تقرأها لى فأنا لا أعرف القراءة . .

وقرأتها لها فأشرق وجهها وزاد سرورها . .

ثم طوت الرسالة وقالت وهى تشير إلى الداخل :

- تفضل . .

ودخلت ، وجاءتنى بعد قليل بكوب من الليمون . . وأخذت أحدثها عن البحر ، وعرائس البحر . . حتى أقبل الليل فحييتها وانصرفت وأنا جذلان طروب . .

وبعد أيام التقيت بها عرضا فى السوق ، وكانت معها سيدة وفتاة أصغر منها قليلا . .

وسلمت على فى بشاشة وقالت :

- لماذا لم تزرنا ؟
- سأزوركم طبعا ، قبل عودتى إلى المنارة . .
- وقبل ذلك ؟
- وقبل ذلك !
- سلم على أمى وأختى . . إنهما قادمتان من بور سعيد لزيارتى ، قد حدثتهما عنك !

وسلمت على أمها وأختها ، ومشيت معهن إلى البيت ، وبقيت معهن حتى ساعة الغداء .

وذهبت إلى الإسماعلية ، وأمضيت فيها أياما . . ورجعت إلى السويس ، وفى اصيل يوم مررت بمنزل زينب زوجة صاحبى لاخبرها بموعد عودتى إلى المنارة حتى أعطيها فرصة لتعد بعض المأكولات لزوجها . وجدتها فى البيت وحدها . وكانت أمها وأختها قد سافرتا . . وشعرت وأنا جالس فى الحجرة بالسرور والارتياح . . وهذه مشاعر لم أستطع تعليلها . .

وكانت زينب تلبس رداء أزرق بسيط التفصيل . . وقد صففت شعرها وعقدته جدائل فوق ظهرها ، وكانت تعصب رأسها بمنديل أزرق كذلك ، وفى عينيها كحل خفيف ، وعلى خدها الايمن حسنة ، ولما جاءت إلى بفنجان من القهوة ، ومددت يدى لأتناوله من يدها ، شممت من جسمها روائح الطيب . . فتنبهت حواسى ، ونظرت إليها وكأننى أراها أمامى لأول مرة .

ولأول مرة أشعر بقلبى يدق وأنا معها فى غرفة واحدة وبالعرق قد أخذ يتصبب على جبينى !

ومالت الشمس إلى الغروب . ونهضت لأنصرف فقالت وهى تنظر إلى :

- لماذا أنت مستعجل ؟

- الليل قد أقبل . .

- إن هذا أدعى لبقائك لأننى وحدى فى البيت ، فانتظر حتى تأتى خالتى أم اسماعيل . .

وبقيت . . وظللنا نتحدث . . حتى مضت فترة من الليل . ووجدت أمامى أنا الشاب القوى الذى يعانى مرارة الحرمان امرأة ناضجة محرومة مثلى . .

كان فى نظراتها تكسر ولين . .

وكان جسمها يروح ويجيء أمامى وهى فى أحسن مجاليها ، فأخذت أنظر اليها ، وأنا مستغرق فيها بحواسى ومشاعرى جميعا ، ونسيت هذا وذكرت أننى وحيد فى قلب الليل مع امرأة أشتهيها من كل قلبى . .

ودون أن ندرى ما حدث كانت بين ذراعى وكنت أرتوى منها وغرقنا فى النشوة فلم نحفل بأحد . .

وأصبحت أقابلها كل يوم . .

ولما حان موعد عودتى إلى المنارة حملتنى هدية لزوجها ، وودعتها وفى قلبى جمرات من نار . وركبت السفينة ، وذهبت إلى المنارة وأعطيت الهدية لصاحبى وسألنى عنها ، وكان

يتلهف على كل كلمة يسمعها منى . . كان يحبها إلى درجة العبادة . . سألنى عن صحتها وأحوالها ، وأخذت أجيبه على مئات الأسئلة التى أمطرنى بها ، وكان من فرط ولهه يود لو يقبل يدى لأنها لمست يدها !

وحل موعد أجازته فتركنى ورحل . .

وكنت فى خلال ذلك أعانى عذاب السعير ، وأتصورها بين ذراعيه فأكاد أجن . .

وانتهت أجازته وعاد . . ورأيته يصعد سلم المنارة بعد غيبة ثلاثة شهور . . وكدت أنكره . . فقد تغير . . إذ ظهر على وجهه الشحوب والذبول وحيانى فى فتور . . ووضع متاعه فى جانب من المنارة . . وصعد إلى البرج . . وهو صامت . .

وجلست بعد هذا أفكر وأسأل نفسى . . ما علة تغيره ؟ هل عرف ؟ . هل علم بكل شىء ؟ . . ماأشد جنون المحبين ! إنهم يتصورون أن الناس لا تعرف عنهم شيئا . . وسيرتهم تدور على ألسنة الناس . إن الحب يعميهم عن إدراك الحقائق .

وكان عليه أن يسهر فى البرج ، وعلى أن أنام لأحل محله بعد ذلك . . واستلقيت على الفراش ولكننى لم أنم . . كانت نظراته إلى ترعبنى . . وكنت أخافه . . كان أشد منى قوة . . فأغمضت عينى نصف اغماضة وسمعته يهبط السلم . . ويدور فى الغرفة الصغيرة حتى وقف على فراشى ، وتظاهر بأنه يبحث عن شىء وعاد إلى البرج . .

وبعد ساعة سمعته يهبط السلم مرة أخرى ، ورأيته يتجه نحوى ، وكانت فى يده قطعة من الحديد . . إنه يود قتلى . . ودون أن نتبادل كلمة واحدة تشابكنا فى عراك دموى ، وظللنا نقتتل حتى لم تبق فينا قدرة على الحركة ، ورحت فى غيبوبة طويلة . . ولما فتحت عينى ونظرت إليه كان الدم يلطخ وجهه ، وكان صدغه قد تهشم من ضربة قاتلة . . فأدركت هول ماحدث وأغمضت عينى . .

نمت على الأرض وهو بجوارى فاقد الحراك . . ونظرت إلى السماء فوقى ، وإلى البحر الصاخب من حولى ، وإلى الظلام الذى تضل فيه الأبصار ، واستعرضت فى ذهنى صورة حياتى إلى أن التقيت بصاحبى هذا . . وجمعتنى الأقدار معه فى عمل واحد . . وامرأة واحدة !!

وبكيت وماتت فى نفسى كل عواطف البغضاء ، ووددت لو افتديته بحياتى . وأخذنى بعد قليل ما يشبه الدوار . . ثم فتحت عينى ، وتصورت أن الجثة تتحرك وأنها اقتربت منى . . وكنت مشلولا ولا أستطيع الحركة . . فتملكنى غيظ مستعر ، وجعلت أصر بأسنانى ، وأهذى كالمجنون ، وأصرخ بأعلى صوتى . . ولكن موج البحر كان أعلى من صوتى

كان يزمجر وكنت أصرخ فيختلط الصوتان معا ويذهبان أباديد . .

وظللت ساعة كاملة وأنا فاتح عينى ومعلق بصرى بالجثة . وقد عجزت عن كل حركة . . وخيل إلى أنها انتفخت . . وأن وجهه يزحف عليه النمل . . والهوام ! وازددت كراهية لها ونفورا . . وخطر لى خاطر ، لماذا لا أدفعها إلى البحر . . وأتخلص من هذا العذاب . .

وزحفت بجسمى كما يزحف الثعبان . . وحاولت أن أدفع صاحبى فلم أستطع ، فتمددت فى مكانى وبصرى إلى النجوم . . إن الليل مرتع للهواجس . . فإذا طلعت شمس النهار ذهبت هذه الخواطر المرعبة . . ولكن متى يطلع الصبح ؟

لقد كنت أرتعش ، وأصر بأسنانى ، وأشعر بجفاف حلقى ، ولما صحت بأعلى صوتى قد كان صوتى قد انقطع ، فأغمضت عينى وأخذت أبكى كالأطفال . وكنت كلما أغمضت عينى ازداد سمعى حدة . . وخيل إلى أننى أسمع صياح مردة فى برج المنارة وعواء ذئاب ! . . ووضعت أصابعى فى أذنى . . ولكن هيهات . . كان الصوت قويا ، وكان يجلجل فى البرج . .

وارتعشت . . وتصبب العرق وأخذنى الدوار . .

***

ولما فتحت عينى ، كان النور قد غمر الكون . .

وظللت طول النهار فى مكانى ، وأنا أتلوى من الألم والعذاب .

وكنت كلما أدرت وجهى عن رفيقى . . عدت برغمى أنظر إليه وأرتعش . . حتى طار صوابى .

ومرت مركب فى المساء . . ولاحظت انطفاء المنارة . . فاقتربت وحملتنا . . هو ميت ، وأنا أشبه بالموتى . .

وسجنت . . وخرجت من السجن . . وذهبت إلى كل مكان لأتلهى وأنسى . . ولكن صورة البحر بأمواجه وأشباحه . . والمنارة المنطفئة . . والزميل الراقد بجوارى لا تبارح مخيلتى أبدا . .

إننى معلق هناك بخيط لا يرى . .

الشيخ عمران

كانت عندنا فرس من كرائم الخيل ، خرج بها الخادم إلى المرعى وعاد بدونها ، ولم نكن ندرى أسرقت منه وهو عائد بالخيل فى ظلمة الليل ، أم ذهبت على وجهها فى الحقول ؟!.

وبحثنا عنها فى القرى والعزب المجاورة فلم نعثر لها على أثر .

وأخيرا رأى والدى أن يرسلنى إلى الشيخ «عمران» فى النجـ ليبحث عن الفرس قبل أن تتسرب إلى السوق .

وراح الخدم يخرجون الخيل . . وانطلقنا إلى النجع وقد انحسر الظل على دروب القرية ، وحميت شمس الضحى واشتد وهجها على الجسر . وكان معى خفيران من خفراء المزرعة ، مسلحان بأحدث طراز من البنادق ، فقد كان علينا أن نسير ساعتين على ظهور الجياد فى طريق مقفر يكثر فيه قطاع الطرق فى تلك المنطقة من الصعيد .

وأخذ «مسعود» ـ أحد الخفيرين ـ يحدثنى عن الشيخ عمران حتى أفزعنى . فقد قص على أنه كان ذات ليلة فى مزرعة بطيخ له ، فمر تحته قارب صيادين ، ورأى الصيادون بطيخ المزرعة الناضج ، فسولت لهم أنفسهم أن يقتربوا منه ، وأحس بهم الشيخ عمران . . وجاء بهم بعد أن أوثقهم بالحبال ثم صنع من لحومهم طعما للأسماك !

وكان فى ثورة سنة ١٩١٩ على رأس الرجال الذين عبروا النيل إلى قرية «الوليدية» فى أسيوط . . وكمن هناك فى النخيل قرب الخزان حيث يعسكر الإنجليز ، وأخذ يحصدهم حصدا . .

ولما أراد العرب أن يعبروا الخزان ، أرسلوا إليه ، فتقدم ومعه رجلان إلى موقع المدفع الرشاش المصوب على الخزان ، وظل يطلق النار حتى سكت المدفع . . وأدير الكوبرى . . ومر العرب يقرعون الطبول .

قص على مسعود هذا وغيره . وكنت أعرف الكثير عن الشيخ عمران ، أعرف أنه أشد الرجال بأسا وأعظمهم جبروتا وما من حادثة تحدث فى المنطقة بأسرها إلا يعرف سرها . . وما من رصاصة تطلق فى الليل إلا يعرف مصدرها . . إنه رجل رهيب ، إذا دخل قرية فى وضح النهار أرعبها وأفزع أهلها ، وإذا تنكر لقوم بطش بهم . . مسحهم من الوجود مسحا . بدأ حياته كقاطع طريق صغير ، ثم تطور وعظم أمره ، وغدا أشد فاتك فى المنطقة وأعظم الرجال بطشا ، كنا نسمع عنه الكثير من القصص المروعة ونحن صغار ، وشببنا عن الطوق وصورة هذا الرجل تملأ قلوبنا رعبا .

ولهذا ظللت طول الطريق أفكر فيه وأتمثله بعين الخيال رجلا فى طول المارد وبطشه ، له جسم ثور وقوة عنترة . . دائما مسلح ، دائما مقاتل .

واقتربنا من النجع ، وكانت الجياد تتصبب عرقا ، والتعب قد بلغ منا منتهاه ، ولاح لنا النخيل يطوق البيوت المبنية من الطوب الأسود ، ثم عيدان الذرة والحطب على السطوح والجريد والدريس والنواعير الخربة فى خارج البلدة . . والكلاب تنبح فى كل مكان . إنها الصورة المكررة للقرية المصرية منذ الأزل .

ولم نجد الشيخ عمران فى النجع ، بل كان فى جزيرة وسط النيل ، فتركنا الخيل فى النجع ، وركبنا زورقا إلى الجزيرة .

وجدناه فى عريشة صغيرة على ربوة عالية فى طرف الجزيرة ولقد ذهلت عندما رأيته ، كان رجلا متوسط الطول أقرب إلى النحافة ، مدور الوجه جامد الملامح ، ينسدل شاربه على فمه فى غير نظام ، جاوز الخمسين هادئا ، ساكن الطائر ، هل هذا هو الشيخ عمران الذى أرعب المنطقة قرابة ثلاثين عاما ومازال يرعبها ؟! .

رأيناه من بعيد جالسا القرفصاء وكان ينكت الأرض بعصا قصيرة ، ولم يكن يلقى باله إلينا . ثم رآنا نصعد فى الطريق إليه فأرسل بصره ثم رده وعاد ينكت الأرض !! وكان يجلس فى ظل العريشة وحيدا . . . لم تكن حوله كلاب ، وكيف تعيش الكلاب فى عرين الأسد ؟!

وعرف مسعود ، ونظر إلى قليلا ثم قال :

«إبراهيم ابن الشيخ عبد الرحيم ؟ . . .»

«أجل . . .»

فرحب وفرش لى «زكيبة» وجلست بجواره فى الظل ، وعيناى لا تتحولان عنه . لا ، إننى مخطىء . إن نظرتى الأولى كانت عاجلة . إن هذا الرجل ليس كالرجال ، إنه من طراز

آخر ، إن له شخصية جبارة . وشربنا القهوة ، وحدثته عن الفرء فضحك وقال :

«لم يبق إلا هذا . . . !»

ثم أردف :

«لقد شرفتنا ، ونحن فى موسم الإيجار ، ولقد بدأنا فى جمعه فعلا ، وستحضر بنفسك تحصيل الباقى ، وتعود إلى والدك محملا بالمال . .»

ابتسمت وشكرته . إن جمع الإيجار معناه أنى سأبقى مع هذا الرجل القاتل المطارد ثلاثة أيام أو أربعة فى هذه الجزيرة الموحشة . .

وتغدينا وأكلنا البطيخ ، وصرف الشيخ عمران الخفيرين وهو يقول لهما :

«قولا للشيخ عبد الرحيم إن ابراهيم فى ضيافتى وسأرافقه حين عودته إلى القرية . . .» .

ومشى معى يطوف بالحقول .

***

ودرنا على مزارع البطيخ على شاطىء الجزيرة ، ورأيت الفلاحين يقفون خاشعين صاغرين أمام الشيخ عمران . كانوا فى أخصاص من البوص قائمة فى صف واحد فى نهاية الحقول . لكل مزرعة خصها وكلابها ورجالها ، فإذا بصروابنا نهضوا ، وزجروا الكلاب ، ودار الفلاح فى حقله يضرب البطيخ بيده لينتقى لنا أحلاه وأنضجه . فإذا رفضنا قال فى حماسة :

«إن هذا لا يصح . . إن هذا لا يصح» . .

ولقد وجدت البطيخ مكوما فى أطراف الحقول ولا أحد يحرسه والمواشى ترعى الكلأ فى قلب الجزيرة ولا أحد وراءها . ولم أر فلاحا واحدا يحمل عصا ، ولا خنجرا ولا بندقية . إنهم جميعا فى حمى الشيخ عمران ، وقد عجبت للهدوء الذى يخيم على الجزيرة . إنها فى قبضة مارد جبار . وحدثته عن هذا ، فنظر إلى مليا ، ثم قال مبتسما :

«إن كل شىء هنا حسن . . والشر يجىء لنا دائما من المدينة . عندما يذهب الفلاح إلى المدينة ليبيع فى السوق ، يعرف الشاى الأسود «والتمباك» و «الحسن كيف» . ويرى الذين يلبسون الأحذية ويقرعون بها الأرصفة ، والذين يركبون السيارات الفخمة ويخطفون بها خطفا فى الطريق . ويرى الذين يسكنون القصور وحولها البساتين . ويرى الأنوار تتلألأ فى الليل ، والملاهى البراقة فى كل مكان . يرى كل هذا ، فإذا عاد إلى قريته جر رجليه

جرا . كان كمن ضرب على أنفه . إنه يسأل نفسه وسط الظلام والقاذورات والحشرات وروث البهائم . . هل أنا كائن حي ؟. هل أنا مخلوق بشرى حقا ؟. . هل أنا من طينة هؤلاء ؟. . عاد والغل والحسد والحقد وصفات الشر كلها تأكل قلبه أكلا ، وأنت تراهم هنا وتحسبهم ملائكة ، لفرط ماتحسه من سكون يخيم على الجزيرة ولكنك لو تركت الحبل على غاربه يابنى لأكل بعضهم بعضا إنهم يحبون السرقة والسطو على زراعة الجار ويغشون ويخادعون . ولو لم أكن معك الآن لألقوا بك فى النيل ، لأنك صاحب الأرض ، ولأنك كما يتصورون تأخذ من قوت عيالهم . . . »

فكرت فيما قاله الشيخ وقلت لنفسى :

«إنهم يفعلون ذلك كله تحت تأثير نير القرون . . ظلم أجيال وأجيال . إن الفلاح المصرى يسرق ، ويخادع ، ويستريب نتيجة لحياة البؤس والاستبداد التى عاشها منذ آلاف السنين ولم يتنفس الصعداء إلا فى عهد العرب .

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار ؟ . . ثم ماتت هذه الكلمة وعاد الرق والاستبداد كما كانا . . . » .

وعدنا إلى العريشة نشرب القهوة ، ونودع الشمس الغاربة .

ابتدأ النساء فى الجزيرة يخرجن من الأخصاص ، وعلى رؤوسهن الجرار ويتجهن إلى النيل ، رأيت سواعدهن البضة وهى تتحرك من بعيد ، وبعض وجوههن النضرة . . . كن يمشين فى خفر أسرابا ، وكن جميلات فاتنات .

ونزل الشيخ عمران إلى النيل وتوضأ . ولما غربت الشمس صلى . وعاد فجلس بجوارى صامتا . وكان الظلام يتساقط رويدا رويدا .

وتعشينا ، وفرشوا لى لأنام . كان الشيخ عمران يود أن أنام داخل «الخص» ولكننى رأيت أن أنام فى العراء لأرى هذا الرجل الرهيب فى الليل .

إنه لا يدخن ، وهو رجل قليل الكلام ، كثير الصمت ، وصوته ليس جهوريا ، ولكنه قوى آمر . ولعل ذلك راجع إلى أنه تعود صيغة الأمر دائما فى حديثه مع الناس . وهو فى الليل لا يغير ثوبه كما يفعل كثير من القتلة ، وإنما يظل كما هو لا يتغير فيه شىء . . تركز حواسه كلها فى باصرتيه ويعدو خفيف الحركة سريع اللفتة ، يقظ السمع ، يرنو ببصره إلى بعيد ، لقد أدركت قوة بصره فى الليل وهو يرى من وراء الأبعاد ، ويخترق به حجب الظلام ، ويسمع أدنى حس . كانت تمر تحتنا قوارب الصيادين ، وكان يسمع حركة المجاديف وهى مقبلة من بعيد فإذا اقتربت من رأس الحجر فى طرف الجزيرة صاح بصوته المرعب .

«من هناك ؟ . .»

«نحن ياعم الشيخ عمران . . » .

«ابتعد عن الحجر وخليك إلى الشرق . . » . . .

«حاضر . . . » . .

إنه لا يريد أن يقترب أحد من عرينه . . إنه قاتل ، والقاتل فى الصعيد دائما مطارد ، ولو عاش ألف عام . وعندما يخور الشيخ عمران ويستضعف سيتمزق إربا . ولقد خلف وراءه فتيانا أشداء ، وله أسرة مرهوبة الجانب ، وقد يعيش فى هذه الشيخوخة فى ظلها وعلى حسها . وإن كان لا يزال شامخ الأنف لم يسقط فى حياته سقطة واحدة .

شمل الظلام كل شىء ولفنا فى ردائه . ونام من معنا من الفلاحين ، وبقيت ساهرا مع الشيخ عمران . لقد شعرت بطراوة الهواء ولينه ، وعمق السكون . وكنت أود لو أتمرغ على الرمل وأنزل لأسبح فى النيل . كان كل شىء ساكنا . والطبيعة سافرة طليقة من كل قيد ، تشعر الإنسان بالحرية الصحيحة . كنت أشعر أنى قد تحررت من قيود المدنية الزائفة وأخذت أنظر إلى النجوم البراقة فى السماء ، وإلى الغياهب . . غياهب الليل . وإلى النيل الجارى تحتنا ، وإلى مزارع النيل من حولنا . . وأتامل وأفكر .

إن الشيخ عمران يجلس على هذه الربوة وحيدا فى الليل ، وأولاده فى كل مكان . «معاذ» فى الماكينة ، و «سلمان» فى النجع ، و «عبد الكريم» فى الجبل ، ولكن أنفاسهم جميعا معه .

وفى الهزيع الثانى من الليل ، رأيته يدخل العريشة ويعود وفى يده شىء ، إنها بندقيته ، وهى من طراز هندى ككل البنادق التى تراها فى الريف . ولكنها فى يده شىء آخر . وضعها بجانبه واستلقى وعينه إلى الغرب . . وضعت رأسى على الفراش وحاولت أن أنام ، فالشيخ عمران ساهر علينا جميعا ، ولكننى لم أنم ، وظللت أراقبه . تحرك ، ومد البندقية . . وأطلق . أطلق فى الهواء . . وسمعت صوت الطلقة وطاف بذهنى شىء لقد تذكرت ، سمعت صوت هذه الطلقة فى الليل من قبل ، كانت طلقة واحدة تنطلق فى ساعة معينة بعد نصف الليل وكنا نسمعها ونحن فى أجران العزبة ، ونصيح فى صوت واحد : «الشيخ عمران ! . .»

إنه ظل على عادته يرسل هذه الطلقة كل ليلة . . طلقة واحدة ليس إلا ، ثم يضع البندقية تحته وينام .

اعتمدت بمرفقى على تل من الرمل ، وأقبلت أتحدث معه . أخذ يحدثنى عن مغامراته فى الليالى السود ، والمعارك الدامية التى تحدث فى القرى على لا شىء . . وحوادث السرقة فى وضح النهار ، والزمن الذى تطور ، وطوى معه كثيرا من القتلة فى الريف . كان حديثه

طليا ساحرا يستغرق الحواس كلها .

طلبت منه أن يحدثني عن أول حادثة قتل في حياته ، فتجهم وأطرق طويلا . . لقد نبشت دخيلة نفسه . إنه يتذكر .

رفع رأسه وقال في صوت متغير :
«سأحدثك يابني . . . .» . .
وأطرق مرة أخرى ، ثم رفع رأسه وقال :
«كان ذلك منذ سنين طوال . كنت في صباي» .

وكان والدي يحب أن يزوجنا صغارا ، فزوجني من ابنة عم لي ، على عادة العرب في قصر زواجهم على الأقارب . . وكانت صغيرة . . وكنا قد شببنا معا ، ورعينا الغنم معا فكان حبي لها قويا . . وكان كل شيء في الحياة يمضي رتيبا ثقيلا . لم تكن الحال كما تراها الآن ، آلات للري ، وزراعة ، وعمران ، بل كان جدبا شديدا وفقرا شاملا ، كنا نعيش من بيع الملح . . نجيء به من الجبال ونبيعه في القرى النائية ، وكنت أطلب الرزق أينما وجد . فلم يكن من السهل على رجل في مثل شبابي ورجولتي أن يتبطل .

وكان هذا الفقر يدفع العرب إلى السلب والنهب ، وقطع الطريق على الناس . فكانت الحوادث تترى ، والرصاص يدمدم في كل ساعة .

وحدث أن أغار جماعةمن العرب على مزرعة واستاقوا مواشيها وقتلوا خفيرا من خفرائها . . وجاء الجند ، وعلى رأسهم ضابط وطوقوا النجع . . وبدأوا يفتشون في بيوتها لأنها في اعتقادهم وكر الجريمة ! وكنت غائبا ودخلوا بيتي وفتشوا ، وسأل الضابط «جميلة» زوجتي :

«أين زوجك ؟ . .
«مسافر ياسيدي منذ شهور يجري وراء معاشه» . .
«ومن الذي وضع هذا في بطنك إذن ؟ . .»
ووضع أصبعه على بطنها ، وكانت حبلى «بمعاذ» .

فعل هذا وخرج . . وصعقت المسكينة . . وطار الخبر في كل مكان . وعدت من سفري وسمعت بما حدث وأنا في الطريق ودخلت البيت ولكني لم أحادث جميلة ولم أر وجهها . . وتناولت بندقيتي وخرجت . . وذهبت عند صديق لي في الجبل ، ومكثت عنده أياما . وحاولت خلال ذلك أن أتناسى ما حدث ، ولكنني كلما تمثلت الأصابع وهي موضوعة على بطن زوجتي أستطير خبلا ، وأكاد أمزق نفسي .

وتركت البندقية عند صاحبي ، وخرجت متنكرا أطوف حول «النقطة» . ورأيت خير

ما أفعله أن آخذه ، وهو خارج للداورية ، بعيدا عن النجع والقرى المجاورة لنا .

وخرجت في ليلة سوداء لاأنساها ما عشت ، ففي هذه الليلة تقرر مصيري يابني ، ورسم القدر خط الحياة لي . . وكانت ليلة من ليالي الشتاء ، ضريرة النجم شديدة البرد ، وكانت معي بندقيق وخمسون طلقة ، وكنت على استعدادلأن أقاتل جيشا بأسره ، وأفتك بكل من يعترض سبيلي حتى ولو كان أبي .

كانت ثورتي جامحة ، وغضبي لا يصور .

وكمنت له في زراعة قصب ، وانتظرته وهو مار على ظهر جواده في الطريق . . وجاء وصوبت وسقط . .

وأطلق العساكر النار ، ولكن طواني الليل .

وبت هذه الليلة في بيتي ، واستطعت أن أقابل «جميلة» .

وصمت الشيخ عمران قليلا ثم أضاف :

«بعد هذه الليلة يا بني تغير في كل شيء ، ووجدت شيئا جديدا يعتمل في داخل نفسي ، واستطعمت رائحة البارود ، وأصبحت حياتي كما تعرف وترى . . وأنت لا تستطيع أن تغير الدم . . الدم الجاري في عروقك ، أو تمحو أثر البيئة ، وأنت تتعلم وتتهذب وترقى ، ولكن دمك سيظل عربيا لأنك ولدت في النجع ونشأت في النجع، وفي هذا الجو الطليق عشت ، وتنفست أول نسيم للحياة . .» .

وصمت الشيخ عمران وتركني لأنام . .

مضى وحده في الظلام ، فقد سمع نباح كلاب شديد .

***

بعد قليل عاد إلى مكانه . وكانت الكلاب قد كفت عن النباح ، وعاد السكون . وكانت النجوم تهوى فوقنا متعاقبة ، والظلمة شديدة ، والماء يجرى تحتنا ويهدر . ومن ساعة إلى أخرى كنا نسمع صوت رصاصة تنطلق في الجو . لابد من هذا في الريف ، كان صوت الرصاص مألوفا عند الفلاحين .

بل لعلهم يأتنسون به أكثر من صوت الكلب ، وصوت الإنسان ، ويشعرون بالوحشة عندما يشتد السكون .

غلبني النعاس ، وصحوت والشمس تغمر وجهي ، ولم أجد الشيخ عمران . . وسألت عنه فقيل لي : إنه ذهب إلى النجع .

ورأيته بعد ساعة مقبلا من بعيد يمشى تحت وهج الشمس ووراءه ابنه معاذ . . معاذ الذى يحرس «الماكينة» بذراع واحدة فقد ذهبت ذراعه الأخرى فى حادث ، كان هو وغلام فى «الماكينة» ومعه أخوه الأكبر . وذهب أخوه إلى القرية ليجىء بشىء . وتركه وحده . فهجم عليه اللصوص فى الغروب . وظل يقاتل . واخترق الرصاص ذراعه ، ومع هذا لم يستسلم ، ولم يستطع أحد أن يقترب منه ، أو يمس حديدة فى «الماكينة» هذا هو معاذ ، إنه من دم عمران ومن صلبه ، وكان يجىء إلى قريتنا كثيرا يحمل الإيجار ، ويحاسب على الأرض ، وكنا نعرفه جميعا . وكان إذا تأخر واحد من اخوتى فى الليل ، أو بات فى الأجران سأل والدى عن الذى معه ، فإذا عرف أنه معاذ اطمأن وكف عن السؤال . كنا نسميه «أبو ذراع» وكان واسع الحلم طيب المعشر . . فإذا غضب انقلب أسدا .

حيانى معاذ وجلس . . وبعد قليل تحركت ذراعه ، ودفع يده فى جيبه وأخرج صرة ناولها لى وهو يقول وعلى شفتيه ابتسامة :

«هذا إيجار زراعات الماكينة جميعا . . » .
«جمعته كله يا معاذ ؟ . . » .
«أجل . . ؟»
«ولم يبق أحد . . ؟»
«ولم يبق أحد . . »

ونظرت إليه ، وكان يبتسم وعيناه تلمعان . . إنه صورة من والده . نفس النظرة القوية . . ونفس الملامح الصارمة ونفس الشخصية الجبارة التى تفرض نفسها على من حولها .

جمع الشيخ عمران باقى المستأجرين ، وشغلت طول النهار بتحصيل الإيجار ، وفى المساء وضعنا الأوراق المالية والفضة فى كيس كبير أعطيته للشيخ عمران فوضعه فى العريشة أمام الجميع !

وهبط الليل ، وكنت قد تعبت طول النهار ، فنمت فى أول الليل وصحوت على صوت طلقة . . لم تكن الطلقة التى تعودت سماعها من الشيخ عمران . طلقة تذهب فى الهواء تدمدم . . لا . . إنها طلقة مكتومة . . رصاصة أصابت جسما واستقرت فيه . فتحت عينى وتلفت حوالى . . لا أحد بجوارى غير عمران كان على قيد خطوات منى ، نائما على بطنه ويده تعمل فى البندقية . . لقد أخرج الظرف وألقى به بعيدا ، ولما أحس بى ، وعرف أنى صحوت ، قال وهو يبتسم :

«لاشىء . . إنه ثعبان ! . . » .
«أقتلته ؟ . . » .

وصمت ولم يقل شيئا ، وظل وجهه مبتسما ، ويداه تعملان فى البندقية . . . ثعبان ؟ . . تلفت مرة أخرى .

أرسلت بصرى إلى رأس الحجر ، كأن هناك شىء أسود وفتحت عينى جيدا ، وتفرست فى الظلام ، وتملكنى الرعب . . إنه رجل نصفه فى الماء ، ونصفه على الأرض . . وقد منعته الحجارة من أن ينجرف مع التيار . .

ولقد جاء بعد أن عبر النيل فى زورق أو سواه ليقتلنى أوليقتل الشيخ عمران ، ولكنه انتهى فى لحظة واحدة وما أحس به إنسان .

ونظرت إلى الشيخ عمران . . نظرت إلى هذا الرجل . . وحاولت أن أقرأ على وجهه شيئا ينم عن فعلته ، شيئا يدل على أنه قتل نفسا بشرية .

ولكنه على حاله . لم يتغير فيه شىء . إنه هادىء ساكن ، وما نبض فى جبهته عرق ، ولا اختلجت شفة ، ولا اهتزت يد . . أى قلب ! . . وأى أعصاب ! ومن أى طينة هذا الرجل ، إننى إذا ضربت خادما بعصا فى ثورة غضب ، أظل طول الليل أتململ فى فراشى ، والندم يأكل قلبى ، ولا أعود لنفسى إلا إذا طلبت من الخادم أن يصفح عنى . أما هذا الرجل فهو يقتل إنسانا . . ولا تتحرك فيه جارحة ، ولا يظهر على وجهه شىء . أى قلب ! وأى أعصاب ! .

بعد قليل تحرك ، ومشى إلى رأس الحجر . . مشى متمهلا ورأيته يدفع الرجل العالق بالحجر برجله . وذهب الرجل مع التيار .

وعاد عمران كما كان أول الليل . كأن لم يحدث شىء .

فى أصيل اليوم التالى ، غادرنا الجزيرة إلى النجع ، وبعد أن استرحنا ، وشربنا القهوة فى مضيفة الشيخ عمران ، أمر بإعداد الركائب ، وكان هو وابنه «معاذ» سيرافقانى إلى قريتى .

ولما خرجت إلى الساحة ، وجدت فيها ما أدهشنى . . وجدت فرسنا التى سرقت مسرجة ومعدة لركوبى ! ونظرت إلى ذلك الرجل الجبار نظرة امتنان وشكر . . سأعود الآن إلى قريتى مرفوع الرأس وكل ذلك بفضله . ولقد علمت أن معاذا جاء بالفرس منذ يومين وكتموا عنى الخبر لأفاجأ هكذا .

وركبنا نحن الثلاثة وخرجنا من النجع . وكان الشيخ عمران يركب حمارا وكذلك ابنه ، ولهذا سرنا متمهلين نقطع الطريق بالحديث والتندر مع معاذ . وكان دائم المرح حلو الدعابة ، لا يكف عن الضحك ولا يعير باله لشىء فى الوجود وهو الرجل المقطوع

الذراع ، وكانت وجوهنا إلى الشمس ، فلما غربت تنفسنا الصعداء ، وأسرعنا فى السير وكان الطريق على عادته مقفرا وكل شىء فى سكون . وأخذ الظلام يشتد ويلف كل شىء فى ردائه الأسود .

وكنا كلما أوغلنا فى السير زاد السكون ، واشتدت الوحشة فى الطريق . وقطع هذا السكون دوى رصاص شديد انهمر فى غير انقطاع مرة واحدة ، واستمر عدة دقائق . فتمهلنا فى السير ، وأمسكنا بالبنادق وقلت للشيخ عمران وأنا أتسمع :

«عرس فى القرية . . »

فقال وهو ينظر إلى ومض البارود :

«إنه ليس بالرصاص الذى يطلق فى الأفراح ، إنه شىء آخر» .

انقطع صوت الرصاص ، وخيم السكون من جديد . . وظللنا نرقب ورأينا من بعيد خطا أسود يزحف إلى الغرب . ومددنا أبصارنا وتبين الخط الأسود ، وضح ما فيه . . إنها ماشية تساق سراعا فى طريق غير مألوف . وخلفها وأمامها رجال مسلحون . . لقد سرقوا هذه المواشى من القرية ، واشتبكوا مع الحراس فى المعركة التى سمعنا دويها . ثم تغلبوا عليهم وهاهم قد أفلتوا بالماشية يسوقونها سراعا .

وترجل الشيخ عمران ، وأشار علينا بالنزول . ترجلنا وبحثنا عن مكان نربط فيه الركائب ، ووجدنا ساقية خربة . فربطناها فى ترسها وأخذنا نرقب . . تحول الرجال بالماشية إلى طريق آخر ، ومضوا فى الظلام وابتدأ عمران يعمل بسرعة . . تناول بندقيته ومضى فى أثرهم . ولما هممنا بالذهاب معه ، رفض . وحلف على معاذ بالطلاق أن يبقى معى فى الساقية ولا يتركنى حتى لو قتل . . وبعد أن تنتهى المعركة بخير أو بشر نستأنف السير إلى القرية .

وخرج الرجل وحده ، رأيناه يمضى سريعا كما يمضى الليث فى الظلام .

وبعد قليل سمعنا الرصاص يدمدم . . ابتدأ عمران يقاتل وحده . . أخذت بندقيته تزأر . إن له طريقة فريدة فى القتال كما أنه رجل فذ فى كل شىء .

واستمرت المعركة حامية مدة . ثم انقطع صوت النار . . وخيم السكون ولاحت لنا أشباح تتحرك . تتحرك فى اتجاهنا إنها المواشى . وها هو عمران وراءها يسوقها . لقد خلصها من اللصوص وحده .

دخلنا بالمواشى المسروقة القرية ، واستقبلنا أهلها استقبال الفاتحين . وكان عمران يسير وحده . . مطرق الرأس ، متواضعا كأنه ما فعل شيئا .

زهور ذابلة

غادرت الجيزة تلك المدينة الفقيرة الكئيبة ، وانحرفت بنا السيارة فى طريق طويل على جانبيه الشجر ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب وبدت المزارع والجداول ومن ورائها الأهرامات . . أشد شىء أخذا فى تلك الساعة من النهار .

وكانت السيارة من سيارات نقل الموتى . . كانت طويلة وأنيقة ومن أحسن طراز . . وكانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام . . القسم الأمامى منها للسائق والخلفى للميت ، والوسط لأهل الميت ، وفى هذا المكان جلست وحيدا مكروبا ، وعيناى سابحة فى الأفق . وكانت الجلسة فى السيارة مريحة ، ولكن أعصابى كانت متوترة ، وكنت أشعر بضعف جسمانى شديد فلقد مرت على أيام لم أذق فيها النوم إلا قليلا ، كنت أحمل العبء وحدى . ولقد بذلت كل مافى وسعى ، وبذل معى الأطباء لننقذ أحمد ، ولكن نفذ القضاء ، وذهبت جهودنا كلها هباء .

انتهى فى الساعة الرابعة من الصباح ، ولم ينبس بكلمة ، وكنت بعيدا عنه . وجئت لزيارته فى الصباح ، ومعى باقة من الورد وزجاجة من العطر ، وكان يحب الورود والرياحين . . ودخلت غرفته على أطراف أصابعى كعادتى . ولكننى وجدت سريره خاليا ، فأدركت أن كل شىء قد انتهى . .

وسمعت من يقول :

«حدث له نزيف داخلى . . »

وهكذا انتهى وهو أشد مايكون شبابا وفتوة ، انتهى فى الساعة التى بدأت فيها الحياة تبتسم له بعد طول عبوس ، وتتطلع عيناه إلى الحياة السعيدة بعد طول جهاد وعناء وكد .

ولقد أخذ فى أيامه الأخيرة يكثر من الكلام ، على الرغم من طبيعة الصمت التى لازمته وكان يقول لى : «إن المرء لا يعرف قيمة الحياة إلا إذا رقد على هذا السرير . . إن هذه

الرقدة تكرهك على التفكير . . والتفكير فى الأشياء التى لم تكن تخطر لك على بال . والمرء بعد المرض يزداد صلابة وقوة وعزما ، وتعمق نظرته للحياة ، ويصل به التأمل إلى أعمق أعماقها لقد كنت أفزع من وخزة دبوس . . وانتفض فرقا من لا شىء فلما رأيت هؤلاء المرضى الأبطال الذين يتعذبون فى صبر وصمت أدركت نعمة الصبر التى تنزل على الإنسان فى محنته . . وأخذت أخجل من نفسى عندما كنت أتألم من لاشىء كطفل صغير . . والألم يصهر النفس ويخلصها من الأدران ، وأنت لا تعرف نعمة النفس المطمئنة إلا إذا رقدت هذه الرقدة . هنا تصفو نفسك من الشهوات وتدرك أن كل شىء باطل . . كل شىء زائل . . نفس يخرج ولا يرتد ثم ينتهى كل شىء . . إنه حقاً شىء مروع ، ولكن لابد أن ينتهى بنا المصير إلى هذا . . »

وتحولت بعد هذه الخواطر إلى المروج المحيطة بنا ، وكانت السيارة تخطف خطفاً . . والغسق يزحف والنهار يولى . .

ما أعجب الحياة . . وما أعجب الموت . . نفس واحد يخرج ولا يرتد ثم ينتهى كل شىء . . هكذا . . أخذت أدير كلام صاحبى فى رأسى وأذكر الصور التى مرت على فى المستشفى . . كان هناك رجل فى الغرفة المجاورة لغرفته . . وكنت أرى هذا الرجل كلما ذهبت لزيارة أحمد ، وفى أصيل يوم كان باب غرفته مفتوحاً ، وكان الرجل راقداً فى سريره ، وعلى رأسه ابنته . وكان يتحدث إليها بصوت عال ، وهو مفتر الثغر طروب وبعد دقائق قليلة سمعت حركة فى غرفته ، ودخل الطبيب وبعده الممرضة وخرجت الممرضة وفى يدها حقنة فارغة ! وبعد لحظات عاد السكون إلى الغرفة . وانتهى ميعاد الزيارة . . وفى الطريق إلى الخارج سمعت الفتاة تبكى . وتلفت . . وتقدمت نحو غرفة الرجل . فوجدته على حاله كما رأيته من قبل ولكنه لم يتنفس . . !

وكانت السيارة تتمهل قليلاً ، وهى تجتاز بعض القرى . . وكان القرويون يتطلعون إلى السيارة ، فإذا أدركوا أنها من سيارات نقل الموتى ، ذكروا الله وترحموا على الميت . . ولقد رأيت فى هذه الوجوه من العواطف الإنسانية ما جعلنى أنسى كل ما لقيته فى المستشفى من عناء ونصب .

إن العاملين فى هذه المستشفيات قد تجردوا ، كما خيل إلى من كل عاطفة بشرية . . يستوى فى ذلك الطبيب المتعلم والممرض الجاهل . . والسرير عندهم أغلى من الراقد عليه ، وهم ينقلون الميت من سريره إلى غرفة الموتى ويتنفسون الصعداء ، وكأنهم يرمون بكلب إلى الطريق .

إنها الحياة فى تلك المستشفيات ، الحياة التى لا تعرف الرحمة ، الحياة التى تسحق الضعيف والفقير سحقاً .

وقفنا عند مقهى صغير فى الطريق ، ونزل السائق ليشرب الشاى . . فهو وإن كان فى شرخ شبابه وريعان صباه ، ولكنه سيسهر طول الليل . . وسيقود السيارة فى تلك الظلمة الشديدة اثنتى عشرة ساعة وقد تزيد . .

وعاد إلى السيارة وقد عصب رأسه واستعد لليل . . وكان هادئا قوى الأعصاب قليل الكلام . ولعله تعود ذلك بحكم عمله . . وكان ينهب الأرض نهبا وكأنما يسير على بساط معلوم . . وقد استرحت إلى صوت السيارة وحسها فى الطريق . وأرسلت عينى إلى الليل الساكن ، وإلى الريف الحزين ، وكنت شبه نائم ، واسترحت إلى هذا السكون ، وإلى نسيم الليل ، وإلى الوحشة الشديدة . . فما اعترضتنا سيارة ، ولا رأينا ظل شبح فى الطريق . كان الطريق مقفرا ، والليل رهيبا موحشا ، وكل شىء يبعث على السكون ، إنها سيارة الموتى وكل شىء ميت فى الطريق .

وكنت أستفيق من ذهولى على صوت جندى المرور فى النقط وما أكثر هذه النقط فى الطريق . . كان يعترض السيارة وبيده فانوسه الأحمر :

«كل شىء تمام يا أسطى ؟»

«كل شىء تمام يا افندم . . !»

وتحركت السيارة . .

* * *

وأغمضت عينى . . وكنت أود لو أنام كما ينام قريبى فى الجزء الخلفى من العربة .

ولعلى غفوت . . فقد تنبهت على حركة السيارة وهى تقف عند نقطة من نقط المرور . . وكان هذا الجندى فارعا ، أسود كالليل . . ودار حول العربة ، ورفع مصباحه فى وجه السائق ، وطلب التصريح . . ثم قرأه . وطواه ورده إليه . . ودار حول العربة مرة أخرى ! وفتح الطريق فى تثاقل . وتحركت السيارة ، وسمع السائق من يهتف به فلم يتوقف ، فأشرت عليه بالوقوف . . فوقف . . وسمعنا من يقول :

«من فضلك خذ هذه الست معك إلى سمالوط . . »

وكان رجلا من الفلاحين . . وخلفه امرأة على رأسها متاعها . . ولم يرد السائق وظل صامتا . . ولما اقترب الرجل من العربة ، وأدرك أنها من عربات الموتى . . أظهر أسفه وهم بالانصراف . . فقلت للسائق :

«خذها بجوارك . . »

وركبت المرأة . . وانطلقت بنا السيارة .

وكانت المرأة جالسة فى الركن الأيمن من المقعد . . أمامى . . وكانت صامتة ، ولم أستطع أن أتبين من جلستها سوى أنها طويلة القامة . وكانت طرحتها السوداء تغطى رأسها وعنقها ومنكبيها . . وكان النور فى المقعد كابيا . . وجلستها معتدلة ، فلم أستطع أن أقرأ صفحة وجهها .

وكان السائق قبل أن تجىء المرأة قليل التدخين . . فلما ركبت بجواره أشعل سجائر كثيرة . وبدت على يديه دلائل التوتر ، وابتدأ يتكلم . . ! ورأيته ينظر إليها نظرة جانبية سريعة ثم عاد إلى الطريق . . واجتزنا قنطرة ، ثم مررنا على جسر من الجسور فسار عليه مسرعا ، وأدركنا بعد مسير أكثر من عشرة أميال أننا ضللنا الطريق ، فارتد وعلى وجهه دلائل الغضب . ولما بلغنا قرية من القرى توقف ، وأمر المرأة بالنزول فسألته :

«لماذا . . ؟»

«أنا سائق لعربة موتى ياسيدى ولا أحب أن تجلس نساء بجوارى !» .

«ولكن أين تذهب هذه المسكينة فى هذا الليل . . !»

«وراءنا سيارات كثيرة . . وهذه ليست عربة للركاب . .»

قلت له أخيرا :

«دعها تركب بجوارى . .»

ففتح لها باب المقعد من الناحية اليسرى . . وصعدت المرأة وهى صامتة وتحركت السيارة .

وجلست المسكينة منزوية فى العربة ، وقد غطت وجهها كله ، واتجهت إلى النافذة المفتوحة . وبدا لى أن أرفه عن نفسها لما نالها من كلام السائق فسألتها :

«أنت من سمالوط ؟»

«لا . . ياسيدى . . أنا رايحة لأختى عند نخلة أفندى . .»

قالت هذا فى صوت ناعم ، وفى سذاجة أزاحت الهم عن صدرى . . وجعلتنى آنس بها ، وأكثر من الحديث معها . . وأدركت وأنا أتحدث مع هذه المرأة ، لماذا يجتمع الناس فى الجنازة ويعزون أهل الميت ؟ . . فقد تحملت ثقل الحزن وحدى ولم أجد فى المستشفى صديقا ولا رفيقا بل حانوتية فى كل مكان . يساوموننى على نقل قريبى كأننى سأشحن بضاعة إلى السوق .

ولما سألتنى عن أحمد وعرفت أننى أحمله الى أبيه وأخته ، وهى فى مثل سنها اخضلت عيناها بالدمع . . فاغرورقت عيناى . . ووددت لو أمسح بيدى على ذراع هذه المرأة وألمس

خديها . . ثم أدفن صدرى فى صدرها وأبكى . وتراجعت إلى الخلف ، ورأيت وجهها لأول مرة ، وهى تنظر إلى فى سكون وحزن . . كانت جميلة وصغيرة . . وقد بدأ يعصرها الفقر . . حزن بارز على الشفة ، وجوع واضح على الخدين ، ووجه قد لوحته الشمس فى الحقل أو فى الطريق . . لم أكن أدرى .

كانت تنظر إلى بعينين ذابلتين ... وتحاول أن تصل بهما إلى أطواء نفسى ، ولكنى وجدت نفسى مرة أخرى أغيب عنها ، وأرسل البصر إلى الليل . . وأخذت أرقب النجوم وأفكر . . إننى الآن فى عربة . . وبجوارى فتاة فى مثل جمال الفجر . . وهى تنظر إلى ، وقد يكون فى نظرتها اشتهاء . . ولكننى بعيد عنها ، وان كنت أقرب شىء إليها . . بعيد عنها بجسمى ونفسى أفكر فى الموت . . وما بعد الموت . . والزهور الذابلة فى الحديقة . . والأوراق التى تتساقط من الشجر . وأحمد الذى بينى وبينه نافذة زجاجية صغيرة . فإذا فتحتها ، ربما طالعتنى رائحة كريهة ، عفن الموتى . . ما أعجب الحياة . . الشاب الذى كنت أحادثه بالأمس ، قد غدا اليوم جيفة !

ونظرت إلى متاعه الذى وضعناه بجواره . . ووددت لو أقهقه وأجلجل بصوتى ، وأقطع هذا السكون العميق ، وفى هذا التيه من الخواطر المحزنة تنبهت على حركة شديدة فى محرك العربة . . وخفت سرعة العربة . . ثم وقف المحرك .

ونزل السائق ، ودار حول العربة . . ثم انحنى ورفع الغطاء . . وأخذ يعالج تلك الآلة الدقيقة . . وبعد دقائق قليلة كان عرقه يسيل ، وظهر على وجهه اليأس .

وأخذت الهواجس تدور فى رأسى . ماذا يحدث . . لو تقطعت بنا السبل وبقينا فى هذا المكان إلى الصباح . . وكان السائق ينظر إلى الطريق يمينا وشمالا وهو حائر . . ورأينا نور سيارة من بعيد . واقتربت وكانت من السيارت الكبيرة المتجهة إلى القاهرة . . ولوح لها السائق بيده فتوقفت ونزل سائقها . . ونظر فى محرك العربة ، وأدرك العلة . . وركب معه سائقنا إلى مغاغة ليجىء بمن يصلح السيارة ، وبقيت وحيدا مع المرأة فى هذا الليل .

بقينا صامتين مدة طويلة . . وكنت مضطجعا ، ومرسلا بصرى إلى سقف العربة . وكانت هى مائلة إلى النافذة ، ومطلة برأسها على الطريق . . لم تكن تتحرك . . حتى يخيل للناظر إليها أنها نائمة . . ما أشد سكون هؤلاء القرويات وما أحلى وداعتهن . . أى سر فى الحياة . . بعد أن بارحنا السائق بلحظات ، ووجدت نفسى وحيدا مع هذه المرأة . . سرت فى جسمى رعشة . ووجدت الدم يتدفق فى عروقى من جديد . . ونسيت المرض والحزن . . والموت ، هل كنت أتمنى هذه اللحظة وأنا فى غمرة هذه التعاسة المرة ، وهذا التعب الجسمانى البالغ ؟ ربما . . فقد شعرت بعد أن تركنا السائق أن حملا قد انزاح عن صدرى . وأن الفاصل الذى كان يحجب عنى هذه المرأة قد أزيل . . ونسيت الموت . . وصاحبى الراقد خلفنا فى العربة . . نسيت كل شىء يتصل بهذا ، واتجهت بكليتى إلى هذه

المرأة ، وكانت قد رفعت رأسها وواجهتني . ونظرت إلى . . وعاودتني الرعشة من جديد . . وابتدأ العرق ينضح على جبيني . . واقتربت منى وقالت فى صوت خافت .

«أخائف . . أنت ؟»

فقلت لها بصوت يرتعش :

«أبدا . . »

ومددت يدى دون وعى ، كانت يدى تزحف فى الظلام كالعنكبوت .

«يدك ساخنة . . !»

ولم أقل لها شيئا . . وتركت يدى فى يدها . . وأغمضت عينى . .

«مالك انت محموم . . ؟»

أنا محموم . . . ! كان العرق يسيل من جسمى كله . . وكنت ارتعش .

ومرت يدها على يدى وذراعى . . ووجدت يدى تمسح على ذراعها . . وشعرت بنعومة بشرتها تحت ملمس أصابعى . . وأحسست بجسمى يتخدر . وسكنت الرعشة وجف العرق . . وانحدرت يدى عن ذراعها . . وكأنى كنت فى غيبوبة ورجعت إلى نفسى ، وبحركة لا شعورية . . مددت رأسى ونظرت من النافذة . . إلى صاحبى . وكان فى نعشه وعليه الغطاء الحريرى . هل تصورته تحرك ، ونظر الينا . . ووضعت يدى على جبينى وملت إلى النافذة ، وابتعدت عن هذه المرأة . .

وبعد قليل عدت أفكر فيها من جديد وكانت قد وضعت رأسها على كفها ، ومالت الى الوراء ، وأغمضت عينها . . إنها تحاول النوم ، أو تحاول الاغراء .

هل تحاول هذه القروية معرفة ما يدور فى رأسى . اننى محطم الأعصاب من طول مالاقيته من عناء فى الأيام الماضية ، وكنت أود رفيقا أو أنيسا فى الطريق ، وقد وجدت هذه المرأة . . وجدتها رفيقى وأنيسى عندما كانت السيارة تسير ونورها يخطف البصر فى الطريق . ولكن بعد أن توقفت السيارة ، وأطفئت الأنوار . . انقلبت عنصر شر لى . . وزادتنى عذابا وألما . فجلست بجوارها قلقا مهتاج الأعصاب ، لا أستقر على حال وأخذت أهز ساقى وأحاول أن أصرف ذهنى عنها ، ولكن هيهات . . كانت روحى قد تخدرت وتقمصنى الشيطان . وبدا لى أن خير ما أفعله هو أن أتحرك ، ففتحت باب السيارة . . فأحست بى وسألتنى فى جزع :

«إلى أين . . ؟»

«سأتمشى قليلا . . »

«لا تبتعد . .»
«أتخافين . . ؟»
«أنا . . أبدا . . وإنما أخاف عليك من الذئاب . . ؟»
ونزلت وكانت تنظر إلى بجانب عينها وتبتسم فى خبث ظاهر . . !
الذئاب . . ! وضحكت . .

لقد أفلت من يدها . وشعرت بعد خطوات قليلة بالراحة التامة وفعل نسيم الليل فى الصيف ، والهواء الطلق فعل السحر فى جسمى ونفسى . .

وعاد السائق وأصلحت السيارة ونزلت المرأة فى سمالوط . . وتنفسنا الصعداء وانطلقت بعدها السيارة بأقصى سرعتها ليعوض السائق ما فاته . . وبلغنا منفلوط قبل أن يتنفس الصبح .

ووقفت بنا السيارة أمام منزل الميت . . وصعدت ومعى الحقيبة التى فيها متاعه ، واستقبلتنى أخته فى نهاية الدرج ، وكانت فى لباس أسود ، ولكنها لم تكن تولول أو تصيح . كان حزنها دفينا صادقا . . شددت على يدها وتهالكت على أريكة قريبة ، وأدرت عينى فى المكان باحثا عن أبيها . وعرفت نظرتى وقالت بصوت مفجوع :

«إنه نائم . . جاءته برقيتك وهو فى فراشه ومن وقتها لم يتحرك . . وقد أخبرت الشيخ عبد الحفيظ . . وأعد كل شىء . .»

ولم أعجب لذلك فقد كنت أعرف عنه الكثير . . ورفعت عينى إلى أمينة التى عاش من أجلها أحمد ، ولأجلها ضحى بكل شىء ، لأنه كان يعرف أن والده ميت حى . . لقد غدت امرأة . . الفتاة التى كانت تصنع لنا القهوة فى ليالى الامتحان قد اكتملت أنوثتها . وجمعت كل مفاتنها ولقد زادها الثوب الأسود جمالا .

ونظرت إليها وقلت بصوت حزين .

«أيقظيه فالوقت متأخر ، والسائق يجب أن يعود بالسيارة قبل . .»

ولما سمعت كلمة السيارة أجهشت بالبكاء . . وكان فى ناحية من البيت بعض النسوة فتركتها لهن ، ودخلت على أبيها فى فراشه ، وكان نائما على سرير من الحديد . . وتحته لحاف قذر كله حروق حمراء مستديرة . . وكان بجواره منضدة عليها بقايا تبغ محترق . . وآثار قهوة فى فنجان . ثم زجاجة فارغة من الخمر . . وكأس مقلوبة . . وآثار خمر على الأرض . وفى الفراش . . وكان منظر الحجرة كريها . .

هـذه هى حجـرة مصـطفى أفنـدى وهـو فى فـراشـه . . كـل شىء يبعث عـلى الاشمئزاز . . حجرة سكير . . غارق فى الخمر إلى الأذقان . . ووقع نظرى على الدوائر الحمراء فى اللحاف . . وهو نائم عليه دون حس أو حركة . . إنه يدخن وهو مضطجع . . ويغلبه النعاس فتسقط يده بالسيجارة على الفراش .

ووضعت يدى على عاتقه وهـززته بقـوة فتحرك بعـد لأى . . وقام كـأنه يجـر الى المشنقة . . متثاقلا متخاذلا . واعتمد على ذراعى ، ونزلنا إلى الشارع ولما رأى السيـارة انتفض . . ودب فى جسمه نشاط عجيب ، وأخذ يولول وينوح !. . وجمع علينا القرية بكل من فيها من رجال ونساء !. .

***

وعدت من المقبرة إلى المنزل وقد بلغ منى الجهد . . ونمت نوما متقطعا وحلمت أحلاما مزعجة . . وكنت كمن أصيب بالحمى . . فذهل عن كل شىء وأخـذ يهذى . ويطلب الماء فى كل دقيقة ، وفى جوفه أتون مستعر . وأتت إلى أمينة بمنديل سقته بالخل وعصبت به رأسى . . فقد أصبت بضربة شمس .

وفتحت عينى فإذا الليل قد أرخى سدوله على القرية . . وكان العرق قد تفصد من جسمى كثيرا فشعرت بعده بالارتياح والانتعاش والعافية . ورحت أسترجع كل ما مر على فى الايام القليلة الماضية . . ثم تحركت من فراشى ، ونظرت من النافذة إلى الحقول وكان السكون يخيم ، والقرية ساكنة ، وسمعت حسا وحركة . . فـأصغيت ، سمعت صوت أمينة كانت تتحدث فى صوت خافت يشبه الهمس ، ثم ارتفع صوتها ،ووضح صوت أبيها واشتد بينهما الكلام والعراك ، وسمعتها تنتحب فجريت نحوها فوجدت والدها واقفا على سلم البيت وبيده شىء ، والفتاة تشده منه بقوة وهو يجاذبها فيه بعنف ، ويصيح مهددا ، وكان أحمر العينين أغبر السحنة ، ولما أبصر بى صمت فجأة وترك ما فى يده ، ووقع بصرى على ما كان فى يده انها بذلة أحمد التى حملتها معى من المستشفى !! وضمتها أمينة إلى صدرها وأخذت تنشج . . ووقف هو مشدودا إلى الأرض فاغرا فاه ، لا تكاد عينه تطرف ، ونظرت إليه فى قوة ، إنها بدلة أحمد وهو ذاهب بها إلى السوق ليبيعها ، ويشترى بثمنها زجاجة من الخمر ، نظرت إلى هذا الرجل الذى يقف الآن ذليلا أمام شاب فى سن إبنه ، لأنه يدرك شناعة فعلته ، ولكنه لا يستطيع أن يملك من أمر نفسه شيئا . لم تعد له إرادة على الإطلاق ، إنه الضعف البشرى ، إنها الانسانية المعذبة . . نظرت إليه فى وقفته الذليلة هذه ، وتذكرت فى الحال أبطال دستويفسكى العظيم . . وكنت أود لو أمسك بيد أمينة وأقول لها . . إركعى معى أمام والدك المسكين . . السكير . . كما فعل رازكو لينكوف أمام امرأة سقطت . . وقبلى الإنسانية المعذبة فى شخصه . . إن والدك ليس فظا ولا حقيرا ولا جشعا كما تتصورين ولكنه لا يملك من أمر نفسه شيئا . .

انسحب مصطفى أفندى من أمامنا ، وأخذت أحادث أمينة حتى كفت عن البكاء . .

واستيقظت فى الصبح على صوت أمينة وهى تبكى . . وعلمت أنه غافلها وأخذ البدلة . . وعاد ومعه زجاجتان من الخمر ! .

ودخلت عليه حجرته فإذا به مستغرق فى نوم عميق كما شاهدته أول مرة ، وفى اللحاف آثار حروق جديدة ! ورائحة الخمر تنبعث من كل مكان فى الغرفة ! . .

***

وبعد ساعة كنت أركب سيارة صغيرة الى المحطة ، لنأخذ القطار السريع إلى القاهرة . وكانت بجوارى أمينة . كانت صامتة ، ولا تزال فى ثوبها الأسود . . وفى عينيها بقية من دمع ، ولكن وجهها كان يشرق ويغمر نفسى نورا .

البــــواب الأعرج

عندما ضرب الألمان مدينة الاسكندرية بالقنابل ليغرقوا الأسطول الانجليزى ضربوا منطقة البحر ضربا شديدا . وأصابت القنابل عمارة ضخمة فى شارع الكورنيش ، فهوى طابقان منها ، وطارت شرفاتها ، وتناثر زجاج نوافذها . ومع هذا فقد خرج سكان العمارة من المعركة سالمين . فقط أصيب بوابها . أصابته شظية فى قدمه اليمنى خرج بعدها من المستشفى يعرج . ورضى الرجل بحكم القدر ، واستسلم للمصير المحتوم . وعاد يجلس على الدكة فى مدخل العمارة كما كان يرقب الداخلين والخارجين بعينى الذئب الجائع .

وكان معظم سكان العمارة فى أيام الحرب من الجنود الانجليز وكان منظرهم فى ملابسهم الرسمية ، وما يحدثونه دائما من ضوضاء وجلبة فى غدوهم ورواحهم ، يثير السخط فى نفس البواب .

كما أنه كان ينظر اليهم دائما بعين الكراهية . . لأنهم كانوا السبب فى بلواه ، فلولا وجودهم فى هذه المنطقة ما ضربت العمارة ، ولا أصابته الشظية . فلما انتهت الحرب وغادر الجنود العمارة تنفس «عثمان» البواب الصعداء وشعر بأنه عاد يتنفس فى جو من الحرية كما كان منذ ست سنوات . على أن عرجه زاده انطواء على نفسه ، وبعدا عن الناس . .

كان سكان العمارة جميعا يعرفون أنه يكره النساء . . فلا يجب أن تجلس الخادمات على دكته كما أن واحدة منهن لم تجرؤ على دخول غرفته . وكان يتضايق أشد الضيق من سيدات الأسر ، وهن جالسات على الدكة فى انتظار المصعد وكان أشد الأشياء على نفسه أن تكلفه امرأة بعمل . قبل العرج وبعده ، كان ينطوى لهن على بغض شديد ، لم يكن يعرف مأتاه ولا مصدره . . مجرد وجودهن فى ممشى العمارة ، أو على بابها ، أو بالقرب من غرفته ، كان يجعله ينفعل ، ويتغير ويكاد يثور . . وهو لا يدرى لذلك سببا .

وفى صباح يوم علم أن الشقة رقم ٤ فى الدور الأرضى بالعمارة ، قد أجرت إلى أسرة من القاهرة مدة الصيف ، فحمل المكنسة ونظفها ، وأغلق نوافذها ، وجاءت الأسرة فى

قطار الظهر ، وكانت مكونة من سيدة وسيد ولا ثالث لهما . . وفتح البواب الشقة وحمل الحقائب من السيارة . وأشفقت السيدة على الرجل ، ففتحت حقيبتها الجلدية الانيقة وأعطته ريالا فحنى رأسه وخرج . ولأول مرة رأته السيدة يعرج !

وفى أصيل اليوم نفسه رآهما البواب يخرجان ويتمشيان فى طريق البحر . وكانت السيدة أنيقة وجميلة وصغيرة . . والسيد رجلا فى الأربعين حسن الملبس مليح القسمات . . ولما عاد من نزهتهما ، كان البواب جالسا فى غرفته ، وسمع صوت السيدة وهى تصيح :

- يا بواب . . يا بواب . .

فلم يتحرك . وبعد قليل رآها واقفة على بابه تنظر إليه بعينيها الناعستين وتسأله :

- انت اسمك إيه ؟ . .

فرد عليها بصوت منفعل :

- عثمان . .

تسمح تفتح لنا الباب ؟ . . مش راضى ينفتح . . ونهض فى تثاقل ، وهو يرميها بالنظر الشزر . . وفتح الباب . . وعاد إلى مكانه ، ورأى السيدة تقابل نظراته الشزراء بنظرات ناعمة متكسرة . . فازداد غيظا وحنقا .

***

فى الصباح حمل للسيدة حاجتها من السوق . .

وكان يروح ويجىء فى الطريق مرات ومرات ولا يشعر بتعب !

وفى كل يوم كان يفعل ذلك .

وفى الضحى كان يحمل المظلة والكراسى إلى البلاج . ويسير وراء السيدة كالكلب الامين ! وينصب لها المظلة ثم ينصرف .

وقد شعر على توالى الأيام بأنه تغير ، ولم يعد يثور لأتفه سبب ، ويحتد على الخصوص وهو يحادث النساء .

لقد تغير وتغير ! . . وأصبح ينام نوما عميقا فى الليل ،

ويستيقظ مبكرا فى الصباح ، ولا يحس بضربات قلبه ، وثورة دمه ، كلما سمع صوت امرأة . . لقد عاد إلى سكينة نفسه .

وذات يوم نزل إلى البحر ليرجع المظلة كعادته ، فلم يجد السيدة جالسة تحتها تقرأ فى

كتاب كما اعتاد أن يراها . .

ودار ببصره ورآها مقبلة من بعيد فى لباس البحر . . ولأول مرة يراها هكـذا شبه عارية !

وأحسن بمثل النار تسرى فى ألياف لحمه . . وأدار رأسه .

ولما ارتدت ملابسها حمل المظلة ومشى وراءها ، ولأول مرة يجد نفسه ينظر إلى جسمها من الخلف ويعجب بمفاتنه . . وأخذه مثل السعار ودخل معها الشقة وهو يرتجف ، ووضع المظلة ، ومشى إلى غرفته وأغلق بابها .

***

كان ينام فى غرفته ، فأخرج فراشه ونام به على الدكة ليقترب من بابها ويرى النور وهو يطفأ فى غرفتها . . كان يتقلب طول الليل فى فراشه ويتسمع وقع أقدامها . . ويصغى إلى صوتها وهى تحادث زوجها . . زوجها الذى يعود من سهراته متأخرا دائما وغالبا ثملا . . وغالبا مقامرا . .

وفى كل أصيل كان يراها جالسة فى غرفتها المطلة على البحر وكان يقف عند الحاجز الحديدى على الكورنيش ، ووجهه إليها وعيناه لا تتحولان عنها . وكانت تدخن وترمى بأعقاب السجائر من النافذة .

فإذا غربت الشمس اقترب من النافذة ، وجمع هـذه الأعقاب ومضغهـا بشراهـة ونهم . وكان يحس بلذة عنيفة تهز كيانه كله ، وبمثل الاعصار يحمله ويدور به . . ويود لو ينحدر من النافذة ، ويحملها بين ذراعيه ويمضى بها فى الظلام .

وكان يحلم بها فى الليل ويستيقظ من الحلم وهو يتفصد عرقا . ويزحف على رجليه حتى يقترب من شقتها ، وهناك يمرغ وجهه بمواضع أقدامها ويظل ملتصقـا بالبـاب إلى الصباح !

لاحظت سعاد هانم أن زوجها أصبح يتأخر كثيرا فى سهراته . . وهى تخاف فى الليل وحدها . ولما حدثته عن ذلك ، قال لها وهو يضحك :

- كيف تخافين . . وغرفة البواب بالقرب من باب الشقة ؟!
- ولكننى أخاف . .
- إنك مازلت طفلة ! . .

وتألمت وصمتت .

ونامت سعاد هانم فى ليلة من الليالى بعد العشاء مباشرة . . واستيقظت فى هدأة

الليل ، ونظرت إلى ساعتها ، فوجدتها الاولى بعد منتصف الليل . وكان زوجها لم يعد من سهرته بعد ، فأدركت أنه يقامر فى هذه الليلة إلى الصباح ، كعادته فى الليالى التى يتأخر فيها .

وظلت ساهرة تستمع إلى هدير الأمواج على الشاطىء . . وكانت الشقة ساكنة لاحس فيها . . لاصوت كلب ، ولانفس انسان يشاركانها هذه الحجرات الأربع . وأحست بالخوف يسرى فى كيانها فازداد خفقان قلبها . وثبتت بصرها على الباب . . وخيل إليها أنها تسمع حركة فى الردهة فاعتدلت فى جلستها ، وأطلت من فوق السرير لترقب زوجها ، فلم يدخل عليها أحد . فنزلت وأخذت تتمشى فى الغرفة . . وأشعلت سيجارة وجلست على كرسى طويل ، وعيناها إلى النافذة المطلة على الطريق . كانت تود أن تفتح هذه النافذة لتستأنس بحركة السيارات التى تمر من حين إلى حين . . ولكن النافذة تعلو قليلا عن رصيف الشارع فكيف تفتحها فى الليل . . ظلت جالسة والخوف يشل حركتها ، وسمعها متيقظ ، وعيناها مفتوحتان . . وسمعت نقرا على الباب . . أنسى زوجها المفتاح ؟. أم أضاعه فى الطريق ؟ يحتمل هذا وذاك . . مشت إلى الباب وهى ترتجف هلعا . . وفتحت الشراعة الزجاجية ، ونظرت منها فلم تر أحدا فأغلقتها ، وعادت إلى غرفتها . .

وبعد قليل سمعت النقر على الباب مرة أخرى . فنهضت واتجهت إلى الباب ، وفتحته وقلبها يكاد ينخلع من بين ضلوعها وحدقت فى الظلام فلم تر أحدا . . ووجدت البواب نائما فى الممشى ، قريبا من الباب ، فنادته وهى تنتفض :

- عم عثمان . .

وتحرك البواب ، وفتح عينيه ، ونظر إليها فى ذهول ، وقال بصوت خافت :

- نعم . .
- انى خائفة وحدى . . تعال نم فى الصالة . .

ونهض البواب . . ورآها تهتز كالقصبة فى مهب الريح . . ودخل وراءها ، وأغلق الباب .

عندما حمل عثمان المظلة لسعاد هانم فى ضحى اليوم التالى ومشى معها إلى البحر ، نظرت إليه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وكأنها تراه لأول مرة ! . . واشمأزت من هذه القذارة أهذا هو الرجل الذى قضت الليل معه ! . . اشمأزت من نفسها . . إنه لا يغير ثوبه القذر . . وما استحم قط والبحر على قيد خطوات منه !

أى نتن هذا !. ولعنت زوجها ، واحتقرت نفسها !

ولكن عندما ينتصف الليل ، ويشتد السكون ، ويعلو موج البحر ، كانت تجد موجة طاغية عاتية ، آتية من بعيد تحملها إلى هذا الرجل . . ولم تكن تستطيع مقاومتها ولا دفعها . . كانت الموجة العاتية تحملها فى الظلام وهى غائبة عن رشدها فاذا عادت لنفسها فى الصباح ، نظرت إلى هذا الرجل ، فوجدته قبيح الوجه ، قذر الثوب ، أعرج ، فيزداد احتقارها لنفسها ويشتد . . وتكاد تجن لما وصل إليه حالها . .

فى كل ليلة كانت تحاول أن تقاوم وأن تبقى فى مكانها . . ولكن يدا سحرية كانت تجذبها إليه . وفى غمرة المد كانت تتمرغ فى الوحل . وفى الصباح كانت تتحسر ، وتنفض ما علق بثوبها من قذارة .

***

ولما انقضت أشهر الصيف ، حزم الزوجان حقائبهما ، واستعدا للسفر وركب معهما البواب السيارة إلى المحطة .

ولما تحرك القطار ، دفع الزوج يده فى جيبه ، وأعطى بعض النقود للبواب فأحنى هذا رأسه ، وانصرف يعرج على الرصيف .

وقال الزوج لزوجته :

- انه مسكين ! . .

فصمتت الزوجة ، ونظرت إلى زوجها ، وعلى وجهه أمارات الطيبة ، وعقد لسانها ، وشرد ذهنها طول الطريق ، وتصورت نفسها أكثر من مرة تحت العجلات ، والقطار يمزق جسمها تمزيقا . .

نســـاء فى الطـــريق

أنا رجل مريض . . مريض مرضاً لا شفاء منه وميت فى الحقيقة ، وإن كان نفسى لا يزال يتردد ، وقلبى ما زال ينبض ولقد يئست من كل شىء ، وضقت ذرعاً بكل أمر ، وبلغت أقصى درجات القنوط . وبدا لى أن أضرب فى الأرض . .

اتجه إلى أى مكان . أهجر القاهرة بكل ما فيها من خير وشر ، أهجر هذا الجو الراكد الذى يقطع الانفاس إلى أن يحين حينى .

ولما ركبت قطار الظهر إلى الإسكندرية . كانت محطة القاهرة تختنق من دخان القطارات ، وشمس الظهيرة المتسلطة على المكان ، كان كل شىء يحترق ، كان الحر يلفح الوجوه ، ويسيل العرق على الجباه وكان الزحام بالغا أشده ، فى القطار وتحت ذلك السقف الزجاجى المتوهج ، كان الناس يتدافعون بالمناكب ، كأنه آخر يوم فى السفر ، وآخر قطار ذاهب إلى الإسكندرية .

جلست فى ركن من العربة أتطلع إلى الوجوه . . وجوه الجالسين معى فى داخل العربة ، والواقفين فى الممشى ، لم أر فى هذه الوجوه وجها واحدا تستريح العين إليه ، كانوا جميعا من السماسرة ، ورجال الأعمال ، وموظفى المصلحة ، وهؤلاء أشبه بعمال السكة الحديد فى المحطات الصغيرة فى روسيا . . الشخصيات التافهة فى روايات تشيكوف ، تعاسة مرة . . وبلادة وخور . . واستسلام للمصير ، ورضوخ لحكم الأقدار . . حديث تافه عن عمال البلوك ونظار المحطات . . وكادر المصلحة ، ولا شىء غير هذه التفاهة ، كان هذا كله يزيدنى غما وهما .

وتحرك القطار . . خرج من نطاق المحطة الحديدى ، واستقبل مزارع شبرا ، وهنا تغير الجو ، وهب النسيم العليل مخففا من شدة الحرارة فى داخل العربة ، وشعرت بالارتياح . . وملت إلى النافذة ومر الهواء الرخى على وجهى . . وأغلقت عينى ، وحاولت

ان أصرف ذهنى عن التفكير ، وأن أملأ رئتى بالهواءالنقى ، وأتنفس تنفسا عميقا ، إلى أن يأخذنى النعاس .

وفعل الهواء فعل السحر فى جسمى ونفسى . . ولم أعد أحفل بمن حولى من الركاب حتى بلغنا الاسكندرية .

حملت حقيبتى ، واجتزت باب المحطة الخارجى ، واعترضنى نطاق من الحمالين ، وسماسرة الفنادق والغرف المفروشة ، وما أكثرهم فى هذا الفصل من السنة ، فى المرات السابقة كنت أجتاز هذا النطاق ، دون أن أتبادل مع أحد من هؤلاء كلمة واحدة ، لأننى كنت أعرف وجهتى ، ولكن فى هذه المرة لم تكن لى وجهة معينة ، وكنت أشعر بشعور الغريب النازل فى مدينة كبيرة لأول مرة فى حياته ، كنت حائرا ولا أدرى فى أى طريق أمضى . ولهذا استعنت بواحد من هؤلاء الصبية وأفهمته رغبتى ، غرفة صغيرة على البحر فى أى مكان فى المدينة . .

كنت أود أن أعيش الأيام الباقية لى من حياتى على أى وجه ، وبكل ما أملك من قوة .

نزلت فى فندق صغير على البحر ، ونمت فيه أول ليلة مستريحاً كأحسن ما ينام مسافر ، وفى الصباح تجولت قليلاً فى المدينة ، كانت عامرة بالناس تدب الحركة فى شرايينها ، لقد تغيرت عما كانت منذ سنين ، وخرجت فيها المرأة إلى الطريق لتعمل ، رأيت وجوها أكثرها من الفرنجة ، ولكن من بينها وجوها مصرية تطفح بالبشر والسعادة ، وجوها ضاحكة لا تراها إلا فى هذا الثغر الجميل . فى هذه المدينة أصفى بشرة وأحلى عينين .

* * *

عدت إلى الفندق لأتغذى ، وبعد الغذاء استرحت قليلاً ، ثم خرجت فى ساعة الأصيل ، لأتمشى على ساحل البحر فى منطقة الرمل ، بين محطة الرمل والشاطبى . . ولقد سرت فى هذا الطريق من قبل ، وأنا ممتلىء شبابا وقوة ، وما كنت أفكر فى شىء ولا أحفل بأمر ، وما خطر على بالى الموت ، ولا فكرت فى المرض ، ولا شعرت بألم فى أى ساعة من ساعات نهارى وليلى ، أما الآن بعد أن دخلت جوفى العقاقير ، وتشرب جسمى من هذه السموم ، فقد تغير كل شىء فى نظرى . .

لقد كنت سكيراًومخموراًأبدا ، وفعلت الخمر أفاعيلها فى جسمى ، ولكن هناك من لاعداد لهم يشربون الخمر مثلى ، ولم يسقط واحد منهم سقطتى فى أول شوط ! وبإرادة مارد جبار طلقت الخمر ، وبإرادة أقوى منها سأطلق العقاقير ، إنها أشد فتكا فى الجسم من الخمر وأعظم أثرا ، وما من شىء يرجى منها على الإطلاق ! سأدع كل شىء للطبيعة وهى التى تمسح كل علة .

لقد تغير كل شيء فى نظرى ، ومشيت فى الطريق متثاقلا أشعر بتعاسة مرة ، وبأحزان قاتلة ، وبعد كل خطوتين أو ثلاث كنت أقف لأسمع ضربات قلبى !

أخذت أروح وأجيء فى الطريق ، وأنا أودع الشمس الغاربة وأرى شعاعها الأصفر يتراقص مع الموج . ورأيت مركباً صغيراً يمضى مع الشمس إلى حيث لاتراه العين ، ولاتأخذه الأبصار ، وتخيلته يسير بى إلى حيث لايستقر على شط ، واستغرقت بكليتى فى هذا الخاطر . ولما رجعت لنفسى كان النور يغمر المدينة .

بعدت عن الحاجز الحديدى ، وأخذت أتمشى فى الطريق إلى محطة الرمل ، وكنت أنقل الخطى متثاقلا ، وأتأمل وأفكر وكان الظلام قد خيم على البحر فاختلط لونه بلون السماء ، وأصبح كل شيء قاتماً لاتنفذ فيه العين ، وكان يبدد هذه الغياهب من حين إلى حين ، «فنار» الإسكندرية وهو يرمى بنوره إلى البحر .

كان السكون مخيما ، والطريق خالياً تقريباً إلا من نفر قليل كان يمشى الهوينى مثلى ، ولكن ما أحسبه كان يفكر تفكيرى ، ولا يرزح تحت ثقل المرض كما كنت . وسمعت من يحدثنى فتلفت . . فألفيت رجلا قميئا فى جلباب أبيض وجاكتة سوداء ، وكان أسمر وفى عينيه حول ، وكان زرى الهيئة حتى تصورته شحاذاً ، فدفعت يدى فى جيبى ، ورأى هذه الحركة فقال بسرعة :

«لا أريد شيئاً ياسيدى . . . أنا خادمك» .

واقترب منى ، وهمس فى أذنى كلاما .

فقلت له مبتسما :

«أين . . . ؟»

«فى محطة الرمل . . فى الشاطبى . . فى الإبراهيمية . . فى اسبورتنج فى محرم بك . كما تحب . . كما تحب . . !»

وانطلق فى حديثه . . وكنت أريد أن أتلهى فاستمعت له طويلا . . كان يعرف أكثر من لغة ، ويتميز بفراسة قوية ، ولعله لمحنى وأنا أتسكع وحدى فى الطريق ، وعرف أننى مهموم غريب فتبعنى . .

وظللت أحادثه حتى بلغنا محطة الرمل ، فأعطيته شيئاً وصرفته ، ودخلت فى أحد المطاعم لأتعشى .

رجعت مرة أخرى إلى طريق الكورنيش . . ولكنى اتجهت فى هذه المرة إلى بحرى . . وجدت نفسى أكثر تعاسة من ذى قبل ، واشتدت على وطأة الوحدة ، وأخذت ألوم نفسى على عدم ذهابى مع ذلك الرجل . لماذا لم أذهب معه ؟ وأدفن أحزانى فى صدر أية امرأة . . ؟ لماذا لم أذهب معه . . ؟ النساء . . زينة الحياة . . كل شىء ينسى معهن . كان شعورى شعور الرجل الذى صدر عليه حكم الإعدام ، وبقيت أمامه أيام قليلة للتنفيذ وفى هذه الأيام تركت له كل حرية فكيف لايمتع نفسه بالحياة ؟ . . لماذا صرفت الرجل وأمامى ساعات معدودات ، يجب أن أتمتع فيها إلى أقصى حد . . ؟

لماذا تركت الرجل ؟ . وفى غمرة هذه الخواطر المؤسفة . . لمحت شبحاً من بعيد ، ظل امرأة ينسحب عن نور المصباح القائم فى الطريق ، مددت بصرى وأسرعت . كانت تمشى الهوينى محاذية سور الكورنيش ، ولكنها لم تكن تنظر إلى البحر ، كانت تنظر إلى الأمام ولا تلتفت قط ! كانت فى ملاءة سوداء ، واقتربت منها ومشيت وراءها ، وعيناى لاتتحولان عنها . . لمحت جزءاً من الساق ، وكان فى بياض المرمر ، وأشد منه لمعانا وفتنة ، وارتفع بصرى إلى الجسم كله من خلف ، وأخذنى مثل الدوار ، من الذى صنع هذا الجسم ! وكيف يكون إذا تجرد . وبرزت هذه المفاتن كلها ؟ . واقتربت منها جداً حتى كاد كتفى أن يلتصق بكتفها ! ونظرت إلى وجهها ، وكانت تحجبه بخمار خفيف أسود . . كما يحجب الغمام وجه القمر . . نظرت إلى ذلك الوجه الأبيض ذى الخمار . وتذكرت لوحات محمود سعيد لحسان بحرى . . الجسم نفسه . . الفتنة عينها . . ولكنها هنا تتحرك . .

هل نظرت إلى عندما حاذيتها . . ؟ أبدا . . مضت فى طريقها لاتعبأ بشىء ، ومشيت وراءها أكثر من ثلث ساعة ، ثم تركت ساحل البحر واتجهت إلى قلب المدينة . ولما ركبت الترام الدائرى وراءها . . وسار الترام فى شارع التتويج . . ما أجمل أسماء الشوارع فى الإسكندرية . . شارع التتويج . . شارع أبى حاتم . شارع أبى السعادات . . ! ونزلت من الترام ودخلت منزلاً صغيراً من طابقين يطل على البحر .

وفى صباح اليوم التالى كنت حول منزلها ، وقفت من بعيد أرقب النوافذ ، وأنا أروح وأجىء فى الطريق ، وأخيراً رأيتها كانت مطلة برأسها من النافذة تحادث جارة لها ووجدت بصرى يتعلق بها ، وروحى تكاد تقفز إليها . هل بصرت بى ، وأنا واقف هكذا ، أنظر إليها من بعيد دون حراك أبله كالتمثال ، وجامداً كالصنم . . ؟ أجل . . لقد نظرت إلى وابتسمت ابتسامة خاطفة . ثم علا وجهها الوجوم ، وارتدت عن النافذة ، وأغلقت مصراعا منها ، وتركت المصراع الآخر على حاله ، ودفعتنى هذه إلى الحركة ، فتراجعت إلى الوراء . . إلى نهاية الشارع . . ووقفت ساهماً شارد اللب موزع الخاطر هل هذه الحركة من ألا عيب النساء ، هل يأتى هذا الصدود من امرأة كانت تسير وحدها فى الليل ، فى شارع البحر ؟ .

رجعت إلى بيتها مرة أخرى ، كانت واقفة فى النافذة تنظر إلى جهة البحر . واقتربت منها ، ورفعت وجهى إليها فابتسمت ، وألقت رأسها إلى الوراء كما يفعل العصفور الصغير . ثم ضحكت وتوارت . .

* * *

فى المساء كنت أسير وحدى فى شارع البحر ، وفى المكان الذى رأيتها فيه أمس ، وكنت مستريحا ناعم البال ، لم أكن أفكر تفكير الأمس ولا كانت تدور فى رأسى الخواطر السوداء عن المرض والموت . .

كنت أشعر بانتعاش وحيوية ، وعاد الأمل ينبعث فى من جديد ، وتمنيت أن أعيش ، لقد وجدت لى هدفاً ، كانت روحى ضالة فوجدت فى هذه المرأة إلفها . .

سرت وحيداً ، وتصورتها أمامى بملاءتها السوداء ، وخمارها الأسود الذى يغطى نصف أنفها ، ونصف وجهها ، ويبرز عينيها الدعجاوين ، وهالة النور التى على جبينها . . يالله . . بين يوم وليلة تغير فى كل شىء . . وأحسست فى هذه الليلة بقوة دافقة تسرى فى عروقى ، وعلى الرغم من أنها لم تأت ، فإننى لم أقلق ولم أبتئس . لقد كنت موقنا بأننى سألتقى بها مرة أخرى يوماً ما . إن القدر لم يضعها فى طريقى عبثا . . إنها حدث الأحداث فى تاريخ حياتى ، إنها نقطة التحول ، لقد التقيت بها عرضاً فى ساعة مظلمة من حياتى لتفعل أفاعيلها فى نفسى . . تغيرنى وتبدلنى تبديلاً .

ولأول مرة أرى البحر يضحك ، وجوه الناس باسمة . . والإسكندرية كلها تتلألأ بالأنوار البراقة . لقد أكلت فى هذه الليلة كالثور ، ونمت نوماً عميقاً .

وفى الصباح كنت هناك فى منطقة بحرى . . ورأيتها ، ولوحت لها بيدى فابتسمت . . وأشرت عليها بالنزول فهزت رأسها وهى تضحك . ووجدت بائع لبن صغير بالقرب من منزلها ، فجلست عنده أكثر من ساعتين ، وأنا أرقب نافذتها من بعيد .

* * *

والتقيت بها أصيل يوم فى «سوق الخيط» وكانت معها صاحبة لها ، ولما وقع بصرها على مالت على أذن صاحبتها ، فنظرت إلى هذه وابتسمت لقد حدثتها عنى . . شعرت بزهو لاحد له ، واقتربت منهما . ووقفت على الحوانيت التى وقفتا عليها . . وقلبت فى البضاعة التى اشترتها صاحبتى . . ولما خرجتا من السوق أشارت إلى بأن لا أتبعها ، فحييتها من بعيد وانصرفت .

وبعد الغروب كنت فى شارع البحر ، ولمحتها قادمة من بعيد ، كانت تتجه نحوى ، وأمسكت بيدها وضغطت عليها لقد جاءت أخيرا . . !

وقالت وهى باسمة :

«من مصر . . . ؟»

«آه . . .»

«وحدك . . . ؟»

«وحدى . . . !»

«مفيش حد فى الإسكندرية وحده غيرك . . .»

«قسمتى كده .»

وضحكت . . .

ثم سألتنى ونحن نتمشى :

«ما الذى كنت تقوله لى فى سوق الخيط . . . ؟»

«كنت أقول إنك أجمل من رأيت من النساء . . .»

«وهل رأيت كثيرا من النساء . . ؟»

«من كل جنس ولون . . !»

«لقد خاب نظرى فيك . .»

«لماذا . . ؟»

«أتصورك ملاكاً . . لو داعتك وهدوء نفسك . . ولهذا أحببتك ولهذا جئت . . أما الآن بعد أن عرفت أنك شيطان . . فدعنى أذهب . . !»

وابتسمت فى إغراء وفتنة . . أحبتنى . إننى لم أسمع هذه الكلمة من امرأة قط . . ونظرت إلى عينيها وسبحت فى أعماقها ولم أقل شيئا ، وأخذنا نتمشى . . نروح ونجىء فى الطريق متمهلين حالمين . .

وأخيرا قالت :

«لا أستطيع أن أمكث معك الليلة أكثر من ذلك . وسأنتظرك غدا فى الصباح الباكر فى منزلى . . سأقف فى النافذة من مطلع الشمس . . . !»

«ألا تجلسين معى قليلاً على هذا المقعد . . . !؟

«آسفة . . لا أستطيع . . لقد جئت الليلة لأراك فقط . .»

وشددت على يدها ، وشيعتها ببصرى حتى توارت .

وفى الصباح اتخذت الطريق إليها . . وصعدت درجات منزلها الصغير الحقير . . وكأننى أصعد إلى السماوات . . لم أفكر فى شىء ، وكنت كالمأخوذ . وكانت هناك قوة جبارة تدفعنى إلى ذلك دفعاً . وكان السلم قذرا ، وتنبعث منه رائحة خانقة ، ومع ذلك فقد صعدته فى بطء وكنت أمعن البصر فيما حولى وأتمهل . . ورأيت أول ما رأيت فتاة صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء تحت دكة خشبية ، ولما بصرت بى ابتسمت فى خفر شديد . . وكانت عيناها تحدقان فى بقوة ، وكان وجهها صبوحا وملامحها مشرقة ، وابتسمت لها وحييتها . . وسمعت صوتاً ناعماً يقول :

«تفضل . . .»

كان صوت نعمات ، وكانت واقفة فى الصالة عارية القدمين محلولة الشعر فى ثوب أبيض نضير . . وقفت ضاحكة ونظرت إليها فى دهشة ، فأشارت إلى باب غرفتها ، وقالت وهى تبتسم :

«تفضل . . لماذا تنظر إلى هكذا ؟» .

«لقد تغيرت . . وكدت أنكرك . ! إنك فى الملاءة فى الشارع . . غيرك فى هذا الثوب فى المنزل . .»

وضحكت ، وأجلستنى بجوارها على كنبة فى الغرفة . .

لقد أحببتها فى هذا الثوب ، وهى عارية القدمين محلولة الشعر . كانت أشبه بفتاة صغيرة تستقبل الحياة بفتنة طبيعية وأمسكت بيدها . فقالت هامسة :

«كيف جئت إلى هنا . . ؟»

«لا أدرى . .»

وكان هذا حقاً . . وأخذنا نتحدث فى سرور وبهجة . .

ودخلت علينا سيدة أكبر منها قليلاً تحمل القهوة . . وكانت قريبة الشبه بنعمات ولكنها سمراء دعجاء العينين . .

وقالت نعمات :

«أختى . . .»

وسلمت بحرارة وقلت :

«إنها شبيهة بك . . ولكنها تستحم . . وأنت لا تستحمين»

«أنا . . مستحمة بالليل» . .

وضحكت . . فنظرت إلى أختها وقالت :

«فوزية . . مش مصدق . . !»

وصدقت وأمنت ، فإن بشرتها لم تقع عليها الشمس !

***

وخرجت من البيت وانتظرتها فى الطريق على مدى بعيد من المنزل . . وجاءت بعد نصف ساعة ، ومعها فتاة فى الخامسة من عمرها . . وكانت فى لباس أبيض ومرسلة شعرها وتاركة ساقيها بلا جورب . . من ملاءة فى الليل إلى فتاة أسبور فى النهار . .

كانت الأنظار متجهة إليها على جانبى الطريق ، وكنت أسير أمامها متباطئا . . ولما مرت بى قالت لى فى صوت خافت ولكنه آمر ! . .

«لاتسر أمامى ولا خلفى» . .

ووقفت ساهما أقلب بصرى فى الطريق . . لاأمامها ولاخلفها . .

كيف أمضى إذن ؟ . . ومضت عنى ، وأنا مسمر فى مكانى كالمشدوه ولأول مرة فى حياتى أتلقى الأمر من امرأة . . وكنت أود أن أتمرد ، وأتركها لأخلص من هذا العذاب . .

ظللت فى مكانى واجما . . وكانت قد مضت فى الطريق الطويل فى دائرة الظل ، وثوبها يهتز على جسمها ، ورأيت هذا الجسم يولى أمامى . . هذه الفتنة المنطلقة ، هذا الجمال الذى لا شبيه له ، فكيف أتركه ، وتحملت العذاب ورضيت بالذلة ، وسرت وراءها فى خطوط حلزونية كالكلب الذليل . بعد ساعة سيكون هذا الجسم لى ، ساعة واحدة ليس إلا ، وسأحظى بأجمل امرأة فى الوجود . .

وسأنعم بأقصى مايتمتع به إنسان ، وخرجنا من الحى ، وعادت الفتاة الصغيرة من حيث أتت ، وتنفست الصعداء ، لقد اجتزنا منطقة الخطر . . !

وركبنا عربة وانطلق بنا السائق إلى الفندق ، وأخذ الجواد ينهب الأرض . وكانت جالسة فى سكون وصمت . ولكنها كانت تبتسم فى وداعة ، وفى عينيها طهر كطهر العذارى .

وفتحت لها باب غرفتى . . وجلست إلى المنضدة تقلب فى أوراقى . . وكانت عطشى فحملت لها كوبا من الماء . ووقفت أنظر إليها وهى ترتشف الماء رشفا ، وكانت شفتاها القرمزيتان منطبقتين على حافة الكوب . . ولما تناولت الكوب من يدها انحنيت عليها ، وأطبقت شفتى على هاتين الشفتين وجذبتنى إليها ، وضغطت بذراعها على عنقى . وذقت لأول مرة الشهد الخالص ، والرحيق المختوم !

كانت تجىء كل يوم ، وتجلس معى طول النهار ومعظم الليل . . ومع هذا كله لم أشعر قط بأننى ارتويت . وكانت الساعات القليلة التى تغيبها عنى من أشد الأوقات على نفسى كانت تمر بطيئة ثقيلة فإذا سمعت نقرها الخفيف على الباب استقبلتها ذراعى ، دافنا وجهها فى صدرى ، ومع هذا كله ومع كل ما كان بيننا من اتصال دائم ، وامتزاج متصل . فإننى كنت أشعر فى كثير من الليالى بأن شيئا غامضا يحيط بى . وأنى أجهل الكثير من أجزاء جسمها . . جسمها الذى ضممته إلى أكثر من مائة مرة . كان فيه شىء لا أعرفه .

وكثيراً ما أغمضت عينى لأتصورها بعين الخيال ، وهى نائمة شبه حالمة فى الفراش ، فكانت هذه الصورة لاتجىء كاملة أبداً كان دائما ينقصها شىء ، كان ستار أسود على الساقين ، ونصف الصدر ، والجانب الأيسر من وجهها . وكانت إذا تململت فى الفراش ، ونظرت إلى بعينين ذابلتين وقالت :

«ماأشبهك بطفل . . »

كنت أضحك ، وأود أن أمزق هذا الستار الذى يحجب عنى جسمها وأراه فى دائرة الضوء . وأطعنها بعد ذلك بخنجر فقد كان فى نظرتها ما يروع . وإن كانت نظرة آسرة حالمة .

ولما وضعت يدى على خدها ، وقلت لها فى صوت يرتعش ،

«أنا أحبك . . »

قالت على الفور :

«وأنا أحبك . . !»

وأدمت النظر فى سكون إلى سواد عينيها وابتسمت فسألت وعيناها فى أعماق عينى :

«ألا تصدق . . ؟»

فقبلتها ولم أقل شيئا . . وكانت لا تزال تديم النظر إلى ولا تطرف . كان وجهها أشبه بوجه طفل متسائل ، وعيناها لاتتحولان عن شفتى . ومع هذا لم أتحدث إليها ، ولم أقل لها شيئا ، فمدت يدها وجذبتنى نحوها وكانت فى هالة من الفتنة فوضعت شفتى على شفتيها .

وضممت صدرها إلى صدرى . . وأطلت النظر فى عينيها ، وكانتا تبرقان وسوادهما على أشده . . كانت تبتسم فى اشتهاء ، وكان كل شىء يزيدنى ولها بها وتفانيا فيها . وقد نسيت معها المرض والهم وألم الوحدة .

نسيت كل هذه الأشياء ، واستغرقت فيها مشاعرى وحواسى .

***

كنت أعرف سيدة أجنبية فى محطة الرمل . فانتقلت ومعى نعمات إليها . . وكانت نعمات سعيدة مرحة فى هذا المكان الجديد . . ثم بدأت تضجر !

وكنت لا أسمح لها بالخروج إلا معى . . فى الصباح كنت أخرج وحدى ، وأصحبها معى فى الأصيل . نتمشى قليلا فى شارع البحر . . ثم نعود إلى البيت . وكان يعترى وجهها ونفسها تغير سحرى كلما خرجت إلى الشارع . . فإذا كنا فى نهاية الطريق ، وشعرت بتعب ، وأشرت عليها بالعودة . كانت تقول فى غضب :

«لماذا هذه العجلة . . إننى أحب المشى . . »

إنها تحب السير فى الطريق ، ولا سعادة لها فى غير هذا .

كانت المرأة الفرنجية التى نقيم عندها فى فقر شديد . ولم أكن أعرف من أين تأكل وتعيش . . كانت تعاستها مرة وبؤسها أسود . وكان منظرها وهى تفتح لى الباب ، فى الليالى التى أتأخر فيها يثير الرعب فى نفسى . .

كانت تفتح الباب فى بطء وحذر ، دون أن تشعل النور . . وتنظر بعين مستفسرة ، وشعرها مشوش ، ووجهها عليه كل أمارات الفزع . . ويدها تنتفض على مصراع الباب . . ثم تتذكر بعد لأى . . وتعرفنى فتطمئن ، فتفسح لى الطريق . . فأدخل فى سكون ، دون أن أبادلها كلمة واحدة !

من وقت أن نزلت عندها ، لم أدفع لها شيئا يعينها على حياتها الشقية . وكيف أدفع لها وأنا فى حاجة إلى كل قرش لأطيل مدة إقامتى مع نعمات غارقا فى الملذات ، ضاربا صفحا عن كل عاطفة إنسانية ! لم تطلب منى هذه المرأة الكريمة شيئا . . ولم تشك لى من تصرفات نعمات . التى كانت تظل طول النهار فى البيت ، ولا تقوم بعمل . كانت دائما على جنبها قرب النافذة سابحة فى الأفق . . فإذا حدثتها عن مساعدة المرأة فى شئون البيت . قالت فى حدة أفزعتنى :

«أنا لست خادمة لك أو لها . . »

وكنت أتراجع وأسكت . . .

ولما صورت لها بؤس المرأة وفقرها وشيخوختها ، قالت وهى تهز كتفيها :

«لماذا تعيش إلى هذه السن . . ؟ إن منظرها مرعب . . كلما نظرت إلى وجهها ، وتصورت أننى سأكون مثلها أكاد أجن من الفزع . . !

«ألا تحبين الحياة» . . ؟

«الحياة . . أجل أحبها . . ولكن ماذا تكون الحياة لمثلى من غير جمال وشباب . . إنك لا تعرف هذا الجحيم ولا تدركه لأنك رجل ، عندما يبدأ أول خط من التجاعيد فى وجهى سأفعل هذا . . »

وأشارت إلى عنقها . . !

فقلت لها ضاحكا :

«دعينى أقوم لك بهذه المهمة من الآن . . !»

«أنت . . ! وتقدر . . ؟»

ونهضت وأمسكت بعنقها ، وكانت تضحك . وضغطت . . فألقت برأسها إلى الوراء ، وأسبلت عينيها . ورأيت ظل أهدابها على وجهها . . ولم أكن قد رأيته من قبل قط . ورأيت الدم الذى حبسته بيدى يطفح من وجنتيها ويكتنز فى شفتيها وكانت ترتعشان وعليها ظل ابتسامة فاتنة . . ولف شعرها الأسود وجهها المتألق ، وأسدلت منه خصلات على جبينها . .

وطوقتها بذراعى ، وكتمت أنفاسها اللاهثة .

***

ومرت الأيام ، وابتدأت نعمات تسأم هذه الحياة . . حياة الحبس فى المنزل وعدت ذات يوم للبيت فلم أجدها ، فسألت عنها صاحبة البيت فقالت لى : إنها خرجت ولم تقل لها شيئا . . فجلست صامتا ، والغضب يتطاير شرره من عينى . وجاءت بعد ساعة فسألتها ، وأنا أكتم انفعالى :

«أين كنت . . ؟»

«عند أختى . . »

قالت ذلك بكل سذاجة وبساطة ، وبصوت هادىء زادنى غيظا وحنقا .

فقلت لها وأنا أحاول أن يكون صوتى أكثر هدوءا :

«ولماذا لم تستأذنى . . ؟»

«لم أعتد ذلك . . »

ألقت هذه الكلمات بصوت أكثر هدوءا ، فنهضت نحوها وأنا أفور غضبا ، فتراجعت إلى الوراء وصاحت :

«إذا كنت تود أن تضربنى إضرب . . إضرب لأنك تحب أن تضرب . لا لأنى فعلت شيئا أستحق عليه الضرب . . إذهب إلى فوزية واسألها أين كنت . . »

«لا داعى للسؤال فأنا أعرف أنك كاذبة . . »

«كاذبة . . ! إنك لا تصدق أحدا ، والشك ينغص عليك حياتك . إنك تتصور أنى قد استسلمت لك فسأ . . »

ووضعت يدى على فمها ، وضغطت بقوة . . لا أود سماع هذه الكلمة البشعة . . إن مجرد تصورى أنها تفكر فى أن تعطى هذا الجسم لغيرى كان يطير لبى . . ودفعتها إلى الوراء بعنف وشراسة . فارتمت على الأرض باكية .

وأخذت أروح وأجىء فى الغرفة كالنمر المحبوس فى قفصه .

***

أخذت نعمات تغيب فى المساء . . وتتأخر أحيانا إلى نصف الليل . وكانت النقود التى معى قد نفدت . وصاحبة البيت على حالها من الفقر والتعاسة . وكان عراكى مع نعمات يوميا . . ولم أكن أدرى أين ذهبت وكنت واثقا من أنها لا تذهب عند أختها كما كانت تقول .

وكنت إذا عدت ولم أجدها فى المنزل ، أنزل وأبحث عنها فى الطريق كالمجنون . . أتطلع إلى الوجوه ، وجوه النساء التى تسير فى شارع البحر بعد الغروب . فى هذه المنطقة وجدتها وفى هذه المنطقة تعود . . لتقع على صيد جديد .

ولقد انقلبت الكلمات الحلوة التى كنت أسمعها منها إلى فحيح الثعابين وغدا جسمها فى نظرى جيفة عفنة . ولقد كنت أود أن أمزق هذا الجسم بالسياط بعد أن غمرته بالقبل . . ولكن يدى مشدودة إلى عنقى . لم يكن معى ما أشترى به السوط .

لقد ألهبت الخواطر كيانى ، وسرت فى الطريق وعيناى محمرتان . ولمحت من بعيد هذا القزم . هذا القزم الذى قابلنى أول ليلة فى شارع البحر وعرض على نساء من كل لون وجنس ، لابد أنه يعرفها ويعرضها على الرجال ، وفى ثورة جنون ناديته بصوت حاد . فجاء

مسرعا . أخذت أحادثه . . وأعاد على المناطق التى يعرفها ، وذكر لى أوصاف النساء فيها . . إنها ليست منهن . . ولكننى لم أقتنع ، وسألته فى لهفة وقلبى يتوثب :

«أتعرف نساء من بحرى . . ؟»

«أيوه . . »

وحدقت فى وجهه بقوة وسألته ، وقد شعرت برأسى يدور وقلبى يتوقف عن الخفقان :

«أين . . فى أى شارع . . ؟ تكلم»

فذكر الشارع . . إنه ليس شارعها وشعرت بالارتياح . . ونقدته شيئا وصرفته . .

وانطلقت أصفر فى الطريق .

***

وتغيرت نعمات مرة أخرى ، وعادت إلى حالها الأول ، اشتد تعلقها بى . . وكفت عن الخروج . . عادت إلى سكونها وتطلعها من النافذة . ومضت أيام ورجعنا إلى سعادتنا الأولى . . ونسينا الماضى . .

وذات ليلة لم أجدها . . وانتظرت ساهرا إلى الصباح فلم تأت . وذهبت إلى منزلها فلم أجدها . . وبحثت عنها فى كل مكان فلم أعثر لها على أثر .

كنت فى حالة يأس قاتل . كنت أصر بأسنانى ، وأضرب يدى فى الهواء . كنت شريدا طريدا ، واجتمعت على محن الزمان كلها فى ساعة مظلمة من حياتى . .

وذات ليلة بصرت بها من بعيد تمشى فى شارع البحر . . كانت تسير الهوينى كما شاهدتها أول مرة ، ولكنها لم تكن وحدها ، كان معها رجل آخر .

هجرتنى «هاجر» بعد عشرة طويلة دامت ثمانية أعوام خرجت فى الصباح الباكر ولم تعد ، ولقد بحثت عنها فى كل مكان اعتادت الذهاب إليه ، فلم أعثر لها على أثر .

ولقد تربت هاجر فى بيتى ، جئت بها من الريف وهى طفلة فى السابعة من عمرها ، لتخدم عندى ، ولكننى لم أعاملها قط كخادم ، لأنها كانت يتيمة وفقيرة ، وكانت جميلة ضاحكة كالشمس .

وكانت «هاجر» فى طفولتها الأولى لا تكذب قط . . كانت مثال الصدق والإخلاص . . كانت تروى لى الأخبار فى صراحة وبراءة ، وكنت إذا سألتها عن شىء وظهر أنها لا تعرف كانت تجيب مسرعة :

«لا أعرف . . »

لم تكن تكذب قط .

وكانت أبدا ضاحكة طروبا . . تملأ البيت سروراً وبهجة .

***

ثم مضت الأعوام وكبرت «هاجر» . . تغير جسمها وبرز نهداها ، واكتنز صدرها ، ولمعت عيناها ببريق الأنوثة وسحرها ، ورق صوتها ، وزاد عذوبة وفتنة .

وطال مع هذا صمتها ، وتغيرت طباعها ، فكنت كثيراً ما أراها مطرقة واجمة لسبب ولغير سبب .

وابتدأت تكذب ، وتدور بالكلام ! وتنظر كثيراً فى المرآة وتطيل النظر ! .

ودخلت مرة البيت ، فوجدتها واقفة على الباب تتشاجر مع بائع الخبز وكان غلاما وسيما فى السابعة عشرة من عمره . . ثم طردته وامتنعت عن أخذ الخبز منه شهرين

كاملين . . ثم عادت وأخذت منه .

ولما سألتها :

«لماذا رجعت إلى بائع الخبز . ؟»

قالت بهدوء :

«حسن . . ؟»

«آه . . حسن . !»

«إنه مسكين . . !».

وعادت إلى سهومها وصمتها ، ولقد عجبت لهذا التغير المفاجىء الذى طرأ على «هاجر» .

***

وسمعتها مرة ، وأنا صاعد على سلم البيت تبكى وتعول . . ثم رأيتها تضرب الخادم الصغير الذى معها فى البيت ، لأنه أخذ الخبز من حسن ولما سألتها عن ذلك ، قالت وهى تنشج : «أنه ابن كلب . . وقد طردته . . ولا يمكن أن نأخذ منه الخبز مرة أخرى . . إنه غشاش لص . . !» .

فصمت ولم أقل شيئا .

***

وذات يوم خرجت «هاجر» ولم تعد . . لقد هربت مع حسن بائع الخبز . . !

كان الأسطى عبد الصبور يسير بعربته الأنيقة فى شارع الكورنيش ، وفى منطقة الشاطبى يفكر فى راكب جديد ساعة الغروب . . عندما أوقفه الطبيب البيطرى ، وأخذ يفحص جواده ، فك وثاقه من العربة ، وأقبل به وأدبر . . ثم سلمه لتابعه فأخذه هذا ومضى .

ووقف «العربجى» مذهولا وتجمع الناس من حواليه ، وأخذوا يهزأون به ، ويضحكون منه وزاده هذا عذابا وألما فأخذ يصيح :

«أخذوا منى الحصان وأنا مسكين مثلكم ! . . لماذا تضحكون وتسخرون دائما من التعساء أيها المساكين ؟» .

وبكى وأخذ يسترحم الناس ، ولكن ما من راحم . فقد سار الجواد فى طريقه إلى الشفخانة .

واشتد صياحه ، والناس يتضاحكون من حوله ، وقد وجد الفقراء مأساته ملهى لهم .

واستعار عبد الصبور جوادا من أحد زملائه ، وركب عربته إلى البيت ، وأخذ يفكر طول الطريق فى المصيبة الجديدة التى ستنزل على زوجته وبناته عندما يعرفن ما حدث للجواد ، وأخذ يسائل نفسه ويعجب ، لقد مرض هو من قبل ومرضت زوجته فلم يجد من ينقله إلى المستشفى ، أو من يقوم بتمريضه . ولقد مرض أحد أولاده منذ سنوات ومات ، ولم يجد وهو الفقير المعدم مستشفى يأويه . فكيف نزلت الرحمة على الحيوان وأغفلت الإنسان !

وظل يفكر فى هذا ومثله حتى بلغ البيت ، واستقبلته زوجته وبناته الثلاث على الباب ، كعادتهن ، ولما رأين الجواد الغريب نظرن إلى عبد الصبور مستغربات . . فقال

وهو يضرب كفا على كف :

«أخذوا منى الحصان ياستى» .

وبكت المرأة وسالت دموع الفتيات . . ودفعوا جميعا العربة إلى حظيرتها ودخلوا البيت وأغلقوا الباب .

ولم يتعش عبد الصبور وكذلك أسرته . . وخيم على البيت جو من الحزن الكئيب . ولما كان وجود عبد الصبور فى البيت سيزيده حزنا على حزنه ، فقد خرج إلى المقهى الذى اعتاد الجلوس فيه كل ليلة .

وجلس يشرب الشاى الأسود ويدخن «الجوزة» ، ورأى الجالسين فى المقهى يلعبون النرد والورق . وكان يود أن يتحدث معهم ويقص عليهم قصته .

ولكن أحداً منهم لم يعره سمعه . فجلس وحيداً على رصيف المقهى ، وكانت العربات تمر أمامه فى الطريق . وحوافر الجياد تضرب فى الأرض وكان ينظر إليها متحسرا ، وتذكر جواده المسكين ! ولم يكن يدرى ماذا يفعل . . وأخيراً نصحه أحد الأفندية بأن يكتب إلى مدير «الشفخانة» فغادر المقهى وهو يفكر فى هذا .

ولما رجع إلى البيت علم من زوجته أن فى المنزل الحديث المواجه لبيتهم طالبا فى كلية الطب . . وقد يساعدهم فى محنتهم وذهب إليه عبد الصبور فى الصباح فلم يجده . وعاود الكرة مرة أخرى فى المساء ، هو وزوجته ودرية كبرى بناته .

ودخلوا على الطالب فى غرفته ، وكان جالسا على مكتب صغير عليه أكداس من الكتب والأوراق ، ونهض من مقعده ، وصافحهم ورحب بهم ، وأجلسهم أمامه فى نصف دائرة على كراسى من القش .

ونظرت إليه درية وكان نحيلا شاحب اللون . . حتى ظنت أنه لا يجد كفايته من الطعام .

وهمست فى أذن والدها بما يدور فى خاطرها ، فقال لها : إن ذلك من كثرة الاستذكار ! فعجبت لهذا وصمتت .

واستغرب الطالب لزيارتهم له ، ولم يكن يختلط بسكان الحى ، وظنهم من أقرباء خادمته العجوز ، ولهذا احتفى بهم وقدم لهم القهوة !

ولما حدثه عبد الصبور عن الجواد ، نظر الطالب إلى درية وقال وهو يبتسم :

«إننى طالب طب ياعم عبد الصبور . . طب بشرى لا بيطرى ، ومع هذا سأرى

المسألة ، فإنى أعرف الدكتور عصمت وهو طبيب بيطرى فى المدينة ومن أصدقاء والدى وسأذهب إليه غدا . . »

فشكره الأسطى وانصرف هو وأسرته

***

وفى اليوم التالى أرسل عبد الصبور إلى الطالب زوجته ومعها درية لتسألا عن الجواد . . فاستقبلهما بترحاب أكثر ، وقال لهما : إن الجواد مجروح حقا . . ولا يمكن لأحد أن يخرجه من الشفخانة إلا بعد أن يشفى تماما ، وخرجتا من عنده حزينتين .

وكانت درية تفكر وهى راجعة إلى بيتها فى هذا الطالب المسكين وتعجب لشحوب لونه ، واصفرار وجهه . ولما هبط المساء ظلت طول الليل تفكر فيه . . إنه صموت قليل الكلام ولكنه عندما يتحدث . . يتحدث فى هدوء ، وكان يطيل النظر فى وجهها ، وكانت هى تضطرب لهذا ولا تعرف السبب !

وبعد يومين من المقابلة الأولى والثانية ، كان طالب الطب يشغل كل وقتها وكل تفكيرها !

كانت تفكر فيه نهارها وليلها ، وتراقبه من نافذتها فى النهار وتراه وهو خارج إلى الكلية . وتبصره وهو عائد منها ، وترى نور غرفته فى الليل وهو ساهر يستذكر دروسه ، وكانت تسهر حتى يغلق النافذة ، ويطفىء النور ، وتظل تتقلب فى فراشها وصورته لا تبرح ذهنها إلى الصباح ، ولم يكن هو يحس بشىء من شعور درية نحوه ، لأن إعجابها به كان صامتا وتطور الإعجاب على مر الأيام إلى حب أكيد تغلغل فى الأعماق ، ونفذ إلى سويداء القلب . وكانت سلوتها الوحيدة أن تراه عن قرب ، وتروح وحدها لتسأله عن الجواد . وكانت تتمنى من كل قلبها أن يظل الجواد فى «الشفخانة» لتجد السبيل إلى الذهاب إلى بيت الطالب !

كان الحب قد استبد بها وأخذ منها كل مأخذ . وكانت تتحدث إلى الطالب ، وهى لا تقوى على رفع عينيها إلى وجهه . كانت تنظر إليه فى استكانة وذلة . كانت تحبه إلى درجة العبادة ، وكانت تتمنى أن تقبل قدميه ، وتمرغ وجهها فى رجليه .

وبعد أيام عاد الجواد إلى البيت وسروا به جميعا ورقصوا طربا لمقدمه إلا درية . فإنها حزنت لذلك حزنا شديداً . لأنها لن تجد بعد ذلك سببا يدعوها إلى زيارة الطالب فى بيته حزنت غاية الحزن ، وكانت تنظر إلى الجواد فى غضب ومقت شديدين .

وساءت بها الحال حتى هزلت ومرضت .

وامتنعت عن تقديم الطعام والشراب للجواد . وتركت هذا لأمها وأختها حسنية . وكانت كلما مرت على الجواد تحدثه بصوت خافت .

- لماذا عدت أيها الأحمق . ألا تعرف حبى ؟ . لماذا لم تتمارض من أجل درية المسكينة ! ألست عزيزة عليك ؟ ! . .

وذات ليلة كانت ساهرة فى فراشها ، وقد بلغ منها الغضب مبلغه ، وسمعت صهيل الجواد ، وخطر لها خاطر سريع . . فتناولت سكينا ونزلت إلى فناء البيت حيث الجواد هبطت السلم على أطراف أصابعها ، حابسة أنفاسها حتى اقتربت من الجواد . ووقفت بجواره خائفة ترتعش أكثر من دقيقة كاملة . . وكانت تفكر . . لو أنها جرحته فى رجله فقد يرفسها رفسة قاتلة . ووقفت تفكر وتتخير المكان الملائم

وبصر بها الأسطى عبد الصبور ، وهو عائد من الخارج . رآها واقفة بجوار الجواد وفى يدها السكين ، فنظر إليها فى عجب ودهشة ، ولم يستطع أن يفهم شيئا ! . .

ليـــلة لن أنســـاها

كان ذلك فى أوائل الصيف ، والحرب على أشدها ، وكانت القاهرة تعج بالجيوش الإنجليزية ، منها يذهبون إلى الميدان وإليها يعودون ، حيث يمرحون ، ويعيثون فسادا فى هذا البلد الطيب . . وانتشر التيفوس فى القاهرة وسقط أخى صريع المرض . ورأى الطبيب نقله إلى مستشفى الحميات فى الحال ، واستدعى عربة المستشفى وجاءت بعد أربع ساعات . فقد كانت الحمى منتشرة فى ذلك الوقت كالطاعون وكانت عربات المستشفى تعمل طول النهار وطول الليل فى نقل المرضى .

وأنزلنا أخى إلى العربة ، وأضجعناه على السرير فى داخلها وجلست أمامه ، وجلس بجوارى عمال المستشفى ، وكانت العربة قذرة من الداخل والخارج ، والفراش الذى تمدد عليه المريض أشد قذارة من ملابس الممرضين وكان منظرها كئيبا يبعث الانقباض إلى النفس .

وجلست صامتا طول الطريق ، فلم أتبادل كلمة واحدة مع إنسان ، وكان أخى يدور ببصره فى سقف العربة ويهذى ، ولم يكن يحس بشىء مما حوله ، وكانت العربة ترض أجسامنا والغبار يتطاير منها فى الطريق ، والجو خانق الحرارة .

وعندما بلغنا العباسية ، وصعدنا فى طريق المستشفى الطويل المترب ، رأيت نعوشا تنحدر إلى المدينة . . كانت خارجة من المستشفى إلى المقابر ، وليس آلم للنفس من هذا المنظر ، إنه يغرقك فى طوفان من الأحزان .

ولما دخلت المستشفى ، ووجدت هذه الوجوه الشاحبة ، وهذه الأجسام الهزيلة ممددة على الأسرة ، وحولها الذباب ، تملكنى رعب قاتل ، وحاولت أن أنسى صورة هؤلاء التعساء الفقراء الذين رأيتهم فى خيام المستشفى ، حاولت أن أنسى كل هذه الصور البشعة ، وأنا راجع وحدى فى الطريق ، بعد أن ولى النهار وخيم الظلام ، واختفت النعوش من الطريق المنحدر . . حاولت أن أنسى كل هذا ، ولكنى كنت أحاول عبثا

كانت هذه أول مرة أدخل فيها المستشفى ، وكان ما شاهدته أكثر مما تتحمله أعصابى ، فأخذت وأنا راجع وحدى فى ذلك الشارع الطويل المقفر ، أتمثل هذه الأشباح الآدمية وقلبى يذوب حسرات .

ركبت الترام ولا أدرى كيف بلغت منزلى ، فقد كنت كمن فقد عقله جملة واحدة .

بحثت عن مفتاح الباب فى جيبى فلم أجده ، وتذكرت أننى تركته داخل البيت ، وأنا ذاهب إلى المستشفى ، ووقفت ساهما ، فقد ضاعف هذا الحادث من أحزانى ، فما الذى أفعله فى هذه الساعة من الليل ، وليس لى قريب فى القاهرة ؟ وليس معى من النقود ما يكفينى لركوب سيارة إلى قلب القاهرة ، والنزول فى فندق .

ضربت الباب بقبضتى فى عنف وقوة ، وسمعت صوتا نسائيا آتيا من أعلى :

- مين ؟

سمعت هذا الصوت لأول مرة ، وتذكرت أنه يسكن فى أعلى البيت بقال صغير متزوج ، يشغل غرفتين على السطح .

فقلت بصوت خافت :

- أنا صلاح . .

وسمعت حركة ، ثم رأيت نور مصباح يلقى بضوئه على السلم وسقط النور على وجهى ، وأنا أرفع رأسى ، ثم تحرك الضوء إلى الحائط ، وهبطت حاملة المصباح السلم . . ورأيتها وهى تنزل الدرج فى تؤدة ولين ، وأحسست بجو عطرى يملأ خياشيمى ، على الرغم من رائحة البترول المتصاعدة من المصباح المحترق .

وقفت على درجتين فوقى ، فرفعت وجهى إليها وقلت :

- نسيت المفتاح . . تسمحى بأى مفتاح أجربه ؟ . .

فقالت مسرعة :

- حاضر . . وازى أخوك ؟ . .

- بخير . .

فصعدت السلم مرة أخرى ، وعادت وهى تلهث ، وناولتنى المفتاح .

وجربته فى الباب فلم ينفتح ، وحاولت معالجته بالقوة فاستعصى على ، فوقفت يائسا مطرقا ، وسمعتها تقول :

- اتفضل بات فوق . .

فاعتذرت . . وألحت . . ولم أر أمامي سوى هذا السبيل . . وكان التعب قد بلغ مني منتهاه ، فصعدت وراءها .

وبلغنا السطح ، ودخلت أمامي إلى غرفتها . . وكنت أتوقع أن أرى زوجها نائماً ، فلما لم أجده ، سألتها عنه ، فقالت :

- انت مش عارف ؟ . . ما هو محبوس . .
- ليه ؟ . .
- باع علبة كبريت أزيد من التسعيرة . .

ضحكت ؟ . . بقال صغير يقع في يد القانون ، وكبار اللصوص يمرحون في الأرض ! . .

- وبتنامي هنا وحدك ؟ . .
- أيوه . .

وجلست على كرسي خشبي أنظر إلى أثاث الغرفة ، وقد كان يدل على فقر شامل . . كنبة باهتة اللون في مدخل الباب ، وسرير حديدي في زاوية من الغرفة ، ومرآة مهشمة في الحائط وبعض الملابس معلقة على مشجب وعلى شباك السرير ، وكل شيء يدل على الكآبة . أما الغرفة الاخرى فقد جعلتها كمطبخ ومخزن .

وجلست صامتا أحدق في ذبالة المصباح ، وهي تتمايل مع الهواء .

وأخذت صاحبتي تتحرك أمامي في نشاط وحيوية ، وهيأت الغرفة وسوت السرير ، وملأت القلة . .

وشعرت بأنفاسها العبقة ، وهي تروح وتجيء أمامي ، وأحسست بالراحة وانزاح الهم عن صدري ، وتجدد نشاطي كله ، ونسيت ما كابدته طول النهار من شقاء وتعب . .

وأخذت أحادثها حتى مضى جزء من الليل ، وعلمت من حديثها أنها تعرف كل شيء عني على الرغم من أنني لم أرها سوى هذه المرة ، وتلك هي طبيعة المرأة . . حدثتني أنها شاهدت العربة وهي تحمل أخي ، وشيعتها بالدموع . . وكانت تود في الصباح أن تحدثني عندما أبصرت الطبيب ، ورأت ما على وجهي من مظاهر الاضطراب الشديد ، ولكن الحياء عقد لسانها . . فشكرتها على هذا كله .

ولما أشارت إلى السرير لأنام رفضت ، وطلبت منها أن تفرش لي في خارج الغرفة على السطح ، فأبت ، ثم رضخت لما رأت إلحاحي الشديد .

وتمددت على الأرض ، وعيناى إلى النجوم فى السماء الصافية الأديم . . لقد نمت فى العراء من قبل على سطوح المنازل فى الريف ، وفى قلب الحقول ، ولكننى لم أشعر فى أيامى الخوالى بما شعرت به فى تلك الليلة من توتر وقلق واضطراب ، إن على قيد خطوات منى امرأة غريبة فى ربيع عمرها ، وتعد فتنة فى بنات جنسها ، قد أطفأت المصباح ، وتركت باب غرفتها مفتوحا تكرما منها وتأدبا ، وأنا أسمع بين كل لحظة وأخرى حركة جسمها على السرير .

فكيف أنام ؟ . .

أخذت أعد النجوم فى السماء حتى غفوت ، واستيقظت مع الفجر . . وأنا شاعر بالعطش الشديد . . وبحثت عن القلة حولى فلم أجدها . . ثم رأيتها وقد وضعتها على منضدة رخامية قرب الباب ، فاتجهت إليها ، ودخلت الغرفة على أطراف أصابعى ، مخافة أن تصحو صاحبتى . . ووقع نظرى عليها وهى نائمة على السرير ، وقد تهدل شعرها ، وانحسر ثوبها عن ساقيها . وقفت عند مدخل الباب أنظر إليها وإلى القلة وأسائل نفسى :

من أين أرتوى ؟

وشعرت بخفقان شديد فى قلبى ، وباضطراب سرى فى جسمى ، وبالعرق قد أخذ يسح على جبينى . . ووقفت فى مكانى ساهما ، وبصرى معلق لايتحول عنها ، ولو فتحت عينيها فى تلك اللحظة وشاهدتنى لأنكرتنى .

شربت ورجعت إلى السطح . . ووقفت على حاجزه أرقب المدينة الشامخة وهى تتنفس مع الصبح . . وظللت فى مكانى مستغرقا فى خواطرى حتى لاحت خيوط الشمس ، فانثنيت عن الحاجز ، فوجدت صاحبتى قد استيقظت ، وأخذت تنشر فراشها ، فقالت وهى تبتسم فى رقة :

- ازى ما أصبحت ؟ . .
- الحمد لله أشكرك
- نمت كويس ؟
- أيوه .
- مافيش برد ؟
- أبدا . .
- ولا تخافشى وحدك ؟

فضحكت . .

- أنا فلاح ، حرست وحدى الأجران فى الغيطان ، وفى قلب الليل

- على كده كنت الليلة حارسى ؟

- وحافضل حارسك لغاية ما يرجع زوجك . .

ونظرت إلى نظرة طويلة وصمتت . .

وجئت بنجار فتح الباب . . ودخلت معى الشقة ، ولما رأت ما فيها من غبار وسوء نظام طلبت منى أن أعطيها المفتاح . . فأعطيته لها بعد أن شكرتها ، وانصرفت إلى عملى .

وكنت أعود من قبل إلى البيت متثاقلا ، وبعض الأحيان لاأعود الا فى الليل لأنام ، فقد كان البيت ثقيلا على نفسى . . لم يكن لى فيه ما يؤنسنى . أما الآن . . فقد رجعت سريعا ، ووجدتها قد قلبت كيان البيت كله . .

نظمت كل شىء ، وغسلت لى ملابسى ، وطبخت أيضا . . وأكلنا معا . . وذهبت إلى المستشفى لأعود أخى . .

عدت بعد الغروب . . ولما سمعت حركة أقدامى على السلم هبطت إلى مسرعة وطمأنتها على الحالة فسرت . . وتعشينا وجلسنا نتحدث على السطح ، ولم يكن فى المنزل أحد سوانا .

. . فقد كان فى الطابق الأرضى أحد الأجانب ، وكنت لا أراه إلا لماما ، فقد كان تاجرا كثير السفر بين القاهرة والإسكندرية . . أما زوجته فقد كانت دائما مغلقة عليها الباب ، ولا تختلط بأحد من السكان .

وبقينا على هذا أسبوعا كاملا . . وفى كل ليلة كانت تثور غريزتى ، وفى كل ليلة كنت أكبح جماح نفسى وأردها عما تبغى . وفى كل ليلة كان يعاودنى الشيطان فيحدثنى أن الظروف جمعتنى مع امرأة حلوة فى بيت واحد ، وهى الآن فى متناول يدى . . وإذا لم أروِ منها شبابى الآن فلن أستطيع ذلك غدا . . وهى فرصة ذهبية أتيحت ولن تعود .

رجعت من المستشفى ذات يوم وأنا فى حالة شديدة من اليأس ، فقد ارتفعت حرارة أخى إلى درجة خطيرة ، وغاب عن وعيه مرة واحدة ، وتركته بعد الساعة الثامنة مساء ، وأنا أجر نفسى فى طريق المستشفى جرا . .

ركبت الترام ونزلت فى قلب القاهرة ، وقادتنى رجلاى

إلى حان من الحانات . . وأخذت أشرب لأغرق فى الكأس أحزانى وأخدر أعصابى ، وكان فى الحان كثير من الجنود الانجليز . . يملأون الدنيا صياحا ، ويغنون أغانى بشعة ، وكنت أنظر إليهم بغيظ مستعر ، وأود لو أحطم أنوفهم .

وبلغت البيت قبل منتصف الليل ، وأحسست بى سعدية ولعلها كانت تنتظرنى ،

فهبطت مسرعة وابتدرتنى بقولها :

- شغلتنى . . ازى الحال ؟

فصمت ولم أقل شيئا . . ورفعت إليها عينين حمراوين تجول فيهما الدموع ، واقتربت منى ، ووجهها على فمى . . فقلت بصوت خافت :

- فى أسوأ حال . .

فوضعت يدها على عاتقى وقالت :

- فكر فى رحمة الله . .

ولم أكن فى ذلك الوقت أتوقع رحمة من الأرض أو من السماء .

ودخلت إلى غرفتى ، وجلست على الفراش وأنا مطرق برأسى ، وشعرت كأنى أحمل وحدى شقاء الناس جميعا . . اقتربت منى سعدية وجلست بجانبى ، ومدت وجهها إلى وقالت :

- صلاح . . انت سكران ؟

فأمسكت بيدها ، ونظرت إلى عينيها ، وسبحت عيناى فى الضوء والبريق والظلام . .

سبحت عيناى . . وجردتها بخيالى من كل ملابسها ، وتمثلت لى الفتنة التى تطل من كل شىء فيها . .

وطوقتها بذراعى وهى تتمنع ، ثم لانت أخيرا ، واستسلمت

وفى صباح اليوم التالى ، ركبت الترام إلى المستشفى . وكنت أشعر بقلق وخوف ورهبة .

كانت مئات الخواطر السوداء قد طافت برأسى . . كنت أقدر أن نقمة السماء قد نزلت بى ! . لهذا تشاءمت جدا ودخلت المستشفى وجريت مسرعا إلى غرفة أخى .

كان سريره خاليا . . فتسمرت فى مكانى .

رأيت الممرض داخلا . . وفهمت من نظراته كل شىء . . لقد انتهى أخى فى الليل . . وهو الآن فى ثلاجة المستشفى

ومع الشمس الغاربة ، كنت أسير وحدى منكس الرأس حزينا واجما ، إلى المحطة . . وتركت القاهرة إلى الأبد .

الدرس الأول

كنت قد تبطلت نصف عام كامل ، وضاقت بى سبل العيش ، فلم أوفق لعمل فى طول هذه المدينة وعرضها .

كان هناك قدر عات يسد فى وجهى السبل ، وحظ عاثر يأخذ علـى كل طـريق . وأخيرا ، بدا لى أن أفعل شيئا ، فقد درست الموسيقى فى أيام الحداثة دراسة لا بأس بها ، فلماذا لا أعطى دروسا لعشاق هذا الفن الجميل ؟

وعلقت لافتة كبيرة على شقتى الصغيرة فى شارع حسن الأكبر ، وانتظرت الفرج .

ومضى شهر كامل ، ولم يحضر أحد .

وكنت أتضور جوعا ، وأعانى عذاب حرمان لايصور ، وكان الوقت شتاء . فاجتمع على البرد والجوع والعذاب الاسود ، وكنت كلما نزلت إلى الشارع ، ولمحت اللافتة الكبيرة المعلقة على شرفتى ازددت غيظا وحنقا . .

وكان هناك سيرك شعبى بالقرب من ميدان باب الخلق ، وعلى مسافة قصيرة من المنزل ، وكان دائما صاخبا عامرا بالناس وكنت أسمع منـه كل مسـاء موسيقى رخيصـة مبتذلة ، فيأخذنى الدوار ، ويشتد سخطى على الناس أجمعين !

* * *

وفى مساء يوم سمعت الجرس يدق ، فأسرعت إلى الباب ، وقلبى يضطرب بـين ضلوعى ، ورأيت على الباب فتى نحيلا فى مقتبل العمر ، يحرك يديه فى اضطراب ، وعلى وجهه دلائل الارتباك الشديد .

وقال فى صوت خافت :

– أهذه شقة أستاذ الموسيقى ؟

- أجل . .
- أريد أن آخذ درسا . .
- تفضل . .

وأدخلته فى غرفة صغيرة مطلة على الطريق ، كان بها بعض الآلات الموسيقية ، وصور كثيرة على الجدران . . لسيد درويش . . وبيتهوفن ، وفاجنر . . وموزارت . . وشوبير .

وجلست إلى مكتبى . وجلس الشاب أمامى منكمشا على نفسه ، ولاحظت بعد قليل أن يده اليمنى ترتعش قليلا ، كما أنه يهز ساقيه ، ولا يستطيع الثبات على كرسيه إلا بجهد عظيم ، وأدركت من النظرة الأولى إلى عينيه ويديه أنه يعانى اضطرابا عصبيا شديدا ، فتلطفت معه فى الحديث حتى زال ارتباكه وهدأت أعصابه نوعا .

ثم سألته :
- أى آلة تحب أن تتعلم ؟ .
- الكمان . .
- هذا حسن . . ومن الذى أرسلك إلى ؟ .
- الدكتور هلال . .
- الدكتور هلال حدثك عنى ؟!
- لا أقصد هذا . . وإنما أقصد أن الدكتور أشار على بدراسة الموسيقى ، لأننى مريض بالأعصاب .
- إنك لست مريضا . . بل أنت فى أتم صحة ! .

ونظر إلى بعينين فيهما لواعج الأسى ، وصمت . وفى تلك اللحظة كنت قد تناولت العود ، وعزفت له قطعة تركية شجية ووجدته فى خلال ذلك قد أرسل بصره من النافذة المفتوحة الى السماء الصافية الأديم ، واستغرق فى عالم الأحلام .

واتفقت معه على أن يحضر ثلاثة أيام فى الأسبوع ، وحيانى وانصرف .

***

وجاء لأخذ الدروس ، وكان فى الأسابيع الأولى يحضر فى الميعاد ، ثم أخذ يتأخر ، ولاحظت عليه الملل ، فسألته :
- ألا تحب الموسيقى ؟
- أكثر من أى شئ فى الحياة
«لماذا لا تحضر فى ميعادك اذن ؟»

- إننى أجاهد فى كل مرة ، ولكننى لا أستطيع . . مرة يأخذنى النعاس ، ومرة أخرى أجد نفسى جالسا فى غرفتى وأحس بشئ ثقيل يحط على صدرى ، ويمنعنى من الحركة . . فأظل فى مكانى ساعة وأنا أفكر . . ويلذ لى التفكير ، وأسائل نفسى : ما جدوى كل هذا ؟ . باطل الأباطيل ، موسيقى ! ولمن أتعلم الموسيقى ؟ . . ولماذا ذهبت إلى كل هؤلاء الأطباء ؟! . .

ولماذا لا أموت وأستريح ؟ .
«يجب أن يكون لك هدف فى الحياة . ؟»
«هدف . !»
قال هذا فى استخفاف وقهقهة ، ثم نظر إلى بعينين منطفئتين وقال :

«إننى هالك ياسيدى إن لم يكن اليوم فغدا . . . وأنا أغالط نفسى وأطاوع زوجتى وأذهب إلى الأطباء ، ولكننى أعرف فى دخيلة نفسى أن لا فائدة ترجى من هذا كله»

ولأول مرة أعرف أنه متزوج ، ولم يكن يدور فى خلدى ذلك قط ، فهو أشبه بطالب صغير فى مدرسة ثانوية ، فى كل حركاته وسكناته دلائل الطفولة .

وسألته :
«أين تسكن ؟» .
«فى مصر الجديدة» .
«ولهذا تتأخر» .
«ليس للمسافة دخل فى هذا ، وإنما أنا مريض . . مريض !»

فابتسمت فى وجهه ، وناولته الكمان لأول مرة ، فقد رأيت أن أعفيه من دراسة النوتة قبل أن يسأم ، وينصرف عن الدرس كلية .

ومرت شهور ولم يتقدم خلالها شيئا ، وكانت أصابعه تسيل عرقا ، مع أننا كنا فى صميم الشتاء ، ويده التى تمسك بالقوس تنقص دائما ، وكان يلاحظ هذا أكثر منى ، ويظهر على وجهه الألم .

وكنت أتجاهل ذلك ، وأبذل معه كل جهد مستطاع لأجعله يتقدم ، ويحس فى أعماق نفسه بالراحة . وبأنه أصبح شيئا وبذلك تعود إليه سكينة نفسه ، ولكن جهدى كله كان يذهب هباء ، فقد كانت يده دائما ترتعش وأصابعه لا تثبت فى موضعها ، وكان يعانى من ذلك غما شديدا . واشتد عليه الألم مرة فوضع الكمان والقوس جانبا ، وجلس يبكى كالأطفال ، فتركته حتى هدأ ، ثم عرضت عليه أن يتعلم العود لأنه أسهل كثيرا ، وبعد شهور قليلة سيجد نفسه عازفا للمقطوعات التى يحبها . ولما ألفيته قد استراح إلى كلامى

هذا ، وعاد إليه الأمل من جديد قلت له :

«وسأوفر عليك مشقة الحضور باعطائك الدروس فى بيتك» . وسر لهذا كثيرا .

***

وذهبت إليه فى بيته وفتحت لى الباب سيدة شابة رائعة الجمال ، وكأنها تتوقع قدومى ، فيا أن رأتنى حتى دعتنى إلى الدخول وهى تبتسم فى رقة بالغة ، ووجدت تلميذى جالسا فى الصالة ، فنهض واستقبلنى مرحبا وقدمنى للسيدة التى فتحت لى الباب ، وهى زوجته ، ومدت لى يدها الرخصة . .

وجلسنا نحن الثلاثة حول مائدة صغيرة نتحدث ، واسترسلت معهما فى الحديث حتى نسيت الدرس ، ونسيت أنها أول زيارة لى فى بيتهما ، والحق أن الهدوء الذى وجدته فى البيت جذبنى إليه ، فلا ضوضاء ، ولا صياح أطفال ، ولا صوت خدم ، وإنما سكون مطلق ، وجمال وبساطة فى الأثاث ، وكانت السيدة «اسبور» ، صبوحة المحيا ، رقيقة المشاعر ، وكان وجهها ساكنا ، وعليه مسحة حزن ظاهر ، وعيناها نديتان براقتان فى سواد أخاذ .

وابتدأت الدرس مع زوجها ، وتركتنا فى أثناء الدرس لتعد العشاء .

وبعد الدرس عزفت لهما أكثر من ساعة على العود .

وحملتنا الموسيقى على أجنحتها الذهبية الى رياض البسفور وسرت السيدة كثيرا عندما علمت بأننى تعلمت الموسيقى فى استامبول ، وتمنت أن تذهب مع زوجها إلى هناك ، ولعل سحر البسفور يحدث فى نفسه أمرا .

***

وتقدم رمزى فى دروسه ، وتكررت زياراتى لمنزله حتى أصبحنا صديقين ، ولاحظت أن الرابطة بينه وبين زوجته مقطوعة . . فهو يبغضها بغضاً شديداً ، ويحتقرها فى أعماق نفسه ، ويشعر بالراحة والسكون كلما ابتعدت عنه ، وكنت أجاهد لأقرب ما بينهما مسافة ، ولكن جهودى كلها ذهبت دون جدوى فقد كان منطوياً على نفسه ، زاهداً المرأة ، أو عاجزاً عنها ، ولعل ذلك هو علة أعصابه ، وكان كلما شعر بعجزه أمامها اشتد كرهه لها ، ونفوره منها ، وكان شعوره بالنقص وإحساسه المرهف بحاله قد أتلف أعصابه . والواقع أن وجود المرأة معه تحت سقف واحد قد زاده عذاباً وألماً ، على خلاف ما كان يقدر الطبيب .

وقد سألت زوجته عن أسرته ، فعلمت أن أمه كانت أجنبية ، وقد تزوجها أبوه وهو يدرس فى الخارج ، ثم عاد بها إلى مصر ، وكان هناك نزاع دائم مع أسرته بسببها ، وكانت

دائماً حزينة عليه ثائرة ، وفى هذا الجو العاصف وضعت رمزى ، وفى العاشرة من عمره ماتت ، وتركته لأبيه وكان يحبه كثيراً فنشأ مدللاً ، ثم مات أبوه وخلف له إرثاً يغنيه عن الناس ، ولكن رمزى كان يقف على عتبة الحياة وحيداً عليلاً ، لا يعرف الكفاح ، فسقط صريع المرض . . وأشار عليه الأطباء بالزواج فتزوج من هذه المسكينة التى كانت تعانى كثيراً فى عشرتها معه ، فقد كان يثور لأتفه سبب ويبكى كالأطفال ، ويلعنها ويسبها أمامى ، وهى صامتة صابرة ، وفى عينيها الدمع .

***

وكنت مرة فى بيته فى ساعة الغروب ، وسمع جرس الباب يدق ، فلاحظت أن وجهه اصفر ، ومشى إلى الباب وهو يرجف ثم رجع دون أن يفتحه ويرى من الطارق ، وأخذ يصيح فى وجه زوجته :

« شوفى من . . قلت لك ألف مرة لا أريد لباناً ولا خبازاً يجىء إلى هنا . . لا أريد أحداً يعكر على سكونى . . . » .

ثم مضى إلى غرفته ، وهو يمشى فى حذر ووجل ، وأغلق عليه الباب حتى لا يحس بشيء مما يجرى فى البيت !

وفى الدرس التالى وجدته مريضاً ، وعلمت من زوجته انه تعارك معها البارحة ، وترك البيت ثائراً محتدا ، ثم رجع ونام فى الفراش ، ومن وقتها لم يتحرك . . وكانت صفرة وجهه وبروز عظام خديه ، قد أثارت الشك فى نفسى ، فحدثت زوجته عن ضرورة استدعاء الطبيب ، وجاء الطبيب ووجد عنده التهابا فى الرئة ، ونقلناه بعد يومين إلى المستشفى .

وكان له بعض الأقرباء يزورونه . ولاحظ الطبيب أن وجودهم يثير أعصابه ، فمنع الزيارات عنه ، وبقيت أنا وزوجته نساعد على تمريضه .

واشتد عليه المرض ، فحجزنا سريرا لزوجته بجواره ، وكان يستنشق الأكسجين فى الليل ، وكنت أعاون الممرضة فى مسك الجهاز المملوء بالأكسجين ، وأظل ساهرا فى المستشفى إلى ما يقرب من منتصف الليل ، واشتد عطفى على زوجته فى خلال ذلك ، فقد كانت تسهر فى كثير من الليالى إلى الصباح وهى واقفة بجوار سريره ومع ذلك لا تشكو ولا تتبرم .

وكنت أرى هذه المسكينة تروح وتجىء أمامى ، وشبابها يذبل وعودها آخذ فى الجفاف ، فيعصر قلبى الأسى . . . لقد عاشت السنين التى قضتها معه فى برودة شديدة ، فما أحست بالدفء ولا شعرت باعصار الرجولة يلفها ، ولاقوة الشباب الدافق تسرى فى

كيانها . فقد عاشت هذه السنين وكأنها ما عاشت ، ولقد أدركها اليأس وبرح بها الحزن القاتل ، وظهر على وجهها الذبول ، وروحها الانكسار .

وكثيراً ما التقت عيناى بعينيها الصافيتين الذابلتين . . ولمست يدى يدها ، ولمس جسمى الفوار بالدماء جسمها الذى يود لو يشتعل . وكثيرا ما قرأت فى عينيها النداء . ولكن اذا نظرت إلى زوجها الذى أصبح صديقى ، أحول وجهى وأغمض عينى .

***

كانت ليلة من ليالى الصيف الحارة ، وكنت جالسا قرب النافذة المطلة على حديقة المستشفى ، وبصرى يسبح فى الظلام ثم يرتد إلى الحديقة التى لفها الظلام فى برودته ، فبدت جهمة موحشة . كان السكون يشمل كل شىء وكانت الممرضة واقفة على سرير رمزى ، وبجواره زوجته ، وقرب أنفه جهاز الأكسجين وعلى رأسه الثلج .

وكان وجهه مختنقا ، وعيناه حمراوين ، وكان يهذى ولا يعرف من حوله ، ويغلق عينه ويذهب فى غيبوبة بعيدة ، ثم يفتحهما ويحرك ذراعه المعروقة حتى يمسك بكيس الثلج الموضوع على رأسه ويرمى به بعيدا ، وتنحنى الممرضة وتعيد الكيس إلى مكانه وهو يرقب هذا ببصر زائغ . .

فى الساعة العاشرة سلمت على زوجة صاحبى ، ومشيت إلى الخارج . . وقابلتنى الممرضة فى الممشى . ولما علمت بأننى ذاهب ، اقتربت منى وهمست ، « ابق هذه الليلة . . فالسيدة وحدها . . . وقد يحدث شىء » .

وسرت فى جسمى رعدة عندما سمعت هذه الكلمات ، وبقيت لحظة مسمراً فى مكانى ، ومرت فى ذهنى صورة سريعة عن النعش والحانوق والمقبرة ، ثم اتجهت بخطى بطيئة إلى غرفة المريض ولما رأتنى زوجته راجعاً نظرت إلىّ بوجه ملتاع ، وأدركت كل شىء .

وجلست على الكرسى ، وجلست أمامى على السرير ، وفى ركن من الغرفة ينام صاحبى هناك . لقد جمعتنى به الأقدار فى ساعة مظلمة من حياتى ولقد عشت من ماله ، وأكلت من طعامه وتطورت العشرة إلى صداقة قوية ، وأصبحنا لا نفترق نحن الثلاثة إلا قليلاً . وهانحن هنا كما كنا . . وكما نحب ، جالسين فى غرفة واحدة تحت سقف واحد ، وقد مضى جزء كبير من الليل وخيم السكون .

رفعت بصرى إلى زوجته ، وقلت لها وصوتى يرتجف :

« لماذا لا تنامين . . . لقد نام رمزى . . . ؟ » .

فنظرت إلىّ طويلاً ثم قالت فى عذوبة حبيبة :

« وأنت . . . كيف أنام وأتركك ساهراً . . . ؟ » .
« سأنام بعد قليل فى مكانى . . . » .
« أبداً . . . سأظل ساهرة إلى أن تنام . . . » .
هززت رأسى أسفاً وصمت .

ومضى جزء كبير من الليل ، وانقطع كل حس فى المستشفى وخف وقع أقدام الممرضات فى الطرقات ، وغلبنى النعاس أكثر من مرة ، وأنا جالس فى مكانى ، وغلب زوجة صاحبى كذلك ، ولاحظت هذا فابتسمت وقالت فى همس :

« النوم غلاب . . . » .

تحرك المريض ودفع غطاءه وأزاح الكيس الثلجى عن رأسه فنهضت أنا وزوجته معاً ، وأعدنا الكيس والغطاء إلى مكانهما ، وعلى فراش المريض لمست يدى يدها ، وأحسست بها تلتهب وضغطت عليها دون وعى منى . .

لقد لمست يدها من قبل مرارا ، ولكنى لم أشعر بها حارة ملتهبة كما أحسست بها فى هذه الليلة

تراجعنا عن السرير ، وعاد كل منا إلى مكانه .

ولكننى وجدت نفسى أرتعش ، فأطرقت برأسى وأغمضت عينى . ولما رفعت وجهى ، وجدتها تنظر إلى وعيناها ناطقة بأبلغ كلام .

إنها تنادينى فلماذا لا ألبى النداء ؟ .

تحركت دون وعى منى ، ولمست يدها مرة أخرى . وفى مثل الإعصار كانت بين دراعى . واستفقنا على صوت . . .

كان المريض يهذى ، وكان فاتحا عينيه ، ولكن هل بصر بنا ، وهل عرف ما حدث ، أم لا يزال فى غيبوبته ؟ .

***

انسحبت من الغرفة ، وخرجت مسرعا فى الظلام .

وشفى رمزى ، ولما اشتعلت الثورة العربية فى فلسطين ، كان أول من عبر الحدود إلى هناك ، وأول من قتل من الثوار .

وقد تعلمت من هذا الدرس الأول أشياء كثيرة عن المرأة والحياة .

جســـد وفنـــان

حدث هذا منذ أربع سنوات . .

وكنت قادما من العباسية ، ونزلت من الترام فى ميدان السيدة زينب لآخذ عربة الأتوبيس رقم ١٢ إلى منزلى فى الروضة . وكان الميدان غاصا بالناس ، فقد كان الوقت وقت انصراف الدواوين ، ، وخروج الطلبة والطالبات من المدارس .

وكان اليوم هو اليوم الأول فى الشهر الجديد ، ولهذا كثر الشحاذون حول المسجد ، وفى طول الطريق وعرضه . وانطلق الباعة الجائلون ينادون على بضاعتهم بصوت مزعج ، والتف حولهم بعض السابلة . . وتطاير الغبار ، وأخذ الذباب يضرب الوجوه . . وكان الترام يدور فى الميدان بطيئا مكدسا بأكداس بشرية لا حصر لها . وحرارة الشمس القوية تشوى الأبدان ويتصبب لها العرق على الوجوه .

وقفت تحت الشمس ، فى قلب الميدان ، عند موقف الأتوبيس ، لأركب عربة إلى بيتى . وكانت العربات فى ذلك الوقت قليلة ، وثلاثة أرباعها معطلا ، فاذا أقبلت إحداها وهى تتهادى فى الميدان ، تدفق الناس عليها كالسيل . وغمروا مقاعدها وبماشيها فى ثوان معدودات . وظلوا فى عراك وشجار مع السائق والكمسارى إلى أن يؤذن العصر فى المسجد الزينبى !

وكنت تجد عربة وعربتين وثلاثا واقفات فى هذا الميدان الكبير ساعة وأكثر من ساعة وهى محملة بالركاب ، ولا تتحرك منها واحدة ! فاذا سألت عن السبب قيل لك إنها الحرب التى أفسدت كل شىء .

وقد ظللت واقفا فى مكانى مدة طويلة ، دون أن أستطيع الركوب فى هذا الزحام الشديد ، وبعد لأى ومشقة استطعت أن أضع رجلى فى عربة من هذه العربات .

ووقفت مع الواقفين فى وسط العربة فى تلك الدائرة الضيقة وكنا نتدافع بالمناكب ،

ونلتقط أنفاسنا بصعوبة فى هذا الجو الخانق . وكان يقف أمامى رجل يرتدى جلبابا أزرق ، وكان أقصر منى قامة وأكثر نحولا . ولم يكفه ما كنا فيه من ضيق وكرب ، بل أخرج من جيبه سيجارة وأشعلها فى هذا الجو المحترق من حر الشمس .

وأنا لا أدخن ولا أحب رائحة الدخان ، ولا شىء يثير أعصابى كرائحته فى الجو الشديد الحرارة ، ولهذا شعرت بغيظ شديد ، وكنت أود لو أطبق بيدى على عنق هذا الرجل ، وأكتم أنفاسه قبل أن يكتم أنفاسى .

وتحركت العربة وهى تتمايل بنا فنترنح معها ، والدخان الأزرق يملأ الخياشيم ، ورائحة العرق تدير الرؤوس حتى اقتربت العربة من مستشفى قصر العينى ، وهنا نزل بعض الركاب . . فتحركت إلى الأمام بعيدا عن ذلك الرجل البغيض .

وأخذت أنظر من النافذة الصغيرة إلى الطريق ، حتى اقتربنا من أول محطة فى المنيل وتحرك رجل كان يجلس أمامى لينزل فى هذه المحطة واستدرت لأفسح له الطريق . . وفى أثناء ذلك لمحت امرأة تجلس على مقعد قريب منى . ولا أدرى كيف لم تقع عليها عيناى من قبل ، فهى ولا شك راكبة معى من الميدان ، ولكنه الغضب الذى يعمى البصر فى مثل هذه الحالة .

شعرت بنسمة معطرة تهب على من النافذة الصغيرة التى بجوارها . ورأيت نفسى أنظر اليها ولا أتحول عنها ، وكنت كمن كان يساق إلى الموت ثم صدر الحكم ببراءته فى آخر لحظة فأخذ يرقص من الفرح ، فقد نسيت الدخان ، والزحام والحرارة وأحسست بفرحة كبرى وبنشوة لاحد لها . . ونظرت إليها وأنا عندما أنظر إلى امرأة جميلة تتركز حواسى كلها فى باصرتى ويطل قلبى من إنسان عينى . ولا شك أنها لاحظت ذلك فقد رفعت وجهها ونظرت إلى . والتقت عيناى بعينيها ، وكانتا بسامتين ، ساجيتين ، ثم عادت تنظر من النافذة بعد أن ضمت ملاءتها السوداء على نحرها العاجى .

كانت جالسة . . وجسمها كله ملفوف فى ملاءتها السوداء . ولكن الفتنة الطاغية كانت تطل من هذا الجسم المتدثر بالسواد ، أكثر مما تطل من العينين الدعجاوين ، والوجه المليح القسمات .

وعندما اقتربت السيارة من منزلى ، شعرت بقلبى يغوص بين ضلوعى وانتابنى غم شديد ، وأخذت أنظر اليها متحسرا وأسأل نفسى . أأترك هذا الجمال النادر ، وأنزل من العربة أم أمضى إلى نهاية الطريق . . وأخيرا أبديت حركة من يهم بالنزول ، ورأيتها للمرة الثانية ترفع وجهها ، وتنظر إلى فى تكسر ولين .

وهبطت من العربة ، وكأنى أهبط من السماء إلى الأرض !

وبلغت منزلى وخلعت ملابسى ، وجلست إلى مائدة الطعام لأتغدى ولكننى لم أستطع أن آكل شيئا . كان ذهنى لا يكف عن التفكير فى هذه المرأة . وكانت صورتها لاتبارح خيالى وكنت أقول لنفسى لماذا لم أتبعها وأعرف منزلها ، لأتزود منها بنظرة كلما برح بى الشوق .

وعافت نفسى الطعام واشتد بى الضيق . ففتحت كتابا وأخذت أطالع لتلهينى القراءة عن التفكير فيها ، ولكننى كنت أحاول عبثا ، فقد كنت أجد صورتها فى كل صفحة من صفحات الكتاب

وزاد بى القلق فأخذت أروح وأجىء فى أرض الغرفة ، ثم ارتديت ملابسى وخرجت إلى الطريق . وفى النفس أمل بأن ألتقى بها .

وركبت العربة الذاهبة إلى الجيزة . . ونزلت بعد كوبرى عباس ، وأخذت أتصفح وجوه المارين فى الطريق . وتصورتها ذاهبة إلى حدائق الحيوان . . فدخلت الحديقة وبقيت فيها إلى الغروب ولكنى لم أرها .

***

ومر أسبوع . . وذات يوم كنت أتنزه على النيل فى رياض الجيزة وكانت الشمس تجنح إلى الغروب ، وشعاعها الأصفر يلاعب أديم الماء . . وكل شىء جميل ساكن . . وسرت على العشب متمهلا أمتع بصرى بمنظر الطبيعة الخلاب ، وأملأ رئتى بالنسيم العليل ، وأشاهد الوجوه الحلوة التى خرجت لتريض فى تلك الساعة الممتعة من النهار .

وكان هناك بعض من أدركهم التعب فجلسوا على الأعشاب يمتعون البصر بمنظر الغروب ، فجلست مثلهم ، واتجهت إلى النيل ، ورأيت عن بعد امرأة ترتدى ملاءة سوداء جالسة وحدها على العشب . . وشعرت بقلبى يضطرب فنهضت من مكانى واتجهت إلى ناحيتها ونظرت إلى وجهها . . يا إلهى ! . . إنها هى . صاحبتى بعينها . وأحسست بموجة من الفرح تغمر نفسى . . واقتربت منها حتى أحست بى ، ونظرت إلى بعينين باسمتين !

ثم نهضت من مكانها . . هل أتركها إلى حيث لا أدرى هذه المرة أيضاً ؟

وتبعتها فعلا . . عرجت على شارع نافع . . وهو شارع مهجور مظلم ، ولعلها تعمدت ذلك لألحق بها هناك ، وأجد فرصة لمحادثتها . . واقتربت منها ، وتحدثت إليها . . كان صوتها عذبا أخاذا . . وافترقنا على لقاء فى الغد .

وفى مساء اليوم التالى كانت فى منزلى ، وقد لا حظت عليها عندما اجتازت عتبة البيت لأول مرة ، أنه لم يظهر عليها خجل الفتاة وهى تدخل منزل رجل غريب . . بل

كانت كأنها داخلة فى بيتها . وأبعدت هذه الملاحظة عن ذهنى . . فكل شىء فيها ملائكى طاهر .

وقد سرنى منها عندما احتوانا المخدع أن تسارع إلى النور فتطفئه إنها لا تحب أن تقع على جسمها عين رجل .

وفى صباح اليوم التالى جاءت بجميع ملابسها واستقرت معى فى البيت . . ولم أكن أعرف أين كانت تودع هذه الملابس وكيف كانت تعيش من قبل ، ولم أسالها عن ذلك . . وإن كنت قد عرفت أنها لا أهل لها فى هذه المدينة . . وأنها بوهيمية تذهب إلى كل مكان .

وأشهد أنها ربة بيت من الطراز الأول ، وقد شعرت معها بالراحة والسعادة ، وكانت تحسن تصريف الأمور ، وحلت لى كثيرا من المشكلات المنزلية التى كنت أعانيها . على أنها مع هذا كانت مسرفة متلافة . وليس للمال عندها وزن .

وكنت إذا عدت من عملى ، وأخذت أخلع ملابسى لأ ستريح ، أجد بذلة من بذلاتى القديمة قد اختفت فأسألها عنها .

فتقول وهى تبتسم :

«لقد أعطيتها لأم محمد . . ابنها مسكين وسيلبس البنطلون فى الصيف والجاكتة فى الشتاء ! ستنفعه فى فصلين . . أما أنت فما نفعها لك الآن ؟ ستأكلها الصراصير !! ولا ينتفع بها أحد» .

وكنت أجد التعليل معقولا فاسكت .

وبعد ذلك اختفت بذلة ثانية . . وجلباب أيضاً . . وحذاء قديم . . وأشياء أخرى . وكنت أسير فى الحى فأجد سترتى على صبى الخباز وصديرى الصوف مع صبى المكوجى ، وحذائى القديم فى رجل خادم الجيران وكان هؤلاء الصبية عندما شاهدونى مارا فى الطريق يحيونى فى سرور ، وما كانوا من قبل يحفلون بى

وكنت أمتعض فى أول الأمر لعملها هذا ، وأعده إسرافا فى الجود . ولكن مالبثت أن أدركت خطئى ، وتبينت أنها محقة ، وأنها خيرة بطبعها وأنه كان يجب على أن أفعل هذا من قبل ، وأن الفرحة التى أشاهدها على وجوه هؤلاء الصبية الفقراء لا تقدر بمال .

ولم تكن تكتفى بهذه الملابس بل كانت تعطيهم الطعام والحلوى وكل ما فى جيبها من قروش .

وكنت ألاحظ أنه على الرغم من فقرها وجهلها للقراءة والكتابة ، فقد كانت نيرة العقل نبيلة العاطفة ، ذات فلسفة فطرية

وكانت تعجب بمنظر الغروب من الشرفة . وتبتهج لكل منظر طبيعى ساحر .

وتقول فى سرور ظاهر :

ما أبدع هذا المنظر . . وما أحوجه لرسام ماهر . .

وكنت أعجب وأسأل نفسى كيف تعرف هذه الأمية الجاهلية الرسم والرسامين !

وكانت تنظر إلى الماء الجارى عن قرب منا . وتهتز كما يهتز العصفور إذا بلله القطر . وتناديني وهى تشير بيدها إلى حيث هناك القمر الفضى يسبح شعاعه على الماء :

«منير . .»

«نعم . .»

«أود أن أستحم فى النيل» .

«هيا . .» .

«وترضى . . ؟» .

وهذا سؤال فى الصميم ، فإننى كنت أغار على جسمها من الثوب الذى يضمه ، فكيف أتركه لأعين الخلق .

وسألتها لفكرة فى نفسى :

«بلقيس . . أذهبت إلى الإسكندرية» ؟ . .

«أبدا . . عمرى ما ركبت القطار» .

ولاشك أنها كانت تكذب فإن الذى يرى أعمالها ، ويسمع حديثها يعرف أنها دارت حول هذا الكوكب .

وكانت تظل النهار بطوله ضاحكة مرحة تغنى وهى تطهو الطعام فى المطبخ . وهى تنشر الغسيل فى الشرفة ، فإذا ولى النهار وانتشر الظلام اعتراها وجوم طبيعى يلازمها الهزيع الأول من الليل كله . . فتظل تفكر فى الموت والجوع والحرمان والعذاب الأسود ، وكان المستقبل يخيفها أكثر من الحاضر وعجلة الزمن دوارة والأيام لا ترحم .

وكانت ككل بنات جنسها ، تحب أن تعرف دائما منزلتها عند الرجل فأنزل معها إلى السوق ، وتدور تبحث ساعتين عن حقيبة يد أو جورب أو منديل رأس ! فإذا اشترت هذه الأشياء أو بعضها ، تركتها فى زاوية من الغرفة ملفوفة فى ورقتها ولا تستعملها قط .

وكنت أعمل فى مكتبة الجامعة ، وكان عملى من الصباح إلى الظهر ومن العصر إلى ما بعد الغروب ، وكانت تستاء جدا لأنى أتركها فى البيت وحدها بعد الظهر .

وفى كل يوم كانت تتعلق بى وأنا ذاهب لعملى ، وتقول بصوت رقيق وفى عينيها الدموع :

«أرجوك . . لا تذهب . . إننى أخاف وحدى . . »

«ومن أين أعيش . . وهذا هو مورد رزقى . . ؟ »

«ليس من الضرورى أن تعمل ، أنا لا أحب أن تتركنى وحدى . . أرجوك . . »

وكانت تطوقنى بذراعيها ، وأحس بحرارة جسمها تسرى فى عروقى فأتخاذل وأذعن لأمرها ، وأتخلف عن الذهاب للمكتبة .

وكانت تسر لهذا جدا . . فهى بوهيمية بالفطرة ، ولا تحب أن يخضع إنسان لنظام معين فى الحياة .

وكانت تستيقظ مرة مع الفجر ، ومرة أخرى كانت تنام إلى الضحى . وكنت أغلق النوافذ فى الصباح ، حتى لا يقع على بشرتها نور ولا شعاع من شمس !

***

ومرت الأيام والشهور ، ونحن فى أشد شعور بالسعادة . . وكنت أعطيها كل ثقتى وكل حبى ، وكانت تحبنى أكثر مما تحب نفسها . وكانت على مر الأيام قد عرفت الكثير من طباعى واشتد تعلقها بى . . وكانت تبكى كلما تصورت أنها ستعود إلى الشارع مرة أخرى . وكنت أطمئنها وأبعد هذا الخاطر عن رأسها .

وسمعتها ذات يوم ، وأنا راقد فى فراشى تتحدث مع شخص بالباب . . وكان صوتها خافتا . فشعرت بسحابة من الغم تغشانى .

ولما دخلت الغرفة ، ونظرت إلى وجهها رأيته متغيرا . . ولم يكن من السهل عليها أن تخفى انفعالها .

وسألتها :

«مع من تتحدثين ؟ . . » .

فقالت على الفور ، وكأنها رتبت الجواب من قبل :

«حسن ابن الجيران . . عاوز الوابور . . ».

ولم يكن هذا صوت حسن . وكنت أعرف أنها كاذبة . وصمت ولم أقل شيئا .

وتكرر هذا الحادث مرتين بعد ذلك فى فترات متقاربة ، وفى بكرة الصباح سمعتها تحادث الشخص نفسه بالباب بالصوت عينه .

وكنت أسائل نفسى . . من هو . . ؟

وشعرت بعدها بالشك ينهش قلبى ، وبهوة سحيقة تقوم بينى وبينها . وكدت أجن وأنا أتصورها تخوننى .

وكنت أظل طول الليل أتقلب على مثل الجمر . وأود لو أعمل يـدى فى عنقها . وأتخلص من هذا العذاب . وألف هذا الجسم فى أكفانه إلى الأبد .

وكنت أقول لنفسى . . من يرى هذا الجسم ولا يرتكب جريمة قتل فى سبيل أن ينعم به ساعة من الزمان . .

ولقد غفرت وأنا أنظر إليها وهى فى سكرة النوم لجميع المحبين حماقاتهم .

وظللت أعيش معها . . وأنا فى جحيم من العذاب والشك . ومرت أيام وأيام . .

***

ورجعت مرة إلى البيت قبل ميعادى بساعة . ورأيت وأنا صاعد إلى شقتى ، وكانت فى الدور العلوى من المنزل ، شابا يرتدى جلبابا وسترة . هابطا من السلم ، ونازلا من درجات شقتى ، فلا أحد فوقى ولاسطوح للمنزل . . ودخلت البيت ، وأنا أتميز من الغيظ ، وكنت فى حالة هياج مرعب . .

وظللت ساعة كاملة وأنا لا أحادثها . وكان وجهها مصفرا يحكى وجوه الموتى . .

وأخيرا سألتها بصوت جاف :

«من الذى كان هنا . . ؟ »

فنظرت الى طويلا وبكت . . ثم قالت :

«من تظنه . . عشيقى . . ؟ » .

«ولم لا . . ؟ » .

«فى بيتك . . ؟ » .

ورجعت تبكى وتنشج نشيجا مؤثرا .

وكنت أعرف أنها دموع التماسيح .

ثم رفعت وجهها وقالت :

لا سأحدثك عن أمر كتمته عنك . وكنت أود أن أحدثك به من قبل . . ولكننى كنت أخافك . . كنت أنظر إلى عينيك فى ساعة غضبك وأرتعش من الخوف . . وأقول لنفسى محال أن أحدثه عما سلف . . . ولو حدثته سيطردنى ، ويركلنى بالنعال . أما الآن فقد أصبحت لا يهمنى أى شىء ، فقد عشت ما فيه الكفاية . . .

وأردفت بعد قليل :

«إن هذا الشخص الذى رأيته وأنت طالع . . فراش مدرسة» .

«أى مدرسة . . ؟»

«مدرسة الفنون . .»

ومسحت دموعها بمنديلها ، واستأنفت كلامها :

«وهذا الفراش يعرفنى من مدة . وأنا كنت أذهب إلى هناك قبل أن التقى بك ، أعمل كأنموذج ، وقد قابلت هذا الفراش من مدة فى الطريق وعرف بيتك . . وكان يجىء مبكرا إلى هنا ، ويعرض على العودة إلى المدرسة ، ولكنى دائما أرفض . . وأطرده» .

ودارت بى الأرض . إنها كانت تعمل كأنموذج وتعرض جسمها عاريا للطلاب ، وأنا أخاف عليها هنا من ضوء الشمس ونور الصباح !

وأطرقت برأسى ، وكنت أود لو أغوص فى أعماق الأرض . وسمعتها تقول :

«كيف تعيش صبية فقيرة مثلى لا أهل لها . . . لو لم أعمل هذا . . . !

كنت أعطى فى كل مرة خمسين قرشا ، ثم أعطونى أخيرا جنيها . وبهذا المبلغ كنت آكل وأعيش . إنك لاتعرف الفقر ، ولا تعرف الجوع وهو يعض بنابه فى الأحشاء . ولا تعرف العذاب الأسود . . لأنك لم تجرب شيئا من هذا ، فاعذرنى ، واغفر لى . .» .

ومع هذا فقد ظللت فى مكانى مدة طويلة لا أتحرك ، ولا أرفع وجهى عن الأرض . . كنت كمن ضرب ضربة قاتلة . كنت أغفر لها كل عمل إلا هذا . . إن مجرد التفكير فى أنها كانت تعرض هذا الجسم للناس كان يذهب بعقلى ، وكنت أعتقد أن حقى عليها أكثر من حق الزوج ، وحق الأب ، وحق الأخ ، وحق كل إنسان فى الحياة ، وقد يكون هذا هو الجنون المطبق .

ولكن هكذا كنت معها .

* * *

جمعت ملابسها وقالت لى بصوت خافت :
«اننى ذاهبة» .

فقلت لها وأنا مطرق برأسى : ابقى إلى المساء ، وكنت لا أحب أن تخرج فى وضح النهار .

وفى المساء فتحت الباب فى هدوء ونزلت .

وكنت أستمع لخطواتها على السلم ، وكأنها مطارق الحديد تعمل فى رأسى . . .

كان ابراهيم كامل يكتب القصة القصيرة فى المجلات والصحف منذ سنوات .

وكان يصور حياة الفقراء والبؤساء ، والذين قست عليهم الحياة وشردهم المجتمع ، أبلغ تصوير كان يكتب بكثرة ويعمل ليل نهار . ومع ذلك لم يجد لما يكتبه صدى ، ولا أثرا فى نفس أحد من القراء كانت كتاباته تذهب مع الريح . لم يتحدث عنه ناقد ، ولم تكتب عنه صحيفة ، ولم تصله رسالة من إنسان تشجعه على مواصلة جهوده !!

ومع هذا ، فإن ابراهيم لم ينقطع عن الكتابة والنشر . ذلك أنه كان يجد سلوته الوحيدة ، وناصره ومشجعه على المضى فى طريقه . . من جارته الحسناء ! وكانت أرملة فى الثلاثين من عمرها ، غضة الإهاب ، ريانة العود ذات عينين سوداوين ناعستين وأنف دقيق وخد مورد وبشرة ناصعة البياض .

كان يراها من شرفته تقلب بيدها الرخصة المجلات المصورة التى كان يكتب فيها . وكان يراها وهى تقلب المجلة ، وتبتسم تلك الابتسامة الفاتنة ويتصور أنها تقرأ قصته . وتبتسم لفكاهاته ، ثم يراها مرة أخرى حزينة واجمة ، فيتصور أنها تأثرت من إحدى قصصه المحزنة ! كان يرى كلامه مطبوعا على جبينها ، وكان يفسر كل حركة تصدر منها بأنها إيحاء من قصصه !

وكان يتصور أنها تتبع حركاته وسكناته ، فترقبه وهو خارج من المنزل وتستقبله وهو عائد إلى بيته من وراء سجف النافذة . ولهذا كان يميد من الزهو ويشعر بارتياح شديد ونشاط لا حد له وكان يكتب ويكتب غير عابىء بما يحيط به من إنكار وجحود ، كان يكفيه أن هذه السيدة الجميلة تقرأ له وتعجب به .

كان يكفيه هذا ، وكان يكتب لها وحدها . وكان يشعر بها تغمر جوانب نفسه بنور قوى . كانت تدفعه إلى العمل والجهاد وإن لم يتحدث إليها قط ، كان يكتفى منها بهذه الابتسامة المشرقة من بعيد .

ومضت الأيام وهو يواصل عمله بنشاط ، وصورة جارته الحسناء لاتبرح مخيلته أبدا .

وفى ليلة من الليالى كان جالسا إلى مكتبه يكتب كعادته ، فسمع جرس الباب الخارجى يدق ، فنهض وتوجه إلى الباب ، فألفى خادم جارته الحسناء فسر لهذا جدا . واستقبل الخادم مرحبا !

وقال له الخادم :
«تسمح بقلم حبر . . . . . .»

وطار من الفرح ، فقد حسب أن السيدة تطلب القلم لتكتب له رسالة تشجيع !

وأسرع إلى مكتبه ، وعاد بالقلم . وقبل أن يعطيه للخادم سأله فى لهفة :

«لمن . . . . لسيدتك ؟ »
«لا . . . لسيدى الصغير . . ستى لاتعرف القراءة !! »

وسقط القلم من يد القصصى النابغ ، من هول الصدمة ولم يكتب بعدها حرفا . . !

«لمن أجرت الشقة ؟ » .
«لشاب من القاهرة» .
«لشاب ؟ » .
«أجل . وشاب أعزب » .
«ومعه أسرته . . . . ؟ » .
«لا . . إنه قادم وحده . . ليس معه أحد إطلاقا» .
«وحده . . ؟ وفى هذه الشقة الكبيرة ؟ » .
«هذا ما عرفته من زوجى . . »

ولم تسترسل آمال طويلا مع صاحبة البيت . . بل تركتها ، واندفعت إلى شقتها تبحث عن أختها الكبرى هدى ، لتقص عليها ما سمعت من فاطمة هانم ، وعرفت هدى ما دار بين أختها وصاحبة البيت من حديث عن الساكن الجديد ، الذى أجر الشقة التى تحتهم مدة الصيف ، وأخذت تكون فى رأسها صورة عنه . إنه لاشك يملك سيارة فاخرة أحسن من سيارتهم ، ولابد أن يكون حسن الملبس ، رائع المظهر ، قويا وسيما ، ولابد أنه يدخن السيجار ! وسيجىء ومعه الطباخ والسفرجى والخادم الخاص . . . وربما الخادمة . . . ولابد أن تكون الخادمة جميلة للغاية ، ولابد أن . . واغتاظت هدى من هذه الخادمة ! ومن هذا الشاب الوسيم أيضا وسألت أختها :

«أعرفت متى سيأتى ؟ » .
«غدا فى قطار الظهر» .
«ليس فى السيارة ؟ » .
«قد تجىء السيارة بعد ذلك» .

وكفت هدى عن السؤال ، وتصورت فتى أحلامها خارجا من القطار الفاخر ، فى إحدى عربات الدرجة الأولى . والشيالون يتزاحمون على حمل حقائبه ، والفتيات فى المحطة

ينظرن إليه فى إعجاب حتى يركب السيارة إلى البيت . .

وظلت هدى وأختها تحلمان بهذا الشاب ، وتكثران من التحدث عنه مدة طويلة من الليل . . ونامتا غرارا . ولما أصبح الصباح . . وقفتا فى الشرفة تنتظرانه . وكلما وقفت سيارة تحت البيت أخذتا ترقبان من ينزل من السيارة ومعه حقائب السفر . . وجاء الظهر ، ومر ميعاد القطار ، ولم يأت أحد بالصورة التى فى خيالها . . وأخيرا أبصرتا بشاب يحمل حقيبته فى يده ، ويمشى فى الطريق على مهل ، وهو يقرأ أرقام البيوت كأنه محصل فى شركة النور ! ووقف تحت البيت ورمقه بنظرة فاحصة ثم دخل ، «ونظرت الفتاتان» إليه فى ذهول . . أيكون هو !! ذلك الرجل النحيل المشعث الشعر ، الذى يرتدى حلة قديمة باهتة ، ويجىء ماشيا على رجليه ، حاملا حقيبته فى هذا الجو الشديد الحرارة . . لاسيارة ولا خدم . . ولاشىء من آثار النعمة . . أذلك الأفاق هو الذى ظلتا تحلمان به الليل بطوله وانسحبتا من الشرفة ، بعد أن تبادلتا نظرات لها معناها ، وجلستا فى الصالة فى انتظار ساعة الغذاء .

وفى الأصيل أبصرتا به خارجا من البيت ، وكان يرتدى نفس البذلة . . وشعره لايزال مشعثا ، وهو ينحنى فى مشيته إلى الأمام . . ويمشى على مهل . . كأنه يعرج ووجهه طويل ضامر . . وخط أنفه مستقيم ، وكتفاه ضيقتان . وظهره مقوس . . ومشى أمامهما فى طريق البحر وعيناه إلى السماء ! إنه لا ينظر إلى الناس أبدا ، لم يرفع بصره إليهما قط كما يفعل غيره من الشبان . وغاب عنهما فى زحمة الناس .

ولما نزلت الفتاتان مع أسرتهما للنزهة فى ساعة الغروب ، رأتاه جالسا على مقهى صغير فى الابراهيمية . وأمامه كومة من الأوراق . . وهو شاخص ببصره إلى البحر . . ونظرتا إليه وكان غافلا عنهما سابحا بعينيه فى البحر . وغاظهما ذلك جدا . .

ومع أنهما كانتا تنظران إليه فى استخفاف وازدراء . والصورة الخيالية الرائعة التى كونتاها عنه ، انمحت بعد أن وقع نظرهما عليه ، وظهرت هذه الحقيقة البشعة . ولكن حب الاستطلاع حملهما على معرفة كل شىء عنه !

ولما سألت آمال صاحبة البيت عن هذا الشاب ، وقالت لها : إنها لا تعرف عنه أكثر من أنه من القاهرة . وأجر الشقة بواسطة صديق لزوجها . . ازدادت رغبة فى أن تعرف أكثر من ذلك . أما أختها الكبرى فقد هزت كتفيها استخفافا ، وأبعدته عن دائرة خيالها .

وكانت آمال تراه كل صباح ومساء يخرج وحيدا . . ويعود وحيدا ، ولا أحد يقوم على خدمته . . . وكانت تسأل نفسها كيف يعيش ؟ ومن ينظف له الشقة ، إنها لم تر البواب أو أى خادم فى البيت يدخل شقته قط . . فكيف يعيش هذا الرجل ؟ كانت تراه ينزل إلى البحر قبل الغروب ، ويجلس بعيدا عن المصيفين فى ركن قصى ، وبيده كتاب . وكانت

عيناه بين البحر والكتاب . . لم ينظر إلى النساء العاريات كما يفعل الشبان . . إنه مستغرق فى عالم آخر . . عالم كونه بنفسه لنفسه .

كانت آمال تنظر إليه فى عجب . . ولفت نظرها إليه شذوذه وبروده العجيبان ، وبعده المطلق عن الناس ، وكانت تود أن تعرف مايقرأ . كانت تود أن تعرف ما يشغله عن الناس . . وكانت تروح وتجىء أمامه . . وتنظر إلى الكتاب . . إنه ديوان من الشعر ، وجلست على قيد خطوات منه ، وهى ترمق الكتاب ، إنها تود أن تعرف هذا الشاعر الذى يشغله عن الناس ، وقرأت العنوان وكان مكتوبا بخط كبير . . إنه ديوان ابن الرومى وفى المساء كانت مع أختها فى مكاتب الإسكندرية . . سألت عن الديوان فى مكتبة المعارف ، ومكتبة الآداب ، فلم تجده وغاظها ذلك . . وكانت أختها هدى تعجب ، لماذا تسأل أختها عن هذا الديوان وهى لاتقرأ الشعر ولا تفهم الشعر وأخيرا وجدت آمال الديوان فى مكتبة صغيرة . وفتحته عرضا وقرأت :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وألثم فاها . . . .

من التى يعانقها ويلثم فاها . ! ووضعت الديوان جانبا . . ومضت إلى الشرفة ، وكان البحر يهدر ، والناس يقلون فى الطريق . . وأسرتها تعد مائدة العشاء . . ولكنها لم تكن تحس بجوع ، ولم تكن تود أن تجلس معهم كما تفعل كل يوم . . إنها تحب أن تجلس هنا وحيدة . .

ما الذى جرى لها ؟

ولما جلسوا للعشاء . . اعتذرت بألم فى رأسها . . وبقيت فى الشرفة وسمعت النافذة التى تحتها تفتح . . وظهر النور فى عرض الطريق . إنه هو . . لقد عاد من الخارج . . وسمعت حركة فى الشرفة التى تحتها . . ولوت عنقها ونظرت . . إنه جالس على كرسى طويل ، وعيناه إلى البحر ، لاينظر إلى فوق أبدا . . إنه لايقرأ الآن . . ولكنه يسبح فى عالم الشعر ويتأمل ، انه شاعر . . ولهذا يعيش وحيدا ، ولهذا يعيش فريدا ، وبعد العشاء جاءت أختها وجلست معها ، ولأول مرة تشعر بأن أختها ضايقتها ، ولم تعرف لذلك سببا .

واستمر عبد المجيد على حاله لايعير باله لأحد من سكان المنزل ، ولا يلتفت إلى الفتاتين اللتين كانتا تراقبانه فى غدوه ورواحه ، وفى حركاته وسكناته فى البيت ، وكانت هدى على الرغم من انصرافها عنه تعجب لشذوذه وغرابة أطواره . . أما آمال فكان يغيظها منه أنه لايحس بوجودها معه فى منزل واحد وهى لم تشعر نحوه بأى عاطفة ما ، فليس فيه ما يجب . . وكل الشبان الذين تراهم حولها ، ، وفى البيت ، أحلى منه شكلا ، وآنق ثوبا وأكثر قوة .

ولكن صورته مع هذا . . . كانت لاتبارح خيالها أبدا . . وفى مرة من المرات كانت نازلة من البيت ومعها أختها ، وكان هو واقفا على بابه يتهيأ للخروج . فلما رآهما دخل وأغلق الباب . . وقد غاظهما ذلك جدا . وجعلت آمال تلعنه فى سرها ، هذا الصعلوك الأفاق . . يفعل هذا !

وضحكت هدى حتى احمر أنفها .

وقالت وهى تميل على أختها :

«إنه خجول كالعذراء . . يا آمال خجول . . هذا الأفاق خجول» .

«إنك مخطئة . إنه يحتقرنا . . إن أنفه دائما فى السماء . . » ونزلتا إلى البحر ، واختلطتا بالمستحمين من فتيان وفتيات . وكان النهار رائعا ، والبحر هادئا كالحصير .

بعد أيام قليلة من هذه الجفوة التى بدرت منه على السلم ، لا حظت آمال أنه لم يبرح المنزل . . لم ينزل إلى البحر ولم يتريض ، حتى غرفته المطلة على الطريق لم يفتح نافذتها . . ولم تره جالسا يطالع كما اعتادت أن تراه كل ليلة ، وهى عائدة مع أسرتها من الخارج . . . . أسافر ؟

أبدا ! إن النور مضاء كالعادة فى الصالة ، وفى بعض حجرات البيت . . كيف يعيش هذه الأيام كلها من غير طعام . . ؟ إنها لم تر البواب ، أو أحد الخدم يحمل له شيئا من الخارج . . قد يكون مريضا هذا المسكين . . ولا أحد يعوله ، ولا أحد يمرضه . . وتصورته وقد زاد نحولا !

وفى صباح يوم رأته يخرج من البيت ، وكان شاحب الوجه تبدو عليه آثار المرض الشديد . . ومشى متمهلا حتى رأته يجلس على مقهى قريب فى دائرة الشمس . . وكان قد اعتمد برأسه على كفه وأطرق ، وظلت تتأمله من بعيد ، وفى نفسها شتى الانفعالات .

أحست نحوه بالعطف على حاله . . . إنسان وحيد يمرض فى بلد غريب ، ولايجد أخا ولا أختا ولا أما تسهر عليه ، إنه مسكين . . لابد أن تفعل له شيئا . .

بعد ساعة رأته ينهض ، ويتحامل على نفسه حتى دخل البيت . . . إنه مريض . . ومريض جدا .

وأخذت تروح وتجىء فى الشرفة . أترسل إليه الخادمة ؟ . . ما الذى تفعله لهذا المسكين . . ووجدت نفسها تهبط الدرج ، وتنقر بيد مرتعشة على بابه ، وفتح الباب ، ونظر إليها بعينين منطفئتين .

كانت تنظر إليه فى استحياء .

وقالت أخيرا بصوت خافت :

«جئت أسألك إن كنت تحتاج لشىء ، فقد لا حظنا أنك مريض . . . ولم تبرح منزلك منذ أيام» .

ورفع وجهه إليها فى سكون ، وقد عاد إلى عينيه بعض البريق : «أشكرك . . إن هذا كرم منك» .

«إننى لم أفعل شيئا حتى الآن» .

ثم حملت إليه كوبا من الليمون عصرته بيدها . . وهبطت به السلم ، وقد شعرت لأول مرة فى حياتها بشىء لذيذ هز كيانها ، وجعلها أكثر حيوية وأكثر نشاطا ، بأنها تفعل شيئا عظيما .

وتناول منها الكوب ، وقال لها ، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ، وعيناه الصافيتان تنظران إليها فى سكون ودعة :

«أنا لا أستطيع أن أرفض هذا من يدك . .»

وتمتمت بشىء ، وصعدت الدرج بسرعة وقلبها ينتفض .

وفى الغذاء أرسلت اليه حساء ساخنا وخبزا ناشفا ، فقبلها ، وبعد أن تناول الطعام نام قليلا ، ووجد أن روحه القوية وإرادته الجبارة تعملان فى داخل نفسه ، واستكثر أن يظل هكذا طريح الفراش ، وفتاة من أسرة أرستقراطية تمرضه وترسل إليه طعامها . وطرح فكرة المرض عن نفسه . . وخرج يتمشى قليلا ، ثم ركب الترام إلى المدينة . وابتاع لها كتابا لأديبة مصرية ، وأرسله إليها مع خادمتها ردا على صنيعها عنده . . وأحس بعد هذا بالارتياح الشديد ، وأزاح صورتها عن ذهنه .

وفى اليوم التالى لم يعد يفكر فيها إطلاقا .

* * *

وجلس فى مساء يوم فى الشرفة يطالع ، وكان يرفع بصره من حين إلى حين إلى البحر ، ويرتد به إلى المارين تحته فى الطريق ، ورفع بصره مرة فرأى آمال مطلة عليه من النافذة ، وظلت تنظر إليه مبتسمة ، ووجهها يفيض إيناسا وبشرا .

وأخيرا حركت شفتيها :

«كيف حالك اليوم ؟»

«أحمد الله وأشكرك»

«إننى لم أفعل شيئا»

«بل فعلت كل شىء»

أبدا . . أشكرك على هديتك»

«أقرأت الكتاب ؟»

«أجل . . ساعة ما أرسلته !»

وأعجبك ؟»

«للغاية . .»

وسمعت آمال من يناديها . . فحيته بإيماءة من رأسها وانصرفت . . وعاد يقرأ ويسائل نفسه . . أيحب هذه الفتاة . . أبدا . . إنها من أسرة أرستقراطية ناعمة تتكلم الفرنسية . . وتعيش فى جو خانق من التكلف , وهو رجل فقير وفنان طليق . . شتان ما بين تفكيره وتفكيرهم !

أما آمال فقد كانت على توالى الأيام تزداد وجدا به وتعلقا . وقد وجدته رجلا يغاير غيره من الرجال . فهى لم تره عندماينزل إلى البحر ، يحاول التحدث مع الفتيات كما يفعل غيره من الشبان الذين هم فى سنه . كما أنها لم تره جالسا فى المقهى مع غيره يصخب أو يلعب النرد أو يحتسى الخمر . . إنه يعيش فى عالم خلقه لنفسه . .

وقد أعجبتها طريقته الهادئة فى الحياة ، وهو وإن لم يكن جميل الشكل ولا أخاذ المظهر ، لكن روحه هى أجمل شىء فيه . وهى التى تأسرها ، وتأخذ بمجامع فؤادها ، وصوته دائما ينفذ إلى أعماقها ، وتحس وقعه الحلو فى نفسها . . وحديثه ليس معادا ولا مبتذلا . . إنه لايردد كلمات الآخرين كالببغاء الحمقاء وحتى عندمايصمت يكون أشد أسرا ، وأعظم فتنة !

تعبث يداه الناصعتا البياض بالكتاب ، وتتركز عيناه السوداوان فى عينيها . . فتحس برجفة . . وتحس بهما تقرآن سرها . . فتغض من طرفها . . وتحول وجهها عنه . . ولكنه يظل مع ذلك ينظر إليها ، وكأنه يسر لأنها ترتجف . وكأنه يسر لأنها تحس بقوة روحه الجارفة تطغى عليها .

وتأخر ذات ليلة فى الخارج ، ولما عاد للبيت وفتح حجرة نومه وخرج إلى الشرفة ،

وجد آمال تطل عليه من النافذة . . ولعلها كانت تنتظر عودته . وإنها الوحيدة الساهرة فى بيتها . . ونظر إليها فى عجب : لماذا تهتم به هذه الفتاة لماذا ؟

وقال لها بصوت خافت :

«لماذا أنت ساهرة ؟» .

«إن منظر البحر الليلة جميل . . وأنا ألقى عليه النظرات الأخيرة لأننا راحلون بعد غد» .

«حقاً . . ؟» .

«ولماذا تسأل . . ولماذا تهتم ؟» .

«أريد أن أتأكد لأستريح من هذه الجلبة التى فوقى !» .

«أنضايقك ؟» .

«طبعاً . . فما أكثر خدمكم . . وما أكثر أطفالكم . . إننى لا أنام إلا فى الساعات الأخيرة من الصباح !» .

«آسفة لك . .» .

«ماذا يجدى الأسف ؟» .

أتود أن تعرف الحقيقة ؟»

«أجل . .»

«إنهم راحلون جميعاً . . وسأبقى وحدى . . سأبقى وحدى لأجرب حياة العزلة مثلك !» .

«إنك لا تستطيعين أن تمكثى فى البيت وحدك ساعة واحدة . .»

«ولماذا تستطيع أنت ؟» .

«لقد تعودت ذلك . . ثم أنا لا أعيش وحدى بل تؤنسنى دائماً أطياف أحبها . .»

«خيالات الشعراء . . ؟»

«سميها ما شئت . .»

ومتى تزورك هذه الأطياف ؟»

«كلما كنت وحدى ! . . »

سأتركك إذن لترى هذه الأطياف التى تحبها . . »

« . . . . »

ودخلت آمال ، وسمع النافذة تغلق ، وظل هو فى مكانه مرسلاً بصره إلى البحر ، وفى رأسه تطوف أحلام لذيذة ، وكان السكون العميق ، والظلام المحيط به ، ومنظر البحر فى الليل وهو يتنزى بأمواجه ويرقص ، قد جعله ينسى نفسه ، ويبقى فى مكانه طويلاً . . ثم أحس بالبرد فنهض ، وأغلق باب الشرفة ، وذهب إلى فراشه .

***

وفى مساء اليوم التالى سمع جرس الباب يدق ، ولما فتح وجد آمال واقفة أمامه ولابسة ثوباً أزرق آية فى الذوق والأناقة . . وبيدها كتاب . . وابتدرته بقولها :

«لقد جئت لك بهذا كتذكار . . »

«ما هو ؟»

«ديوان من الشعر . . »

«فانتفض سروراً ومد يده نحوها ، وتناول منها الكتاب وهو يبتسم . ونظر إليها فى سكون وقوة . . وظلت واقفة أمامه ساهمة . . فتناول يدها ، وكانت لينة حارة فى يده الخشنة . . ونظر فى أعماق عينيها وهمس :

«لا أدرى كيف أشكرك . . »

ووجدها تتقدم نحوه وتكاد تلتصق به ، فشدها إليه ، وأغلق الباب برجله ، وضمها إلى صدره ضمة قوية .

***

وفى صباح يوم السفر . . ادعت آمال المرض . . وبعد نزاع بين الرجال والسيدات فى الأسرة ! تغلبت السيدات أخيراً وأجلت الأسرة سفرها إلى الشهر التالى . . !

حارس القـــرية

عرفت الشيخ عبد المطلب وأنا صبى ألعب فى الأجران . . فقد كان حارس أجران القرية . وأحب الناس إلى قلوب أبنائها . وإلى قلوب الصغار منا على الأخص .

ولم يكن الشيخ عبد المطلب حارس أجران القرية وحدها بل كان حارس القرية كلها فى الواقع . كانت الأجران تقع فى شرق القرية وتكون دائرة واسعة فى «العرصـة» وكان بجوارها جسر القرية الوحيد . ومنه يدخل الناس إلى القرية ويخرجون منها . وكان «خص» الشيخ عبد المطلب فى قلب الأجران . وكان يشرف على الأجران والجسر معا .

وقد كان الرجل واسع الحلم طيب القلب . فقد كان يتركنا على هوانا نمرح ونلعب فى «العرصة» . ونصعد الأجران العالية وننحدر منها . ونجرى كقطار الصعيد ونصيح ونعوى كالذئاب . . ! وهو منصرف إلى عبادته ، لا يرفع رأسه عن كتاب الله ، ولا يسمعنا كلمة نابية . بل كان ينظر إلينا ويبتسم فى عطف ورقة بالغين .

ثم شببت عن الطوق ، وتركت القرية لأتعلم فى المدينة . . وفى عـطلة الدراسـة الصيفية كنت أعود إلى القرية ، لأعمل مع إخوتى فى الحقول .

انقطعت عن اللعب فى الأجران ، ولكننى كنت أرى «خص» الشيخ عبد المطلب كل صباح ومساء قائما وسط البرية كأنه منارة تهدى السفن فى ظلام الليل .

ولما كنت أحب القراءة . وكان الشيخ عبد المطلب هو القروى الوحيد الذى أجد عنده مجموعة نادرة من كتب التاريخ والسيرة فقد كنت أذهب إليه لآخذ منه بعض الكتب . وكنت أنتقى منها كتب السيرة على الأخص فقد كانت تأخذ بلبى .

وكنت أنتهز فرصة الصيف عندما ننتهى من حصد القمح فأجد متسعا من الوقت للقراءة فى هذا الفراغ الكبير من السنة فلم نكن نزرع القطن فى تلك المنطقة من الصعيد ، ولهذا كنا نمضى الكثير من أيام الصيف فى فراغ ممل . .

ثم زحفت آلات الرى الحديثة إلى هذه المنطقة وتغير الحال ، وأصبح الفلاحون يزرعون القطن والأذرة ويعملون طول السنة

وقد كانت أحب الساعات إلى نفسى هى التى أفرغ فيها من العمل ، وأجلس فى «خص» الشيخ عبد المطلب لأطالع وأتحدث معه . . كان قليل الكلام ، كثير التعبد ، نقيا نقيا . . وكان يحرس هذه الأجران كلها وحده ويلعب حوله الأطفال من اصفرار الشمس إلى ما بعد الغروب . ثم يتركونه إلى بيوتهم ، ويظل الرجل فى مكانه من الخص ساهرا إلى الصباح . ولم يكن مسلحا ، ولا يخيف أحدا بهراوة أو عصا . بل كان كل ما يملكه قلبه الكبير ، وروحانيته الجارفة التى يواجه بها الليل وحده فى تلك المنطقة المرعبة من الصعيد . وكنت أراه وحده وأنا سائر على الجسر ، وعينه إلى الشرق . لا يعبأ مما يجرى حوله ولا يخاف ولا يرهب أحدا . فأدرك عظمة الإيمان فى النفوس وأدرك سر قوته .

وكنت إذا شعرت بالعطش وأنا عائد من الحقل أنزل عن الجسر ، وأتجه إلى «العرصة» لأشرب من «زير» الشيخ عبد المطلب . وكان قائما بجوار الخص فإذا شربت وأحس بى . أشار إلى بسبابته يدعونى إليه فأعرف انه يتعبد ، وأقترب منه فى سكون ، وأجلس بجواره على القش . وأرقب شفتيه وهما تتمتمان فى صوت خافت . وأرى وجهه المشرق فى الظلام وهالة النور على غرته . وخطوط الزمن على جبينه . والبريق الساطع فى عينيه . ولحيته الكثة تدور على عارضيه ، وتقى وجهه وهج الشمس ، ولفح الرمضاء .

فإذا فرغ من عبادته سألنى عما عملته فى الحقل . ثم عاد إلى صمته وتأمله .

وكانت الكلاب تنبح فى الحقول وفى القرية . . والرصاص يدوى فى أذن الليل . وكنت وأنا جالس معه أرى أشباحا سوداء تتحرك بعيدا . . بعيدا على شط النيل . فأرقبها بعين ساهرة . أما الشيخ عبد المطلب فما كان يحفل بشئ من هذا كله . . كان يرسل بصره إلى أقصى الأجران ثم يرتد به . ويعود إلى سكونه وصمته .

وكنت أنظر إلى عينيه الساكنتين . وجبينه الوضاء ، ونظرته الشاردة إلى السماء . وأتأمل وأفكر . . ان هذا الرجل قد نفض يده من نعيم الحياة وملذاتها . وعاش فى عالم كونه بنفسه لنفسه . ولقد فهم سر الحياة وعرف معنى السعادة ، ولقد استخلص من الحياة زبدتها . ووصل إلى أعمق أسرارها ولقد مرت عليه وهو جالس فى مكانه من الخص ألوان مختلفة من الحياة والناس . وهو باق على حاله لم يتغير . لقد ذهب من هذه القرية أناس إلى المدينة ، وعاشوا فيها يقامرون ، يشربون ويصخبون فى المواخير وسقط منهم من سقط فى الأوحال . وذهب منهم من ذهب إلى غير رجعة وعاد منهم من عاد يرتدى القبعة ويدخن فى الغليون بعد أن عبر البحار !

ولكن الشيخ عبد المطلب باق على حاله لم يغير جبته ، ولم يغير مكانه من الخص . ولم يتغير له طعام ولا شراب منذ نصف قرن من الزمان . إنه الصورة الخالدة للفلاح المصرى الجبار الذى صارع القرون ، وكافح الاستبداد والظلم والجبروت مدى قرون وقرون من الزمان . ذاق مرارة الحرمان فى كل عصور التاريخ حتى فى عصر النور . ومع هذا فإن جبهة الشيخ عبد المطلب لم تتعفر بالتراب قط وما حنى رأسه لمخلوق !!

وكان على مدى البصر منه تتلألأ مدينة أسيوط بأنوارها الساطعة . . ويسطع نور «الخزان» من بعيد . كانت المدينة تزحف هناك حيث العلم والثراء العريض . وحيث الكهرباء والسيارات الفخمة والقصور الشامخة وتقف هنا حيث الظلام والفقر والجهالة المطبقة والأكواخ الحقيرة .

كان الظلام الكثيف يخيم . . وكانت أشجار النخيل تحتضن بيوت القرية وتطوقها من الشرق والغرب بسياج طويل من جذوعها . وكانت الترعة تشق القرية نصفين . وكان هذا الخط الأبيض من الماء يزحف بين البساتين كما يزحف الثعبان فى الظلام . وكان الجسر يجاور الترعة ويكون حاجزا منيعا وقت الفيضان وعلى هذا الجسر قام خط المدينة الأول الزاحف إلى هذه القرية الصغيرة . . عمود التليفون الخارج من المركز إلى بيت العمدة . وهو البيت الأبيض الوحيد فى القرية .

وكانت القرية جمعاء تغط فى سبات عميق . ويظل الشيخ عبد المطلب وحده ساهرا فى الخص يحرس الأجران ، ويحرس القرية جمعاء . فما من أحد يستطيع أن يسير على الجسر ، وهو منفذ القرية الوحيد ، دون أن يبصره الشيخ عبد المطلب . وعندما يشعشع النور ، يفرغ من صلاته ويفرش زكيبة وينام إلى الضحى . . غافلا عن كل ما حوله وتاركا كل شئ لله .

وكنت أجلس فى ظل الخص ساعة الأصيل . وأرى عن قرب هؤلاء الفلاحين المساكين ، وهم شبه عراة حفاة يعزقون الأرض ويسقون الزرع وقد التصقوا بالأرض ومالهم عنها من فكاك . كانوا يعملون من مطلع الشمس إلى الغروب وأجسامهم تنضح عرقا ، وأرجلهم تغوص فى الوحل . وما يطمع الواحد منهم بعد هذا الجهد كله فى أكثر من رغيف من الخبز الأسود وقطعة من الجبن ، ولقد خالطت هؤلاء الناس وعاشرتهم ، وحملت معهم الفأس فى قلب الحقول . وما وجدت فيهم شاكيا ولا متبرما . إنهم يعملون فى صبر عجيب ، وقد نفضوا أيديهم من كل رحمة تأتيهم من الأرض ، أو من السماء . وهم يعيشون فى حذر وتوجس وريبة ، ولا يثقون بإنسان . ويتصورون أن الكل يعمل على تحطيمهم . ويظل الفلاح ناصبا قامته للشمس حتى يسقط من الإعياء والجوع . . وهنا يطلب الرحمة من الموتى بعد أن يئس من الأحياء . فيفزع إلى الأضرحة وقباب أولياء الله الصالحين .

وكانت مرساة القرية على مسافة قليلة من «العرصة» وفيها رست بعض المراكب . وكنت وأنا جالس فى الخص ساعة الظهيرة أستمع إلى طرقات العمال الرتيبة فى هذه المراكب . كانوا يصلحونها قبل الفيضان . وكانوا يعملون فى جهد متواصل . كان كل من حولى يعمل ويدور كالطاحون . وكنت الوحيد بالقياس إلى الآخرين الذى يجد عنده وقتا للتنفس والتأمل .

وكنت أتمنى لو أعطانى الله بعض هذه القوة الجبارة ، لأحمل هذه الكتل العريضة من الخشب من اليابسة إلى الماء ، كما يفعل هؤلاء الملاحون .

كنت أجد أنا والشيخ عبد المطلب أنيسا فى عملهم المتواصل ومطارقهم التى لا تنتهى من الصباح إلى المساء . كانوا يغنون طول النهار فاذا هبط المساء انحدروا إلى النيل وغسلوا ما علق بهم من زيت ونفط . ثم لبسوا ثيابا زاهية ، وصعدوا فى الطريق إلى القرية . . فإذا اقتربوا منا حيونا فى بشر ومرح . لا شك أنهم سعداء .

كان السكون الثقيل الشامل يخيم بعد ذلك . وكنا نرى قلوع هذه المراكب تلمع من حين إلى حين فى جوف الليل الحالك .

***

وفى ليلة من الليالى خرجت من القرية ، قاصدا المزرعة . فقد كنا نسقى حقل ذرة لنا ، وكان على أن أسهر مع الفلاحين إلى الصباح حتى نفرغ من الحقل كله . . ومررت فى الطريق على الشيخ عبد المطلب لأشرب معه القهوة وأصلى العشاء . إلى أن يطلع القمر . فلم يكن من السهل على شاب مثلى أن يسير وحده فى الظلام ساعة زمانية حتى يبلغ المزرعة .

جلست بجوار الشيخ أمام الخص . . وكان الظلام دامسا . والكلاب تنبح ، وفروع النخيل تتمايل . . والضفادع تنقنق هناك على شط النيل .

ولمحت شبحا يسير على الجسر ، كان يمشى على مهل ، ولم يكن أكثر من سواد يتحرك فى جوف سواد . . ولما أصبح فى محاذاتنا انحدر عن الجسر ، ومضى فى طريق الأجران حتى اقترب من موضع الماء ، فوقف هناك هنيهة وهو يتلهث كالمتوجس من شىء . . ثم دفع «الكوز» فى جوف «الزير» وسمع له صوت مصلصل فى هذا السكون الثقيل الشامل ، ورفع الإناء الى شفتيه وشرب . . وتنفس . . ودار على عقبيه وتقدم من حيث أتى فى الطريق صعدا . .

وهنا صحت :

«من هناك . . ؟»

فتوقف عن السير ، وحول وجهه إلينا وظل صامتا برهة

«نعمان . .»

قال هذا واتجه نحونا . . وكان الشيخ يفرك بعض حبات القمح بين يديه ، فلما اقترب منه نعمان ، أشار إليه ليجلس فجلس أمامه ، وكان نعمان يرتدى جلبابا أسمر ، وعلى رأسه لبدة من الصوف الأسمر كذلك ، وفى يده بندقية من أحسن طراز . وكان شابا قوى الجسم فارع الطول حديد البصر قوى القلب ، وكان من رجال الليل فى هذه المنطقة ومن فتاكها ، وكان اسمه يتردد بعد كل حادث قتل أو سطو يقع فى هذا الإقليم ، ومع كل ما كان عليه هذا الرجل من شر وجبروت فإنه جلس أمام الشيخ عبد المطلب ، خاشعا منكس الرأس .

ونظر الشيخ إليه وسأله :

«إلى أين يا نعمان . . ؟»

«إلى حيث تسوقنى الأقدار . . يا عمى الشيخ . .»

وخيم صمت ثقيل علينا ثلاثتنا . . وكان الشيخ يحدق فى وجه نعمان وينظر إلى . . ويقرأ أفكارنا ، ولكنه لا يقول شيئا ، ونظرت إلى نعمان ، وعدت أتذكر أيام صباى فى القرية . أيام كنت أصطاد السمك ، وأتسلق النخيل ، وأركب الجمال فى البرارى ، وكان رفيقى فى ذلك كله نعمان هذا بلحمه ودمه ، ولقد كان فى صباه رقيقا وادعا كالحمل ، ولكنه الآن أصبح رجلا آخر .

كان فى صباه يصطاد العصافير ، أما اليوم فهو يصطاد الرجال ، ومن الذى فعل به هذا ؟ أطرقت وفكرت . . إن نعمان سرق فى صباه ليأكل . وهو الآن يسرق للسرقة فى ذاتها ، إنها لذته الكبرى ، وهو يغشى المدينة ويذهب إلى مراقصها ويرمى بكل ما معه من نقود تحت أقدام الراقصات . ويشرب . ويلعن شياطين الأرض . . وإذا مرت عليه ليلة ولم يطلق فيها رصاصة ، ولم يملأ خياشيمه برائحة البارودجن وطار صوابه !

هذا هو نعمان الجالس معنا الآن . . قال لى الشيخ :

«اعمل لنا قهوة يا بنى . .»

فتناولت عود ثقاب من نعمان ، وأشعلت النار فى الدريس . . وأخذت أحدق فى وجهه من خلال النار . . كان صارم النظرة قاسى الملامح . . وكان يخط بكعب بندقيته فى الأرض .

وشربنا القهوة ، وأخذ الشيخ عبد المطلب يحدثنا حتى أذن العشاء فنهض وهو يقول :

«قم يا نعمان إلى الماء فتوضأ وتعال لتصلى معنا . .»

فأطرق نعمان وبقى فى مكانه .

فأعاد الشيخ :

«قم يا نعمان . .»

وكأنما كان صوته نذيرا من السماء . .

وصليت وراء الشيخ . . وبقى نعمان فى مجلسه . . تتساقط حبات العرق البارد على وجهه . وما رأيته مصفرا أغبر السحنة كما كان فى هذه الساعة .

وتناول نعمان بندقيته ونهض .

فقلت له :

«سأمشى معك حتى المزرعة . .»

فنظر إلى الشيخ وقال بصوت هادىء :

«خليك أنت . . إلى أن يطلع القمر . .»

وأذعنت لأمره ، ومضى نعمان . . وابتلعه الظلام . . وبعد قليل سمعنا الرصاص يدمدم . فقلت للشيخ :

«إنه نعمان . .»

«أجل إنه هو . .»

ومضت فترة صمت . .

وسألته :

«أتظنه قتل . . ؟»

«لن تراه مرة أخرى . .»

وأخذ الشيخ يتعبد . . فصمت . . وأخذت أفكر فى هذا الحادث ، وأتعجب من قوله : خليك أنت إلى أن يطلع القمر . .

ترى هل كان الشيخ يقرأ الغيب ؟

وسهرت ذات ليلة مع الشيخ عبد المطلب إلى الهزيع الثانى من الليل . وكان الفيضان قد بكر والنيل شديدا . . وكان أهالى البلدة يخشون على زراعة الأذرة التى فى الأراضى الواطئة من الغرق ، فأقاموا حولها جسرا قويا .

وكان النيل يجرى على قرب مناجياشا قويا . . والخزان يهدر فى جوف الليل . والسكون عميقا شاملا . . حتى الكلاب فى القرية هجعت ، وكفت عن النباح . .

وسمع الشيخ وهو جالس صوتا أشبه بصوت الماء فى السد . فنهض ومد بصره . ولم يستطع أن يبصر شيئا .

ولكنه سمع خرير الماء أكثر وضوحا . .

فجرينا مسرعين نحو السد . ولما بلغناه رأينا الماء قد فتح فجوة فيه وانحدر منه إلى المزارع متدفقا قويا ، وذعر الشيخ ، . . فلو انهار السد ستغرق مزارع برمتها ، وهى لصغار الفلاحين المساكين . وقد يتطور الحال ، وتغرق بعض المنازل فى القرية . .

أسرع الشيخ وحمل حزمة من «البوص» وألقى بها فى الفجوة وفعلت مثله . وجرفنا إليها التراب ، واحتبس الماء بعض الوقت ولكنه عاد بعد قليل إلى ما كان عليه واشتد . ووضعنا حزما أخرى بين عروق الخشب القائمة فى السد ، وحملنا إليها أكواما من الطين ، ولكن جهودنا كلها كانت عبثا فقد كان الماء قويا ، يجرف كل شىء فى طريقه ، وكانت الفجوة تتسع بعد كل لحظة وأخرى . .

وعرف الرجل مقدار الخطر الذى سيحل بالقرية فقال لى :

«أسرع إلى القرية . . وهات النجدة . .»

وجريت مسرعا . . وكنت أسمع وأنا أعدو صراخ الشيخ عبد المطلب فى جوف الليل الساكن

***

ولما عدت بالرجال . . كان الماء يتدفق كالسيل . . وكان جزء من السد قد انهار . .
ووجدت الشيخ عبد المطلب راقدا هناك دون حراك تحت عروق الخشب عند الجزء المنهار . . فأدركنا أنه رقد بجسمه فى الفجوة ليحبس الماء إلى أن يحضر الفلاحون . . ولكن الماء كان قويا فانهار به السد وسقط فوقه . .

كان وجهه ساكنا . . وعلى شفتيه ابتسامة من فرغ من عمل عظيم . .

الســـــراج

كانت ريح الشتاء تحرك أشجار النخيل الكثيفة الملاصقة للترعة . . وتصفر عاوية وهى تجتاز مزارع القصب . . وكانت أوراق الأشجار الجافة تتطاير فى الجو محملة بالغبار وكان الجو كله ينذر بالعواصف . . والأشجار الضخمة القائمة بجوار الجسر تبدو فى ظلام الليل المعتم كالأشباح المتحركة فى أرض الشياطين . .

وكان المقهى الصغير على مفترق الطريق بين دغل من النخيل . . وحقول القصب السامقة تحت الجسر . . وبين أشجار السنط والنبق والجميز التى غاصت جذوعها فى أعماق الأرض وهزت تربتها منذ عشرات السنين .

وكان المقهى عبارة عن بناية من الطوب الأسود . . وسقفه من الجريد وجذوع النخيل وأرضه نصف عارية ونصف مفروشة بالحصر ولم يكن فيه كرسى واحد أو منضدة وكان الفلاحون والعابرون يجدون فيه حاجتهم من الشاى والسجاير والتمباك . . . ويحتمون بين جدرانه من الشتاء .

وكان سراجه يلمع فى الظلمة . . ويجد فيه العابرون فى الليل ملجأ يحميهم من أرض الشياطين . . فقد كان المقهى وسط دغل من أشجار النخيل الصغيرة الملتفة . . . ووراءه مزارع القصب . فيشعر السائر فى الليل بما يفزعه ويروعه فإذا ولج باب المقهى وسمع صوت حليمة أو رأى سراجها فى يدها ارتد إليه قلبه . .

وكان عابرو السيارات فى الخط الشرقى إلى البدارى . . يجدون فيه قلة الماء وكوب الشاى الأسود . . وعلبة السجاير . .

وكان صاحب المقهى شعبان قد ذهب من الصباح الباكر إلى أبو تيج وربما عاد فى الليل . .

وجلست حليمة تصلح ذبالة السراج . . والغلام الذى معها ينفخ النار فى قطع

السنط وإذا برجل يدخل من الباب وكان يرتدى بذلة رمادية . . ويضع على رأسه طربوشا وعليه سيما التعب الشديد . .

وخفت إليه حليمة . . ترحب به . . وتشفق على شيخوخته من هذا المشوار . .

وسألها :

- الحلزونة . . مرت ياحليمة ؟

- لم تمر بعد . . . ياعمى صالح . . استرح إنه ميعادها . . .

- إعملى لى كوباً من الشاى . . تعبت فى هذا النهار . . أتعبنى الفلاحون . . أصبح من طباعهم المماطلة .

- تعال لهم . . مرة أخرى فى الأحد المقبل . .

- رايح «الغرب» . . ياحليمة . .

والتمعت عيناه فى الغبش الذى زحف على المقهى . . وأحست حليمة بالظلمة فأشعلت السراج . . وأضاء النور وجهها . . وبدت أمامها خطوط الزمن على وجه الرجل الذى جلس على الحصير ونشر أوراقه . . أخرج الفواتير وأخذ يطرح فيها ويجمع . . ويقوم بعملية حسابية شغل بها واستغرق فيها . . ومنذ أكثر من عشر سنوات وصالح أفندى يأتى إلى هذا المكان فى كل شهر مرة وينشر أمامها مثل هذه الأوراق وفى كل مرة . كان يشكو من الفلاحين ويقول لها إنه لن يبيع لهم بالأجل . . وهذه هى جولته الأخيرة . . ولكنه كان لا يستطيع أن يغير طريقته بمثل السهولة التى يتصورها . . وقد يكون المشوار مع المشقة التى يلاقيها فيه . . والجهد والعرق ومماطلة الفلاحين . . هذه الأشياء كلها هى جزء من عمله ومن تجارته .

وما الذى يمكن أن يعمله مع الفلاحين وهذه هى طريقتهم فى الحياة . . وهى نفسها لا تستطيع أن تتعامل معهم إلا بالأجل . . ولو فكرت أن تبيع لهم التمباك وعلب السجائر بالنقد . . ما باعت لهم شيئاً . .

وطوى دفاتره . . وعادت عيناه . . تنظر من خلال الباب . . إلى الضوء الذى يلمع هناك على الجسر . . والذى جلس فى انتظاره . .

وسألته المرأة وقد بدا لها أن الرجل يحمل نفسه أكثر مما يطيق من الجهد . .

- وحصلت على كثير . . ياعمى صالح . . . .

- أبداً . . يابنتى . . ثمانين جنيهاً . من مائتين . . بعد تعب طويل . .

- إحمد ربك . . إننا لسنا فى الموسم . . وأنا نفسى لن أعطيك إلا خمسة جنيهات . . وترسل لى السجائر والتمباك . . يوم الخميس . كالمعتاد . .

- حاضر . . وإن كنت فى حاجة إلى هذه الجنيهات إبقيها . .
- لا . . كتر خيرك . . سآتيك بها . .

ودخلت من باب صغير جانبى وصعدت إلى مسكنها وكان فوق بناية المقهى . .

وجلس صالح فى مكانه يشرب الشاى بتؤدة وعيناه إلى الظلمة التى أخذت تشتد فى الخارج . . وكانت الريح تئن . . وفروع النخيل تهتز مع الريح . . وبدا له أن كل شىء يسبح فى ظلمة رهيبة ليس لها بداية ولا نهاية . . وشعر بالخوف يزحف على قلبه لأول مرة ويعصره . .

ورأى الغلام جالساً فى زاوية من المقهى وكان لم يعره باله . .
فقال له :
- إجرى . . إنتظر السيارة . . على الجسر يامرزوق . . ربما مرت ولا نشعر بها . . .
- حاضر . .
وخرج الغلام . .

وعاد الرجل ينتظر ويحس بثقل الانتظار على نفسه . . وكانت حليمة قد هبطت من أعلى . . وقدمت له الورقة المالية وهى تبتسم فأخرج محفظته ووضعها فيها . . ثم أعاد كل شىء إلى جيب سترته . .
وقال للمرأة :
- يبقى كم . . ؟
- عشرة . .
- بالضبط . . أنت تعرفين الحساب أحسن من شعبان . . والآن هاتى لى كوباً آخر من الشاى . . لأن السيارة كما يبدو ستتأخر . .
- أنا أعرف أنك شريب . . . .
- أنا أشرب منه الكثير . . وهو لا يؤذينى . . كما يؤذينى الطعام . . إنه غذائى الوحيد فى الصباح . . والمساء .
- يبدو لى أنك طعنت فى السن . . لأن الشاى طعام العجائز . . .
- وأنت ؟
- فى عز صباى !
- الشىء الواضح لى يا حليمة . . إنك كنت فتنة بين النساء . . فى صباك . . وتقاتل عليك الرجال . . وأخيراً فاز شعبان . .
- هذا صحيح . . وهذه قسمتى . . ولم يكن لى الخيار . .

واكتسى وجهها بأسى لا يعرف سببه . .

ولم يكن فى شعبان عيب يراه . . ولكنه أدرك أن المرأة أصدق منه فى فهم الرجال والحكم عليهم فصمت ولم يعقب . .

وكان مرزوق . . قد عاد وهو يردد . .
- السيارة متأخرة الليلة . . حصل لها عطل . . . .
فصفعته المرأة وهى تقول له :
- عد وانتظرها . . ولماذا رجعت . . ربما مرت فى هذه الساعة . .

وجرى الغلام سريعاً . . يجتاز عرائش النخيل . . ونظر صالح أفندى . . إلى المرأة وهى تسوى طرحتها على راسها . . بعد رنين الكف على خد الغلام . . وتعجب من خشونتها التى بدت فجأة . . وقال لنفسه ربما هى هكذا لأنها لم تنجب ذرية ولم تشعر بالأمومة أو لأنها فقدت أبناءها وهم صغار . . فلم ير بجوارها . . لطول تردده عليها . . أطفالاً عندها وكان يعرف أن مرزوق هو صبى يساعد زوجها فى المقهى . .

وطال انتظار صالح أفندى للسيارة . . وأخذ يدخن ويطرد عنه شعور القلق بالتحدث مع حليمة . . وأخذ يحدثها عن زوجته وأولاده . . وابنه الكبير محمد الذى أدخله الجامعة فى هذه السنة وسافر إلى القاهرة منذ شهرين . .

وكانت السعادة تغمر قلبه . . وأفاض فى الحديث . . وكان يغلق عينه فى أحيان كثيرة ويعبر بصوت واضح رغم خفوته . . عن أمانيه الباقية فى الحياة بأن يعيش حتى يزوج ابنته فتحية . .

وتأثرت المرأة من عاطفة الأبوة التى تسيطر على مشاعره . . وابتهجت لابتهاجه . . وتطلعت من فتحة الباب . . فرأت الجهامة المطبقة . . وأصوات الأشباح التى تعوى كل ليلة فى بساتين النخيل . .

وقال صالح أفندى وهو ينظر إلى ساعته وقد رآها تتجاوز الثامنة . .

- سآخذ السيارة . . الأخرى . . التى تمر من «المشابك» . . ربما تعطلت هذه السيارة حقاً . . أو لم تجد ركابها . . فبقيت فى المركز . .

- إن الطريق طويل إلى هناك . .
- لابد أن أذهب . . لألحق آخر سيارة . . بقى عليها نصف ساعة فقط . .
- ولماذا . . لاتبقى معنا . . إلى الصباح . . سيرجع شعبان بعد قليل . . ؟
- لا أستطيع أن أبقى مهما كانت الظروف . . ستشغل زوجتى والأولاد . . وسأجدها ساهرة فى انتظارى مهما تأخرت . .
- لماذا . . ؟

– إن الحوادث فى الريف تروعهم . . ولقد تأخرت فى درنكة . . الأحد الماضى . . فظلت واقفة تنتظرنى على الباب . . إلى الساعة الواحدة صباحاً . .

– إذن اذهب . .

قالت هذا بهدوء . . .

وكانت تعرف شعور المرأة . . وهى تنتظر رجلها . . لكم جزعت على شعبان وهو يتأخر فى الليل . . وكم من الليالى تفطر قلبها . . وهى تسمع الرصاص يدوى . .

وقالت بعد أن رأت الرجل ينهض على قدميه . .

– ألا تنتظر عودة مرزوق . . ليصاحبك . . إلى المشابك . . ؟

– لا . . سأمشى وحدى . .

– ألا تخاف . . ؟

– معى مسدسى .

وأراها المسدس الصغير فى جيب سترته . .

وابتسمت المرأة . . وخرجت تودعه وتناول يدها ومضى وحده . . ولكن بعد عشرين خطوة وهو يقترب من عرائش النخيل الصغير على الجانبين شعر بالفزع يشل حركته . . فتوقف ورأته حليمة . . وكانت لا تزال فى مكانها . . فتناولت بندقية زوجها من وراء الباب وجرت إليه . .

وأحس بها بجانبه وفى يدها البندقية . . وكان لم يرها تمسك بها من قبل أبداً فابتسم وقال لها . .

– جئت . . .

– أجل وسأمضى معك إلى المشابك . .

– لا . . لا . . هذا كثير . . يكفى . . أن نخرج من هذه الأشجار . . إنها ترعبنى حقاً . .

وضحكت من خوفه . . ولكنها التمست له العذر . . وكان حذاؤه قد أخذ يغوص فى التراب . . والريح الباردة تلسع وجهه . . وعيناه . . تضل فى هذا التيه . . وأسلم مقوده للمرأة . . وعجب إذ كانت فى مثل طوله وأكثر . . منتصبة القامة سريعة الخطوة . . . . جسورة كأن الليل خلق لها . .

وكانت قد تركت الطرحة فى البيت واكتفت بأن عصبت رأسها بمنديل . . وانتعلت خفاً خفيفاً كأنها تستعد للنضال . .

وشعر بالاطمئنان وهى بجواره وبالخوف كله يذهب من قلبه . .

وبدأ يخرجان من وسط الأعراش . . ويستويان على الطريق الصاعد . . المؤدى إلى الجسر . .

ورأى مزارع القصب والبرسيم على الجانبين . . والأنوار تلمع فى وسط الحقول ثم تخبو . . وسمع نباح الكلاب . . وفزعها كأنها تقاتل أشباحاً فى الظلام . .

ثم سكت النباح وخيم السكون . . وقال للمرأة وهما يقتربان من موقف السيارات :

- يكفى إلى هنا . .

- ألا أنتظر معك حتى تجيء السيارة . . . ؟

- لا . . . لا . . . هذا يكفى . .

وأحست بأنها أدخلته فى منطقة الأمان فعلاً . .

فقالت له :

- مع السلامة . .

. وأخذت تستقبل من طريقها ما استدبر . . وقبل أن تجتاز عتبة المقهى سمعت دوى رصاصة فجفلت . . وأرسلت بصرها إلى الخارج . . لحظات . . ثم عادت وردته بعد أن أبعدت عن رأسها الخاطر الرهيب الذى ساورها . . وأدركت أن الرصاص مألوف فى الحقول فى مثل هذه الساعة من الليل . .

***

وعاد مرزوق وجلس معها ساعة ثم صرفته ليعود إلى أمه فى القرية . .

وجلست تتوقع عودة زوجها . . ولما يئست من عودته . . أخذت تجمع الأشياء التى على الرف . . وتصعد بها إلى القاعة العليا . .

ثم خففت من ضوء السراج . . ودارت حول بيت الدجاج . . والغنم المربوطة فى ناحية من المكان لتقدم لها شيئاً من الطعام . . ولمحت وهى تستدير شبحاً يخرج من بين النخيل ويصعد إليها فوقفت ترقبه . . حتى اقترب الرجل . . وقال بصوت خشن نوعاً . .

- عندك ماء . . ياست . . عطشان . .

فناولته الكوز . . وهى صامتة . . وعيناها تستكشفان كنهه . . وأدركت من أول وهلة أنه غريب وليس من فلاحى قريتهم . . أو القرى المجاورة لها . . وأنه يعبر المكان لأول مرة . .

وكان ينظر بعينه إلى الداخل . . ويده ممسكة ببندقية قصيرة . . ويحاول أن يأخذ ببصره كل شىء فى لحظة . . .

- وعندك سجائر . . ؟
- نعم . .
- أعطنى علبة . . «معدن» . .

ودخلت المرأة . . ودخل الرجل وراءها . . وهو لا يزال يدير بصره فى المكان . . ولمح إبريق الشاى . . والنار . . لا تزال مشتعلة فى الموقد . .

وجلس على الحصير . . وعينه على الباب . . ووضع البندقية جانباً . . ومد رجله . . . ولاحظت أن ساقه مجروحة . . وينز منها الدم . .

فسألته وهى تعد له الشاى . .
- هل جرحت . . ؟
- أجل . . دخل جذر من جذور القصب فى رجلى . .

فنظرت إلى حذائه المضفر . . وأدركت أن كذبته بلقاء . . ولكنها لم يظهر عليها ما ينكر كلامه . .

وقالت برقة :
- الأحسن أن تغسل الجرح . . إنه يدمى . .
- لقد حشوته بالتراب . .
- إغسله واحشه بالبن . . سأجىء لك بحفنة منه .
- كتر خيرك . .

وظهر عرجه . . وهو يعبر المجاز . . إلى الداخل . . وناولته قدر الماء . . ثم رفعت له السراج ولكن لما عرى فخذه حولت وجهها عنه . . ووضعت السراج فى الطاقة . .

وناولته البن . . فحشا الجرح . . وربطه بقطعة من القماش قدمتها له . . وعاد إلى مكانه ينظر إليها فى ثبات . .

وأخذ قلبها يحدثها . . وهى تستشف نظراته . . وسألته . . وهى تقدم له الشاى . . .
- هل أنت من الأطاولة ؟
- لا . . من العوامر . .
- وأين كنت فى الليل ؟
- كنت فى سوق الإثنين . . لأشترى جاموسة . .
- ولم تجد . .

- وجـدت . . ولكن الجامـوس . . غال . . هنـاك . . الجامـوسـة . . بتسعـين ومائة . . وليس معى هذا القدر من المال . . فقلت أعود مرة أخرى فى السوق المقبل . . وربما وجدت الرخيص

- وماذا تزرعون عندكم . .

- نزرع الشعير والقمح . . والبرسيم . . ولكننا لا نزرع قصبا .

- أرضكم ضعيفة . . ؟

- بالطبع . . ليست مثل أرضكم . . هنا . . الخير كتير . . ولا يوجد عندنا قهاوى مثل هذه . .

- إنها لازمة على طريق السيارات . .

- وهل تمر سيارة فى هذه الساعة من الليل ؟

- لا . . إذهب هنـاك . . إلى المشابـك . . عند القنـطرة . . إن كنت ترغب فى ركوبها . .

- لقد تعبت من السير . . إن الجرح يدمى . .

- إبق هنا إلى الصباح . . إذا شئت . .

- كتر خيرك . . لابد أن أمضى . .

وكان فى صوته جرس أيقظ حواسها . . ونبهها إلى شىء لم تكن تتوقعه أبداً . . وزاد توجسها منه . . وكان قد ألقى سلاحه بجانبه . . فى استخفاء وتحد . .

وسألها :

- هل تعيشين هنا . . وحدك ؟ . .

- أجل . . وعندى غلام . . ذهب إلى أمه فى القرية . .

- وأين زوجك ؟

- ليس لى زوج . .

- ألا تخافين ؟

- من ماذا ؟ . .

- ان يسرق الفلاحون . . هذه الأشيـاء كلها . . الشـاى والسكر . . والبن . . والنعجات وحتى الدجاج !

فعرفت نظراته . . وأدركت أنه أحصى كل شىء فى لحظة . .

- إن الفلاحين . . لا يسرقون مثل هذه الأشياء . .

- لماذا ؟ . .

- لأنها تنفعهم . . وأنا لا أمنعها عنهم . .

ودار بوجهه . . وأشعل لنفسه سيجارة ورأته لا يتجاوز السابعة والعشرين من عمره وسيما مفتول العضلات . . وإلا لما تحمل هذا التمزيق وسار به . .

وقرنت جرحه بشيء دار في خاطرها وارتجفت له . . ولكنها كانت تتمنى ألا يكون قد وقع . وارتعشت لهذا الخاطر . . وخافت أن تظهر أمامه بالخوف فيطمع فيها . .

وأبعدت كل خواطر القلق عن رأسها . . وجلست تحادثه . . ولكنه عندما وضع يده في جيبه ليدفع حساب الشاى والسجاير سقطت محفظة على الأرض . . فأعادها إلى جيبه في هدوء . . وعرفتها إنها محفظة الرجل الذى كان عندها منذ ساعات . .

ولقد سرقها منه بعد أن مزقه بالرصاص . .

وكتمت انفعالات نفسها . . وأخذت منه حسابها في هدوء . . وذهنها يعمل بسرعة . . تملكها غيظ مستمر . .

وسمعت من ينادى اسمها في الخارج . .

فألقت سمعها . . وتطلعت . .

ورأت شيخ الخفر . . على الباب ومعه خفيران . . وكانوا يسألون عن عربة المأمور القادمة من المركز . . لأن أفنديا قتل عند المشابك . .

وسألتهم ملتاعة :
- من الذى قتل ؟
- صالح أفندى بائع الدخان . .
وارتجف قلبها . .

ونظرت إلى الرجل الذى في الداخل بالمقهى . .

ودخل شيخ الخفراء ومعه الخفيران يشربون الشاى قبل أن تمر سيارة المأمور ولاحظت حليمة . . أن الرجل لم يغير مجلسه . . ولم يتناول حتى بندقيته التى وضعها جانبا وجلسوا بجواره وأخذ يحادثهم في ثبات أرعبها . . وهم ثلاثة وهو واحد وجريح . . . !

ولاحظت بعد قليل . . أنهم كانوا يخشونه . . وربما ارتعبوا

كان قد طوى رجليه وتربع ينظر إليهم بعينين تبرقان تحت الضوء الشاحب الراقص في الطاقة .

وبعد أن شربوا الشاى خرجوا إلى الجسر في انتظار عربة المأمور وبقى الرجل في مكانه مع المرأة . .

ورأته يتجمع بعد أن ذهب الرجال وقد أمسك البندقية فى يده . . وكانت الدنيا مازالت ملفوفة فى شملة - من الظلام . . وأشباح تبدو غائمة باهتة كأنها منظورة من خلال نقاب كثيف . .

وكانت هى نفسها كأنها تنظر إلى الرجل من خلال نقاب ثم انقشع عنها النقاب فى لحظة . . ورأته على حقيقته . . ونسيت وسامته وشبابه . . رأته شريرا وقاطع طريق . . ولا ينطق إلا بالأكاذيب التى تجمعت فى أفواه البشر .

وقالت وهى تنظر إليه من جانب وكأنها تحدث نفسها :

- هل تعرف أن الرجل الذى قتل منذ ساعة . . كان يسرع فى العودة إلى زوجته وأولاده لأنهم كانوا فى انتظاره . . وسيعود إليهم الآن محمولا على محفة . . فما أفظع الحياة . .

- وهل تعرفينه . . . ؟

- لقد كان هنا . . قبل أن تدخل . . وشرب الشاى . . من نفس الكوب . .

وكانت عيناها تبرقان ببريق غريب أزعجه وأشاع الخوف فى نفسه . . وراقب تحركاتها . . تحت ضوء السراج . . وسألها . .

- وكان ينتظر السيارة ؟

- أجل . . ثم تعجل الأمور . . وذهب إلى الجانب الآخر . . ليلاقى حتفه . . مقادير . .

ونظرت من خلال الباب ثم عادت إليه وهى تقول :

- إن الذى قتله كان يجهله تماما . . فمن الذى يقتل رجلا يسعى بيننا على معاشه منذ عشرين سنة ولا يفكر حتى فى أن يؤذى بعوضة . . وخيره على جميع صغار التجار من الفلاحين . .

- مقادير . . !
- أجل مقادير . . وهى فى انتظارك . .
وضحك ضحكة خشنة مجلجلة
- فى انتظارى أنا . . . ؟
- بالطبع . .
- لماذا . . ؟
لأنك شرير . .

قالت هذا بدلال . . وهى تكسر رموش عينيها . .
فقال :
- كلنا أشرار . . ومارقون . .
- ولكنك أكثرهم شرا . .
وضحك . . وهويرقب عينيها الذابلتين . . ولم يرَ أنضر من وجهها فى هذه الساعة . .
وسألها :
- هل صحيح . . أنك تعيشين هنا . . وحدك . . من غير رجل . .
- وماذا أصنع به . .
- يحميك . . على الأقل من الرجال . . ؟

قال هذا بصوت خافت وهو يرقبها بخبث . . وعجبت للرجل الذى بدأ يغازل . . ولا تزال بندقيته تفوح منها رائحة البارود . . والخطر يكمن له فى كل خطوة . .

وردت عليه بدلال أكثر . .
- لست فى حاجة إلى حماية أحد . . .

وكان فى قولها رنين لم يفهمه . . وتحركت ورأى ثوبها الأسمر السابغ على جسم طويل ملفوف . . والمنديل تتدلى منه خيوط وكرات صغيرة زرقاء على جبينها .

ولمح الرجل ضوءا يبرق فى الظلام . .
فقال :
- سيارة . . وقد تكون سيارة المركز . . .
- وهل أنت مطارد . . ؟
- أبدا . .
- ما الذى تخشاه منهم . . إذن . . ؟
- أخشى على البندقية . . وهى من طراز . . لا يباع ولا يشترى الآن . .

وكانت تعرف ذلك دون أن يحدثها . .
وقالت له :
- هاتها . . لأخفيها عن العيون . .
- أنا لا أعطى سلاحى . . لإنسان . .
- إصعد بها إلى القاعة . .

- لا . . لن أكون فى المصيدة . . إن قوات المركز كلها تتجمع على . . وموقفى هناك

وقد حددته منذ وطئت قدماى هذا .. المكان .. وقد أطلقت رصاصة واحدة ويقى معى الكثير ..

وضحك ..

لقد خذلها هذا الثعلب وشعرت بالغيظ ..

وأخذت الأضواء الكشافة تلحس الظلام ..

ومضى عنها فى خفة الثعلب .. ورأته يكمن هناك .. بين دغل النخيل فى أعلى التل ..

وشعروا به ..

وبدأوا هم فى إطلاق النار .. ورد عليهم .. وسقط منهم اثنان .. وكانت تعرف أنه سيحصدهم .. لأنهم لا يعرفون مكانه بالدقة ولأن سلاحه غير السلاح الذى فى أيديهم .

وتناولت بندقية زوجها وأطفأت السراج ...

***

ودفعت الباب .. وخرجت وعندما أطلقت أول طلقة كان الرجل يتصور أنها تطلق معه على الخفراء .. فتركها .. وفى الطلقة الثانية أسكتته ..

وكان كل واحد من العساكر والخفراء يتصور أنه هو الذى صرعه ..

ولكن المرأة التى فعلت هذا رجعت إلى بيتها فى سكون وردت الباب .. وأعادت البندقية إلى مكانها ثم تقدمت فى هدوء لتشعل السراج كما كان ..

الذئاب الجائعة

وقصص أخرى

الذئاب الجائعة

خرجنا فى الهزيع الأخير من الليل نزحف نحو المزرعة كالذئاب الجائعة ، ومع أنا كنا مسلحين بأحسن طراز من البنادق فقد كنا نتجنب الحراس ونراوغ كالثعالب . لأنا نعرف قيمة الدم المهدور فى الصعيد ، ولهذا كنا نتخير الأوقات التى تغفل فيها العيون وتغفو . .

كان الظلام على أشده فى تلك الليلة ، وكانت وجهتنا مزرعة عثمان بك ، وهو من الأثرياء الأشحاء . كان جبارا شديد البطش مرهوب الجانب ، وكانت مزرعته متطرفة عن سائر المزارع ، وعليها أشد الحراس ساعدا وأبرعهم رماية . ولكنا كنا لا نخاف أحدا ولا نرهب إنسانا . . كنا من الفتاك الذين يبطشون فى الأرض ، ويعيثون فيها فسادا ، لا يردعنا حلم ، ولا يردنا عقل ، ولا يزجرنا زاجر . . كنا نحمل الحقدو الضغينة على المجتمع الإنسانى ، الذى طردنا من كنفه ، وشردنا فى الأرض ، وقطع بنا الأسباب . . وكانت قسوتنا ، وغلظ أكبادنا على قدر ما أصابنا فى مستهل حياتنا ، من ضنك العيش وشظفه ، وبلاء الأيام ومحنتها . . فكانت الفرائص ترتعد لذكرنا ، والقلوب تنخلع لوقع أقدامنا . . وكنا قد ضربنا بكل شىء عرض الأفق ، وعشنا على السرقة والنهب ، نقطع الطريق على الناس ، ونسطو على المزارع فى غلس الليل وفحمته ، وكنا نشعر بعد كل حادثة بلذة المغامرة التى لا حد لها . .

كانت مبتغانا وقصدنا ، على رأس الطريق المؤدى إلى الحقول ، وكان حول الغنم سياج يبلغ رأس الرجل . . وله بابان أحدهما يؤدى إلى الطريق الصغير الممتد إلى باقى الحظائر ، والآخر يفضى إلى الحقول ، وكنا قد درنا حول المزرعة فى الليالى السابقة وعرفنا كل شىء فيها ، ورأينا أن خير ما نفعله لنتقى كلابها ، هو أن نرسل واحدا منا يناوش كلاب مزرعة مجاورة ، فتخرج إليها كلاب المزرعة التى نقصدها . . وفى تلك الساعة نتقدم نحو الحظيرة ، ونخرج بالغنم إلى بطن الوادى ثم نتجه بها فى طريق غير مألوفة إلى الشرق ، وبذلك ننجو بها . . وتم كل شىء بمنتهى السرعة . . فبعد دقائق قليلة كنا نسوق الغنم . . وتحولنا بها إلى بطن الوادى ، وأخذت عصينا تعمل فوق ظهورها بحمية . . وكنا نسير

خلفها وواحد منا فى مقدمتها ، ونحن صامتون ، وصوت الكلاب فى المزرعة المجاورة يقطع علينا هذا السكون العميق ، ثم فتر نباح الكلاب بالتدريج وانقطع صوتها . . وسكن كل شىء ، وخمد كل حس ، وساورنا الاطمئنان المطلق . .

وتنفسنا الصعداء ونحن نجتاز بالغنم الوادى ، وندور بها حول التل ، والسكون مخيم والصمت شديد ، وصوت الأمواج المتكسرة على شاطىء النيل يصل إلى آذاننا عن بعد كأنه زمجرة الوحوش فى الأجم ، ونيران الفلاحين فى المزارع البعيدة تبدو فى غياهب الليل كألسنة الجحيم . .

ودرنا حول الغنم ونحن نحثها على الإسراع ، وقد ساورنا شعور من اقترب من الهدف فاندفع بأقصى قوته ليستريح فى النهاية . . وسمعنا فجأة صوت رصاصة مرقت فى الجو . . فحبسنا أنفاسنا ، وضربنا أبصارنا إلى حيث انطلقت الطلقة . . وقد أخذنا أهبتنا للأمر . . وكانت الكلاب قد عادت تنبح ، ثم انقطع نباحها شيئا فشيئا . . فتصورنا الطلقة من أحد الفلاحين الذين يبيتون فى المزارع ، ويطلقون النار على غير هدى ، فى أخريات الليل ، ليرهبوا اللصوص . . وعاد إلينا الاطمئنان ، واستأنفنا السير . . وإذا بنا نسمع طلقات متصلة اهتز لها الجو وزأر ، وهاجت الكلاب وتفزعت كأنها فى شجار مستعر .

استدرنا وانبطحنا على وجوهنا ، وتركنا الغنم مع واحد منا يسوقها بأقصى سرعتها ، وأخذ الرصاص يدمدم ، ويصوب إلى اتجاهنا ، لقد تقفوا أثرنا وعرفوا طريقنا ، ولم يكن من القتال بد . . وزحفنا كما تزحف السلاحف إلى مشرف عال بجانب الطريق . . وأخذنا نرد على طلقات الحراس بطلقات أشد منها . . وانقلب الجو إلى معركة حامية . . واشتدت علينا المطاردة وكثر طلق النار . . وكأنما خرجت إلينا المزارع بجميع حراسها ، وأحسسنا بدقة موقفنا ، وأدركنا أننا لو بقينا فى مكاننا فنحن هالكون لا محالة ، فتراجعنا إلى مكان آخر . . ورأينا أن نسرح الغنم ليكف عنا الحراس . . وعهد الرفاق إلى وإلى زميلى حسان بهذه المهمة . . فأخذنا نغير اتجاه الغنم ونردها على أعقابها . . وبعد دقائق قليلة كنا ندفع الغنم من حيث جاءت ، والرصاص يصفر فوق رأسينا . . ورميت رفيقى بحصاة . . ونهضنا معا ، وجرينا بكل ما وسعنا من السرعة ... وسمعت أنة مفزعة ، وسقط جسم رفيقى على الأرض ، فأسرعت نحوه وحملته . . وبعد لحظات جاء الرفاق . . وحملناه . . وسرنا به مسرعين قبل أن يفضحنا نور الفجر . .

***

انقطع صوت النار . . وخف نباح الكلاب ، ثم سكن وخيم السكون العميق . . وبلغنا بصاحبنا التل . . وكان قد فارق الروح فى الطريق بعد أن تألم كثيرا . . ووضعناه فى

الزورق ، وأعملنا الأيدى فى المجاديف ، واتجهنا نحو الغرب ، وقد خيم علينا الصمت . . ما أعجب الحياة ! لقد انتهت حياة رفيق لنا فى مثل خطف البرق ، وما ذرف عليه أحد منا دمعة ! فقد قست قلوبنا وتحجرت مآقينا . . ها هو القتيل الأول ؟ . أبدا . . ولن يكون الأخير . . وسيأتى دورنا ما من ذلك بد . .

وتبادلنا المجاديف ، والرفيق الذى كان يضاحكنا فى المساء ويمازحنا قد رقد هناك فى ركن من الزورق ، صامتا أخرس . . لقد كان صمته أبلغ من نطقنا . . ولقد أطبق فمه وهو فى بكائر أيامه وربيع عمره ، وضرب الضربة البكر ، وهو فى أول عهده بالحياة . . قضى . . لأنه كان أكثرنا حماسة ، وأشدنا بطشا ، ولقد انتهتْ تلك القوة الجبارة فى ساعة قصيرة مفجعة ، وكنا جميعا نتوقع الموت فى كل ليلة نخرج فيها للسرقة إلا هو ، فقد كان الموت أبعد شىء عن ذهنه . . ولعل الشباب والجبروت وقوة الحيوية هى التى جعلته هكذا . . ولكن ما أعجب الأقدار ! لقد اختطفته هو ، وخلفتنا نحن . . إلى حين !

وانحنيت على جسمه أتأمل روعة الموت فى ذلك الوجه الناضر . . فإذا بوجهه قد احتقن وتصلب واغبر ، وبرزت عيناه فى رعب ، وسقط فكه الأسفل ، فعل من عانى أشد برحاء الألم . . وأغمضت عينيه ، وقد أذهلنا الموقف المروع عن فعل ذلك من قبل .

وأخرجناه من الزورق وحمله اثنان منا ، وسار الباقون خلفهما فى صمت كئيب . . وبدا الجبل رهيبا موحشا ، شامخا جبارا . . وسيضم جبارا مثله . . أخذنا نتبادل حمله ، وقد ثقل جسمه وتصلب . . وعلى الرغم من أننا ربطنا الجرح ، كان الدم لا يزال يتفصد ، وكانت أرجلنا تغوص فى الرمال ، وعرقنا يختلط بدم القتيل ، ويسيل على وجوهنا وثيابنا . . يا لله . . أى حياة يحياها الأشقياء فى القرية .

تطلعنا إلى الأفق الشرقى وقد بدأ بياض الفجر يزحف . . وكنا قد قربنا من المقبرة ، وثار الغبار الدقيق فى وجوهنا وملأ خياشيمنا ، وأخذ الصمت الرهيب يطالعنا من كل جانب ، وكنا نتبادل من قبل بضع كلمات ، ولكن ما لاح شبح المقابر عن بعد ، وهى رابضة عند سفح الجبل ، حتى تملكنا شعور من الرهبة ، ومزيج من الخوف والابتئاس . . فتصبب العرق على وجوهنا ، وأصبح كل شىء حولنا كريها بغيضا . . فأحسسنا فى أعماقنا بشعور من أشرف على الهاوية ، ووقف على رأس الجب وعيناه إلى تنين هائل ! . . لقد كان عذابنا لا حد له ، وقلقنا لا يصور ، وشعورنا بالبغضاء يفوق كل وصف . . كنا نود لو نلقى بصاحبنا فى اليم ، ونجعله طعمة للأسماك ، أو نطرحه فى العراء ، لتنقض عليه صقور الجو ، وجوارح الطير . . وأسفنا على كل ما تحملناه فى سبيله حتى بلغنا به الجبل ، حيث المقابر . . لقد أثارت هذه المسافة الطويلة التى حملناه فيها كل ما يمكن أن يحمله إنسان لإنسان من حقد وكراهية . . فلو اعترضنا فى تلك الساعة الرهيبة معترض لمزقناه إربا . .

كنا نسير فى طريق المقبرة ذاهلين مشدوهين ، وكأننا نحمل جبلا على أعناقنا . . كان شقاؤ نا مرا وعذابنا غليظا . . وكان الحسك والشوك وشجر الصبار ينبت على جانبى الطريق . وكنا ندوسه بأقدامنا ونحن لا نحس به من فرط الذهول . .

لقد مرت على فى تلك الساعة الرهيبة صور حياتى من الوقت الذى شببت فيه عن الطوق إلى أن أصبحت من الفتاك الآثمين . . وضمنى هؤلاء الرفقاء إلى زمرتهم . . وسرنا جميعا فى طريق الظلام . . هل كنا سنصبح هكذا ، ونعيش على هذا النحو لو أنيرت أمامنا السبل ، ورفعت المشاعل وتبينا السبيل ؟ . . أبدا . . لقد كنا أشد ما نكون حماسة وفتوة ونضارة ، فانتقلنا من الروض إلى بيداء التيه ، بعد أن ضاقت بنا السبل ، ودفعنا المجتمع إلى ركوب هذا الطريق . . فيجب أن نمضى إلى النهاية . . إن أحدا من الناس لم يفكر فى الساعة الفاصلة فى تاريخ الإنسان . الساعة الفاصلة فى تاريخ الرجل ، التى قد يكـون بعدها ملاكا رحيما أو شيطانا رجيما . . لقد مرت بنا تلك المحنة القاسية كما لم تمر على مخلوق بشرى ، وكنا نتعذب ونقاسى من البرد والجوع والشقاء ، ونحمل من الأعباء ما تنوء بحمله الجبال . . كنا نعمل ونحن صغار فى الحقول ، فلا نحصل فى آخر النهار حتى على ما يمسك الحوباء ، كنا نرتعش من البرد فى ليالى الشتاء ، ونتألم من الجوع . . ولم يكن عملنا منتظما ، بل كنا نعمل يوما ونتبطل خمسة . . وكان كل شىء يعمل على عذابنا وشقائنا ، فلم يكن بد من هذه الطريق ! .

ولم نكن نشعر فى أول الأمر ، بعد كل حادثة سطو بشعور الرجل الراضى عن عمله وفعله ، بل كنا فى ساعات كثيرة نشعر بالندم ، وعذاب القلق ، إذا ما أسفرت الليلة عن محنـة وبانت عن قتيـل . . ثم مضت الأيام وجـرفنا التيـار إلى نهاية المنحـدر ، فغلظت قلوبنا . . وماتت ضمائرنا . . وغدونا أشد ضراوة من الوحوش . .

كان النور قد شعشع على الكون ، وبدت المقابر المتناثرة على سفح الجبل . . وحلقت الغربان فى الجو . . وتطلعنا إلى قرن الجبل ، ولمحنا عن بعد ذئابا تنحدر عن قمته ، وخيل إلينا أنها ترقبنا عن بعد . . ما أشبهنا بهذه الذئاب . . إنها تسعى الآن لتأكل إنساناً أو حيواناً فإذا لم تجد أكلت نفسها . .

رمقنا هذه الذئاب بعيون تتقد غيظا وحنقا . . وكانت تنظر إلينـا بمثل نـظرتنا . . وتنحدر عن التل لتأخذ علينا الطريق .

بحثنا عن فأس لنحفر لرفيقنا حفرة . . فلم نجد . . وأخذنا نعمل فى التراب بأيدينا وأطراف بنادقنا ، حتى حفرنا له حفرة ، وواريناه . . ونفضنا عن أيدينا الغبار . . وكانت الذئاب لا تزال تنحدر عن التل ، وتتجه نحونا ، أو تتجه نحو المقبرة الجديدة ! . .

وكانت ترقبنا بعيون جائعة ! . .

ســـاعات الهـــول

فتحت عيني فى ثقل شديد ، وحركت ساقى . . حركت فخذى الأيمن ، وتحسست بيدى موضع الجرح . . ياالله ! . . لم يكن هناك جرح ولا قدم ولا ساق . . لقد ذهب ذلك كله فى غير رجعة ، شعرت بقشعريرة شديدة تسرى فى جسمى ، وتملكنى الجزع . . لقد وضحت الحقيقة كنور الشمس ، وغدوت بين عشية وضحاها فى عداد الموتى . . أنا حى . . ولكنى ميت . . ميت فى الحقيقة . مددت ذراعى وحاولت أن أحرك رجلى اليسرى ، فلم أستطع ، هل ذهبت هى الأخرى ؟ هل قطعوها أيضا ؟ باللهول ! . . نظرت إلى الفخذ والساق والقدم بأصابعه ، كل شىء باق على حاله ، كل شىء فى مكانه وموضعه من جسمى ، ولكن لماذا لا تتحرك رجلى ؟ . . لماذا لا أستطيع تحريكها ؟ لا أستطيع أن أفهم . . هل سرى فيها التخدير ؟ هل أصابتها عدوى من أختها ؟ مسحت بيدى على فخذى ، لأعيد إليها الإحساس ، وأجرى فيها الحرارة ، وحاولت أن أتحرك ، أن أنهض بنصف جسمى ، كما كنت أفعل ذلك من قبل ، وأنا سليم معافى صحيح البدن قويه . . فلم أتمكن . . أغمضت عينى ، وقضقضت بأسنانى ! . . ليس على ساقى أربطة ولاجبس ، فلماذا الا أستطيع تحريكها ؟ دفنت رأسى فى الوسادة ، وأنا أزفر كالمحموم ، أرسلت زفرة محترقة من صدرى ، وأخذت أضرب الوسائد بذراعى ، وحوافى السرير برأسى ، ثم صحت بأعلى صوتى . تملكتنى ثورة نفسية جامحة . . وسمعت أقداما تتجه إلى الغرفة . . وظهرت ثلاث من الممرضات على الباب ، فنظرت إليهن فى غيظ . . لا شك أنهن وقفن هذه الوقفة ، هادئات جامدات وفى عيونهن تلك النظرات ، عندما كان الطبيب يجزر ساقى !! هززت رأسى ، وبرقت عينى . . وجاء الطبيب فحدق فى وجهى برهة . . وتكلم مع إحدى الفتيات . وجاءت الفتاة فوضعت قطعة من الفلين بين أسنانى ، فمنعتنى من أن أصرف بنابى ، لقد كنت فى حالة هياج وخبل . . شعرت بالغيظ الوحشى ، والحسد الفطرى ، وأنا أنظر إلى الطبيب وهو يلقى الأوامر على الممرضات ، ثم يخرج سائرا على قدميه فى نشاط ومرح ! ياالله . . لن أسير بعد اليوم فى الطرقات ، ولن أخرج إلى المتنزهات ، ولن أزور أحدا ممن كنت أحبهم . . لقد تقطعت بى الأسباب ، أغمضت

عينى ، وأرخيت جسمى ، وحاولت أن أوقف حركة تفكيرى . . وسمعت أقدام المرضات فى طرقات المستشفى . . الأقدام دائما . . كان صوت الأقدام يفزعنى . . وددت لو أغلق عينى وأفتحها فلا أجد إنسانا يقف على قدمين ؟ وددت أن الناس جميعا عاجزون مقعدون مثلى . . هل سيوصى لى الطبيب بساق خشبية ؟ يالسخرية الحياة ، وقسوة الزمن ، ويالنحس الساعة المشئومة . . ولكننى لن أفكر فى ذلك . . لا فى تلك الساعة ، ولا فى الزمن ، ولا فى لحظة من لحظات الماضى الرهيب . .

ناولتنى الفتاة كوبا من الماء . . كان حلقى يلتهب من فرط الغضب . . وكانت تنظر إلى نظرة استحياء ، وقد لانت ملامح وجهها ، حتى خيل إلى أنها تبتسم فى خبث ، أو تنظر إلى فى شفقة ، وتلك سخرية المساخر ؟ أنا الذى كنت أملأ الدنيا نشاطا وقوة ، أصبح موضع العطف من ممرضة ، تنظر إلى نظرتها إلى مسكين . شعرت بقلبى يتمزق ! وتحت ثقل الجزع والفزع وثورة الغضب ثقل رأسى ودار . . واستغرقت فى النعاس . .

***

سبحت بعينى فى الظلام . . السكون يخيم على المستشفى . . كم الساعة الآن ؟ كم مضى من الليل . . يالله ؟ . . هل نمت كل هذه الساعات الطوال . . ليتنى ما صحوت . . ليتنى رقدت رقدة الأبد . . ماجدوى الحياة بعد ذلك ، وضعت يدى على جبينى ، كأنما أزيح الستر . . لقد وضحت الأشياء أمام ناظرى الآن . . وظهر جدار الغرفة وأثاثها . إنها ليست غرفتى ، لقد نقلونى إلى غرفة أخرى ، وربما إلى مستشفى آخر ، من يدرى ! . . لعلهم حسبونى مجنونا . . مسحت عينى ، وتململت على السرير ، لقد أراح النوم أعصابى ، أشعر الآن ببعض الراحة ، وأود أن أتذكر ، أود أن أتذكر كيف حدث هذا . .

لقد كنت فى تلك الليلة نائما على فراشى . . واستيقظت بعد منتصف الليل على صوت صفارة الإنذار ، وكان من عادتى ألا أتحرك ، مهما كانت الحوادث . . ولكننى رأيت أن أنهض لأفتح زجاج النوافذ ، وأغلق الحواجز الخشبية ، وفى تلك اللحظة سمعت دوى المدافع يصك الآذان ، فوقفت فى وسط الغرفة بضع ثوان . . ثم مشيت إلى النافذة ، وتطلعت إلى السماء . . ياللهول ! . . كانت السماء تتأجج بنار الجحيم ، والأنوار الكاشفة تدور ألسنتها باحثة عن الطريدة . . التى لم تظهر بعد . . ظللت فى مكانى قرب النافذة ، وقد خيل إلى أننى قائد يرقب المعركة من فوق ربوة تشرف على الميدان وسكن كل شىء فجأة . . كفت المدافع المضادة عن طلقاتها . . وبلعت الأنوار الكاشفة ألسنتها ، وخيم صمت رهيب فى وسط ذلك الظلام الموحش . . واعتمدت بمرفقى على النافذة، وقد عاودنى بعض الاطمئنان ، وإذا بى أسمع أزيزا متقطعا . . فرفعت وجهى إلى السماء . . وأصغيت بسمعى . . وفى مثل خطف البرق عادت السماء تتأجج بالنيران . . ودوى قصف الرعد . . دوى ذلك الصوت المزلزل الذى يتصاعد من الأرض ، كان ذلك صوت القنابل ، وهى

تدك الأرض ، وتدفع موج البحر ، وتثير البراكين ! حدث ذلك كله فى مثل لمح الطرف ، وتصاعد الصياح من كل جانب . . مع صوت النوافذ وهى تغلق ، والمنازل وهى تميد بسكانها . . وتراجعت إلى ردهة البيت ، ووضعت رأسى بين راحتى . .

حاولت أن أحبس أنفاسى ، وأن أسد أذنى ، ولكن هيهات . . كان صوت القنابل قد اشتد واقترب . . وخيل إلى أن المنازل المجاورة أخذت تنهار على من فيها ، كما تنهار السيول من أعلى التل . . إنه الجنون بعينه إذا بقيت فى مكانى ، أخذت أروح وأجىء فى البهو . . وكانت أصوات القنابل لاتزال تدوى وتصم الآذان ، وخيل إلى أن الجحيم فتحت أبوابها . . كان كل شىء يميد ويلتهب فى السماء والأرض . . هل أبقى هنا لأدفن بين الأنقاض ، ولا أحد يعرف مقرى ؟ . . وسمعت حركة السكان ، وهم يجرون إلى السلم ، فنزلت مع النازلين إلى المخبأ .

وكان الناس يتدافعون فى هذا المكان الضيق بالمناكب ، واختلط كلامهم بصياحهم ، وكان أشد ما يغيظنى صياح النساء كلما أرعد الجو وأبرق ، وزلزلت الأرض زلزالها . .

وظهرت الطائرات بوضوح ، وهى تنقض على أهدافها وخيم على الناس الصمت . . وانهمرت القنابل على ضوء المشاعل ، فبرقت العيون ، واحتبست الأنفاس فى الصدور ، وتطلعت الوجوه إلى الوجوه . كان كل إنسان يود أن يقرأ ما يدور برأس صاحبه ، وما دار فى رءوسنا جميعا إلا خاطر واحد . . خاطر رهيب . . ياللهول ! أحتبست الألسنة فى الحلوق ، وانقطع الهمس ، حتى الأطفال سكن صياحهم . . وفى تلك اللحظة الرهيبة كانت سحب الظلام الكثيف تغشى كل شىء . . واشتد الصمت الرهيب الموحش . . صمت الحشر . . لا همس ولا حس ، حتى القلوب خيل إلينا أنها كفت عن الخفقان . . لم تمر على ساعة قط كتلك الساعة . شخصت الأبصار واعتلجت النفوس ، وحتى هؤلاء الذين كانوا يمزحون ويتندرون ويهونون الأمر على النساء ، ويلاعبون الأطفال ، صمتوا وشحبت وجوههم ، لقد شعرنا جميعا بالخطر المحدق . . وفى خلال ذلك الصمت الرهيب . . دوت القنابل من جديد بفظاعة وعنف . . وصاح الجميع فى صوت واحد ، ودفع بعضهم بعضا ، وتعلق بعضهم بأذيال بعض .

كان منظر الأطفال يفتت الأكباد ، ولكنا كنا فى ذهول تام عن كل شىء ، كانت الواعية قد شلت تماما . . لم يكن هناك بصر ولا باصرة . . كنا فى الواقع نرى ولا نرى ، كنا كمن أصابه مس أو أحاطت به الشياطين . .

خيم السكون من جديد . . سكون الرمس . . ثم عاد أزيز الطائرات ، وصوت المدافع ، وصوت القنابل القريبة وهى تتناثر حوالينا ، وتدافع الناس وماجوا ، وأخذ بعضهم برقاب بعض . . وابتدأ الغبار يتسرب إلى المخبأ ، واشتد السعال ، وغامت

العيون . . ودوى قصف الرعد ، وتصورت أن القنبلة سقطت فى تلك المرة على أم رأسى !
وفى حالة هياج وجنون كنت أدفع الناس يميناً وشمالا ، وأجرى إلى الخارج .

ولا أدرى ما الذى حدث لهؤلاء المساكين الذين بقوا فى المخبأ . . فلقد سمعت أن قنبلة مباشرة سقطت عليهم ! ومزقتهم إربا . . إنى لا أعرف ماذا جرى لى وأنا فى الطريق . . فعندما عدت لنفسى ألفيتنى فى المستشفى الأميرى القائم على الربوة الجميلة . . الذى كثيرا ما شيعته بنظراتى وأنا فى طريقى إلى الرمل . . لم أكن أدرى ، وأنا أرميه بنظرة عابرة من قبل ، أن سيتقرر فيه مصيرى ! . . لك الحمد ياربا‌ه هل أنا أحسن حالا الآن من هؤلاء الذين خلفتهم ورائى ، ودفنوا تحت الأنقاض ؟ . . هل يمكن أن أتذكر بعض هذه الوجوه الشاحبة ؟ أبدا . .

رباه . . لقد بترت ساقى ، وانقطعت أسباب حياتى . . ولن أسعى غدا إلى المحكمة . . ولن أدافع عن الإنسانية المعذبة . . ولن يدوى صوتى كما دوى من قبل فى كل مكان . . لقد أسكتته أصوات القنابل .

رباه لست بطلا من أبطال القتال ، ولا جنديا جرح فى الميدان ، حتى يمكننى أن أسير فى الشوارع معتمدا على عكازى . . لا . . لم يكن لى ذلك الشرف ، فكيف أسير كما يسير الجنود والأبطال ؟ . .

أريد أن أبصر النور . . نور الصبح الجميل ، وأرى أشعة الشمس ، وهى ترقص مع موج البحر .

***

استيقظت مبكرا ، وحاولت أن أضطجع على السرير ، فقد مضى على أكثر من أسبوع ، وأنا راقد هكذا ، دون حراك ، كأنى جثة أعدت للتحنيط ! وتحركت قليلا . . وسمعت صوت أول ترام فى الرمل ، وهو يسير إلى مصايف الثغر .

ثم سمعت صوت الممرضات فى المستشفى ، وصافحت خياشيمى رائحة العقاقير ، وسمعت حركة العربة المشئومة . . وهى تزحف دون حس حاملة كل يوم جديداً إلى عالم الموتى . . لقد أحسنوا إلى بوضعى فى هذه الغرفة المنعزلة عن المرضى ، فإن وجودهم معى يثير أعصابى . . لم أكن فى يوم من الأيام أشعر بالشفقة نحو المرضى أو العاجزين ، كان قلبى قدقد من صخر ، وكنت أعجب بالقوة أينما وجدت . . كما أحسنوا إلى بمنع الزيارات عنى ، فما أحب أن أرى إنسانا . . ما كنت أحب أن أشاهد هؤلاء الحمقى ، وهم يلقون العبارات المكررة التى يحفظونها عن ظهر قلب ، والتى تثير الشجون ! ثم النساء وهن يرسلن العبرات . . تبا لهن ! . .

لم يعد لى عيش فى المدينة . . وبعد أيام سأذهب إلى مزرعتى فى الريف . . سأقيم إلى نهاية حياتى بين هؤلاء الفقراء البسطاء الشرفاء ، الذين سيعظموننى ويكبروننى ، رغم ضعفى ، ولن ينظر إلى واحد منهم نظرته إلى مسكين ، إنهم يعرفون ، ولا أحد يعرف مثلهم ، حكم الأقدار . .

أنا أحد أولئك التعساء الذين اضطرتهم ظروف حياتهم إلى العيش فى الريف ، بعد أن قضوا جانبا من شبابهم فى المدينة ، ناعمين بلذائذ الحضر ومتعه . . لقد خلفت ورائى العلم والنـور لأعيش فى جحيم الريف بـظلامه وجهله ، هكـذا شاءت الـظروف وشاء القدر . . وليس أسفى على شباب ولى ، وعمر أدبر ، بقدر أسفى على أن السنين العشرين التى قضيتها من عمرى فى القرية ، مرت على منوال رتيب بغيض معذب . . لم يتغير شىء ولم يتبدل ، نفس الوجوه الكالحة الحزينة ، والأبدان الناحلة المريضة ، والنفوس المعذبة الشقية . . كل شىء لم يتغير . . الأكواخ الحقيرة القذرة تتناثر فى بطن الوادى كما تتناثـر القبور عند سفح الجبل . . ولها مثل صمتها ووحشتها . . ولولا رغاء البهائم فى الغسق ، وعواء الكلاب فى الليل ، وصياح الديكة عند الفجر ، لخلتها مقبرة من المقـابر . . إنها صورة باهتة لرسام مكتئب فقد فى الحياة كل أمل .

وزادنى بلاء وكربا موت زوجى ، وكانت أنيسى ورفيقى فى القرية ، فشعرت بعدها بالوحشة والانقباض والضجر ، ولهذا كنت أروح عن نفسى ، فأزور أخى فى المدينـة ، وكان مهندسا فى القاهرة . .

بلغت منزل أخى ، فى تلك الليلة التى أروى لك حوادثها ، فى السـاعة الثـامنة مساء ، مع آخر مسافر اتجه إلى العباسية ، فقد أمرت الحوذى أن يأخذ بعنان جواده ، لأمتع بصرى بأنوار القاهرة ومحاسنها .

جلست فى بهو المنزل أنفض عنى غبار السفر ، وأستريح قليلا . . وملت بأذنى إلى حيث تقيم الزوجة . . زوجة أخى . . التى كانت تستقبلنى دائما بفتور المدنية التى تنظر إلى الريفى فى احتقار وتقزز ، على الرغم من كل ما كنت أحمله معى من هدايا ونعم . . وكانت تقول لزوجها ، إنها تشتم رائحة الدريس كلما اقتربت منى ! ولهذا تود لو تنفضنى بالمكنسة ! وصحيح أننى كنت أبصق أحيانا على الأرض ، وأحول دورة المياه إلى بركة آسنة ، ولكنى

كنت مع ذلك أفنديا مهذبا من طراز لا بأس به ! . . وكنت أعجب غاية العجب لنفورها الشديد منى ، ورفع أنفها فى السماء كلما التقت بى ، كأنى أجرب أو مجذوم أو مقطوع الأنف ؟ وكأنها هابطة من السماء ! وكنت أبادلها عواطفها . . أحتقرها ، وأنفر جداً من الأحمر الصارخ الذى تلطخ به شفتيها وخديها ، وتلوث به أظافرها . . وأنظر إلى أصابعها ، وهى جالسة إلى مائدة الطعام ، وأعجب ، وأسائل نفسى كيف تسوغ لنفسها الأكل معنا ؟ . . ومن عجب أنه على الرغم من كل ذلك ، وما كان بينى وبينها من نفور واحتقار متبادلين ، فقد كانت تتجمل أمامى وتتصنع ، وتبدى زينتها ما خفى منها وما ظهر ، وكنت كريفى ساذج أجهل السبب ، ولا أعرف أن المرأة المتفرنجة تبدى زينتها دائما لغير بعلها ! .

عجبت للصمت الذى خيم على المنزل . . بيد أنى سمعت بعد دقائق إسماعيل يتحدث فى المطبخ . . ولم يكن يحادث نفسه بالطبع ، على الرغم من أن هذا يحدث له كثيراً ! . . وأنصت . . فسمعت صوتا ناعما متكسر النبرات . . صوت إمرأة . . ولكنه ليس بصوت إحسان هانم . . هل تزوج أخى مرة رابعة ، وطلق هذه المرأة الملعونة ؟ . . لله الحمد . .

تنفست الصعداء ! وصفقت هاتفا بإسماعيل . . صفقت كما لو كنت أصفق فى بيتى فى القرية ، ونسيت الجرس الكهربائى المتدلى ، الذى كانت إحسان هانم تأمرنى باستعماله ، كلما عنت لى حاجة ، وطلبت الخدم . وكانت تقول الخدم دائما ، مع أنه ليس فى بيتها إلا خادم واحد أعرج أبله . . فما من إنسان يستطيع الصبر على خدمتها . . وكانت تقول دائما إن الخدم يجلبون معهم القذارة من السوق ! .

صفقت مرة ثانية . . وجاء إسماعيل يطلع . . فسألته عن سيده فأخبرنى بأنه سافر مع الست إلى الإسكندرية ، لأن والدة الست ماتت ! وعلى الرغم من أن المرحومة ظلت عشرين عاما تنعتنى بأقبح النعوت ، وتقول لزوج ابنتها إنى مستول على الإرث كله ، وآكله فى بطنى ! ولا أدع لإخوتى شيئا ، ولا أعينهم بسحتوت . . فإنى قرأت الفاتحة على روحها . . وطلبت من الله أن يسكنها فسيح جناته ! . . والواقع أن الجفاء بينى وبين المرحومة بدأ فى الوقت الذى يئست فيه نهائيا من زواج ابنتها الصغرى منى ، بعد أن تزوج أخى بإحسان هانم - كما كانت تنعت نفسها دائما - أخذت المرحومة بعد زواج أخى ترمى حولى الشباك لتوقعنى فى المصيدة ، كما صادت أخى . . ولكنى كنت أبرع من أن أقع فى الفخ . . فأفلت من يدها . . وظلت بعد ذلك عشرين عاما تطلق لسانها الطويل فى وتقبح زوجى المسكينة ، وتحث أخى على أن ينفصل . . ويدير شؤونه بنفسه . . ولكنه كان أضعف من أن يفعل ذلك ! . . اضطجعت على الكرسى ، وأنا أفكر فى القطار الذى سيقلنى إلى الإسكندرية لأعزى . . وشعرت ببعض الكآبة لأننى سأضيع يوما من أيام تنزهى فيها لا يجدى ! . . وسمعت حركة أقدام خفيفة . . ووقفت أمامى فتاة فى ثوب أبيض . .

تقدم لى القهوة . . ورفعت عينى إلى وجهها الجميل . . نظرت إليها نصف دقيقة كاملة ، وفمى مفتوح من الدهش . . سبحان الخالق العظيم . . تناولت قدح القهوة من الفتاة ، وودت لو أتناول يدها لأشد عليها بحرارة ، أو أقبلها كما يفعل الحضرى تماما .

وسألتها ، وعيناى تلتهمان وجهها المضطرم خجلا :
«مصرية يابنيتى ؟» . .
«أيوه . . يا سيدى . . » .

وتراجعت إلى الوراء خطوتين ومدت قامتها ، وعيناها تلمعان من خلال أهدابها الغزار . .

وأخذت أحتسى القهوة على مهل وأفكر . . وأسائل نفسى . . هل الفتاة ، وهى آية من آيات الله فيها صور من حسن ، وصيفة ؟ . . خادم . . لتلك المرأة الورهاء الدميمة . . التى لا أشبهها إلا بعود الذرة ، فى يبسها وتعرى عظامها من اللحم ! هل هذه خادم لزوج أخى ! يالسخرية الحياة . . ويالقسوة المجتمع . .

ناولت الفتاة القدح الفارغ شاكرا ممتنا . . ومشيت إلى غرفة سيدها لأخلع ملابس السفر . . ولقد كنت دائما أنام فى هذه الغرفة كلما زرت القاهرة ، لأبين لإحسان هانم مبلغ سطوتى على زوجها !! .

وعدت إلى مكانى فى البهو . . والفتاة واقفة أمامى . . تؤنسنى بحديثها العذب . . وعلمت منها أن لها شهورا ثلاثة فى المنزل . . وأن سيدها طيب بعكس سيدتها . . وأنها لولا سيدها لغادرت المنزل من أول ليلة . . وكانت تتبسط معى فى الحديث وتسمينى بالسيد الكبير ! وفهمت من حديثها أنها تعرف الكثير عنى . . فكلما جاءتهم صفيحة من السمن . . عرفت مرسلها . . عرفت أنها من سيدها الكبير فى القرية ! .

وتعشيت وخرجت إلى ملهى فى قلب المدينة . . وصورة الفتاة حورية - كما كان يسميها إسماعيل - لم تزايل مخيلتى

***

كان الليل فى أخرياته عندما فتحت لى الفتاة الباب . . فقد بقيت ساهرة تنتظرنى . . ونام إسماعيل فى غرفته فى السطح . . وشكرت الفتاة على تعبها وتحملها مشقة السهر لأجلى . . وشعرت بعد وقت قصير بالسكون المطلق . . هدوء الصحراء . فلا همس ولا حس . . فأنا وحيد مع حورية فى المنزل . . بل وحيد معها فى شرق العباسية كلها ، بل فى الصحراء جمعاء . .

جلست على كرسى طويل ذى ذراعين ، والفتاة معتمدة براحتها على خوان

للمسربس [illegible] تحادثنى ، وهى فى لباس أزرق مطرز الأطراف . . وشعرت بسعادة لا توصف ، ونسيت الريف بظلامه ووحشته . . وأدركت أن النعيم المقيم فى هذا المنزل . . وظلت الفتاة تحادثنى إلى أن قرأت النوم فى عينى . . فحيتنى وانصرفت إلى غرفتها .

***

واستيقظت مبكرا فى صباح اليوم التالى . . على رنين الجرس وهويدوى فى إزعاج ، وقامت الخادم مذعورة . . وفتحت الباب فإذا به أخى وزوجه ، وقد أقصرا وعادا من السفر . . يالله . . شعرت بقلبى يغوص فى قدمى عندما وقع نظرى على هذه المرأة ! . .

حيتنى فى فتور ، وعيناها ترميانى بالنظر الشزر . . على الرغم من أنها تلبس السواد وتتظاهر بالحزن . . فلو كانت حزينة لكسر الحزن من حدتها . . ولكنها لم تكن أمامى إلا نمرا أرقط ! . .

وأفطرنا . . وراعنى وأفزعنى . . أنها ظلت طول وقت الطعام ترمى الخادم المسكينة بقذائف من الشتائم البذيئة . . والبنت الفاضلة لا ترد عليها ، بل تخفض بصرها فى صمت وألم ظاهرين .

واستمرت هذه المعركة من الشتائم الوقحة . . طول مدة وجودى معهم ، وكانت تتعلل بأتفه الأشياء لتثير عاصفة فى المنزل . . فإذا أصاب السيدة المصون صداع . . فحورية هى السبب ! . . وإذا توعك مزاجها . . فهى السبب أيضا . . وهكذا ! . . والويل لها إذا كسر طبق ، أو تهشمت إحدى الأوانى الزجاجية . . فإلى الجحيم هى ومن جاء بها ، ولا سبب لهذا العراك المستمر . . هذا العراك الأبدى . . سوى أن السيدة قبيحة دميمة . . والخادم جميلة فاتنة . . هذا هو السبب ، ومن الغريب أن أخى النطع ! – وقد كان نطعا على الرغم من أنه كان مهندسا بارعا – لم يدرك سر هذه المعركة . . ولم يحاول أن يدافع عن هذه النفس المعذبة بكلمة . . وكان إذا استفحل الأمر ، وانقلبت الشتائم البذيئة إلى ضربات موجعة . . رأيته يفتح فمه ، فأنظر إليه بجانب عينى لأحميه على الكلام والتدخل . . ولكنى أراه يفتح فمه كالأبله ، ولا ينبس ، ثم يأخذ وجهه فى الاصفرار ! . . ولا شك أنه أحب هذه النفس المعذبة ، وهو الذى جاء بها . . وكان يعيدها كلما طردت . . ليمتع نظره بها . . ويخفف عن نفسه بعض ما يعانيه من زوجه ! . .

نظرت إلى الفتاة المسكينة فى حسرة ، وأخذت أسائل نفسى ، كيف أنقذها من هذا البلاء . . وهب أنها خرجت من هذا المنزل ، فمن المحتمل جداً أنها تقع فى براثن نمرة أخرى كهذه ، أو ذئب من الرجال فيفترسها ناضجة . . ماذا أعمل لإنقاذها . . وليغفر لى الله ما تقدم من ذنبى وما تأخر ! . . لماذا لا آخذها معى إلى القرية . . ومثلها من يؤنسنى فى وحشتى ، ويجعل الريف فى عينى جنة . .

فكرت طويلا فى الأمر . . وأفضيت إلى أخى بما استقر عليه رأيى ، فنظر إلى ضاحكا وحسبنى أمزح . . فلما تبين أن الأمر جد ، عاد إلى بلاهته ودهشه ، وفتح فمه وصمت ! . .

ورأيت أن يتم القران فى بيت أخى لتموت زوجته من الكمد ! وفى المساء تم العقد . . وظلت زوجة أخى محتبسة فى غرفتها تتميز من الغيظ . . أما حورية فقد كانت فى حفل من الزينة . كانت فى جمالها وفتنتها كأنها حورية من الجنة !!

رجـــــل مريض

عرفت توفيقا أفندى من عهد الحداثة ، وكان رجلا حائـراً ، دمث الطبـاع ، لين الجانب إلى حد الخور . . ولهذا ظل يضرب فى الأرض على غير هدى ولا أمل ، ويعيش على هامش الحياة أبداً . . وساءت حاله ورق عيشه على مر السنين ، إذ لم يكن يستطيع أن يؤدى عملا بعينه ، حتى على أضعف وجه ! فكان أبداً برما بالحياة قلقا نزاعا إلى القنوط ، يتصور أن العـالم كله يحاربـه فى رزقه ، وأن شيـاطين الأرض ، ومـلائكة السـماء تتعـاون عـلى سحقه ! . . اشتغل مدة من الزمن مدرسا فى مدرسة أهلية ، ثم اجتوى هذا العمل بعد أن تبين أن عليه أن يستيقظ كل صباح قبل السادسة ! وعمل فى إحدى الصحف اليومية ، ثم رأى أن هذا العمل يستغرق جل نهاره ، وبعض ليله ، فنفض يده منه ، وركن إلى الدعة ، وعاد يتشرد ! . . وثبت فى إحدى المكتبات العامة ، وكان هذا العمل منتهى مناه ، على أن القلق كان دائما ينزع به إلى التمرد ، فترك هذا العمل وفى نفسه حسرات . . وسمعت بعد ذلك أنه لم يزاول عملا بعينه ، وأنه ظل كالطائر المهيض الجناح ، يزحف على ساقيه كلما شعر بحاجة بطنه إلى الطعام .

وكان قد تزوج منذ عامين ، ودفعه الزواج فى أول الأمر إلى النشاط والحمية . . ثم فاء إلى نفسه وطبعه وعاد يتبطل !! .

وكان يزورنى فى منزلى الصغير فى ضاحية من ضواحى القاهرة ، عصر كل خميس ليرتب مكتبتى ، ويحمل لى ما يتسوقه من الكتب القديمة . . وكان للرجل ولع غريب بنظام المكتبات ، وكان يقول لى إن الفقر هو الذى قعـد به عن السفـر إلى ليبزج ليـدرس فن الطباعة ، ونظام المكتبات ، وكان يعرف أننى رحالة جبت كثيراً من البلاد ، ولهذا كـان يستمع إلى وأنا أصف له ما شاهدت فى أوربا بعين شكرى ، وكان يقول لى إن أمنيته الوحيدة هى أن يدخر بعض المال ليسافر ويحقق رغباته . ولكنه كان عاثر الجد أبدا لا تتحقق له أمنية . . وكان يقول لزوجه إن الله رماها به ليمتحن إيمانها . وأنه من نكد الدنيا أن تقع

زوجة جميلة مثلها فى بيت رجل معدم مثله . . على أن زوجه كانت تطيب خاطره دائما ، وتقول له إنها سعيدة بفقره . .

وكنت أسمع عن هذه المرأة كثيرا ، وأعرف أنها آية الله فى خلقه ، وأنها مع جمالها ونضارتها ، حسنة التدبير ، تصنع له الغذاء الكامل بقروش قليلة ، وتعينه على الحياة البسيطة ، وتدفعه دائما إلى العمل ، ولكنه كان حائراً ، ضعيف العزم مترددا لا يستقر على حال .

ولما قامت الحرب أغرته امرأته بالتجارة فتاجر . . ولكن الحظ العاثر ، وضعف الحيلة لازماه ، فأفلس بعد شهور قليلة من عمله . ولعله التاجر الوحيد الذى أفلس فى هذه الأيام ، وكادت هذه الضربة تكون قاصمة الظهر له ، لولا أنه تجلد وتماسك واستسلم لأمر ربه .

***

وكان قد انقطع عن زيارتى بعد إفلاسه ، حتى تصورت أنه قضى ، أو انتحر ، وإذا به يزورنى فجأة فى ليلة من الليالى ، وهو على حال من التعاسة لا تصور . . كان رث الثياب ، زرى الهيئة ، ضامر الوجه أصفره . وعلى جبينه خطوط وأخاديد ، وحول عينيه دوائر زرقاء . . ومن فمه تفوح الخمر . . وجلس أمامى صامتا على غير ما ألفته . . وكنت فى كل مرة يزورنى فيها لا أحفل به كثيراً ، أتركه يعبث فى الكتب بعد أن أقدم له القهوة . . وأعود لعملى . . وكان يعرف أنى بطبعى رجل مستفرد صامت لا أحب الثرثرة ، ولا أصبر على مجالسة ثرثار ، ولهذا كان يغب فى الزيارة ويقصر . . ولكننى فى هذه المرة احتفيت به على غير عادة ، وأخذت أرد عليه بعض مرحه الذاهب ، وأتلطف معه فى الحديث مداعبا . . ولكن الرجل كان على غير استعداد لذلك . كان كأنما أصابته ضربة قوية على يافوخه فظل مطرقا لا ينبس ، فتركته على حاله ، وعدت إلى كتبى ، واستغرقت فى المطالعة حتى نسيته . ثم سمعته على حين غفلة ينادينى ، فرفعت وجهى عن الكتاب . . فألفيته واقفا فى نهاية الغرفة ، عند نافذة صغيرة تطل على النيل ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ! فنظرت إليه مدهوشا ! وسمعته يقول :

«نسيت يا أخى . . أن أقول لك إن نعمات هانم تسلم عليك !» . .

فسألته :

«ومن هى نعمات هانم هذه ؟ . .» .

«زوجتى . . يا أخى !» . .

ففتحت فمى من الدهش . . واستطرد هو يقول :

«كانت تقول لى دائما . . لماذا لا تجىء بصادق أفندى . . لماذا لا تدعوه إلى زيارتنا مرة . . سأصنع له فطيرة من التى يشتهيها بقلبه . ولكنى كنت يا أخى أخجل من أن أحدثك برغباتها ، لأنى أعرف أن وقتك من ذهب . . ولهذا كنت أتردد فى هذه الدعوة . . وعلى الأخص لأن منزلى بعيد . . فما الذى يدعوك أن تنتقل من هنا إلى أقصى روض الفرج . . لتزور إنسانا مهملا مثلى . . ولكنها كانت تلح على أبدا ، لأنها تسمع عنك كثيرا . وتود أن تعرفك . . ولهذا فكرت فى الأمر على وجه آخر . . أنسب لك . . فقلت فى نفسى أن صادق أفندى يعيش وحده عيشة مرة . . مستفردة . . ولا يجد من يصنع له طعامه . . فإذا جاء بخادم لا يمكث عنده أكثر من أسبوع لأنه يسرق ملابسه وكتبه ويهرب . . وحياته الغريبة تغرى الخدم بالسرقة . وكيف لا يسرق الخادم وهو لا يرى سيده إلا فى ساعات قليلة من النهار . . ولهذا قلت لماذا لا تجىء نعمات . . إلى هنا . . لتصنع لك طعامك وتهيىء فراشك وتقوم بكل ما يلزمك . . لماذا لا تفعل ذلك . . والآن ما رأيك يا أخى فى أن تجىء من الغد !» .

فأطرقت برأسى ، ولم أكن أتصور أنه يصل إلى هذا الحد من التدهور . . وبدا لى فى صورة نكراء بشعة . . وكانت عيناه قد لمعتا وابتسامته غدت أبدية ، ورائحة الخمر تفوح منه بشكل مقزز . . واتخذ هيئة الرجل النافض يده من أعباء الحياة جملة ، والذى استهتر بكل شىء ، وما عاد يحفل بأمر . .

وتقدمت إليه . . ووضعت يدى على عاتقه . . ونظرت بقوة إلى عينيه ، وقلت له :

«أنا أعرف أنك تمزح . . لقد دارت فى رأسك الخمر . .»

فأطرق لا ينبس ، وظل على ذلك مدة طويلة . . ثم أخذ جسمه ينتفض ، واستخرط فى البكاء . . وانتابته نوبة عصبية . . فتركته على حاله حتى تهدأ ثورة أعصابه ويثوب إلى نفسه .

ومضت لحظات صامتة كئيبة شديدة الوقع على النفس . . ثم رفع وجهه إلى وكانت عيناه تفيضان بالدمع . وقال بصوت خافت :

«لا تصدق ما قلته لك يا أخى . . عن زوجتى . . أنا أعرف أنك كريم النفس . . لا تقبل ما عرضته عليك . . ولذلك لذ لى أن أمثل هذا الدور أمامك . . ولا يمكن . . ولا تتصور أننى أقول هذا الكلام . . لأى إنسان آخر . . إنه الفقر يا أخى الذى يقتل كل شىء فى الرجل . . كل الإحساسات النبيلة ، التى تقرأ عنها فى بطون الكتب ، يقتل فيه ، الكرامة ، والرجولة ، وكل ما يتميز به الإنسان . . فيستجدى . . ويتدهور إلى ما

رأيت . . ويجعله أحيانا أجبن من كلب ! وأحيانا أخرى يضريه على التوثب والتوحش»

ووضعت يدى على عاتقه ، وأخذت أحادثه ، وأطيب خاطره ، حتى سكن ثائره

وخرجت معه إلى بعض المطاعم فتعشينا ، وملأ معدته الفارغة ، وابتعت له هدية جميلة لزوجه ! .

وتركنى وهو مسرور طروب . . ووعدنى بأن يسافر ، بعد الحرب ، إلى ليبزج ليدرس فن الطباعة ونظام المكتبات .

- كنا نستيقظ فى الساعة الخامسة صباحا ، حتى فى أشد أيام الشتاء بزودة ، وأقساها زمهريرا ، ونتخذ طريقنا إلى الحقل متثاقلين . . كنا خمسة عشر رجلا من قرى مختلفة ، جمعنا عمل واحد فى قلب الصعيد ، كنا من العمال الأجراء الذين يسعون فى الأرض طلبا للرزق أينما وجدوا للعمل سبيلا ، وللرزق موطنا ، كنا من هذه المخلوقات البشرية التى كتب عليها الشقاء الأبدى فى هذه الحياة الدنيا ، والذين ولدوا فى ليال لا يلوح فيها نجم ، ولا تبدو بارقة من سعود ! . . كانت الأيام تمضى بنا من سىء إلى أسوأ ، ولكن على الرغم من ضنك العيش ، وشدة الفاقة ، وبلاء الأيام ، فقد كنا قانعين بنصيبنا من العيش ، وحظنا من الحياة . .

- كان الواحد منا لا يحصل على أكثر من ثلاثة قروش يوميا ، نظير العمل اثنتى عشرة ساعة فى الحقل . . وكنا نعمل بين الشادوف ، وسقى الأرض وعزقها ، من فجر اليوم إلى مغرب الشمس ، وطعامنا لا يعدو الخبز الأسود والبصل ، وما تنبت الأرض من بقل ، ومع ذلك لم نكن نشكو نصبا ولا مرضا . . وكنا نعمل تحت الشمس ، ونصلى نارها طول النهار . .

- وكانت ساعات الظهيرة ، فى قلب الصيف ، هى شر ما يمر بنا من الساعات ، حين تشتد الهاجرة ، ويركد الجو ، ويلتهب قرص الشمس . . كنا فى تلك الساعة نشعر بضنى شديد وعذاب لا يطاق . . وكانت الأرض المتقدة تلهث كما يلهث الكلب المضروب ، وتزفر من عذاب السعير ، والشمس تحمى حتى يلتهب كل شىء ، وتتحول دقاق الحصى إلى جمرات من نار . . فإذا أصابت باطن القدم ، كوته بنارها وشققته ورسمت فيه أخاديد ! وويل للذين كانوا يعزقون الحقل فى تلك الساعة من النهار ، كانوا يختنقون بين عيدان الذرة ، ويجودون بأنفاسهم فى بطء وعذاب . . وكان الذين يعملون فى الشواديف ، أسعد من هؤلاء حالا ، وأخف حملا ، لأنهم أقرب إلى الماء ، وأجسامهم شبه عارية ، وهى وإن كانت تتصبب عرقا ، ولكنها لا تحمل غبار الأرض وحرقة الرمضاء . . وكان

الذين يسقون الأرض يحسون بلظاها من تحتهم ، كلما جرت عليها المياه ، كانت تخرج أنفاسها الحارة الملتهبة ، فيزداد الجو وهجا وسعيرا . .

* * *

كان الجهد الذى نبذله فى الشادوف جبارا ، وكان يجرى الدماء فى عروقنا ، ويصبب العرق من أجسامنا ، وكان هذا العمل الشاق تحت لفح الشمس ، فى جو طلق ، يفيد أجسامنا من حيث لا نحتسب ، ويعوضنا عن غذائنا الردىء ، وحياتنا الشقية . . فكنا نشعر بقوة سواعدنا وقوة عضلاتنا . . وكنا نرتدى أقمصة زرقاء قصيرة ، ونعرض أجسامنا لكل تقلبات الجو ، لنأمن عادية المرض . . كنا نجرى على حكم الفطرة السليمة ، فلم نكن درسنا الطب ، ولا تعلمنا فك الخط ، ومع ذلك كان نظرنا إلى الأمور صائبا ، وإدراكنا صحيحا ، وإيماننا بالله ليس بعده إيمان . .

ولم يكن هناك ما يكدر صفو عيشنا ، كنا نعمل متعاونين متساندين كأحسن رفقاء ، وكان أحد الرفقة حلو الصوت شجيه ، فكان يرفع عقيرته ويشدو . . وكنا نشدو وراءه فى صوت مؤثر يأخذ بالألباب . .

وكانت الشواديف على ثلاث درجات ، ويعمل فى كل قسم ثلاثة رجال ، فى كل درج رجل . . وكنا ثلاثة صفوف متراصة فكانت هذه الشواديف التسعة وهى دائرة فى وقت واحد ، كأنها النواعير الباكية فى البساتين ، كنا ننسى على وقع صوتها كل تعب وجهد ، ونزداد حماسة وقوة ، . . ونتسابق فى نقل المياه بالدلاء من درج إلى درج . . وكان الذى فى الصف الأول يتحمل ثقل العمل كله ولهذا كنا نتبادل هذا المكان . . كنا عدولا بالفطرة ، لأننا كنا فقراء بؤساء ، ولم يكن هناك ما يحملنا على الطمع !! وكانت المراكب الشراعية التى تشق النيل بصدرها تمر تحت شواديفنا ، فكنا نلوح للملاحين فيها جذلين فرحين ، ونرفع صوتنا بالغناء والنشيد مثلهم . . وأطيب ما يكون الغناء ساعة الصبح ، وعند الغسق ، فى الساعة التى يسكن فيها كل شىء ويسجو . .

كانت الأيام تمضى رتيبة ، وكنا ننتقل من الحقل إلى القرية ، وننام فى منزل صغير اكتريناه بعرق جبيننا ، واختزنا فيه طعامنا . . ولقد كان المنزل أشبه بزريبة الحيوانات التى بجوارنا . . ومع هذا فقد رضينا بقسمتنا فى الحياة ، ونصيبنا من العيش ، وكنا سعداء !

* * *

كان بجوار الشادوف الذى أعمل فيه طريق صغير يفضى إلى ساحل النيل ، وكانت النسوة فى القرية يتخذنه طريقا لملء جرارهن من النيل فى فجر كل يوم وأصيله . . ولما كنا نعمل شبه عراة ، فى الشواديف ، فقد كانت نساء القرية يسدلن خمرهن على وجوههن كلما

اقتربن منا ، ويتجنبن النظر إلى ناحيتنا ، ومع ذلك ، فقد كانت الحماسة تبلغ بنا أشدها عندما يردن الماء . . كان كل منـا يحاول أن يسبق الآخـر فى نزح الميـاه التى تحته ليـظفر بإعجابهن ! وكن أحيانا يرميننا بنظرات جانبية سريعة . . ولكنها كانت عطشى . . كانت أجسامنا العارية ، وعضلاتنا المفتولة تثير الإعجاب الكامن . . كنت أشد الرفاق ساعدا وأقواهم عضلا ، وكنت ألاحظ أن فتاة تجىء ساعة الغروب وعند الطفل . . عندما يغيب قرص الشمس وراء الجبل ، كـانت تطلع هى علينـا ، فيخيل الينـا أن الشمس لاتزال طالعة ! وكانت من دون النسـاء جميعا ، تهل علينا سافرة تاركة نفسها على سجيتها ، فلم تكن تتصنع فى مشيتها ولا فى نظرتها . وكنت أتعمد أن أكون فى الساعة التى تجىء فيها فى آخر درج من الشادوف ، عند الماء ، لأكون بالقرب منها وهى تملأ الجرة . كانت تدع الجرة على الشاطىء هنيهة ، وتجلس محدقة فى الماء كأنها ترى وجهها فى صفحته . ثم تتناول الجرة بيدها اليمنى ، بعد أن تشمر عن ساعديها وتنزل إلى الماء ، رافعة ثوبها عن ساقيها قليلا . . قليـلا . . حتى يبلغ الماء قصبـة السـاق ! فتنحنى عـلى الماء وتمـلأ الجـرة ، ثم تعـود إلى الشاطىء ، وترسل ثوبهـا ، وتنتصب ، وهنا يبـدو عودهـا اللدن ، ووجهها المشـرق ، وشعرها الغداف الجثل المرسل وراء ظهرها ، والذى يكون هالة لجبينها . .

كانت كإحدى عرائس البحر التى نسمع عنها فى الأساطير ، وكأنما جعل الله كل فتنتها فى عينيها ، فكانت عندما تأخذ فى رفع الجرة على رأسها ، تتلفت نحوى كما يتلفت الظبى الشارد ! كنت فى تلك اللحظة أنتفض ، وأنحنى على الشادوف ، ثم أرفع رأسى ، وأرمى بالدلو إلى القناة فى عنف ! وكانت هى فى تلك الساعة تصعد المنحدر إلى الطريق ، فأرى ثوبها ، وهو ينثنى على ظهرها ، وأشيعها ببصرى حتى تتوارى عنى . . ويزحف الغسق ، فنخلع الدلاء ، ونأخذ طريقنا إلى القرية . .

كنا غرباء عن القرية ، وكان المنزل الذى نكتريه فى ناحيتها الشرقية ، وكان أقرب منازل القرية إلى الحقل ، فلم نكن ندخل القرية ، أو نرى سوقها إلا قليلا . . ولهذا ما كنا نرى من النساء إلا أولئك اللواتى يجئن ليملأن الجرار ساعة الغروب وعند الفجر . . فكن سلوتنا ويلسم أحزاننا . . وعلى الرغم من أن واحدا منا لم يحادث واحدة منهن ، فقد كنا جميعا نشعر بسعادة تهز مشاعر الإنسان ، كلما سمعنا حسهن ، ووسوسة حليهن .

وأخذت الفتاة على توالى الأيام تبادلنى النظرات ، وتتمهل فى سيرها وهى نازلة إلى النيل ، أو صاعدة إلى الطريق ، لاملأ عينى منها ، وكنت أشعر بلذة تهز كيانى كلما ارتوت عيناى من حسنها . .

وكانت تتخلف أحيانا فى بعض الأيام ، فأشعر بالوحشة والقلق وأحاول أن أسأل الناس عنها ، وأظل على أحر من الجمر حتى تعود ! فأعود معها إلى عملى بنشاط وقوة !

أصبح كل شيء فى معلقا بها . . وكنت محروما . . ومرت على سنوات عدة لم أتصل خلالها بامرأة ، فكنت أحس ، كلما وقع بصرى عليها ، بسعار يسرى فى ألياف لحمى ولهب ! وكانت على مر الأيام قد عرفت حالى ، وأدركت بغريزتها ما أعانيه فى سبيلها .

فكانت تتأخر عامدة إلى ما بعد الغروب ، وتروح وحدها محاذية الحقول وعلى رأسها جرتها ، وكانت تسير متهادية متباطئة ، حتى تبلغ جسر القرية . . وكنت أقف على رأس الحقل ، وأرسل وراءها بصرى ، وهى مولية عنى فى غبش الغسق . كانت كعروس البحر ، وهى سائرة وحدها فى أول الليل ، كانت أنفاس المزرعة تتعطر ، والجو كله ينقلب رخاء سجسجا ، ونسيما لينا يداعب الوجوه ، والقرية تستقبلها ضاحكة ، كأنها تستقبل عروسها ، وبنتها البكر ! . .

كان كل شيء يضحك ويبتسم فى وجهها ، وكان رفاقى فى الحقل يحدجونها بعيونهم ، ويرمونها بنظراتهم النهمة ، وهى سائرة وحدها بجانب الحقل . . ولكن أحدا منهم لم يكن له مطمع فيها ، ولا أمل . .

وكثيرا ما كانت تقف على رأس المنحدر ، وترمقنا ونحن نتسابق بالدلاء . . فإذا ما كانت الغلبة لى انثنت عنا ، وهى ترسل إلى أعذب ابتساماتها . . كنت أشعر بقوة غريبة كلما رأيتها ، وأود لو أنزح ماء النيل كله فى غمضة عين . .

وتبعتها ذات مساء وهى متروحة وحدها . . سارت على الجسر ، وقبل أن تبلغ منازل القرية انحدرت عنه ، ومشت متمهلة فى طريق صغير بين الحقول . . وهى تلوح بساعدها الأيمن فى الهواء . وتضع يدها اليسرى على بطن الجرة . وخرجت من الحقول إلى عرصة فسيحة ، وبدت أمامى ، فى ناحية من العرصة ، بيوت من الشعر . . أخبية متناثرة على غير انتظام . . لم أشاهد هذه الأخبية من قبل ، مع أنى مررت على الجسر أكثر من مرة ، ولعلى لمحتها فى صورة سريعة لم تطبع فى مخيلتى ، ككل شيء لا يعنينا فى هذه الحياة . .

جلست على حافة الجسر أرقب خباءها ، وخباء من معها من قومها وكانوا عشرة أو يزيدون . . فيهم كثير من الأطفال ، وقليل من الرجال . . ونساء غيرها ، ولكنها كانت أشدهن فتنة وأخذا . . وكان مع هذه القافلة غنم وعنزات . . وبط ودجاج يرعى فى كل مكان . . ثم آتانان مهزولتان . . لا شك أن عليهما حمل متاع هذه القافلة إلى حيث تمضى . .

نظرت إلى هذا كله . . وأدركت أنهم من الغجر الذين يخيمون كثيرا فى هذه القرية ، ثم يقوضون خيامهم ، ويرحلون عنها بأسرع مما جاءوا . . سررت وتألمت فى آن . . وأخذت أراقبهم . .

ومع أن الليل لم يكن قد أسدل غياهبه ، ونشر ظلامه ، فإنهم كانوا يوقدون النيران فى أكثر من مكان واحد ، ويهيئون العشاء فى قدور تغلى ، ويتصاعد من تحتها الدخان . ورأيت فى ناحية من المكان عجوزا ، براقة العينين ، تحرك بيدها مجرافا طويلا ، وتذكى النار فى الموقد . . وعينها على جدى يناطح خروفا . . وامرأة قصيرة القامة تلقى بعض الحشائش للعنزات . . وأخرى ترضع صغيرا . . وصبية يتصايحون . . بين البط والدجاج والكلاب ، التى لم يكن فيها كلب واحد ينبح ، أو حتى يحرك ذنبه .

وكان هناك رجل كث الشارب ، أحمر البشرة ، له وجه شيطان وجسم ثور ، يفتل حبلا طويلا من الليف ، ويصعد بصره فى السماء من حين إلى حين . .

وكانت صاحبتى قد دخلت الخباء ، ثم خرجت منه ، وتبادلت مع ذلك الثور الضخم بضع كلمات . . ثم انتبذت ناحية ، وجلست وحدها ساكنة ، وعينها إلى نخيل القرية السامق ، وهو يتمايل مع نسيم الغروب . .

* * *

كنا نسقى الأرض العالية من الحقل ، وكانت القناة الرئيسية ممتلئة إلى حافتيها بالماء ، وكنت أمر عليها ، وأقوى الأماكن الضعيفة منها ، وأعمق القاع ، وأجرف الطين ، وأزيح الأعشاب . . ولمحت الفتاة قادمة من بعيد . . مالت على الجسر ، وسارت فى الطريق الصغير بين الحقول وكانت تمشى الهوينا كعادتها ، وتسوق أمامها قطيعا . . قطيعا عجيبا . . كان خليطا من الغنم والأعنز والبط ، وبعض الطيور الأخرى . . وكان الوقت ظهرا ، والقيظ شديدا . . وكانت تلوح بعصاها وتنزل بها على ظهر الغنم . . وترد الأعنز إلى الطريق . .

وكانت تمشى الوجى ، وملامحها ساكنة ، ووجهها فى لون البرنز وفمها الدقيق مفتوحا . . ونفسها مبهورا ، وقدماها عاريتين . . ولقد أشفقت على هاتين القدمين الصغيرتين ، وهما تصليان نار الأرض ، فى تلك الساعة من النهار . ووددت لو أفرش لها الطريق بالسندس ، أو الاستبرق . .

وقفت على مدى أذرع قليلة منى . . وورد القطيع الماء . مدت الأغنام والعنزات أعناقها وقفز البط إليه . . وكنت محولا وجهى عن الشمس ، ويدى على الفأس ، وعينى إلى الأفق . . وشعرت لأول مرة فى حياتى باضطراب شديد . .

أنا رجل من لحم ودم . . رغم كل شىء . . ورغم ما فى من قوة الأعصاب ، وأنا وإن كنت ريفيا خشنا لم يخفق قلبى خفقة الوجد ، ولم أنعم فى ظلال الروض بنسيم الحب وشذاه . . ولكنى رجل . . رجل فى ربيع عمره ، من لحم ودم . . ذاق قسوة الحرمان عدة

سنين . . ولهذا شعرت عندما اقتربت منى هذه المرأة ، وامتزجت أنفاسها بأنفاس الزرع المحيط بى ، بأن يدا من الفولاذ تعصر قلبى . . فوضعت الفأس على كتفى ، وتركت المرأة وحدها ، ودخلت الحقل ، وأخذت أضرب فى الأرض ، وعيناى لا تريان شيئا ، وجسمى يسيل عرقا . . وظللت على ذلك مدة خيل إلى أنها طويلة جدا . . وتنبهت على صوت المياه ، وهى تتدفق بجوارى ، وتسيل تحت قدمى . . فأسرعت إلى خارج الحقل . . فوجدت القناة قد تقطعت فى المكان الذى يشرب فيه القطيع . . وكانت الفتاة واقفة فى مكانها تضحك . .

فقلت لها فى غيظ وخشونة :
«أهذا مضحك ؟ . .»
«ليس أمتع منه منظرا . .»
«إذهبى بغنمك وعنزاتك . . إن هذا جهد تسعة رجال من لحم ودم . . إذهبى . . .»

فظلت فى مكانها ، ساجية الطرف ، تضحك . .
«أقول لك اذهبى . . إذهبى إلى جهنم بغنمك و . . »
«أنا أشرب من النيل . . والنيل ليس ملكك ، ولا ملكا لأحد . .»
فلوحت بذراعى ، وصحت فى وجهها وصوتى يرعد من الغضب :
«النيل هناك . . وإذا جئت إلى هذه القناة مرة أخرى سأقطع رأسك بهذه الفأس . . !» .

فبقيت فى مكانها ساكنة ، ووجهها باسم ، لم يكن هناك شىء يخيفها ، أو يفزعها . . وكنت قد سددت القطع ، وسكن جأشى وعاودنى بعض الهدوء . . وكانت تلاحظنى ، وأنا أجرف الطين بعينين ذابلتين ، شبه مسبلتين ، ولكنهما تلمعان ، ويبدو فيهما من حين إلى حين ذلك البريق الخاطف الذى لا تراه الا فى نساء «النور» . .

هزت عصاها ، وساقت القطيع . . تقدمت به نحوى . . ووقفت أمامى ، فى الناحية الأخرى من القناة ، وكان خداها يرف لونهما ، ويذوب فيهما شعاع الشمس ، وشفتها السفلى فى لون الدم . . ورفعت أهدابها وقالت فى صوت كالهمس :

«اعطنى بعض الحشائش للعنزات ! »
فأشرت بيدى إلى الحقل ، وقلت لها فى صوت جاف :
« الحقل أمامك ، فورقى منه ما تشائين . . »
«لا أعرف . . ! » .
«ماذا ؟! »
«لا أعرف . . أنا لست فلاحة . . »

«أنا أعرف أنك بنت العمدة ! . . ومن تكونين إذن ؟ . . »
«أنا غجرية . . »
«نورية ؟ . . »
«نورية ! . . »
«ومتى ترحلون ؟ . . »
«لا أدرى . . ولا حتى طوفان يدرى ! » .

فأدركت أن طوفان هو ذلك الثور الهائل الذى كان يفتل الحبل ، ولا شك أنه زعيم القافلة ! ورجلها أيضا . .

ودخلت الحقل ، وخرجت منه بحزمة ضخمة من الحشائش ، وألقيتها تحت قدميها .

وقلت لها :
«خذى . . واذهبى عنى . . »
«أنا لست قوية مثلك . . ولاأستطيع حمل هذه ! . . »
«إنها ليست أثقل من الجرة . . » .
«ولكننى لا أستطيع حملها . . »
«سترين ! . . » .

وعبرت القناة واقتربت منها . . واقتربت منى . . ورفعت طرفها . . وصوبت عينيها إلى أعماق عينى . .

وأخذنى ما يشبه السعار عندما لمست يدى ذراعها . .

ووضعت الحزمة على رأسها فى قوة ، فرفعت أهدابها ، وركزت بصرها . . وظلت على ذلك برهة . . ثم حولت وجهها عنى ومضت تحت وهج الشمس الحامية .

***

تعلق قلبى بعد هذه المقابلة ، وأخذت أفهم بوضوح سر نظرتها . . وأتبين الرغبة فى أعماق عينيها . . كانت قد هزت شيئاً كامنا فى أعماق نفسى . وحركت غريزتى بعد طول سكونها ، وطول خمودها . . عندما تبتعد عن المرأة ، وتشتغل عنها بالعمل الشاق ، لا تعود تفكر فيها إلا تفكيرا عارضا . . وقد تطرحها وراء ظهرك وتنساها كلية ! . . ولكن ويل للرجل القوى الجسم ، الكامل الرجولة إذا حامت حوله امرأة . . وألقت عليه شباكها . . ووقع تحت سلطان نظرتها النهمة . . ويل له من العذاب المضنى ، والألم الشديد ، والقلق المستبد ، والأرق الذى لا نوم بعده . .

كنت أضع جنبي على «ورس» ، ولا أتحرك طول الليل ، ولا يمر بى حتى طيف حلم ! أما الآن فأنا أتقلب طول الليل على جنبى ، وأتمثلها بنظرتها ورغبتها . . وأحلم بأنها بين ذراعى .

وأنى آخذها فى أحضانى ! . . لقد أخذ نظرى يشرد ، وعقلى يضطرب ، وجسمى يثور ، وروحى تتعذب ، وجو حياتى كله قد تكنفته الشياطين ! . .

***

اشتد على الأرق فى ليلة من الليالى ، وثارت ثورة الدم فى جسمى ، فغادرت المنزل ، ومشيت على الجسر ، وكان الليل ساكنا ، والظلام مخيما ، والقرية غارقة فى سبات عميق . . ولا شىء يقطع هذا السكون غير نباح الكلاب بين الفينة والفينة . . ومضيت على الجسر حتى ألفيت نفسى واقفا بإزاء خبائها . . إنها نائمة الآن . . ربما فى أحضان ذلك الثور . . أو ساهرة وحدها تعد النجوم . . ويممت وجهى شطر الحقول ، ووجدت نفسى أمضى سريعا كأنما أساق إلى غاية . . وأخذت عينى الشواديف ، وهى قائمة فى فحمة الليل كالأشباح . ومشيت على النيل ، ولمحت قلوع المراكب البيضاء ، وهى ترتعش فى جوف الظلام . .

وطالعنى الجمال والسكون من كل جانب . . سكون النيل . وسكون الروض . . وسكون الليل . . ولكن لا شىء يسكن ثوران جسمى ، ويهدىء فورة الدم فى شراييني ! . . لا شىء ! .

اضطجعت فى بطن القناة . . وعينى إلى نجوم الليل البراقة . . وأذنى إلى كل حس . . إلى حس إنسان . . إلى صوت امرأة . . ومضت ساعة . . وأنا مرهف سمعى . . وبصرى لا يتحول عن الطريق ، وسمعت حسا ، سمعت صوتا كالهمس ، فرفعت رأسى وشخصت ببصرى . . وكان النور قد بدأ ينتشر . . وتبينت نساء فى الطريق إلى النيل . . لقد بدأن يملأن الجرار . . وستجىء هى . . بعد هؤلاء أو بعد سواهن . وعادت النسوة إلى القرية ، وجاء غيرهن . ومضين . . ولم يأت بعدهن أحد . . انقطعت الرجل . . واشتد السكون . . ورأيت سوادا ينحدر عن الجسر . . نهضت بصدرى وأرسلت عينى . . وظللت معلقا بصرى بهذه المرأة حتى اقتربت وتوضحتها . . إنها هى . . ولا أحد يتأود فى مشيته مثلها . . ولا أحد يجىء وحده سواها . . ونهضت من مكانى ، واندفعت فى سرعة البرق إلى الحقل ! . .

وحملت فأسا على ظهرى ، ومضيت إلى رأس القناة ، وأخذت أضرب فى الأرض ! . . ونظرى يرتفع عن الأرض ، ويستقر على الطريق . وكانت تسير هادئة ساكنة

، ولما اقتربت منى سمعت صوت الفأس . . فمالت برأسها ، وتمهلت فى سيرها لحظة . . ثم استأنفت السير اقتربت منى جدا ، وقالت :

«آه . . أهذا أنت ؟ . . إنك لاتنام كالشياطين ! . . »

فلم أرد عليها ، وأخذت أضرب فى الأرض .

«أتعمل فى هذه الساعة . . إن النور لم يطلع بعد ! . . »

«يجب أن أهيىء القناة قبل أن تدور الشواديف . . »

«ولكن هذا جهد شاق . . شاق جدا . . يضر بك ويفنى قوتك» .

«إن هذا لايضر . . ولا شىء يفنى قوتى إلا الموت . . »

فابتسمت ، ومضت بالجرة ونزلت إلى النيل . . ألقيت الفأس . ووقفت على رأس المنحدر أرقبها بعينين زائغتين ، وطلعت ، ورأتنى واقفاً كالناطور ! فوضعت الجرة على حافة الطريق لتصلح من ثوبها . . وقالت :

«لماذا تقف هكذا . . أتريد أن تستحم ؟ . . »

«أجل . . »

«فى طريق النساء . . إنك شيطان ! . . » .

«لقد انقطعت الرجل . . وسأذهب بعيدا . . دعينى أساعدك على حمل الجرة . . »

ووضعت يدى على يدها ، وهى ممسكة بأذن الجرة . . وسرى فى جسمى اللهب .

نظرت إلى . . وأدركت ما يدور فى خاطرى . . وشددت على ذراعها . . فقالت .

«دعنى أمضى . . لماذا تنظر إلى هكذا . . دعنى أمضى . . »

وكانت تهمس ، ولكنى شددت على ذراعها بقبضة من فولاذ . وحملتها . . وفى سرعة البرق دخلت بها الحقل .

وقالت لى وهى تحمل الجرة عائدة إلى القرية :

«إنك وحش . . ولكننى أحب الوحوش ! . . »

ومرت الأيام ، وكانت مستسلمة بكليتها لى ، وشاعرة بنشوة لا تصور ، وكانت تأخذ منى كثيرا ، ولا آخذ شيئا . . ولم تكن من أولئك النساء اللواتى يشعرن بعد الجريمة بعذاب القلق ، ويقظة الوجدان ، فيرحن يقطعن القلوب حسرات ويرسلن العبرات ! لم تكن من هؤلاء فى شىء ، بل كانت تزداد على الأيام فجورا وسعيرا ، وأزداد معها نزقا وطيشا .

عندما كنت صغيرا ، كنت أخرج مع لداتى من أبناء قريتى إلى النيل ، ونتسلق صوارى المراكب إلى أن نصل إلى قمتها . .

ونقفز من هذه القمة إلى الماء . . ونغوص إلى القاع حتى تلمس أقدامنا الوحل ! ثم نشب بعد ذلك فى بطء ، ويصافح وجهى سطح الماء فأنفض رأسى ، وأنا شاعر بدوار لذيذ ! وهذا هو حالى مع هذه المرأة فأنا غائص إلى الأعماق بنفس الدوار . .

كان جسمها من السعير ، وكانت روحها تتلظى أبدا فى النار ، وكنت كأنما شددت إليها بسلاسل من الحديد ، فما من فكاك .

وكانت روحى تستيقظ من حين إلى حين ، فأشعر بعذاب قتال ، لقد كنت ناعم البال ، قرير العين ، مثلوج الفؤاد ، قبل أن ألتقى بهذه المرأة ، فلما التقيت بها ، لفتنى العاصفة الهوجاء فى طياتها ، وكدت أذهب مع الرياح !

ولقد كان الرفاق يذهبون جميعا للصلاة يوم الجمعة ، وكنت أتخلف وحدى . . فما كنت أستطيع أن أذهب معهم . . كان جسدى قد سقط ، وروحى قد تلوث ، فكيف أقف أمام الله كما كنت أقف من قبل . . ويل لى من العذاب . . كنت أتبع الرفاق ببصرى ، وأنا واقف فى مكانى كالمنبوذ ، وأود لو أتمرغ فى التراب .

كانت الشواديف دائرة على أشدها ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، وفعل نسيم الغروب فى أجسامنا فعل السحر ، فازددنا نشاطا وقوة . . ودارت الشواديف فى جنون ، وكنا ، نغنى ونشيع النهار المولى . . وسقط أحد الشواديف فجأة ، مالت قوائمه ، وتحمل عجزه على الارض . . وصعدت مع أحد الرفاق لرفعه . . وفيما أنا أدور ، وعلى صدرى هذه الكتلة الضخمة من الطين ، زلفت رجلى وسقطت إلى أسفل . . وجرحت جرحا بليغا واختلط الدم الغزير بالماء . . وغدا كل شىء احمر .

وكفت الشواديف عن الحركة ، ونظر إلى الرفاق فى ذهول ، وشفقة وألم . وحملونى إلى البيت .

وكان عباس أقوى الرجال من بعدى . . احتل مكانى ، وأدار دفة العمل أثناء مرضى .

***

وطالت أيام مرضى . . فلم يكن هناك علاج ولا طب ، فقد تركت نفسى لرحمة الأقدار . . وتطور الجرح ، وأصبت بالحمى ، وكنت أهذى طول الليل فى غرفة حقيرة قذرة ليس فيها نور ، ولا هواء ، ولا تراها عين الشمس . فلم يكن فيها غير منفذ واحد ، وهو

بابها الصغير ! وكانت الحشرات تمرح فيها فى الليل ، والذباب يملأ جوها فى النهار ، والروائح الكريهة تنبعث من كل مكان . . وكنت ملقى على حصيرة قذرة فى ركن من الغرفة ، وتحت رأسى وسادة أقذر منها . . فأى عذاب وألم ، وأى حياة يحياها الريفى المسكين ! . . انه اذا عاد من الحقل ، ودخل البيت ، أو ما يسمى بيتا شعر بالاختناق ، ولكن حسه يبلد على مر الايام ، وعينه تألف القذارة ، كما يتعود بطنه الجوع . فاذا مرض أرهف حسه ، ورجعت اليه مشاعره من جديد . وذكر المدينة وما جرى فيها . . وراح يتصور القصور الشامخة ، والحدائق الغناء . . والمستشفيات والاطباء فى كل مكان فى المدينة . . وتفتحت آفاق نفسه ، وتاقت لأطايب الحياة ومناعمها ، وتحسر على ما مضى من عمره فى فقر وعذاب ، وأحس بالألم ، وويل للمظلوم اذا شعر بأنه مظلوم .

كنت أقضى الليل ساهرا ، وأفتح عينى فى الظلام ، وأحس بعباس وهو يتسلل من الغرفة فى أخريات الليل . . وأسائل نفسى إلى أين يذهب ! . . فإذا رجع نام كالقتيل ! . . أهو عائد من عندها ؟ لقد كنت أنام هكذا . . بعد كل موعد معها . فمن المحتمل جدا . . أنها أوقعته فى حبالتها . . وهى تواعده كل يوم كما كانت تواعدنى ، وتأخذه إلى نفس المكان ! فيالسخرية الأقدار . . كنت أدور ببصرى فى الغرفة كالمجنون حتى استقر على وجهه ، وأود لو أعرف الحقيقة ، الحقيقة ليس إلا . . فقد كان الشك ينهش قلبى .

***

وكان أول شىء فعلته بعد أن قويت على السير ، ورجعت إلى بعض قوتى ، أنى ذهبت إلى الحقل مبكرا لأراها . . ورأيتها وحادثتها وواعدتنى ، وجاءت فى هذه المرة فى نصف الليل ، ولم تبق طويلا . . وكانت تنظر إلى عينى فى استغراب ، ولم أدرك سر نظرتها . .

وقابلتها بعد ذلك مرات ، وكانت فى كل مرة لا تمكث سوى دقائق قليلة ، وتعلل بالأكاذيب .

وذات مرة أمسكت بذراعها ، وقلت لها فى غضب :

«ما الذى جرى ياناعسة . . لقد تغيرت . . لماذا لا تمكثين غير لحظات . . وتمضين لطريقك ؟ . . » .

«ان طوفان بدأ يلاحظ . . وأنت تعرف الثور عندما يثور ! » .

وكانت تكذب ، فليس لطوفان ، ولا ألف رجل من أضرابه حساب فى نظرها ، وما من شىء كان يخيفها ويحول بينها وبين رغباتها ، وما من إنسان تخشاه . . فقد تقمصتها روح شيطان . . ولكننى تغيرت فتغيرت . . ملت وضجرت ، لأنها لم تعد تحس بقوة سواعدى .

ورأيتها ذات مساء تديم النظر ، فى سكون ، إلى عينى . ثم تولى وجهها مفزعة ! فسألتها :

«لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ . . » .
فعاد الهدوء إلى وجهها ، وارتسمت على فمها ابتسامة باهتة وظلت صامتة .
«لماذا تنظرين إلى عينى هكذا ؟ . . » .
وهزت ساعدها . . فقالت فى صوت كالهمس :
«أرى فى عينيك شيئا رهيبا ! . . » .
«ما هو ؟ . . » .
«لا أستطيع أن أبوح لك به الآن . . دعنى أمضى . . » .
«لن أدعك تذهبين . . حتى . . حتى . . » .
«إنك مخبول . . دعنى أمضى . . لا شىء فى عينيك . . » .
ومضت فى جوف الظلام . .

وسرت وراءها ذات ليلة . . وأحست بى فتوقفت عن سيرها ، وتقدمت حتى وقفت أمامها ، وأمسكت بذراعها ، فأفلتت ذراعها من يدى بقوة كمن أصابته لدغة عقرب ! وفى مثل لمح الطرف انقلبت ملامح وجهها إلى وجه نمرة ! . .

وقالت بصوت يرتعش ، وهى ترسل من عينيها نارا :
«ما الذى تريده ؟ . . » .
فأرسلت يدى إليها مرة أخرى ، فصرخت فى وجهى :
«ابتعد عنى . . لا تلمسنى أيها القذر ! . . » .

شعرت بغيظ شديد ، وتلفت حولى فلم أجد إنسانا . . ليس هناك سوانا ، ونظرت إليها نظرة مجنون . . كان قلبى يتقد من الغيظ ، وعيناى ترسلان وهجا من نار . . وأدركت ما يدور فى ذهنى . .

فقالت فى هدوء ، وشفتها السفلى متقلصة ، وعينها لا تتحول عن وجهى :

«هل تحسب أنك تخيفنى بهذه النظرة ! . . أنا لست ملكا لك ، ولا ملكا لأحد . . أنا حرة طليقة كالطير ، أطير فى كل مكان . . وما لأحد سلطان على . . وما شىء يخيفنى . . وما من شر يصيبنى من إنسان . . أما أنت فستساق يوما إلى المشنقة بين صفين من الجند ! . . » .

ومضت عنى ، واحتواها الظلام ، وبقيت مسمرا فى مكانى ، ملصقا بالأرض ، كأنى أحد النواطير القائمة فى الحقل لتخيف العصافير . .

ونضج حقل الذرة وأخذنا نقطع الكيزان ، ونكومها فى طرف الحقل . . وكان ثلاثة منا يبيتون فى الغيط مناوبة ، ومعهم سلاحهم ، وكان الحقل قد قطع نصفه وبقى الآخر قائما . . وكان علينا النوبة ، أنا وصاحبى عباس ، ورجل ثالث . . وكانت الليلة مظلمة ساكنة الريح ، ففرشنا الزكائب وتمددنا عليها ، وأعيننا تحصى النجوم فى السماء . . وآذاننا إلى كل حس . . وكانت رقعة السماء منبسطة . والنجوم تتهاوى فى ثلث الليل الثانى كالشهب ، وكان النيل قد فاض . . وأخذت الضفادع تنقنق . . احتفالا بفيضانه ! واعتمد رفيقنا الثالث على حزمة من القش ونام ، وبقيت أنا وعباس نتحدث . . وكان بين الفينة والفينة يرفع بصره إلى الطريق . . ثم يضع رأسه على الزكيبة . . وأكثر من هذه الحركة . . فسألته :

«لماذا تدور ببصرك هكذا . .»

فقال :

«أخاف على الناقة . .»

وكانت باركة . . على مسافة منا . .

فقلت له :

«لاتخش شيئا . . بركها هنا . . على مرمى البصر منا» . فنهض وأخذ بخطام الناقة . . وعينه تتلفت كأنه يبحث عن شىء . ثم أناخها عن قرب . . وعاد فتمدد . .

وأخذنى النوم ، وصحوت فتفقدت رفيقى فلم أجده بجوارى .

ودرت ببصرى فيما حولى . . ولمحت امرأة خارجة من الحقل . . مضت فى الطريق وهى لا تتلفت . . ورفعت وجهى ، وعرفتها . . لقد كانت هى بعينها ، بلحمها ودمها ومشيتها ، ولاأحد يمشى غيرها ، فى غلس الليل ، وليست هناك امرأة تركب الخطار مثلها . . فى سبيل إرضاء رغبتها .

وسحبت البندقية من تحتى ، كنت فى حالة هياج وخبل . . وكانت الغيرة العمياء قد تملكتنى . . لماذا لا أقتل هذه الحية ، وأريح البشرية من سمها ؟! .

إنها قتلتنى ، وستقتل عباس من بعدى . . ثم ترمى حبائلها وشباكها إلى رجل آخر . . وتأخذ من كل رجل كل قوته . . فإذا ضعف أمامها لفظته ، وطوحت به بعيدا . . وكم قتلت من الرجال قبلى ، وكم ستقتل من بعدى . . وجذبت الأكرة ، وسمعت حركة الرصاصة وهى تستقر فى الماسورة ، وصوبت وسددت ، وبقيت ثانية ارتعش ، ورأيتها تتلفت ، أدارت وجهها . . ورأيت عينيها ، بعين الخيال ، تنظران إلى فى قوة . . وهى تقول :

« لاأحد . . يستطيع قتلى . . وما من شر يصيبنى من إنسان . . أما أنت فستساق إلى المشنقة بين صفين من الجند ! »

وغامت عيناى . . وسمعت صوت رفيقى الثالث وهو يقول :

«ما الذى جرى يانعمان . . أترى شيئا ؟ . . »

فأجبته فى صوت يرتعش :

«المسح ظل ثعلب . . وكنت أود أن أصطاده ، ولكن الله أراد أن يذهب إلى سبيله ! . . »

ووضعت البندقية فى مكانها ، بعد أن أخرجت الرصاصة . وجاء عباس . . بعد مدة . . وعندما لمحته قادما من بعيد تناومت . . وحدق فى وجهى طويلا ، ثم ارتمى على كوم من القش ونام ، دون حس ولا حركة ، كأنه كان يقطع الأحجار طول النهار فى المحجر ! .

انتهت أيام العمل وعدنا نتبطل ونركب الحياة بشبابنا . . وكان أحد أبناء الأعيان سيتزوج . . ولما كان محبوبا ووحيد أبويه ، فقد عم الفرح كل بيت فى القرية ، وكان الفرح قد بدأ قبل الزفاف بأسبوع بالرقص على الخيل ، ولعب العصا من العصر إلى الغروب ، وبعد العشاء يدور السامر إلى الفجر .

وأعدوا أرضا منبسطة فى خارج القرية لذلك ، ولما كنت من اللاعبين بالعصا ، فقد كنت أذهب إلى هناك ، عندما أسمع أول ضرب للطبل ، وأول صوت للمزمار .

وكنت قد شفيت تماما ، ورجعت إلى قوتى ، وتطلعت إلى الأنظار ، فقد كنت أبرع من دار بالعصا فى حلقة ، وكان عباس أيضا من البارعين فى هذه اللعبة ، ولهذا كان يلاعبنى كثيرا ، على أن الغلبة كانت لى دائما . . وظللت بطل الميدان ، ومحط الأنظار ، وكان سرورى بذلك عظيما .

وكان السامر يبدأ بعد العشاء ، وتشعل النيران لتحمى بها الدفوف ، ثم يدور الرقص فى ضوء القمر ، وتحت نوره الفضى ويزمر الزامرون ، وترقص الراقصات ، والسامر كله يصفق فى مرح وحبور . . وتتثنى الراقصات ، ويدرن فى الحلقة ، يوزعن البسمات على الجالسين ، ويجمعن النقود ! .

وجاءوا بناعسة ذات ليلة . . وكانت ترقص مسبلة العينين ، مفتوحة الشفتين ، كأنها فى نوم هادىء تتخلله ألذ الأحلام ! وكان جسمها يتلوى ويتثنى ويدور .

وكان عباس فى الصف الأول من الحلقة ، تدور إلى أن تحاذيه ، فتقف أمامه ، وتطيل الوقفة ، وهى تميد وتتمايل ، وعلى ثغرها ابتسامة مغرية .. ثم تميل عليه ، وتأخذ منه النقود بفمها ، وتبتعد عنه لتقترب منه ، وتدور فى السامر كله ، وعيناها لاتتحول عنه ، ووقفت أشاهد هذا بعينين سادرتين .. وكانت تمر أمامى ، ولاتكاد تتوقف ، ولاتكاد تحس بوجودى .. فكان الغيظ يدفعنى إلى أن أحمل على السامر ومن فيه ، وأحطم كل شىء تحطيما .

وانفض السامر ، ومشيت إلى البيت مخذولا كسير القلب .

وابتدأ لعب العصا فى اليوم التالى .. وكان عباس يلاعبنى ، وصورة الأمس لاتزال فى مخيلتى .. كنت أتمثلها وهى تدور به ، وتنثنى حوله ، وتكاد ترتمى بين ذراعيه أمام الناس !

دار بالعصا فى الحلقة ، وعيناى لاتفلتانه ، ولوح كل منا بعصاه . ووضعها على الارض .. ودار .. ودرت .. وتقدم . وتقدمت .. وتشابكت العصوان .. وضربنى ضربتين تحت ابطى .. وشعرت بالذلة .. وكان الغضب ، وما حدث فى اليوم السابق ، قد أعميا باصرتى فلم يكن لعبى الا لغوا .. وفقدت كل قدرة على التوجيه .. وكنت لا أرى صورة الامس .. صورة تلك المرأة الملعونة التى ستذهب بشبابى .. ورأيت ذراعيه تلوحان بالعصا .. ولم تكونا فى نظرى تلوحان بالعصا .. بل كانتا تدوران حول ناعسة . ولاشىء غير هذا !

ودار وضربنى ضربة قوية .. وضج السامر .. فضربته ضربتين ولكنه تلقاهما على عصاه .. فزادنى ذلك غيظا .. وخرجت عن طوقى .. وكان محتفظا بحواسه كلها . وضربنى ضربة أخرى نزلت تحت إبطى .. واحمرت عيناى .. وتراجعت إلى الوراء وضربت بكل قوتى .. ضربة واحدة .. حطت على صدغه .. وسقط .. واستولى الذهول على الناس .. وانقطع صوت المزمار ! ..

ووضعوا الحديد فى يدى .. وساقونى وحولى نطاق من الجند إلى المركز ..

وسرنا على جسر القرية الطويل ، مع الشمس الغاربة ، فى سكون وصمت .. ولمحت ناعسة عن بعد نازلة إلى الطريق ، وسائرة إلى النيل تتهادى على مهل ، وعلى رأسها جرتها .. وكانت تمشى الهوينى كعادتها فى سكون وهدوء ظاهرين ، كأن لم يحدث شىء !

إنها المرأة .. إنها الحياة الماضية فى طريقها لاتعبأ بشىء مما يجرى من أحداث ..

كان الدكتور عرفى من أعز أصدقائى ، كان صديقى فى المدرسة ، وزميلى فى معهد شوبير الموسيقى ، ورفيقى فى كل مكان .. وهو الذى أغرانى بتعلم الموسيقى ، وركوب الصعاب فى سبيلها ، ثم هو الذى جعلنى أنفض يدى منها ، وأتخلف عن الركب فى أول الطريق .

وكان يقول بعد الدرس ، وعلى شفتيه ابتسامته التى لم تكن تفارق ثغره أبداً :

«أنا أفهم أننى أستطيع أن أستظهر لامية العرب للشنفرى ، أو بائية النابغة الذبيانى ، أو معلقة الأعشى .. أما أن أستظهر مقطوعات موسيقية برمتها ، وأؤديها عن ظهر قلب كما لو كانت قصيدة من الشعر ، فذلك مالا يطاق .. هارمونى .. سلفيج .. سأظل ثلاثين سنة لا أفرق بين الدوديز والدوناتوريل ! . لماذا كتب علينا هذا المصير ! ... »

ومع كل دعاباته ، وما كان يركب بـه الناس من مجـون .. فقد ثـابرنـا وواصلنا الدرس ، ولم نتقدم لاكثيرا ولا قليلا ! وكان ينظر إلى مدرس الكمان ، ويقول : أتذكر بائع البسطرمة فى شوارع استنبول .. إنه صورة ممتعة لا نظير لها إلا مدرسنا هذا ! .. كيف يدرس هذا الموسيقى وروحه أبعد شئ عنها ؟ .. وليس فيه طبع الفنان ، وما له سمته .. لماذا كتب علينا هذا المصير ! ... » .

وحضرنا حفلة غنائية لأول مرة ، وآخر مرة فى حياتنا ..

وصفق الناس للمغنى ، وكادت الأكف أن تطير فى الجو من فرط الحماسة .. مع أنه لم يقل شيئا سوى أنه تأوه .. وتأوه .. ثم تأوه .. وقال كلاما لامعنى له ، ولاهو بالشعر ، ولا هو بالنثر .. وإنما هو أشبه بنواح العجائز .. وتغير وجه صاحبى ، وظل فى مكانه يتميز من الغيظ .. ثم انتفض ، وجذبنى من سترتى وهو يقول :

«هيا بنا .. كيف أقبل على نفسى أن أكون بهلوانا لهؤلاء الحمقى ؟ فلنرح أنفسنا من هذا العناء .. لقد ألفوا التهريج وغدا من طباعهم .. وكـل فنان حق مضيـع فى هذا

البلد .. و مما يحز نياط القلب أن هذه القرود تتحكم فى مصير الفنانين . . فلنرح أنفسنا من هذا النصب . . وليس هناك سوى بيتهوفن واحد كما تعرف ، وعالم الموسيقى لن يخسر شيئا إذا حدنا عن الطريق . . »

وقد كان . .

* * *

وكان يدرس الطب ، وكنت فى قريتى أعمل فى الحقول . . وكان أشق الأشياء على نفسه أن يكتب رسالة لإنسان . . فانقطعت عنى أخباره عدة سنوات . . ثم عدت إلى القاهرة ، وبحثت عنه فى كل مكان فلم أجده . . فتصورته فى عداد الموتى . . إلى أن ذهبت فى عمل إلى السويس ، فرأيته جالسا على حجر فى طريق الزيتية ، وعينه إلى الجبل ، وقد تراكمت عليه السحب .

وكان فى سكون طائره ، وهدوء نفسه كأنه تمثال . . ولما وقع نظره على ، رفع وجهه قليلا ، دون أن يتحرك من مكانه ، وكأننى كنت معه على ميعاد ، وقال وهو يبتسم :

«كنت أعرف أنك ستأتى إلى هذه البلدة ، فقد تلفت أعصابك من القراءة والكتابة وضياع العمر فيما لا يجدى !» .

* * *

ومشينا إلى مشرب من مشارب الجعة لنتعشى ، وقال لى على العشاء :

«أطبعت شيئا جديدا يا رشاد ؟ . . »

«لم أفكر فى ذلك . . » .

«حسنا تفعل . . إنه ضياع لعمر الشباب فيما لا خير فيه . وهناك طرق أخرى للانتحار أسرع من هذه التى اخترتها لنفسك ! . . »

«ولكن لا بد مما ليس منه بد . . »

«هذا هراء . . ولقد فقدت الإيمان وهو عدة الفنان . . أنسيت بائع البسطرمة فى شوارع استنبول والقرود الهاذرة فى كل مكان ! إنه عناء ونصب ، ولا جديد تحت الشمس . . »

وصمت وعاد إلى الكأس . . وكان أبيض كوسجا رائع المظهر ، حسن السمت ، ساكن الطائر أبدا ، كأنما صبت أعصابه فى قوالب من حديد . . وكانت عيناه أول ما يروعك من حسنه . . كان سوادهما شديدا وبريقهما أخاذا . . إذا نظر نفذ بهما إلى السويداء . . وإذا سدر ببصره خلته يتأمل من فرط السكون الذى يشيع فى معارف وجهه .

وكان ينظر إلى المرأة عن عرض ويحتقرها فى أعماق نفسه . ومع ذلك فقد كانت دائما تلوذ بكنفه ، وترتمى تحت قدميه .. وهى فى نظره أبسط من البساطة إذا ما توجهت إليها من أقصر طريق . . وأخلق بمن يدور حولها ، كما تدور الرحى حول قطبها ، أن يصيبه الدوار قبل أن يبلغ القصد .

وكان يشرب الجعة كما يشرب الماء . . يعب فيها عبا ، ولعله ماكان يجد للماء مذاقا فى فمه بعدها ! . . وكان يستغنى بها عن العشاء وعلى كثرة ما كان يشرب منها لم يكن يثمل ، أو يفقد توازنه ، أو يغيب عن وعيه . . وكل ما كان يحدث له هو أن تلتمع عيناه ، ويبدو سوادهما على أشده .

ونظرت إلى وجهه ، وهو يرفع الكأس إلى شفتيه . . وعدت أذكره عندما كان طالبا صغيرا فى المدرسة ، ناحل الجسم وادعا . . رقيق الحس ، متيقظ المشاعر ، يقف بعيدا عن التلاميذ تحت شجرة الجميز فى فناء المدرسة . . وبيده ديوان من الشعر . . وكان يقرأ ويستظهر . . ويرسل بصره إلى الحقول المجاورة . . فإذا دق الجرس ، كان آخر إنسان يدخل الفصل . وآخر جالس فى الصف . . وآخر تلميذ فى الترتيب . وكان إذا ابتدأ المدرس فى الدرس ، ابتدأ هو يسبح فى ملكوته ، وغاب ، واستغرق فى تأملاته ، ولم يكن يتنبه لكلمة واحدة مما يقول الأستاذ . . فإذا جاءت سيرة الشعر ، أو الموسيقى تنبه من غفلته ، وانتفض كما ينتفض الطير إذا أصابه القطر .

ذكرت هذا كله ، وأنا ألاحظه بعينى ، وهو يعب فى الجعة .

وسألته :

«لماذا تتحامل على الآداب والفنون هكذا ؟ . . وكيف تنسى أيام الصبا . . وكيف تنسى الشعر والموسيقى ؟ . . لقد غيرتك الجعة . . »

«إنها ليست الجعة . . أنت تعرف أن حادثاً بسيطاً يقع فى حياة الإنسانية قد يغير وجه التاريخ . . وكذلك الإنسان قد يعرض له حادث تافه فيغير مجرى حياته . . يغير نظرته للأمور ويبدله تبديلاً ، ويخلق منه رجلا آخر .

أتذكر السيدة جراسيا الكاتبة الأجنبية التى زارتنا فى المعهد . . أنا مدين لهذه المرأة بكيانى ووجودى . . لقد فتحت عينى على حقائق الوجود . أتذكر هذه المرأة ؟ . . لقد دعوناها للعشاء كما تعرف ، وسافرت هى إلى أسوان ، وسافرت أنت إلى القرية . .

وفى صباح يوم من أيام الشتاء كنت سائراً وحدى فى شارع سليمان باشا . وسمعت من يهتف باسمى فتلفت . . فوجدتها هى ، وكانت معها سيدة أخرى أصغر منها سنا ، وأنضر وجها .

وقالت فى صوت رقيق :

«اتذكرنى ؟ . .»

«بالطبع ياسيدتى . .»

وأحنيت رأسى . . وكان الخجل قد جعلنى مضحكا ! ولاحظت ذلك فابتسمت ، وقدمتنى إلى السيدة التى معها . . فسلمت تسليم البشاشة . .

وأعطتنى السيدة جراسيا عنوانها ، ودعتنى إلى زيارتها فى مساء اليوم التالى فى الفندق . .

***

وفى المساء كنت هناك فى غرفتها . .

وأخذنا نتحدث عن الموسيقى والشعر والريف المصرى ، ثم خرجنا إلى بهو الفندق الكبير . .

وجلسنا إلى مائدة صغيرة فى ركن قصى من البهو . ومع هذا . ومع أن المكان لم يكن مكتظا بالناس فإنى شعرت بالاختناق . . وتصورت أن عيون الجالسين تتجه نحوى ، وأننى غدوت محط أنظارهم جميعاً . . وكان لى عذرى فى هذا ، فقد كان هذا أول عهدى بالمجتمعات ، وأول مرة فى حياتى أجلس فيها مع سيدة فى مكان عام . .

وجاء الساقى ، وطلبت كأسين من النبيذ .

فقلت لها ، وأنا أذوب خجلا :

«أرجو معذرتى . إننى لا أشرب . .»

«إنك لست بالصغير جداً كما تتصور . وستصبح فناناً . . ويجب أن تشرب . .»

«أرجو أن تعفينى من هذا . .»

«إن كأسا واحدة لن تقتلك ! . . وسترى أنه ألذ شىء . .» وشربت كأسا ، وكأسين وثلاثة . وأحسست بالدفء . . وزايلنى الخجل ، ولم أعد أحفل بشىء مما حولى . . ونظرت إلى السيدة من جديد . . ورأيت فى عينيها بريقاً أخاذا ، وإغراء فاتنا . . وأخذت أجردها ، بعين الخيال ، من ردائها الصوفى السميك ، وأتصورها فى غلالة رقيقة ، وقد استراحت بصدرها على صدرى ، ويدى تمر على شعرها ، وتمسح على خديها ! .

واتكأت بمرفقها إلى المائدة ، وقالت لى فى صوت موسيقى :

«أتشعر بتعب ؟

«لا . . بل أشعر بسعادة حقة . . »

«لماذا ؟ . .

إنك تعرفين السبب . . !»

«أنا لا أعرف شيئاً . . قل كل ما تشعر به . . ولا تخجل» فاطرقت برأسى . وأحسست بأناملها الرقيقة تمر على أناملى . . رفعت وجهى إلى وجهها . . وكانت تضحك !

وسألتنى فى صوت يسيل رقة وعذوبة :

« كم عمرك ؟ . »

«سبعة عشر عاماً . . »

«هذا ما قدرته . . عندما وقع نظرى عليك لأول مرة . . رأيت فيك صورة أعرفها . . كنت فى سكونك وهدوء نفسك وملامح وجهك ، كشيلى تماماً . . وقد سألت الأستاذ عنك . . ولم أعجب عندما قال لى إنك تقرض الشعر وتجلس طول الوقت حالماً . مستغرقاً فى تأملاتك . . فقد كنت على يقين من أنك هكذا . . ولما دعوتنى مع صاحبك للعشاء فى اليوم التالى . . سررت جداً . . لأننى كنت أحب أن أراك . . وأكبرت فيك هذه الجرأة ، ولكن يبدو لى أن هذه الجرأة كانت من صاحبك . . فأنت شديد الخجل سريع النسيان . . فقد كدت لاتعرفنى عندما قابلتك أمس فى الشارع . . »

«لم أكن نسيتك . . ولا يمكن أن أنساك . . وهناك وجوه لاتنسى . . ولا أحد يستطيع أن ينسى هذا الشعر وهاتين العينين . . »

«صحيح ؟ . . »

«صحيح . . »

«أكنت تذكرنى ؟ . . »

«دائماً . . »

«وتود أن ترانى ؟ . . »

«أجل . . »

«وهل فكرت فى . . كما فكرت فيك ؟ . . »

«فكرت كثيراً . . وتخيلت . . وحلمت . . »

" أما انا فقد كتبت لك رسالة . . وهى الآن فى غرفتى . . وستقرأها يوماً ما . وتعرف لماذا كتبتها . . ولماذا أقول لك كل هذا الكلام . . والآن هيا بنا . . »

وبارحنا المكان . .

وودعتها على سلم الفندق .

وقالت لى :

«ستجىء غداً . . »

«وبعد غد . . وكل يوم . . »

«وحدك ؟ . . »

«وحدى . . »

وفى اليوم التالى ذهبت إليها وكانت فى انتظارى بغرفتها . وكانت فى أبدع زينة . وفى ثوب من المخمل الأزرق ، وقد زادها فتنة ، وأكسب وجهها سحراً فوق سحره .

وجلست على الأريكة ، وأجلستنى بجوارها . . وأخذنا نتحدث عن بيتهوفن ، وفاجنر ، وموزار . . ونقرأ شعر شيلى . . وكان صوتها رقيقاً ، وحديثها عذباً ، وكنت مأخوذاً بسحر جديد ، وجو غريب لم آلفه . . وشعرت بروحى تتشرب من رحيقها ، وبنشوة لذيذة تسرى فى كيانى كله ! .

وسألتنى :

«أقرأت الخيام ؟ . . »

«أجل . . أكثر من مرة . . »

«إن عندى نسخة إنجليزية نادرة الطبع . . وهى أعز على من نفسى . . وقد وضعت رسالتك فيها . . »

ونهضت . . وفتحت حقيبتها . . وأخرجت الديوان . . ووضعته على المائدة . . ثم وقفت أمام المرآة لحظات ، ومرت بيدها على جبينها ، وحلت شعرها . . فانسدل طويلاً على ظهرها وكان أسود كالليل ، ومتموجا براقاً كصفحة الغدير . . وكان أبدع شىء فيها ، وكانت تعرف تأثيره وسحره على صبى فى مثل سنى . .

وعادت وجلست بجوارى ، وفتحت الكتاب . وقرأنا . . وأمسكت بيدها . . وتوقفت عن القراءة . . وظللنا ساكتين .

ورأيت نفسى أرفع يدى إلى ذراعها . . وأحسست بجسمى ينتفض . . وكنت غراً وصغيراً ، وكانت أول امرأة فى طريقى .

ونظرت إلى ، وقالت وهى تبتسم :

«لماذا ترتعش ؟ . .»

فلم أجب . .

وضحكت ضحكة ناعمة ، وقربت وجهها من وجهى ، حتى كاد شعرها يلمس جبينى ، وقالت فى صوت خافت :

«كيف تواجه الجماهير بهذه الأعصاب . . وهذا الحياء الشديد . . إن هذا محزن ؟ . .»

وبعد عذاب وجهد شديدين استطعت أن أضع فمى على فمها .

ونزلت من الفندق ، وسرت فى شوارع القاهرة على غير قصد . . وأنا أشعر بقوة عظيمة ، وحيوية لم أعهدها فى نفسى من قبل ، وكانت روحى قد بعثت من رقادها ، وبراعم نفسى قد تفتحت ، وقلبى قد تحرك لأول حب ، وشفتاى قد ارتعشتا تحت شفتى امرأة . . ومضيت فى الطريق . وأنا أردد كلماتها وأسائل نفسى . . لماذا لا أستطيع أن أواجه الجماهير ؟ . . ولماذا أفكر كثيراً ولا أعمل شيئاً . . لماذا أفكر فى التوافه من الأمور دائماً ، وأرتعش عندما يلمس جسمى ذراع امرأة ! . . لماذا أعض على النواجذ ، وأندم على ما فات ، ولا أفكر فيما هو آت ؟ لماذا أتردد بعد كل خطوة . . وأعيش على هامش الحياة ، حالماً كالشعراء المجانين ! لماذا كل هذا ؟ . . لأن أعصابى ممزقة ، وجسمى ناحل ، ورأسى مشحون بالأوهام .

وفى اليوم التالى كنت فى أحد الأندية الرياضية ، أجدف فى النيل ، وأجرى فى الهواء الطلق ، وأسبح فى الماء ، وألعب بالكرة . . وبعد شهور شعرت بجسمى يتغير ، وذهنى يصفو ، ولم أعد أفكر فى التوافه من الأمور ، ونظرت إلى الحياة من جديد . . وزاد احتقارى للإنسان بعد أن دخلت مدرسة الطب ، وأخذ مشرطى يعمل فى جسمه ، ويمزق قلبه ! .

ونظرت إلى كتب الأدب فى بيتى ، وأسفت على هؤلاء الكتاب المساكين . . دستويفسكى . . غوركى . . أندريف . . هنريخ مان . . دكنز . الجاحظ . . الأصفهانى . . المعرى . ابن الرومى إنه الحس المرهف . . إنها العبقرية الفذة . إن هؤلاء هم خلاصة الذكاء البشرى . . ولكنهم تعذبوا كثيراً فى سبيل سعادة المجتمع . وماذا أفادوا ؟ . . لاشىء . . تماثيل فى الميادين ! . هذا هراء . .

إن خيراً من هؤلاء جميعاً ديماس الأكبر ، لأنه كان ضخماً ، وفى جسم الثور . . وكان يأكل فخذ عجل ، ويكتب كل يوم كتاباً ، إنه أدب أجوف ، ولكنه أدب الجماهير ، وأدب الذين يستلقون على الأرائك ، ويسخرون من آلام البشر .

ماذا جاء بعد هؤلاء الأبطال . . حضارة القرن العشرين . . موسيقى الجاز . أندية العرى . المواخير فى كل مكان . . والتحرر من كل قيد . . والهستريا الجنسية . . الدنيا ماضية فى جنونها ياصاحبى . . والشخصيات الفذة فى تاريخ البشرية لن تتكرر ، والناس يحلمون بعصر ذهبى ، ولكن هيهات . . فقد انقضى عهد الأنبياء ، ومات عمر بن الخطاب منذ قرون وقرون . . ولن يجىء عمر آخر فى تاريخ البشرية ، والناس يسعون لغرض أسمى . ولكن هيهات . . فالقوى سيظل يسحق الضعيف ، ومن بين كل ألف مجرم يقع مجرم واحد فى يد العدالة ، ويمضى الباقون تحت عين الشمس .

الدنيا ماضية فى جنونها . . رغم كل شىء . . وهل أنت أسعد حالاً الآن من إنسان الغاب ؟ . . أبداً . وماذا تفيد الكيمياء والكهرباء إذا لم تسخر لسعادة الإنسان ؟ . . كل ما تسمعه عن العصر الذهبى للإنسان هو باطل الأباطيل ، فالشقاء سيظل سرمديا . . »

***

وزرته مرة فى مسكنه الجديد فى الطابق التاسع من إحدى العمارات الكبيرة فى القاهرة . . فرأيت باب شقته مفتوحاً ، والبواب خارجاً منها يتمتم . . وكان هو جالساً فى الشرفة ، وأمامه زجاجة من الجعة ، وعينه إلى الطريق .

وحييته وجلست ، وأنا أضحك ، فسألنى :

«لماذا تضحك . . أرأيتها ؟ . . » .

فأجبته وقد استغرقت فى الضحك :

«لا . . وإنما رأيته هو . . »

ثم أردف :

«البواب ؟ . . إنه أحمق . . »

«ولماذا أعطيها ! . . »

«هذا توحش . . إنها فقيرة . . ولم تصعد إلى الطابق التاسع لتشاهد مجموعة صور روفائيل . . »

«عدنا إلى الفلسفة . . فقيرة . لماذا لاتغير طريقة حياتها وتنهج نهجاً مستقيماً ! لماذا

تصبر على الضيم ! أنا لست مسئولاً عن هذه الحشرات . . »

وكان الجدال ، مع رجل هكذا شأنه وطريقته فى الحياة لايجدى ، فصمت وعاد إلى الجمعة .

***

وكان الليل قد أقبل ، وبدت المساكن المحيطة بنا تعلوها جهامة الحرب . وسمعنا صفارة الإنذار . وسرت فى جسمى رعشة . . وتحركت من مكانى ، وتمشيت قليلاً ، ثم عدت ، وقد أخجلنى أنه لم يتحرك ، ولم يغير مجلسه ، ولم يدع كأسه من يده . . ولم تضطرب فيه جارحة ! . .

وبقيت جالساً فى مكانى . . وغاظنى صمته ورباطة جأشه . . وكنت أود أن أتحرك ، أو أتحدث ، فقد كانت وطأة الصمت ثقيلة على نفسى ، وكانت الغارة تقترن فى ذهنى دائماً بالأشلاء الممزقة . . والأجسام المدفونة تحت الأنقاض ، والذاهبة فى الجو إربا ، وكل ما هو من هذا بسبيل . .

وأخذت ألعن الحرب ، وما جرته على الإنسانية من ويلات . . وألعن صاحبى فى سكونه وقوة أعصابه . . وأدركت بعد هذا السكون العميق ، وفى خلال ذلك الصمت الشديد . . لماذا يستمع الناس للموسيقى أثناء الغارة . . ولماذا يمزحون ويضحكون . . فإن الصمت والسكون فى هذه الساعة الرهيبة معناه قتل النفس ، وتمزيق الأعصاب والسير فى طريق الجنون وسمعنا صوت المدافع المضادة .

فسألته :

«ألا تنزل إلى المخبأ ؟ . . »

فأدار رأسه ، وكان يبتسم ، وقال فى صوت هادىء :

«مخبأ ! إذا شئت أن تنزل فانزل ، أما أنا فسأبقى هنا ، وما من شىء سيجعلنى أتحرك من مكانى . . حتى ولو انطبقت السماء على الأرض ! . . أنا طبيب يارشاد . . وطبيب نفسانى قبل كل شىء . . وأقول لك إن تسعة أعشار ضحايا الغارات الجوية من منخلعى القلوب . . الذين يرتعدون فزعاً من لاشىء . والغارة قلما تصيب الرجل الكامل الحواس بسوء قط . . وأنت تسمع عن الحاسة السادسة للجندى فى الميدان . . إنها اليقظة . . يقظة الحواس . . فتيقظ واجلس فى مكانك آمنا . . »

«ألا تفكر فى أنك قد تصاب بسوء ؟ . . »

«إن هذا لا يغير من الأمر شيئا . . ولن أرقد فى حياتى إلا رقدة واحدة . . »

وعاد إلى طبعه فصمت . . واستغرق فى تأملاته . . وكانت زجاجة الجعة قد فرغت ، فنهض وجاء بزجاجة أخرى . . وملأ كأسى وقال ، وهو يرفع كأسه إلى شفتيه :

«فى صحة سوسو ! . .»

فقلت وأنا أضحك :

«فى صحة سوسو ! . .»

ثم سألته :

«ومن هو سوسو هذا ؟ . .»

«ألا تعرف سوسو ؟ . .»

«أبدا . .»

«سوسو هو صديق نعمات هانم . . وأنت لا تعرف نعمات هانم بالطبع . . فى نهاية هذا الشارع ، تجد منزلاً أنيقاً من طبقات خمس . . وهو يستهويك بحسن منظره ، وجمال موقعه . . وفى الطابق الثالث منه تسكن نعمات هانم . . قرعت هذه السيدة بابى فى ليلة من الليالى ، وكانت متغيرة اللون ، ويبدو عليها الاضطراب الشديد . . حتى تصورت أن نازلة نزلت بالأسرة . . وكانت فى ثوب وردى جميل . . ورأيت وجهها على ضوء المصباح الكابى . . وعينيها السوداوين وهما تبحثان عن وجهى . . ولعلها كانت تود أن تتثبت منى أولا . . إذ بادرتنى بالسؤال فى صوت رقيق :

«حضرتك . . الدكتور عرفى ؟ . .»

«أجل يا سيدتى . .»

وكنت لا أزال ممسكا بقبضة الباب . . وكانت لا تزال فى الخارج ، ووقع بصرى على صدرها ، بعد أن سكن اضطرابها بعض الشىء ، وعاودها بعض الهدوء . . ورأيت وجهها مرة أخرى خارج دائرة الضوء . . رأيته يضىء فى الظلام .

فأحنيت رأسى ، وقلت :

«تفضلى يا سيدتى . . أنا فى خدمتك . .»

«إنه سوسو . . يا دكتور . . وقد تركته وحده فى المنزل . . يجود بأنفاسه . . فأرجوك . . عجل . .»

وتناولت الحقيبة على عجل ، وذهبت معها إلى بيتها .

فتحت بابها . ودخلت وراءها في سكون، واجتزنا البهو ، ومشينا فى ممر طويل . . ودفعت بابا صغيرا ، و أشارت بيدها .. فدخلت غرفة رحيبة مؤثثة بفاخر الرياش .

وأدركت ، بعد السكون الذي طالعني من جوانب البيت ، أنها تمرض سوسو وحدها . . وتقدمت نحو سرير صغير وهمهمت

«سوسو العزيز ! . .»

ورفعت غطاء من الصوف السميك . . وتصور سوسو العزيز هذا ! . . كان كلبا أبيض . . وكان المرض قد أحاله قذرا ، بشع المنظر .

فنظرت إليها فى غيظ ، وقلت لها بصوت جاف ينم عن غضبى :

«أنا طبيب بشري يا سيدتى . . وهذا كلب . .»

«أنا أعرف أنك طبيب . . وهذا يكفى ! . .»

«أرجو أن تسمحى لى . . لقد أضعت وقتى يا سيدتى . . إن هذا عبث . .»

وكانت معتمدة على حاجز السرير ، تلاحظنى بجانب عينيها ، وأنا أرد الأشياء إلى الحقيبة .

وتناولت الحقيبة بيدى اليمنى وواجهتها . . فرأيت لونها قد تغير ، وعاودها ذلك الاضطراب الذى بدا على ملامح وجهها . عندما كانت فى بيتى . . وتحرك سواد العين ، وارتسم الأسى على الشفة ، وجال فى عينيها الدمع .

وقالت فى صوت رقيق :

«أنا لا أفرق بين هذا الكلب . . وبين أى إنسان يا دكتور . وأنت تعرف إحساس المرأة ، ورقة عواطفها . .»

«وجهى عاطفة الخير فيك يا سيدتى إلى ما هو أسمى من هذا ، إلى الأطفال الفقراء من بنى جنسك . .»

ومضيت إلى الباب . . ومشت ورائى . . وقبل أن أبلغ البهو الخارجى ، سمعتها تقول فى صوت باك :

«دكتور عرفى : انتظر . . أرجوك . .»

فتلفت . . وأمسكت بيدى ، ونظرت إلى نظرة آسرة :

«أنت طبيب وهذا كلب يتعذب . . افعل شيئا أرجوك . .»

«لا حيلة لى يا سيدتى . . »

«افعل أى شىء لتسكين آلامه . إنه لا يستطيع أنْ يتكلم . . أو يبث لواعجه كما يفعل الإنسان . . أعطه مسكنا ! . . إنه خير عندى من أى إنسان . . إنه يؤنسنى فى وحدتى . . ويملأ البيت كله حركة . ينبح ويقفز على الكراسى ، ويلعب فى كل مكان . . ويسهر معى فى الليل . . إنك تعرف العذاب الذى تعانيه المرأة ، وهى جالسة وحدها فى انتظار الرجل . . ويمر نصف الليل ، والساعات الأولى من الصباح ، وهو لا يعود . . وهى ساهرة فى قلق وعذاب . . فإذا عاد أخيرا ، كان ثملا . . أو محطما على مائدة القمار . . أنت تعرف هذا . . افعل شيئا لأجلى ، ولأجل هذا المسكين . . »

إنها مسكينة ، وقد رماها الله بشر ما تصاب به المرأة ، وهو الزوج المقامر . ولقد حطم الأرق أعصابها ، ومن يدرى ، ربما ذهب هذا الخيال ، وانطفأ ذلك السراج إلى الأبد . .

ورجعت ، وبذلت ما فى وسعى حتى سكن اضطرابها ، وعادت الابتسامة إلى شفتيها . . وأصبح سوسو من أعزائى !»

***

وحدث أن مراقبين من مراقبى المنائر تشاجرا فى منارة فى البحر الأحمر ، وكنت معه فى السويس ، وكان طبيب الباخرة التى ستذهب إلى هذين الجريحين . . وتأتى بهما حيين أو ميتين . . وألح على فى أن أرافقه فى هذه الرحلة ، فاعتذرت ، فقد كان الوقت شتاء ، والبحر مركبه صعب ، بيد أنه عاد يلح ويقول :

«سترى أبدع منظر . . البحر والليل . . وكلاب البحر . . ثم الأسماك الصغيرة التى تأكلها الحيتان الكبيرة ، ولا أحد يسمع صراخها وعويلها . . كل شىء ذاهب فى جوف المحيط ، ثم عروس البحر التى اقتتل عليها هذان الأحمقان ! . . »

***

وأقلعت السفينة ، وكان البحر هائجا ، والموج يعلو كالجبال ، والعواصف نكباء ، والسفينة تتلاعب بها الأمواج ، وتعوى فى بروجها الأعاصير ، ومع هذا ، فقد ظللنا طول الطريق نضحك ونمزح ، لأنه كان معنا ، وكان إذا اشتد الموج ، ومالت السفينة اتكأ على الحاجز الحديدى ، وصاح بأعلى صوته :

جيوفانى . .

فسألته :

«من هو جيوفاني هذا ؟ .. "

«ألا تعرف جيوفاني .. إنه كازانوفا ! .. "

فتركته يهذي ! . .

***

وأخذت أفكر فى هؤلاء الناس الذين يعيشون فى هذه المنائر منقطعين عن العمران . إنهم بواسل ولا شك ، وحياتهم فريدة حافلة بالعجائب وجمح بى الخيال ، وتصورت هذين الجريحين ، وقد مات أحدهما قبل أن يصل الطبيب ، ويبقى الآخر بجواره يتعذب ، ويتلوى من الألم ، ومن الرائحة الكريهة التى تنبعث من جثة رفيقه . . وسرت فى جسمى رعدة . . وحدثت الدكتور عرفى بما يدور فى رأسى .

فنظر إلى ضاحكا وقال :

«إنك لأحمق يا رشاد . . وأعصابك تالفة . . وتشحن رأسك بالأوهام . . وهب أن هذا حدث . . فماذا فى هذا ! سترى كيف يعمل فيهما مشرطى ! إن المسألة عادة . . وأنت ترتعش عندما ترى وجه ميت ، بينما ينبش اللحادون القبور ، ويسرقون أكفان الموتى ! . .» .

وتركنى وصعد إلى برج السفينة .

***

وكان لا بد أن تنتهى حياة ذلك الصديق الفذ بفاجعة . . وقد كان . . وما رقد فى حياته سوى رقدة واحدة كما كان يقدر . .

- لمن هذه الرسالة ؟ . .
- لأبى . .
- ما أجمل خطك . . ما الذى كتبته ؟.
- حدثته عنك . .
- عنى أنا ! . . ما الذى قلته ؟ . .
- إنك طيبة للغاية . .
- هذا حسن . . ثم ماذا ؟ . .
- وأنى عوفيت ولله الحمد . .
- وستبرح المستشفى بعد أيام . . هذا هو المهم . . وسأبقى وحدى ! . .

ونظرت إلى المريض نظرة طويلة ، ووجهها فائض بالبشر ، ثم ارتدت عن السرير ، بعد أن دفعت خصلة من الشعر عن جبينها . . وحركت قدح الشاى من مكانه . . ومشت إلى النافذة فهصرت سترها ، وأطلت على الحديقة المورقة ، وقد غمرها نور الشمس ، ونفذ خيط أبيض من النور إلى الغرفة . . ورأى المريض شعاع الشمس فى الصباح المقرور فتألق وجهه ، وقال وعيناه إلى النافذة :

- لماذا لا تخرجين معى ؟ . .

فتحولت الممرضة على صوته ، وكأنما أيقظها من حلم مستغرق . . وتراجعت عن النافذة وواجهته ، وقالت فى صوت طروب :

- أخرج معك ؟ . . وتأخذنى ! . .

فقال وهو يدفع عنه الغطاء :

- بالطبع . . ولم لا ! . .

فابتسمت، و صمتت لحظة، و في عينيها إشراق وسحر ، وعلى شفتيها نشوة الحالم . .

وقالت بصوت حلو ، وقد رأته يضغط على الجرس :

- ما الذى تريده ؟ .
- طابع بريد لهذه الرسالة .
- هاتها وسأتولى إرسالها . :
- كيف أشكرك ؟ . .
- هكذا . . أعطنى يدك . .
- هالوا ! . .
- هالوا ! . .

وضحكت حتى رقص قلبها من الضحك ، فقد أخذ المريض يقلد «البستر» وهى تتحدث مع أخيه ، كان يقلدها ببراعة فى صوتها ولهجتها ، حتى تمايلت الممرضة من الضحك ، ثم غالبت نفسها وتماسكت ، فقد سمعت صوت أقدام تقترب ، وقرب وقع الخطوات ولاح صاحبها على باب الغرفة .

ونقر نقرا خفيفا على المصراع الأيسر ، ثم اجتاز الباب ، وقد تمهل فى سيره ، وخفف من وقع نعليه . . وحيا الممرضة وهو باش الوجه ، طلق المحيا .

وقال وهو يتقدم نحو سرير أخيه :

- كيف أصبحت ؟ . .

فقالت الممرضة فى صوت ناعم ، وقد تقدمت خطوة ، واقتربت من النافذة ، حتى سقط شعاع الشمس على شعرها :

- أنظر إلى وجهه ، وحمرة الدم فى وجنتيه . . إنه اليوم على أحسن حال . .
- كل ذلك بفضلك . .
- لا تقل هذا . . كله من فضل الله . .

وخلعت باقة من الزهور من زهريتها . . ثم دفعت عربة صغيرة عليها آنية الشاى . . وقالت ، وهى تتجه بها نحو الباب والابتسامة تتألق على ثغرها :

- سأعود . . حالا . .

وشيعها المريض ببصره حتى توارت .

وقرأ حسن لأخيه رسالتين من الريف . . ونشر أمامه بعض الصحف المصورة .

وظل يحادثه إلى أن جاء طبيب الصباح ، وسر لما رآه على وجه المريض من دلائل العافية .. أمسك بيده هنيهة ، ثم خط شيئا على اللوحة المعلقة على واجهة السرير .. ثم حيا ، وانصرف .

وجلس حسن على كرسى طويل أمام الشرفة ، وأرسل بصره إلى الحديقة المزهرة التى تحف بالمستشفى ، وقد أخذ نسيم الصباح يرنح أشجارها ، ويداعب أزهارها ، ويمايل أعطاف بانها .. وذابت برودة الليل فى حرارة الشمس الفائضة . وتفتحت براعم الأزهار .. وبدت طلائع المرضى فى الحديقة ، وهم يسيرون الهوينا فى مماشيها .. وانتشروا فى أرجائها .. وجلسوا على الكراسى الخشبية البيضاء فى ممرات الحديقة يستدفئون بحرارة الشمس ، ويتحادثون فى هدوء .. وعلى وجوههم آثار المرض ، والحنين إلى العافية .. والشوق إلى الحرية ، والانطلاق من هذا الأسر .. الانطلاق من هذا الجو الراكد القابض ، إلى حيث الحياة بضجيجها وصخبها ..

وكان الذين قد مضوا منهم شهورا فى هذا المستشفى ، قد استنزفت حيويتهم ، وخمدت حركتهم ، وخف نشاطهم .. فاستراحوا على الخشب الممدود فى الشمس يصطلون ، ويجرون الحرارة فى أبدانهم ، مستسلمين راضخين .. وكانوا ، وهم ينظرون إلى ما وراء الحديقة ، ويتخطون ببصرهم السياج الحديدى ، يشعرون بالأسى والحنين الفارط إلى ما كان .. يتوقون إلى حياتهم الماضية الحافلة بالنشاط والعمل .. حتى الذين كانوا يلاقون إعناتا من الدهر ، وآلاما من الأيام ، كانوا يودون من أعماق قلوبهم لو يفتح لهم السور الخارجى على مصراعيه ، لينطلقوا إلى الحياة من جديد .. كان هذا السور الحديدى المحيط بهم حدا فاصلا بين الحياة والموت .. سدا قائما لا بد أن يتخطوه ويجتازوه إلى بحر الحياة الزاخر .

كان وجودهم بالمستشفى يذكرهم بالموت ، ويبعث فيهم الرعب ، ويجعلهم يخضعون للأوهام .. كانوا يرون العربة الحمراء المقفلة تجىء كل يوم ، وتبقى فى فناء المستشفى ساعة من الزمان .. ثم تخرج مع الشمس الغاربة سائرة على مهل ، فلا تسمع لمحركاتها دويا ، ولا لعجلاتها صوتا .. كانت تجتاز ممر الحديقة الطويل ، إلى الباب الخارجى فى أكثر من ثلاث دقائق كأنها طفل يحبو .. فاذا انخرطت فى الطريق غذت السير ، وانطلقت كالسهم حتى تتوارى عن الأنظار .. كانوا يشيعونها ، وعيونهم مغرورقة بالدمع ، ووجوههم كاسفة حزينة .. وقلوبهم تتقطع على من فيها حسرات .. كانوا يعرفون أنها لا تخرج فى هذه الساعة من النهار فارغة أبدا .. كانت تحمل فى جوفها بعض نفوسهم .. بعض من قضى معهم أياما طوالا ، متألما شقيا ، ثم تداركه الله برحمته فذهب مع الذاهبين فى غير رجعة .

عادت الممرضة ، بعد مدة طويلة ، فألفت حسنا مضطجعا على كرسى فى الشرفة ، وعينه إلى السماء الصافية ، وقد غفل عما حوله ، فانسابت فى لين حتى وقفت أمامه . فرفع وجهه إلى وجهها المشرق ، وقال وهو يبتسم بسمة الرضى :

- كيف أصبحت ؟ . .

- كما ترى . .

- على خير حال . .

- أرجو ذلك . . أعائد فتحى إلى المدرسة ؟ . .

- لا أظن ذلك . . سيذهب إلى الريف . .

- هذا أحسن . . فهو فى حاجة إلى الراحة . .

- لماذا لا تذهبين معه ، وتمضين أياما فى القرية ؟

- أنا ! . . لا أستطيع . .

- لماذا ؟ . .

- العمل . . والمرضى . . والعقاقير . .

- استريحى من هذا قليلا . .

- ليتنى أستطيع . .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت بصوت حزين :

- ليس للتنزه أو التنقل قيمة فى نظرى . . ما دمت أعيش هكذا . . مرضى وعقاقير . . رائحة الكلوروفورم . . الأربطة . . الضمادات . . آلات الجراحة . . معاطف الأطباء الجلدية . . قفازات الوقاية . . المشارط . . المباضع . . أوه . . ثم وجوه الممرضات أخيرا ! . .

- ومن أجبرك على هذا كله ؟ . . لقد تطوعت بمحض رغبتك لهذا العمل الإنسانى . . فلماذا الأسف . . ولماذا هذا الحزن ؟ .

فنظرت إليه نظرة طويلة ، واكتسى خداها بلون الأرجوان ، وقالت بصوت ناعم :

- اخفض صوتك . . فقد نام أخوك . .

فحول رأسه إلى سرير أخيه برهة ، ثم سألها :

- لماذا جئت إلى هنا ؟

- وأين كنت أذهب ؟ . . لا أب ولا أم . . ولا أخ ولا صديق . . أين تذهب فتاة فى مثلى سنى . . لقد جاء إلى الرجال بعد أن ذهب أبى . . كانوا يريدون ثروتى . . لم أكن فى سن الغريرة . . كنت أعرف هؤلاء جيداً . . فرفضتهم فى احتقار . . ومرت السنون . .

وانصرفت بكليتي عن الزواج . . ومللت الوحدة . . أأذهب إلى المحافل والمراقص . . وأدور مع كل رجل . . وأنطلق إلى كل مكان . . وما لأحد سلطان على ؟ . . لم لا ؟ . . فمن حقى أن أعيش وأنعم بأطايب الحياة . . وأخرج من هذا الظلام . . كان هناك ظلام سرمدى وشتاء دائم . . كنت أقضى النهار فى القراءة ، وزيارة بعض صاحباتى . . ولكن الليل . . الليل الطويل فى الشتاء . .

وفى صباح يوم جميل ، زارتنى صديقة من رفيقاتى فى المدرسة ، وكانت فى لباس أبيض ، وغطاء رأس أبيض ، وحذاء أبيض فبدت أمامى كالملاك . . وضممتها إلى صدرى ، فى نشوة وسرور ، وعلمت أنها تطوعت فى أحد المستشفيات . . وأوحت إلى صديقتى بالفكرة ، واختارت لى خير طريق تسلكه فتاة فى مثل سنى . . وفى مثل حالتى . . وبعد أيام كنت هنا . . وكنت أشعر ، فى أول الأمر ، بلذة عظيمة كلما أدركت أنى أنقذ نفسا بشرية من العذاب ، وكانوا دائما يرسلوننى إلى غرفة الدرجات الأولى الممتازة ، ولكننى كنت أرفض هذا وأقول لهم إنى أود أن أذهب إلى الطبقات الفقيرة أولا . . فالأولون معهم المال ، والمال يفعل فعل السحر فى كل مكان فى الأرض ، أما الآخرون فلا مال معهم ، ولا عائل يعولهم ، ولا زائر يزورهم ، ويواسيهم فى آلامهم . . ورأيت فى هذه الأقسام وجوها لا تنسى . . فقرا لا يدركه العقل .

وبعد أيام تحطمت أعصابى ، وكنت أحلم بهذه الوجوه البائسة فى الليل . . وأخيرا جئت إلى هنا . . وقد تركونى على هواى . . وأخشى أن أمل ، وأنفض يدى من العمل نهائيا . . وأنا الآن أتخير المريض . . ! وعندما جاء أخوك نظرت إليه طويلا . . فأدركوا أنى أعطف عليه ، فقد كان صغيرا ، وفى وداعة الحمل ، وكان يتألم . . فتركوه لى . . وسيذهب ويفلت من يدى كغيره . . وأنا أفتح عينى على أحلام جميلة تمضى .

- إنك ملاك . .
- أشكرك . .

ووقفت أمامه ، تنظر إليه فى ابتسام وخجل . . ثم سمعا حركة فى الممر الكبير . . فبارحت الشرفة على عجل ، فقد كان كبير الأطباء يعود المرضى

***

استأذن حسن من طبيب المساء فأذن له فى أن يبقى فى المستشفى هذه الليلة كما يشاء ، فخرج إلى المدينة وعاد قبيل الغروب ، وكانت إحسان هانم «الممرضة» فى وقت راحتها ، فشعر ، لخلو المكان منها ، ببعض الوحشة . . ولما رآها بعد ذلك تسعى ، فى ثوبها الأبيض الجميل ، فى بعض طرقات المستشفى ، أحس بسرور محض . . وزاده سرورا أنها كانت تبدو ، فى هذا المساء ، فى أبدع زينة وآنق ملبس . . وساوره شعور الرجل الذى تتطيب له

المرأة وتتزين ، والذى يدرك أنه شغل تفكيرها ، واحتل شعورها إلى حين . .

ولما جاءت تتهادى ،ووقفت بجوار سرير المريض ، كان يطالع ووجهه إلى الشرفة ، فلم يحس بها عند دخولها ، ثم استدار بعد أن شعر بجو عطرى يشيع فى أرجاء الغرفة ، فرآها منحنية على السرير تضم إليه بعض الأغطية . . فبقى ناظراً إليها فى استغراق وصمت ، حتى اعتدلت ، وحولت وجهها إليه على مهل ، إلى أن وقع نظرها على نظره . .

فقالت ، وكأنها تراه لأول مرة :

- ألا زلت هنا ؟ . .

- أجل . . أتحبين أن أذهب . . ؟

فصمتت ولم تجب ، وإن كانت عيناها قد أجابتا أحسن جواب ، وأنداه على قلبه . . وبقيت لحظة أمامه موردة الوجنتين منفرجة الشفتين ، ذابلة العينين . ظاهرة الحياء . . ثم انسابت فى خفة ورشاقة إلى الشرفة ، لتخفى ما بدا على وجهها من خفر . .

وكان الليل قد بسط رواقه ، وبدت الأنوار تسطع فى نوافذ المستشفى ، وترسل الأضواء الوهاجة إلى الخارج . . وكانت الحديقة الرحيبة التى تطوق المستشفى ، والأشجار الضخمة التى فى الجانب الشرقى من الحديقة ، تبدو فى وحشة الليل ضخمة مستعجمة ، وزادها رهبة ووحشة ، أن رياح الليل كانت ترنح فروعها أكثر مما تهز جذوعها . . فبدت كعمالقة الليل ، وهى تتصارع فى صمت وهول . .

ووقفت إحسان هانم لحظات تتأمل فى سكون الليل ،غافلة عن المستشفى ومن فيه ، وكأنما عداها الظلام بوحشته ورهبته فسرت فى جسمها رعدة ، وتقبضت نفسها ، واجهت حسناً بعينين غائمتين . .

فسألها ، وقد عجب لتطور حالها :

- ألا تجلسين ؟ . .

فأجابت فى هدوء ، وقد عاود وجهها النور ، وانمحى ما ارتسم عليه من ظلال حالكة تدريجياً :

- ليس الآن . . سأجىء بعد دقائق . . أتبقى هنا طويلاً ؟

- إلى أن تطردينى . .

فابتسمت ولم تقل شيئا . . ومشت نحو سرير المريض ، وكان يطالع بعض المجلات المصورة . . فلما أحس بها رفع عينيه عن المجلة ، ونظر اليها مبتسماً وقال :

- أتحبين هذه ؟ . .

- عندما كنت فى مثل سنك . . كنت أقرأ هذه . .

- والآن . . أنت تقرأين الكتب الضخمة كحسن ؟ . .

- أجل . . وعندما تكبر ستقرأ الكتب الضخمة مثلنا . .

- أتظنين هذا ؟ . .

- طبعا . .

- سأكون مهندسا . . ولن أضيع وقتى فى قراءة الكتب ،

واستغرقت فى الضحك . . وحولت وجهها نحو حسن ، فرأته مبتسم .

ومالت على المريض ، وسألته بصوت خافض :

- ألا تود شيئا ؟ . .

- لا شىء غير عافيتك . .

- وغير هذا ؟ . .

- لا شىء . .

- ألا تود قبلة ؟ . .

- قبلة . . ؟

- أجل . . قبلة . .

- ومن يعطينى هذه القبلة . . السستر ؟ .

- واحدة تحبك أكثر من السستر . .

- من هى ؟ . .

- ألا تعرفها ؟ . .

وبدا وجهه أحمر كالورد ، ودفن رأسه فى الوسادة فمالت عليه ، وقربت وجهها من وجهه ، وهو يدفعها عنه بيديه . . ثم وضعت شفتيها على شفتيه ، وولت هاربة .

***

خرج حسن إلى حديقة المستشفى ، وأخذ يمشى فى أرجائها فى سكون ، وبصره إلى ما فيها من رواء وحسن ، وكان كل ما حوله يبعث على السكون والصمت . . ورجع

يذكر ، وهو يجتلى مجالى الطبيعة المحيطة ، أيام صباه فى الريف ، ايام كان يجرى فى المزارع ويتخطى الجداول ، ويسبح فى النهر ، وينطلق بالجواد على الجسر . . ثم ارتد عن القرية ، واستقر فى المدينة ، وأصبح واحدا من أهلها ، وغدا لا يرى منظرا ممتعا ، وإن رآه لم يلتفت إليه .

وكان كسائر الذين ينتقلون فجأة من هدوء الريف ، إلى صخب المدينة ، فيحسون أول الأمر بالضيق الشديد ، وبمثل طرق الحديد على أعصابهم . . ثم يرضخون لحكم الواقع ، ويألفون هذا الضجيج ويستطيبون عيش المدينة على الأيام . . على أن حنينهم إلى الريف لا ينقطع جملة . . بل تراه يعود و د ف، أشد ساعات النفس كربا ، وأعظمها ضجراً .

وكذلك كان حسن وهو يتمشى وحيدا فى الحديقة ، فقد أحس بالاكتئاب الشديد ، واستيقظ فيه ما كان منسيا . . فقد انتقل من الريف إلى المدينة ، ومضى فى زحمتها ، ودار مع العجلة الكبيرة فيها واستغرق بكليته فى عمله ، ونسى أن هناك وقتا للراحة ، ووقتا للتنفس . . وألفت عينه الدخان ، وأذنه ضجيج المركبات والعجلات ، ولم يعد يستريح إلا حيث زحمة الناس ، فكان لا يسكن إلا فى الأحياء المكتظة بالسكان ، ولا ينام إلا على صوت العجلات ، ولا يستيقظ إلا ساعة السكون المطلق . . ونسى الريف أو خيل إليه أنه نسيه . . إلى أن مرض أخوه ونقل إلى المستشفى فى تلك الضاحية . . فكان يذهب إليه فى الصباح المبكر ماشيا . . ويرى الأشجار والأطيار ، ويخيل إليه أنه يراها لأول مرة . . فإذا تأخر فى الليل عاد وقد طلع القمر ، فكان ينظر إليه ، وكأنه ما رآه من قبل أبدا فى سماء المدينة ، وتيقظت مشاعره وأزيحت الغشاوة عن بصره . . وأخذ يفكر فى الجمال والسكون ، وروعة الطبيعة وحسنها . . فليست الحياة فى ذلك الضجيج ، وليس على المرء أن يتعلق بهذه العجلة الدوارة إلى أن تسحقه بين تروسها . . شعر بالأسى على ما فات ، لقد كانت حياته عملا دائما . . لا راحة بعده . . إلى أن جاء إلى هذا المستشفى ، ورأى الطبيعة السافرة ، والسكون والجمال ، والروض ، ووجه إحسان . .

كانت الصور تمضى فى ذهنه واضحة ، ونشط لها جسمه ، وانتشى حسه . . واعتمد على السور ، وغاب ببصره فى الظلام المخيم ، واستغرق عما حوله . . حتى استيقظ على صوت إحدى الممرضات ، وهى تهتف به فسألها :

- ماذا ! . .

- أخوك يسأل عنك . .

فمضى إلى الغرفة ، وقال لأخيه :

- نعم يا فتحى . .

- ألا تود أن تأكل معى ؟ . .

فابتسم وقال :

- أشكرك ، سأتعشى فى الخارج . . وليس من عادتى العشاء فى هذه الساعة كما تعرف . .

فانحنى المريض على الطعام . . وجاءت بعد فترة قصيرة «السستر» ومدت يدها إلى حسن ، وتقدمت نحو سرير المريض وسألت :

- الطعام جيد ؟ . .

فصمت المريض ، وظهر على وجهه الخجل .

فقال لها حسن ، وقد حلا له أن يزيد فى ارتباك أخيه :

- إسأليه . . هل هو كفاية ؟ . .

فقالت وهى تضحك :

- صحيح ؟ . . ما كنت أعرف أنه أكول .

ونظر حسن إلى رئيسة الممرضات ، وهى تخفى ابتسامتها ، وكانت على جانب كبير من الثقافة والذكاء ، ومع أنها تخطت الأربعين فلا تزال عليها نضارة الشباب ، وكانت بشرتها نقية ، وعيناها زرقاوين ، وكان حسن يرى فى أعماق عينيها سرا هائلا ليس إلى معرفته من سبيل . . وكان كلما نظر إليها فى سكون وقوة ، حولت وجهها عنه . وكأنها تقول له :

- لا تحاول هذا . .

ومشت إلى واجهة السرير ، وقرأت ما سطره الطبيب على لوحة المريض . . وظهر على وجهها السرور .

وأحنت رأسها لحسن ، وخرجت من الغرفة .

وبلغت الساعة الثامنة ، وخفت الحركة فى المستشفى وعاد كل شىء ساكنا ، وتطرح حسن على كرسى طويل ، وجلس صامتا ، وقد عداه السكون الذى خيم على كل شىء ، وشعر بحنين زائد إلى رؤية إحسان هانم وكان يشعر نحوها فى الأيام الأخيرة بعطف شديد وحنان أكيد ، وكان مع سلامة أعصابه وقوة إرادته لا يستطيع أن يمسك قلبه عن الخفقان كلما رآها . ولكنه لم يكن يتحدث لها عن عواطفه ، وما يحمله لها من الحب . . بل كان

يطوى نفسه على ما فيها ، ويمضى كما يمضى الرجل . .

ولما جاءت استقبلها بابتسامة لم ترها على وجهه من قبل أبدا . . وكانت قد ازينت ولبست أحسن ما عندها ، وشعر لذلك بسرور عظيم . . وأخذت تحادث المريض أكثر مما تحادث حسنا ، وقد فاضت نفسها سرورا وحبورا . .

وظلوا يتحادثون حتى مضى جانب من الليل ، وأطفئت الأنوار فى كثير من الغرف ، وهيأت إحسان السرير للمريض ، بعد أن ضمت إليه بعض الأغطية ، وأنزلت الستر على النوافذ .

وقالت لحسن بعد أن نام أخوه :

- هل ستنام هنا ؟ . . إذا شئت أعددنا لك السرير الآخر .

- أشكرك . . سأنام فى بيتى . . إنه الآن بخير . .

- ولكنه يصحو دائما فى الليل . . ويسأل عنك . . وإذا أدرك أنك خرجت . . تحير فى عينيه الدمع . . فأنحنى وأقبله وأفعل كل شىء لأسليه ، ولكنه يظل يبكى فى سكون . . لابد إنه قضى طفولته كلها معك حتى أصبح متعلقا بك إلى هذا الحد . .

- إنه معى منذ ترك القرية إلى المدرسة . . من الخامسة إلى الآن . وهو لا يفكر فى أبيه بقدر ما يفكر فى . .

- إذن لا داعى لخروجك الآن . . وابق بجانبه إلى أن أعود وانسابت إلى الباب فى خفة ولين .

ولما عادت كان حسن قد اضطجع على الكرسى ونـام . . ووقفت خلف كرسيه ساكنة ، وودت لو تمسح بيدها على شعره ، وتمر بأناملها على جبينه ، أحست بضربات قلبها ، وحنين نفسها ، وكادت تفلت منها إرادتها ، وتتغلب عليها عاطفتها . . ودت لو انحنت عليه وطوقته بذراعيها ، ودفنت رأسها فى صدره . . كانت فى حاجة إلى من يحنو عليها ، ويبادلها عواطفها . . كانت أنوثتها ناضجة ، ولكنها لم تكن تجد فى الجو الذى تعيش فيه حرارة الشمس ودفأها . . كانت تعيش فى برودة شـديدة أذبلت نفسهـا ، وصوحت جسمها ، وذهبت بكثير من جمالها وفتنتها . . كان قلبها قد أدركته الشيخوخة وهو لا يزال صبيا . . وكانت روحها حائرة قلقة . . وأخذ سراج حياتها فى الذبول . . كان عليها أن تعيش هذه الحياة الجافة راضخة مستسلمة لحكم الأيام ، حتى يقضى الله أمره .

لم تكن من أولئك الفتيات اللواتى يفتحن قلوبهن لكـل طارق ويلقـين أنفسهن فى أحضان كل رجل . . كانت امرأة لها طهارتها ، ونقاء جسمها ونفسها . كانت تود الرجل الذى يكون لها وحدها ، وتكون له وحده . . كانت تعرف أن الحياة للمرأة لا تكون بغير

الرجل .. و لكن أين الرجل الذى يملأ فراغ قلبها . . ظلت تبحث فلم تجد ، كان هناك شبان يريدون اللهو ليس إلا ، وشيوخ فى طريقهم إلى القبر . . ردت هؤلاء جميعا . . وعاشت لنفسها ، وقنعت بوحدتها . . ووجدت فى الحنان على المرضى أخيرا عزاءها الوحيد وسلواها . . وأكسبتها هذه الحياة نوعا من الفلسفة الفطرية فعاشت فى ظل القناعة ، وبعدت بكليتها عن الرجل . . إلى أن جاء حسن والتقت به فى هذا المكان . . وشعرت نحوه بعاطفة غريبة مبهمة ثم تكشفت على الأيام ، وتحركت أنوثتها من أعماقها ، وخفق قلبها لأول مرة فى حياتها . . وكانت عندما تقبل أخاه تتصور أنها تقبله ، ولذلك كانت تحس بالتهاب شفتيها ، واهتزاز عودها . .

وهو الآن معها ولها . . ولماذا لا يكون لها . . لماذا لا يتحقق هذا الحلم ! . .

وأسبلت عينيها . . ووضعت يدها على قلبها . . لماذا لا تقبله لماذا لا ترتمى بين ذراعيه ليأخذها فى أحضانه ! . .

واستغرقت فى أحلامها . .

وانتفضت على رنين جرس فى الممر الخارجى . . فبارحت الغرفة .

وحدد اليوم الذى سيخرج فيه فتحى من المستشفى ، وأخذت إحسان هانم تخرج ملابسه من الدولاب الصغير فى الغرفة ، وترتبها فى حقيبته ، وكانت تخفى حزنها ، وما يعتلج فى قلبها ، وتتظاهر بالسرور وكثر ضحكها لسبب ولغير ما سبب ، حتى عجب حسن لحالها .

وفى صباح اليوم المحدد لخروج المريض ، جاء أبوه ومعه بعض ذوى القربى . . وكان رجلا فارعا قوى الجسم ، متقد النظرة ، جم النشاط ، كثير الحركة . . ومع أنه لم يمكث فى المستشفى أكثر من ربع ساعة ، فإنه أشاع الرعب فى أرجائه . . فقد كان يتحدث بصوت رنان من أعلى طبقة ! ويلقى الأوامر على كل من يقع تحت بصره . . وكل إنسان عنده ولد . . فحسن ولد . . وكل من جاء معه من القرية أولاد ! .

- روح يا ولد . . تعال يا ولد . .

بهذا كان يصيح طول الوقت . . وكان يكلف واحدا بعمل ، فيتحرك ثلاثة فى وقت واحد ، فقد كان صوته يفزعهم ، ويجعلهم يضطربون ! . .

ووقفت إحسان هانم فى زاوية من الغرفة ترقب هذا الرجل وقد علت وجهها ابتسامة الإعجاب . . وكان حسن قد انكمش أمامه وتضاءل ، ولم يعد له وجود ! وكذلك الباقون . .

و رأى الشيخ عبدالكريم أن المريض لايزال فى الفراش ، فزعق فى وجهه :

- قم يا ولد .. قم يا مضروب خربت بيتي .. مستشفى .. عقاقير .. قم ..

ونهض فتحى على عجل و تقدمت نحوه إحسان هانم ، وهى تضحك ، واستوى الشيخ عبد الكريم على قدميه ، وهو يقول

- سآمر على مصطفى بك .. وستقابل فى المحطة ..

وبارح الغرفة ، وتنفس الجميع الصعداء !..

وقالت إحسان هانم لحسن ، وهى تعين فتحى على ارتداء ملابسه :

- إن والدك مرعب !..

- إنك ما رأيت شيئا .. آه عليك لو رأيته ، وهو يزأر كالأسد وراء المحاريث !.

فضحكت حتى دمعت عيناها .. ومشت معهم إلى الباب الخارجي وقبلت فتحى ، وشدت على يد حسن ، ووقفت ترقب العربة وهى تمضى بهم فى الطريق الطويل بين الأشجار .. وتسائل من عينيها الدمع ولكنها عندما تذكرت وجه الشيخ عبد الكريم الضاحك ، وصوته المرعب ، ابتسمت ومسحت دموعها ..

ولم تنقطع رسائل فتحى عن إحسان .. كان يكتب لها فى الأسبوع مرتين ، ويدعوها فى كل رسالة إلى زيارة القرية .. وكانت تجيب على رسائله وتخصص لها جزءا كبيراً من وقتها . ولم تكن تدرى وهى تملأ الصفحات والصفحات .. أتكتب هذه الرسائل لفتحى أم لحسن ! وكان هذا يجعلها تخجل من نفسها .. ولكنها كانت تكتب وتكتب ، وتصف له كل ما تشاهده من صور .. وكان فتحى يسألها فى كل رسالة عن الستر ، ويرجوها أن تقبل شفتيها !..

وعاد حسن إلى القاهرة وحده ، وترك فتحى فى القرية بين أحضان والديه .. وكان يذكر إحسانا وهو فى الريف ، ويقرأ رسائلها بلذة فائقة ، ويتمنى أن يراها فى أول يوم يعود فيه إلى القاهرة ، وكان الشوق يبرح به ، والوجد يرمضه ، ويتمنى لو يطير إليها بجناحين خفاقين .. ولقد مضى معها فى المستشفى شهراً وبضعة أيام .. فنما الحب فى قلبه على مر الأيام ، وهو لا يكاد يحس به ، فلما أحس به ، وشعر بخفقان قلبه ، تماسك وتجلد ، وحاول أن يخمد جذوة النار التى تشتعل فى قلبه ، إلى حين .. فلما بعد عنها ، عادت النار تشتعل من جديد .. وإذا بما كان يحسبه رمادا ، قد ارتد جذوة تتأجج ..

و في أول ليلة نزل فيها القاهرة ، مشى فى الطريق ، وهو ينظر إلى وجوه النساء ويتلفت ، فإذا بصر بامرأة فى لباس أبيض . . انتفض وخفق قلبه ! . . ونسى أنها لا تلبس ثوب الممرضات فى الطريق . . ولكنه لم يكن قد رآها إلا فى هذا الثوب الجميل ، وفى هذا الثوب أحبها ، وفى هذا الثوب تمنى أن تكون له بجسمها ونفسها . .

وكان يسائل نفسه : كيف السبيل إلى لقياها ؟ . . أيكتب إليها فى المستشفى ؟ . . أيزورها فى بيتها ؟ . . ربما يعرضها ذلك للأقاويل وهى العذراء الطاهرة الذيل ، فلماذا يلوث اسمها ؟ . . إن كل ما يتمناه هو سعادتها ، وقد تكون هذه الزيارة سببا فى شقائها . . ثم هى امرأة . . قد عاشت لنفسها وبنفسها . . فلماذا يقحم نفسه فى جو حياتها ، ويعكر عليها صفو وحدتها ؟ . . انه يعرف فى أعماق نفسه لذة الرجل المستفرد . . الرجل الذى يعيش لنفسه وبنفسه ، بعيدا عن المجتمع . . بعيدا عن الخلق عن التماثيل المتحركة ، بعيدا عن هذه الآلات الصماء التى تتحرك بلولب . . بعيدا عن كل هذه الحماقات . . فلماذا لا تكون هى قد شعرت بلذة المرأة المستفردة . . ولا شىء ألذ عندها من وحدتها ، وسكونها إلى نفسها . . لماذا لا تكون هكذا ؟ . . ولماذا يكون دخيلا ؟ . .

رد نفسه عن هواها ، وعاد إلى عمله ، وكاد ينسى فى العمل إحسانا .

***

وذهب حسن ، فى ليلة من الليالى إلى السينما ، وجلس فى الصف الأخير كعادته . . وكانت السينما خالية تقريبا ، فلم تكن الرواية من الروايات التى تغرى الجمهور بالمشاهدة . . وسر لهذا ، فقد كان يود أن يريح أعصابه من عناء العمل المتواصل طول النهار ، فى جو كهذا .

وأطفئت الأنوار ، وبدأ المشهد الأول ، وأرسل حسن ظهره إلى الوراء ، ومد رجليه ، واستراح فى هذه الجلسة ، واستغرق فيما يشاهد من مناظر ، حتى رأى عامل السينما يصوب مصباحه إلى ناحيته فتلفت . . وجاءت سيدة ، وجلست بجواره ، فلم يعرها التفاتة . . وكانت قادمة من النور إلى الظلام ، فلم تره عندما جلست فى الصف ، ولما استقر بها المقام ، واستطاعت أن تبصر بعض ما حولها ، حولت وجهها قليلا إلى ناحيته ، فعرفته ، وهتفت :

- أنت هنا ! . .

- إحسان هانم ! . .

وتصافحا مصافحة حارة . . وسألته وهى تتلفت :

- أأنت وحدك ؟

- لا . . معى زوجتى !

- إذن سأغير المكان . .

- إبق كما أنت ، إنها لا تغار . . كغيرها من الزوجات ! . .

وضحكا ثم صمتا . . وانتهى المشهد الأول ، وأضيئت الأنوار . . فقربت وجهها الباسم منه وسألته :

- كيف حال فتحى ؟ . .

- لقد عوفى . . وهو الآن يلعب فى الحقول . . ويسبح فى النيل ويجرى بحماره الصغير طول النهار على الجسر .

- ونسى السستر ؟ . .

- وإحسان هانم أيضا . .

- هكذا الرجال دائما ! . .

وحول رأسه إلى ناحيتها ، ورأى على ثغرها ابتسامة عذبة ، وفى عينيها ذلك البريق الذى يخطف فى عيون العذارى ، كلما شعرن بالسرور الباطن . .

فقال ، وهو يديم النظر إلى عينيها :

- أى مصادفة أن نلتقى هكذا ؟ . .

- إنه أعجب شىء . . هل تجىء إلى السينما كثيراً ؟ .

- أبدا . .

- وكذلك أنا . .

- كان ولا بد أن نتلاقى ، فتلاقينا على هذا النحو السهل . . ولقد بدأ الحظ يبسم لى . .

- وهل كنت سىء الحظ ؟ . .

- إلى أقصى حد . . أنا أعمل طول النهار ، وجزءا كبيراً من الليل كما تعرفين . . ولا أتريض إلا قليلا . . ولا أذهب إلى السينما غير مرة واحدة فى الأسبوع . . وفى هذه المرة أتمنى ، وأنا آخذ التذكرة من العاملة ، أن يكون كرسى بجوار سيدة جميلة ، فأنسى فى جوها

العطرى ما لاقيته من نصب طول النهار . . ولكن الحظ كان يخوننى دائما ، والنحس يلازمنى أبدا . فلا أجلس إلا بجوار أبغض الناس إلى قلبى . . كهل يدخن ويسعل . . أو شمطاء تظل تثرثر طول العرض . . أما الليلة فقد نسيت كل ما كان . . والحظ الذى لازمنى فيها سيمحو كل سيئات الماضى . . وسأقبل يد العاملة التى أعطتنى هذا الكرسى . .

وضحكت . . ورنت إليه وقالت :

– أنت سعيد إلى هذا الحد ؟ . .

– وأكثر من ذلك ، وإن حواسى كلها . .

– كفى . . دعنا نرى الرواية . . هل أنت من هؤلاء الذين لا يطيب الحديث لهم إلا فى السينما ؟ . .

– أجل . . وأنا أجىء إلى السينما لأتحدث ، أو أنام ! . .

– أرجوك . . كفى ! . .

ووضعت يدها على فمه . .

وانتهت الرواية ، وخرجا من السينما إلى الطريق ومرا على بعض المطاعم ، فقال لها :

– ستتعشين معى . .

– أشكرك ، لم أعتد الأكل فى الطريق . .

– سنجلس فى الحديقة ، وهى خالية ، وسنستمع للموسيقى .
– لقد تأخرت ، وأنا أستيقظ مبكرة كما تعرف . .
– أرجو أن تبقى معى قليلا . . أرجوك . . وقد لا نتقابل مرة أخرى . .
ورأت الرجاء والتوسل فى عينيه ، فدخلت معه المطعم .

***

وأكلت قليلا ، وتحدثت كثيرا ، وشعرت لأول مرة فى حياتها بلذة الحديث على المائدة . . وكانت الموسيقى هادئة شجية ، وحلقت بها الأنغام فى السماوات . . وكان يقبل عليها بوجهه وحسه ، ويستمع إليها أكثر مما يستمع إلى الموسيقى ، كان حديثها فى أذنه أعذب وأطرب ، وزادها ذلك سروراً ، ونسيت نفسها ، وأغفلت الزمن .

ولما نهضا عن المائدة ، كان الليل قد انتصف . . ورافقها إلى بيتها ، وودعها عند الباب الخارجى ، وضغط على يدها . .

وصعدت إحسان هانم إلى الطابق الثانى من البيت ، ودخلت غرفتها ، ولم تخلع ملابسها كعادتها . . بل وقفت طويلا أمام المرآة تتأمل محاسنها ، وتفكر ، وتحلم . .

وارتمت على الفراش وهى تبكى . . ولم تكن تدرى لذلك سببا . .

***

وفى مساء اليوم التالى تقابلا ، وذهبا إلى السينما ، وإلى نفس المطعم ! . . وفى يوم راحتها انطلقا إلى القناطر ، ومضيا النهار معا ، ولما رجعا قضيا جانبا كبيراً من الليل يستمعان إلى الموسيقى . . وعاشا معا ، وشعرا بنشوة الحب ، ولذة اللقاء بعد الفراق .

***

وقال لها ذات ليلة :

- يجب أن نضع حدا لهذا . .

فجفلت ، ولم تفهم ما يقصده ، ونظرت إليه مرتاعة . .

فنظر اليها طويلا ، وقال وهو يضحك :

- لماذا ترتاعين هكذا ؟ . . يجب أن تسرى . .

- أسر من ماذا ؟ . .

- لماذا لا نتزوج ؟ . .

فضحكت حتى اهتز بها كرسيها .

فسألها فى غيظ :

- لماذا تضحكين ! . .

فاقتربت منه ، ومسحت بيدها على شعره ، وقالت فى صوت رقيق :

- إنك طفل يا عزيزى ! . .

- ولا أصلح للزواج ؟ . .

- أجل . .

وابتسمت ، وازداد حنقا . . ورأت لونه يتغير ، فخافت أن يتطور حاله ، فأمسكت بيده وقالت :

- يا صغيرى العزيز . . أنت شاب فى مقتبل أيامه . . وأمامك المستقبل البسام . . ولكننى انتهيت . . حتى وإن كنت فى ربيع العمر . . لا تبتئس من كلامى هذا . . أنا امرأة قد خرجت إلى الطريق . . وأنت ريفى ومن أسرة لها تقاليدها . وصورة والدك لا تزال فى ذهنى . . فهل تحسبه يرضى بهذا الزواج ؟ . . وهل سترضى به أنت ، عندما تفيق إلى نفسك ؟ أنت الآن فى نشوة الحب ، وستصحو يوما ما ، وستندم . . وستشقى بهذا الزواج . . أنا امرأة خرجت من البيت إلى المجتمع . . وفى كل يوم أقابل أطباء . . ومرضى

وزوارا من كل جنس ولون . . ومهما تكن طهارتى ، ومهما تكن ثقافتك ، فإنك ستتعذب وتشقى ، من شىء . . ومن لا شىء .

سنخرج معا إلى الطريق ، وسأقابل أناسا عرفتهم بحكم عملى . . فماذا أقول لك ، وماذا تقول لى ؟ . .

لا تفكر فى هذا . . ودعنا نعيش كما نحن ، وستعرف يوما ما أن هناك صداقة يمكن أن توجد بين المرأة والرجل . .

فلثم يدها وهو يغمغم :

- أنت ملاك . .

- وأنا أحبك أكثر من نفسى . .

وانحنى ليقبل يدها . . فأعطته شفتيها . .

فــي القطــار

مــررت ببخارست وأنـا فى طريقى إلى سينـايا أجمـل المدائن الـرومانيـة . . عـلى الاطلاق ، وعدت إليها وأنا عائد من جورجو على الدانوب ، . . فبت ليلة واحدة ، فى فندق متواضع يقرب من محطة الشمال ، وقمت مبكراً لأطوف بالمدينة قبل رحيلى عنها . . فمن العسير على المرء أن يمر بباريس الصغرى ، ولا يشاهدها مرة ومرات ، رغم جوها الحار فى الصيف .

ولما أقبل المساء ، كنت فى طريقى إلى المحطة ، لآخذ القطار إلى كونستنزا . . وكنت قد حجزت لى مقعدا ، ولهذا بلغت المحطة قبل قيام القطار بدقائق قليلة ، وكانت معى حقيبة واحدة أما باقى حقائبى فقد خلفتها عند صديق لى فى كارمن سيلفيا . ولما أخذت مكـانى فى القطار ، راعنى أن صـاحب المكان المقـابل لى يمـلأ الديـوان بحقيبة ضخمـة مكتظة . . فتصورته تاجرا من تجار الفراء ، أو مهراجا فى طريقه إلى الهند .

وعندما دق جرس القطار مؤذنا بالرحيل . . كان خادم العـربة يفتـح الديـوان ، وينحنى مفسحا الطريق لسيدة فى لباس أسود ، وقبعة طويلة تكاد تحجب عنى بريق عينيها النجلاوين . . وملت إلى الوراء وشغلت نفسى بالنظر من النافذة إلى المحطة الجميلة ، وهى غاصة بالمسافرين إلى مختلف الجهات . . وإلى حركة القطارات فيها . . وعندما تحولت عن النافذة ، كانت السيدة التى ترافقنى فى السفر ، مضطجعة فى ركن من الديوان ، وقد فتحت كتابا . . ورفعت بصرى إليها ، ورأيت وجهها الدقيق وملامحها الساكنة ، والسواد الشديد الذى يبدو من عينيها ، وأدركت أنها رومانية أو بلغارية أو تركية ، فهذا الوجه بملامحه وسماته الشرقية ، لا تراه إلا فى هاتيك البلاد . .

وتحرك القطار ، وخلف وراءه تلك المدينة الساحرة تتلألأ بالنور ، وتتدفق بالحياة . . وخفق قلبى . . فأنا أحمل لهذه المدينة فى أعماق نفسى أطيب الذكر . . وعلى الرغم من أننى مررت عليها أكثر من مرة ، ومكثت فيها أكثر من عام ، فما من مرة زرتها إلا وجدت فيها سحرا جديداً ، ولونا جديداً من ألوان الحياة ، فيه كل ما يسر النفس ويثلج الفؤاد . .

وبعد زرتها فى أول مرة ، وأنا فى حالة موئسة من التعاسة وخيبة الأمل ، فما رأيتها ورأيت ما فيها من جمال . . حتى غمرنى السرور ، وتفتحت نفسى لمباهج الحياة من جديد . . ولهذا شعرت ، عندما تحرك القطار ، بالأسى الذى يغمر النفس ، ويكرب الصدر ، ويبعث الحزن فى الفؤاد . . هل أعود إلى هذه البلاد ، وهذه المدينة ؟ . . هذا ما أرجوه من الله ، وأتمناه لنفسى . .

ملت عن النافذة ، وأغلقت عينى . . هل غفوت ؟ . . . لا أدرى . . . والنوم لا يليق فى هذه الساعة ، وفى رفقة سيدة جميلة . . أرسلت بصرى إلى السماء الزرقاء . . والقطار ينطلق كالسهم فى وادى الدانوب ، وقد سكنت حركة المسافرين ، وانقطعت أصواتهم . . ونظرت إلى هذه السيدة من جديد ، وبدا لى أنها نظرت إلى ، وملأت عينيها منى ، وأنا فى سباتى . . وكونت لنفسها فكرة عنى . . فكرة ما . . فما أسد نظر المرأة . وعندما جاء مفتش التذاكر ، وحدثنى بالرومانية وجاوبته بالفرنسية التى لا يعرفها ، ابتسمت السيدة ابتسامة خفيفة ، ولكنها لم تحاول إنقاذى أو إنقاذه ! فتركتنا فى ارتباكنا . . وانسحب الرجل ، وقد رأى أن ذلك خير ما يعمله ! . . ولا زلت إلى هذه الساعة أجهل ما كان يريده .

وأشعلت المصباح الكهربائى الذى بجوارى ، وفتحت كتابا معى وكنت أرفع نظرى عن الكتاب إلى رفيقى فى السفر ، بين حين وحين . . وكان النور الهادى قد زاد وجهها تألقا وفتنة . وجعلنى أنجذب بكليتى نحوها . . يالله . . إن حياتى كلها أسفار . . ولكم رأيت من وجوه . . نساء من كل جنس ولون . ولكن لم أشاهد وجها كهذا الوجه ، فى سكون ملامحه ، وروعة حسنه . . هل أبدأ بالحديث ؟ . . لا . . إن تجاربى علمتنى غير ذلك فالرجل الذى يفاجىء المرأة بالحديث ، دون مناسبة ، يسقط فى نظرها ، ويجعلها تدل عليه وتزهو . . ومع كل ، فما كنت رجل أحلام . . فما الذى أوده من مسافرة فى طريقها إلى زوجها أو بيتها أو مصيفها . . خمس ساعات فى القطار ، ثم يمضى كل لوجهه . . وما أكثر الوجوه التى نلتقى بها عرضا ، ثم نفترق إلى الأبد . . هل يمكن أن أكون أهدأ أعصابا وأنعم بالا ، لو كنت مسافرا فى الديوان وحدى ؟ . . ربما . . فأنا وحيد على الباخرة . . ووحيد فى القطار . . ووحيد فى الفندق . . بيد أن ذكريات قلبى جميعا تنشأ من هذه الوحدة . . وهل يمكن أن يظل رجل وامرأة فى سفر طويل كهذا دون أن يتحدثا ؟ . . تراجعت إلى الوراء ، وطويت الكتاب . . وكانت سحب الصيف الخفيفة قد انتشرت فى رقعة السماء ، وبدا القمر من خلالها يتسحب ، ووادى الدانوب مخضر بالزرع يانع بالنبت ، يزهو ويميد !

كانت الطبيعة سافرة فى أروع صورها . وكان القطار يطوى المدائن الصغيرة ، والقرى المزهرة على ضفاف النهر ، بمنازلها البيضاء الصغيرة ، وسقوفها المحدودبة ، وكنت

ارى على ضوء القمر، عند سفوح بعض السفوح البعيدة ، قطعانا من البقر وحولها الفرسان بملابسهم الوطنية . . ثم يمضي القطار ويطوي هذه المناظر طيا ! انثنيت عن النافذة وأنا أتنهد . . أسفت على هذه المناظر الجميلة التي أطويها من صفحة حياتى ، وقد لا أراها مرة أخرى ، وقد تنمحى صورتها من ذهنى . . من يدرى ؟ .

كانت رفيقتى فى السفر ، قد استراحت فى ركن من العربة ، واغلقت عينيها . . رأيت هذه الأهداب الوطف ، تسبل على هاتين العينين الساجيتين . . وهذا الأنف الدقيق ، يتنفس فى هدوء . . وهذا الشعر الغزير الفحم ينسدل على الجبين . . . وهذا الجسم الممشوق يسترخى ، ويستقبل نسمات المساء اللينةفى كسل ظاهر . . كانت قد تركت جسمها يتمدد على حريته ، وحد طاقته . . دون أن تقيد نفسها بوجودى . . وكان القمر كلما تخلص من السحاب ، أراق ضوءه الفضى على وجهها ، فضرج وجناته ، وعلى شعرها فذهب حواشيه !

وخفت سرعة القطار . . وأخذت السيدة تتحرك . . حركت ساقيها ، ومالت بجسمها إلى الخلف ، ووقف القطار على إحدى المحطات فسألتنى :

- أهذه ت ؟ . .

- آسف يا سيدتى . . لا أعرف . . أنا غريب عن هذه البلاد . .

وكأنها أدركت حالها فزمت شفتيها . . ربما كانت تحلم ، وفتحت عينيها ، وهى تحسبنى زوجها أو رفيقها . فلما أدركت أنها فى القطار وفى رفقة رجل غريب ، عادت إلى صمتها .

وكان القطار قد تحرك ، وعاد السهوم إلى وجهها ، فقلت وقد أردت أن أزيل عن ذهنها ما كانت تفكر فيه :

- كل المحطات صغيرة ومتشابهة .

فمدت رأسها إلى الأمام قليلا ، وقالت :

- أجل . . ولكنها جميلة . .

ثم سألت وهى تشير إلى النافذة :

- هل عشت فى بعض هذه القرى الصغيرة على الدانوب ؟ . إنها آية من آيات الجمال . . لقد مضيت هناك شهراً كاملا . .

- لم أحظ بهذا النعيم بعد . . ولكننى أفكر فى ذلك .

- هل ستعود إلى هذه البلاد مرة أخرى ؟ . .

- بالطبع . . كلما استطعت إلى ذلك سبيلا . .

-و هل أنت في طريقك إلى الأستانة ؟ . .
إلى أبعد من ذلك . .
- إلى أين ؟ . .
- إلى القاهرة . .
- فكرت فى هذا . .
- كيف ؟ . .
- من هنـاك يجيء أمثالـك من الـرجـال . . صمت . . وحـزن . . وهـدوء الصحراء . .
- هذا حق . .
- هل أنت ذاهبة إلى كونستنزا ؟ . .
- أجل . . لبضعة أيام . . اعتدت ذلك فى الصيف من كل عام . .
- وقادمة من بودابست ؟ . .
- أجل . . من بودابست .
وأضافت :
- كنت أشاهد معرضا للصور . .
ونظرت إليها نظرة طويلة ! .
فسألتنى :
- لماذا تنظر إلى هكذا ؟ . .
- آسف يا سيدتى . . لا أستطيع أن أجيب ، فقد يكون فى جوابى بعض القحة . .
فأخذت تضحك ولانت ملامح وجهها جدا ، ورأيت على وجهها شعور الايناس ، وفى عينيها السرور المحض :
- هل شاهدت الشرق ؟ . .
- أبدا . . أود ذلك . .
- هل قرأت كثيرا عن الشرق ؟
- أجل . . قرأت كثيرا . . قرأت تاريخ العرب . .
- كان العرب عظماء فى حياتهم ومماتهم .
وقد حرمنا فى كثير من الأوقات حتى من لذة الذكرى . وفى هذا بعض الشجن .
- هذا صحيح . .
- هل يضايقك تيار الهواء ؟ . .
- أبدا . . دعنى أملأ رئتى من نسيم الليل . .
- إن السفر عندى هو خير متع المسافر . .
- هل سافرت كثيراً ؟ . .

- رأيت نصف العالم تقريبا

- وتود أن ترى نصفه الآخر ؟.

- لا . . لا . . لقد اكتفيت بما رأيت . . نفس الوجوه . . نفس المشاعر . . ونفس الحماقات . . في كل مكان ، واعذريني إذا قلت ، ونفس النساء أيضا . .

- تكلم كما تحب ! . .

- هل قرأت شيئا جديداً في التاريخ ؟ . . أبدا . . كل شيء يتكرر ، فقط تتضخم الصور . . آسف لقد أثقلت عليك . . هل تشعرين بجوع ! هل تسمحين بأن تتناولي معي قليلاً من الجعة ؟ . .

- أشكرك . . لا أشعر بجوع ! . .

- ولكنك عطشى . ولن أتركك وحدك . . لابد من مرافقتي ! فضحكت ، ونهضت معي إلى عربة الطعام . . وكانت خالية إلا من بعض المسافرين ، تناثروا في أركانها . لن تشاهد في هذه العربات . . أناسا بلباس السهرة ، كما تشاهد في بعض البلاد الأخرى . . ليس من بين هؤلاء الناس من يضيع عمره في حياة متكلفة بغيضة . . كلها مظاهر كاذبة ! وعلى الرغم من أنني كنت قد تعشيت في بخارست ، فإني أكلت . . وأكلت كثيراً . . وأكلت السيدة أيضا ، وشربت من الجعة . . أكثر مما شربت ! وتضرجت وجنتاها ، وازداد احمرار شفتيها .

ولما عدنا إلى مكاننا من الديوان كنا أصدقاء . .

وبلغ القطار كونستنزا مع الصبح ، وكنت أود أن أنزل فيها ولكن السيدة أشارت على بالنزول إلى فندق هادىء في ايفوريا فقبلت مشورتها . . وبقينا في العربة التي ستلحق بقطار آخر يسافر إلى أيفوريا بعد دقائق قليلة . . وبلغنا أيفوريا والشمس ترسل أول أشعتها الصفراء على تلك المدينة الصغيرة المتألقة على ساحل البحر . . ونزلنا في الفندق ، وكانت غرفتي مجاورة لغرفتها . .

ونمت واستيقظت قبل الظهر . . ووجدتها جالسة في شرفة الفندق الكبيرة . . وابتدرتها بسؤالي :

- أنمت ؟ . .

- بعض الوقت . . فأنا لا أحب النوم في النهار مطلقا . .

ونهضنا لنتغدى على مائدة صغيرة تطل على البحر . . وليس في فنادق الدنيا جمعاء ، فندق يماثل هذا الفندق في جماله وروعته . . فهو يقوم على هضبة عالية ، ويطل من جهاته

الثلاث على البحر ، وتشرف جهته الرابعة على بروج أيفوريا الخضراء ، وحدائقها الناضرة فلا تطل منه فى أى ساعة من ساعات النهار إلا على أبدع منظر . . فإذا ماأسدل الليل أستاره ، خلته سفينة ضخمة عائمة فى المحيط ، وقد أحاط بها الجمال من كل جانب .

وفى الأصيل نزلنا من الفندق إلى سيف البحر . . وكانت الشمس ترقص على صفحة الماء . . بدت الطبيعة فى أحسن حللها ، وأبدع مناظرها .

ـ هل تستحمين ؟ . .

فرفعت إلى وجها لونه الخفر ، وقالت :

ـ كنت أحب ذلك فى طفولتى . . أما الآن فأنا أرهب البحر . . احب أن أشاهد من بعيد . .

ـ ولكنك ستستحمين يوما ما . .

ـ ربما . . ولكن ليس اليوم . .

وانحدرت الشمس ، وغاب قرصها فى الماء . وبدت الزوارق الشراعية الصغيرة تتجه نحو الشاطىء . . وأخذ المستحمون يخرجون من البحر . . وغصت طرق أيفوريا بهم . . واتخذوا طريقهم إلى الفيلات الصغيرة المتناثرة فى رقعة الهضبة .

ولما هبط الظلام ، صعدت مع السيدة إلى الفندق . .

***

كان الليل فى هزيعه الأول ، والريح رخاء والهواء منعشا . وكان الظلام سادلا أستاره ، والقمر لم يطلع بعد . وكان البحر على مدى أذرع قليلة منا ، هادىء الصفحة ، مصقول الأديم .

وجلست بجوارها على كرسى طويل ، فى الشرفة الكبيرة التى تدور بالجوانب الثلاثة المشرفة على البحر . . وكان هناك بعض النزلاء جالسين عن قرب منا . . ولكنا لم نكن نسمع لهم حسا . . كان كل شىء يبعث على السكون والتأمل ، ويفتح آفاق النفس . . ونظرت إليها فإذا نظرها عالق بالبحر . . وقد علاها بعض السهوم . . لعلها كانت تسترجع الساعات التى دفعت بها إلى هذا المكان دفعا . . لقد مضى كل شىء سريعاً ، ولم يستطع واحد منا أن يفترق عن الآخر . . لقد كانت جالسة لأول مرة ، فى أول فندق نزلنا فيه بعد رحلة القطار ، وكأنها تجالس إنسانا عرفته من فجر حياتها . . لقد أصبحنا بين عشية وضحاها عاشقين متيمين .

وتعشينا عشاء خفيفاً . . وشربت كثيراً وتمشينا قليلا فى الشرفة . . ثم سرت معها إلى باب غرفتها . . وشددت على يدها فى حرارة .

واضطجعت على السرير ،ونظري مسدد إلى الباب الذى يفصل غرفتى عن غرفتها كان هذا الباب موصداً .. وكانت غرفتها لاتزال مضيئة ، فهى لم تنم بعد . . ولعلها تطالع قبل نومها . . تناولت مجلة مصورة ، وأخذت أقلب البصر فيها . . ولكن نظرى كان يعود بين الفينة والفينة ، ويستقر على الباب . . وطويت الصحيفة ، ووضعت يدى على رأسى . . ونظرت إلى الساعة فى يدى . . لقد أزفت الساعة الأولى بعد منتصف الليل . . فهل يمكن أن تظل ساهرة هكذا إلى الصباح ؟! ما الذى تفكر فيه الآن ؟ هل كانت حماقة أن أطلب لكل واحد منا غرفة مستقلة ؟! ونزلت من فوق السرير ، وأخذت أتمشى فى أرض الغرفة ، وأنا حافى القدمين ! وكنت أمر على الباب أكاد ألتصق به . . ووضعت أذنى عليه وتسمعت . . لم أسمع حسا ولا حركة ، إنها مستغرقة فى النوم . . ودارت يدى حول الباب فى الظلام . . وكنت قد أطفأت النور . . فوجدت مزلاجا من ناحيتى فأزحته . . وعالجت الأكره فانفرج الباب قليلا . . فأعدت إغلاقه بهدوء . . وتراجعت إلى الوراء ، وقلبى يزداد خفقانه ، وتشتد ضرباته . . واتجهت إلى السرير . . هل أنام ؟ . . وهلا تعد حماقة منى أن أدع هذا الجمال يفلت من يدى . . وربما إلى الأبد ! . . ومشيت إلى النافذة ، والليل قد نشر غياهبه ، والبحر من تحتى يرغى ويزبد . . وعوت الرياح . . وتحركت الستر على النوافذ . . وتطلعت إلى السماء . . إلى أسرار الليل . . وأسرار النجوم البراقة ، فى الليل الموحش ، وأخذت أتأمل وأفكر . . هل أظل هكذا مضعضع الحواس ، مضطرب القلب ، قلق النفس ، حائر الفؤاد ؟ . . وهى على أذرع قليلة منى ، وفى ملك يدى ! . . وما من قوة ستجعلها ترفض . . وما من شىء سيجعلها تقول لا . . لماذا لا تفكر هى ، فيما أفكر فيه الآن . . ما أشقى الإنسان ، وما أشد عذابه ! .

تطلعت إلى السماء . . ونظرت إلى الماء . . وكان الظلام ناشراً أستاره . . وكانت هناك سفن تعبر البحر الأسود . . وأنوارها تتراقص على الماء . . وكان الخليج الذى يقوم عليه الفندق قد اشتد موجه وصفق . . وعادت الطبيعة تزمجر كأننا فى الشتاء . . ولذ لى المنظر وأخذ بلبى ومجامع قلبى . . فأنا أحب السكون فى كل شىء إلا فى الطبيعة ، التى لا تبدو على فتنتها إلا وهى صاخبة ثائرة .

ولقد انثنيت عن النافذة ، وأنا أفكر فى هذه الفتاة . . وعدت إلى السرير ، وأنا لا أزال محيرا ملتاعا . . وبعد طول عذاب وتفكير ، رددت نفسى عن غيها ، وأخذنى اليأس .

نهضت من فراشى قبل أن تطلع الشمس . . وجاءت لى الوصيفة بالقهوة ، وحييتها تحية الصباح ، وسألتها :

ـ هل صحت ألماظ هانم ؟ . .

ـ صحت ! . . وهل نامت حتى تصحو ؟ . . إنها ساهرة طول الليل ترسم .

ـ ترسم ؟!

ـ أجل . . تعال إلى هنا وانظر . .

وتقدمت نحو النافذة المطلة على البحر . . ورأيت ألماظ هانم ، جالسة ومكبة على لوحة كبيرة ، وكان ظهرها إلينا ووجهها إلى الخليج . . وكانت ترسم فى استغراق وسكون . . وترفع بصرها ، ثم ترتد به إلى اللوحة ، وفرشاتها تتحرك بين أناملها الرقيقة . . ما أجملها فى جلستها هذه . . وماأروع ما يحيط بها من مناظر . . لقد أدركت الآن لماذا كانت ساهرة طول الليل ، ولماذا تسافر ومعها هذه الحقيبة الضخمة . . إنها ترسم فى كل مكان تنزل فيه ، وحقيبتها ملأى بمثل هذه اللوحات . . قد تكون فقيرة ووحيدة تعيش من هذا العمل ، ولكنها غنية بفنها . .

نقرت على زجاج النافذة فسمعتنى ، وتلفتت فرأتنى . . فاحمر وجهها قليلا وقالت :

صحوت ؟ . .

ـ منذ مدة . . ولى ساعة وأنا أنظر إليك من هذا المكان . .

ولم أحس بك ! . .

ـ أجل . .

ـ تلك مصيبة الفن على الحواس . . تعال وانظر . . إنى أرسمك ! . .

وذهبت إليها ، وجلست بجوارها . . وكانت ترسم طلوع الفجر على الخليج ، ومن ورائه الربى والمروج . . وكان المنظر فى بدايته ، ولكنه كان يشعر الناظر ببراعة اليد التى رسمته . .

فقلت لها ، وأنا أنظر إلى أناملها الدقيقة :

ـ أهنئك . . إن هذا رائع . .

ـ أشكرك . . الروعة فى هذا الجمال الذى تراه حولك . .

ـ لابد أنك رسمت كثيراً من مناظر البسفور ، ما دمت شغوفة بجمال الطبيعة إلى هذا الحد . .

ـ البسفور . . هذا سحر آخر . . ولقد عشت بين رياضه . . وأنا أرسم مناظره فى كل مكان ، لأنها منقوشة فى ذاكرتى . . وقد بعت لوحتين فى بودابست أثناء رحلتى هذه . وسأريك بعض ما بقى فى الحقيبة . .

ـ إن من لا يرى البسفور لا يرى الجنة . .

ـ هذا أحسن إطراء سمعته . .

ـ أنا أقول الحقيقة . . بل وأقل من الحقيقة ، وما رأيت منظرا يأخذ بلب المسافر كالبسفور . . وأتمنى على الله أن ينتهى بى المطاف إلى هناك . . وهناك أقيم إلى نهاية حياتى ،

وهناك أرقد . . وليكن آخر منظر أراه هو قباب أيا صوفيا ، وهى تدور مع الشمس . .

ـ ها هى الشمس قد طلعت . . فاذهب إلى الشاطىء قبل أن يزدحم بالمصيفين . . وعندما تعود ، سأكون قد ارتديت ملابس الخروج ، وسنذهب إلى كونستنزا . .
ـ ألا تنزلين معى إلى البحر ؟ . .
- ليس الآن . . أنا متعبة جدا . . وسأستحم معك فى الأصيل . .
وقبلت يدها ونزلت إلى الشاطىء . .

وذهبنا إلى كونستنزاً ، ورجعنا إلى الفندق بعد الظهر فتغذينا . . وتركتها لتستريح ، فقد كان النوم يداعب أجفانها . . وأيقظتها قبل الغروب بقليل . . وكانت لا تزال تشعر بتعب ، ولم تأخذ قسطها من النوم . . ونزلنا إلى البحر ، وطلعنا منه بعد أن هبط الغسق . .

ولاحظت على العشاء أن وجهها شاحب قليلا . . فأمسكت بيدها ، فإذا بها شديدة البرودة . . وجلسنا بعد العشاء نستمع للموسيقى ، وكانت هناك فرقة رباعية من فينا . . وكانت تستمع فى سكون ، ووجهها لا يزال شاحبا ، ومن عينيها يبدو التعب الشديد ، فقلت لها :
- يجب أن تستريحى ياألماظ . .
فحولت وجهها إلى ، وقالت فى هدوء :
- أجل يامراد . . فأنا أشعر ببرودة شديدة . .

اعتمدت على ساعدى ، ومشينا إلى غرفتها . . وفى منتصف الطريق لم تقو على السير . . وسقطت بين ذراعى ، وحملتها إلى سريرها . . وجاءت الزا ورفيقتها لندا ، الوصيفتان فى هذا الجناح من الفندق . . وتركتها معها ليغيرا ملابسها . . وعدت إليها بعد قليل . . وطلبت من الزا أن تتصل بأى طبيب فى المدينة . . فسمعتنى ألماظ وأشارت إلى بيدها ، فاقتربت منها ، ووضعت وجهى على الفراش . . وهمست فى صوت متقطع :
- إننى بخير . . وقد مرت النوبة . . بسلام .

وبقيت بجوارها ، وأنا شاعر بتعاسة مرة . . فأنا الذى حببت إليها الاستحمام فى تلك الساعة ، وهى منهوكة القوى ، بعد سهر الليل بطوله فأثر ذلك على قلبها . .

وظلت ساهرة . . وبعد منتصف الليل نامت . . وأخذت أنظر إلى وجهها وهى تتنفس فى هدوء . . وإلى جسمها وقد لف فى الأغطية . .

فى الليلة الماضية . . تحت تأثير الخمر وتعب الأعصاب من السفر الطويل . . وتحت تأثير كل ما طاف فى رأسى من فكر . . ودار من هواجس . . اشتهيت هذا الجسم . .

وتمنيت أن يكون لى ساعة من الزمان . . وهو الآن فى متناول يدى . . وأراه بجميع تقاطيعه وكل محاسنه . . وأضع يدى على صدرها وألمس ذراعها العارية ، وأنا أضم إليها الأغطية ، وأعطيها بعض المقويات . . ومع كل ذلك فشعورى الليلة غير شعورى بالأمس . . فقد سكنت ثورة العاصفة التى كانت تشتعل فى جسمى فى الليلة الماضيـة . . ولازمنى الليلة إحساس جديد ، فيه روحانية جارفة . . ألأنها مريضة ؟ . . ألأنى أدركت سمو نفسها ؟ . . ألأن صلتى بها قد توثقت واشتدت عن ذى قبل ؟ لم أكن أدرى . .

فتحت عينيها فى الثلث الأخير من الليل ، فرأت أنى مازلت ساهراً . .
فقالت وهى ترتفع بجسمها قليلا :
- ألا تزال ساهراً ؟ . . يكفيك إلى هذه الساعة ، واسترح الآن . .
- لن أدعك وحدك . .
- لن تتركنى وحدى ؟! . .
- أبدا . .
- أبدا ؟ . .

وأخذت أمسح بيدى على جبينها ، وألمس شعرها ، فنظرت إلى نظرة متكسرة فيها كل إحساسات قلبها ، وقالت ، وهى تحرك أناملها :

- أعطنى هذا المشط . . وافتح الدرج الذى تحته ، وستجد صورة مغلفة فهاتها .

وفتحت الدرج ، وتناولت المشط . . ورجلت شعرها وفضت غلاف الصورة وهى تبتسم . . كـانت صورتى وأنـا فى القطار . . نـظرت إلى الصورة ، وأغمضت عينى . . شعرت بسعادة لاحد لها ، وخيل إلى أننى أسبح فى طبقات الأثير .

وسمعتها تقول :
استطعت أن أرسم عينيك ، وهما تلتهمان الكتاب ، وتغفلان عنى ! . .
وضحكت ، وتناولت يدها . . فغمغمت :
- لن أدعـك تتعذب ليلة أخـرى . . لقد أحسست بـك أمس . . وأنت تدور فى غرفتك ! . .

وشعرت بالخجل ، فنظرت إلى فى رقة وأضافت :

- سنذهب فى الصباح إلى كارمن سلفيا . . وسنعيش هنـاك إلى نهاية الصيف . . وسأطلق الرسم مادمت معك . . وسنرجع إلى استانبول . . وسترى البسفور مرة أخرى وأنت معى . .
وسنعيش فى هذا الفردوس إلى نهاية حياتنا . .

رجـــل

Agricolae Vinum Vetus Habe

- من الذى يدرس لك اللاتينى ؟ .

- مستر هنتر .

- واليونانى ؟ .

- رايت .

- إجبارى ؟ .

- لا . . أختيارى .

- قلت لك ألف مرة إن من الخير لك دراسة الحقوق ، ما الذى ستستفيده وتفيده من الآداب وكلية الآداب فى هذا البلد ؟ .

واستاءت حكمت من زوجها أشد الاستياء ، وقد كان دائما يلوم أخاه على التحاقه بالآداب ويؤنبه فى كل حين ، وكانت تعرف أن حسنى شديد الحساسية يتأثر من أتفه الأشياء ، فرمت زوجها بنظرة حادة فصمت ، ورأت أن تغير مجرى الحديث بلباقة فقالت :

- أستاذ ! أجئت بالتذكرة ؟ .

تعنى تذكرة حفلة المعهد الموسيقى الخاصة بالسيدات .

فرفع حسنى وجهه عن كتابه ، وكان قد أطرق بعد تعنيف أخيه وتقبضت سحنته ، وقال وهو يحاول بجهد أن يرسم بسمة ولو خفيفة على شفتيه :

- سأجىء بها الليلة .

فقال أخوه :

– وهل تظن أنك تستطيع الجمع بين الجامعة والموسيقى ؟ .

– ولم لا ؟ . .

– عندى أنك لا تستطيع . . فالدراسة هنا تختلف عن الدراسة الثانوية التى تعرفها . . فالأحسن أن تضع الموسيقى جانبا ، وتعنى بدروسك الجامعية ويكفى ماأضعته من سنين فيما لا يجدى .

فتميزت حكمت حنقا ، ما الذى جرى لزوجها اليوم حتى يتحامل على أخيه هكذا ؟ فهو وإن كان أخاه الأكبر ويقوم منه مقام الأب ، ولكن حسنى أشرف على العشرين ، وأصبح له رأيه الخاص فى شئون حياته ودراسته ، والدراسة ميول ورغبات قبل أن تكون فائدة واستفادة وخيرا يرجى ونفعا ماديا يتطلب ، ورمقت حسنى بعطف ، وقد وجم وتقبض وأخذ يفور داخل نفسه ويغلى ، ولما انصرف زوجها إلى مخدعه ليستريح بعد الغذاء ، بقيت معه تحادثه وتلاطفه ، فما تحب أن تدعه وحيداً ساعة شجنه .

وبدأت تسأله فى رقة :

– ما الذى ستعزفه غدا ؟ .

– بشرف عثمان بك . . وسماعى نهاوند . . وقطع وصفية .

– وحدك ؟ .

وقد مدت عنقها نحوه باسمة وما كانت تتصوره إلا رجل الفن .

– لا . . طبعا مع الفرقة .

وأخذت تجاذبه أطراف الحديث حتى سرى عنه ، ولما حانت ساعة التمرين فى المعهد ، بارح المنزل .

***

– دودييز . . مى صول . . مى صول . .

– . . . . .

– دودييز .

بعنف وغضب .

فوضعت حكمت يدها على حافة البيان وكفت عن العزف ونظرت إلى حسنى باسمة وقالت بهدوء :

- أكان أستاذك يعلمك بمثل هذه القسوة ؟ .

- وأشد من ذلك .

وقد ابتسم رغم أنفه وأردف :

- أعيدى القطعة مرة أخرى .

على أنها كررت نفس الغلطة ، فكبح جماح نفسه ، ونهض عن كرسيه ووقف بجانبها ، وطلب منها قراءة النوتة .

فصمتت . . ثم قرأت فى صوت خافت متقطع . . وغلطت مرتين ! . .

والآن اعزفى . .

فابتدأت أناملها اللينة تتحرك على البيان ، ولكن بحركة عصبية بادية ، فلقد كان دائما يثير أعصابها وما تدرى لذلك سببا ، وكان قد قرب منها حتى وقف عند رأسها وكاد يلاصقها وعينه إلى النوتة ، فإذا أخطأت أرجعها ، فكانت ترجع وهى مغيظة حانقة ! . . ومدت يدها إلى شعرها الذى سقط على جبينها فدفعته إلى الوراء ، فتحول عن النوتة على حركة يدها واستقر وجهه على رأسها ، وكانت ترتدى رداء ورديا لف جسمها وأبرز تقاطيعه وبان منه جيدها ونحرها ، فعلق بصره بعنقها ثم خفضه إلى ظهرها ، وكانت العروة واسعة فظهرت بشرتها الناصعة مشربة بحمرة الدم الجارى فى عروقها ، فأحس باضطراب دمه فجأة ، وبقى وجهه مستقرا على جسمها بشراهة ، وقد تبين تكوينه وتناسقه ومبلغ فتنته ، وما نظر قبل اليوم إلى هذا الجسم أبدا ، إنه كان يمضى معها الوقت محدثا ضاحكا ، على أنه ما كان يعير باله لجسمها مطلقا ، ولكنه الآن أحس بإحساس آخر ، وشعر بشعور جديد ، وأشرف على دنيا أخرى ، فوقف فى مكانه شاردا وقد بدأت ضربات قلبه تشتد وأنفاسه تتلاحق وعيناه تدور ، وكانت قد أحست ، بغريزتها ، حاله ، فأخذت يداها تتحركان على البيان فى حركة آلية رتيبة ، وقد ارتعش جسمها كله . على أن حركة يديها على البيان ورجليها على مزودات الصوت خففا من وطأة الأمر على نفسها ، بيد أنها أحست بعد أن صافحت وجهها أنفاسه ، وهو مائل بوجهه على النوتة ، أن ضربات قلبها ستمزق صدرها لو استمرت على ذلك دقيقة أخرى ، وكان قد جمد فى ذلك الوقت واستحال تمثالا ، فاختفت النوتة عن بصره ، وتراقصت الصور على الحائط وغام كل شىء أمام عينيه . . وأخذت يداها تفتر عن التوقيع تدريجيا . . وأن البيان أنة احتضار . . وكفت عن العزف .

- دو دييز . . دو دييز .

وضرب بجمع يده على البيان فجلجل .

وأعادها الصوت الحاد لصوابها .

وبارح الغرفة يهرول كالمخبول . . فدفنت وجهها فى البيـان وأخذت تبكى بكـاء مخنوقا .

خرجت حكمت أثناء فترة الاستراحة تبحث عن حسنى لتهنئه من كل قلبها ، فلقد عزف مع الفرقة قطعتين رائعتين تصورت فى خلالها أن كمانه وحده الذى يشدو ويغرد ، فوجدته واقفا فى الممر يتحدث مع بعض السيدات وعلى وجهه آيات البشر والمرح ، فوقفت ترقبه من بعيد وهو يتحدث فى هدوء واتزان على عادته ، حتى شعرت بضربات قلبها تشتد وساورها إحساس لم تسترح معه إلى وجوده مع هاته النسوة ، هل هو إحساس الغيرة ؟ وعجبت لنفسها أتغار على حسنى ؟ إنه كثيراً ما حدثها عن سيدات وأطرى فيهن ومدح ، ونعت بعضهن بالجمال والفتنة والسحر ، فما أحست بالغيرة ولا شعرت بالاستياء ، بل على العكس من ذلك كان الحديث يشوقها وكانت تحب دائما أن تسمع رأيه فى المرأة ! . . فما الذى اعتراها الآن ؟ تدافعت ضربات قلبها واشتد غيظها وهو منصرف عنها إلى النسوة ، لقد جاء بها إلى الحفلة ليدعها وحيدة وسط هذا الجمع الثرثار ، ليس عندها أعصاب تحتمل كل هذه الثرثرة . وكان لا يزال مقبلا على النسوة ومدبرا عنها ، فتحولت بوجهها قليلا فعل الذي استاء ، على أنها أخذت تسارقه الطرف ، وكان قد لمحها فاستأذن ولحق بها فسرها هذا جداً وصافحته بحرارة .

- لم يبق ما أشترك فيه . . الأوفق أن نتروح .

- كما تحب .

فانطلقا إلى البيت .

ونزلا من الترام عند الشارع الموصل للمنزل ، وكان فى طرف مصر الجديدة يلاصق الصحراء وينعزل عما يجاوره من أبنية ، والليلة مقمرة ، والجو ساج ، والسماء صافيـة ، والطبيعة ضاحكة ، فاستراحا لمنظر السماء وسكون الصحراء وهدوء الليل ، وأحست لأول مرة وهى تماشيه بإحساس لم يعترها مطلقا ، وهى التى ترافقه دائما إلى السينما وحفلات التمثيل وعند شراء حاجاتها ، لأنها تشعر معه بالحرية التى تشعر بها الأخت مع أخيها الأصغر - فقد كانا متقاربين فى السن - ولذا كانت تفضل مصاحبته على زوجها الذى يكتم أنفاسها فى الطريق !! فكلما رآها تتباطأ فى سيرها وهى تقطع الميادين أو تتمهل عند ركوب الترام ، رماها بنظرة قاسية تجفل لها وترتاع وينخلع قلبها وترجع للمنزل ساخطة ناقمة تقول فى سرها «يظن الناس جميعا عمالقة مثله يقطعون الشارع فى خطوة !» أما حسنى فرقيق لين كثير الصبر والأناة ، يصحبها إلى شيكوريل ، ويراها وهى تقلب نظرها فى القبعات وهى حيرى بين أيها أجمل .

- حسنى . . دي كويسة ؟.

- جدا . . لونه أزرق جميل يناسب بشرتك وشعرك .

فترمقه بعين ناعسه وتضعها على رأسها ، وخدها يرف بلون الأرجوان . . ثم تلقيها على الخوان وتقف لحظة مفكرة ، وتعود إلى غيرها من القبعات .

- ولكن هذا صنف أحسن ياحسنى ؟ .

- عندك حق . .

- ولكن ثوبى السنجابى يناسب هذه ؟ .

- خذيها إذا . .

فتتناولها وتقلبها بين يديها ثم تضعها . . ثم تبتاعها أخيراً .

وهو يرقبها باسما .

وعندما يبلغان المنزل وقبل أن تغير ملابسها :

- حسنى . . القبعة رديئة النوع . .

مع بعض الخجل .

فيعلم أنها كانت تفكر فى مصير القبعة المسكينة طول الطريق ! .

- صحيح ؟ . . سأغيرها لك .

- لا . . سأروح معك . . العصر .

- طيب . .

وهو يكاد يرقص من الضحك

لقد كان يطاوعها دائما فى كل شىء ، ومن هنا كانت تحب أن تصحبه فى كل ما يعن لها من شئون ، وهى تشعر أبدا أنها ترافق أخاها ، ولكنها أحست الآن وهما عائدان للمنزل ، بإحساس لم تستطع أن تتبين كنهه بالدقة ، فجفلت من نظراته إليها وارتاعت ، وشعرت لأول مرة بسلطانه عليها وسطوته ونفوذه وغلبته ، وهما وحيدان فى غمرة الليل وعلى حافة الصحراء الموحشة . أخذت تحس بأنه أقوى منها ، وكان من قبل ندها وقرينها . . أحست برجولته لأول مرة فى حياتها وكادت تلمسها . . لقد بدأت تشعر لأول مرة ، بعد ثلاث سنوات ، أنها تماشى رجلا . . ورجلا غريبا عنها ، فارتاعت وأسرعت فى مشيتها حتى بلغا المنزل صامتين .

شعرت حكمت بعد هذه الليلة أنها لا تستطيع أن تجلس منعزلة مع حسنى كما كانت تفعل ذلك من قبل بكل بساطة ، فإذا اضطرت للجلوس معه لتقرأ وتتحدث ودخل عليهما زوجها احمر وجهها خجلا واضطربت . . ما معنى هذا ؟ كانت ترى أنها ترتكب شيئا لا يليق ، كانت تشعر أنها ترتكب جرما لا يغتفر ، فكانت إذا أحست بحركة مفتاح زوجها فى الباب ، فقامت بدافع باطنى مبهم ومشت خلسة إلى المطبخ . . إنها لا تود أن يراها جالسة معه وقد بدأت تقرأ فى نظراته معانى التقريع والتأنيب والزجر - مع أن نظرات الرجل لم تتغير - أخذت تشعر بأنها بدأت تقوض عش الزوجية الهنى ، تقطع حبل الزوجية الممدود . .

كانت تستيقظ مبكرة وأول ما يلاقيها وجه حسنى وهو يروح ويجىء فى البهو وبيده كتاب ، فإذا بصر بها توقف عن القراءة وحياها باسما ، كان دائما يبش فى وجهها ويلاقيها ووجهه فائض بالبشر وعينه لامعة ، على أن هذا كله عطف الأخ على أخيه وحنان الأخ على أخيه ، بيد أنها أدركت الآن أن الابتسامة التى ترسم على شفته عندما يقع بصره عليها لها معنى آخر غير المعنى الأخوى والعطف الأخوى . . فبريق العينين عند اللقاء ورجفة الشفة عند الكلام ، وتهدج الصوت فى خلال الحديث ، واختلاج العضلات ساعة الدرس ، تعبر هذه كلها عن معنى آخر ، معنى تفهمه حكمت كل الفهم ولكنها تغالط . . تغالط مكرهة وتصرفه عن ذهنها .

لقد وضح فى نظرها مركز الغلام وتحدد موقفه بالدقة ، فهو دخيـل ، لا أكثر ولا أقل ، عليه أن يبعد عن العش الزوجى والمسكن الزوجى بسلام يجب عليه أن يتركها مع زوجها ، حياتها وسعادتها ومنى نفسها ، زوجها المحامى البارع الذى قضت معه خمسة أعوام من عمرها وهى أسعد زوجة ، عطف ورجولة وإشباع ، فما الذى توده بعد ذلك ؟ لا شىء ! هذا الفتى لا تستطيع أن تصمد أمام نظراته التى تنفذ إلى أعمق أعماقها ، وتستقر فى سويدائها ، وتهزها فى طياتها ، هذه النظرات التائهة الشاردة ، تبحث دائما عن شىء فى أعماق نفسها ، موجهة دائما إلى خباياها لتسبر أغوارهـا . إنه يعـرف ، ولا أحد غيـره يعرف ، دخيلة نفسها ، دائما يقرأ خواطرها ، يعرف سرها ، سر المرأة ! إنها متيقنة أن هذا الغلام الذى دخل فى دور الرجولة فجأة يعرف سرها ، يعرف ما يدور بخلدها وما يجيش بين ضلوعها وما يتحدث به قلبها ، بيد أنه يطوى نفسه بين جنبيه ويصمت ، ويقف على بابها يحرن ، لا . . لا . . لا بد وأن تباعد الشقة وتغير السبيل ، ولا بد وأن تجعله يحس أن الشقة طويلة شاقة والطريق عسير .

لقد انقلب الغلام الغر فى نظرها رجلا بين يوم وليلة . . ووقف الرجل على باب المرأة يتردد ، ولكنها ليست المرأة التى يقف على بابها . . لا . . لا . . نظراته التـائهة الشـاردة تبحث عن شىء فى أعماقها ، صوته المتهدج يحتاج لمجاوبة صوتها ليصفو ، شفته المختلجة

تبحث عن شفتها لتستقر، جسمه الملتهب يتعطش.. لا ، اهتز عودها اللين لهذه الخواطر وأرجف .

لابد أن تباعد الشقة وتغير السبيل ، إنه دائما صامت يفكر ليفكر فيها ، وساهم ليحلم بها ، وقارىء مستغرق ليقرأ خواطرها ، وعازف على الكمان ليناديها .

ولكنها لن تلبى النداء ! .

***

ولما رجع من المعهد فى الساعة السابعة ، جلس فى شرفة غرفته يطالع ، وكانت جالسة فى غرفتها تحيك بعض الملابس الصوفية فبصرت به لما دخل ورأته وهو جالس فى الشرفة ، ولكنها عزمت على أن تدعه وحيدا وأن تتحاشى منذ اليوم الجلوس معه وحدها ، فلا ترافقه إلا مع زوجها ، منى نفسها وقلبها . . ولكنها شعرت بعد دقائق بالضيق والضجر وأحست بالوحشة . . فتوقفت عن الحياكة ورمته بنظرة ، وكان مستغرقا فى كتابه ، وعادت لعملها فى صمت ، وقد أحست بازدياد ضربات قلبها وتدفق الدم فى عروقها ، فانقطعت عن الحياكة وصوبت إليه بصرها ، وكان على حاله لم يغير جلسته ولم يرفع وجهه عن كتابه . إنه لم ينظر إليها مطلقا ، لم يجاوب على نظراتها بنظرة ، وبدأت تغضب ، بدأت تغتاظ . . على أنها واصلت عملها فى حنق . وتوقفت ابرتها فى يدها أكثر من مرة ، وتزاحمت عليها خواطرها وأقبل بها ذهنها وأدبر ، لماذا يخاطبها منذ شهر بقسوة ويكلمها بعنف وهو الرقيق اللين ؟ لم يتحاشى مقابلتها ويفتر عن حديثها وهو المحدث الوامق ؟ لم يتأخر فى الليل ويغيب بالنهار ويلزم الصمت ، وهو المحب للبيت الكثير الكلام ؟ لم تختلج عضلاته وتتلاحق أنفاسه وتلمع عيناه ؟ أواه . . لم لم ؟؟ ما الذى جرى له ؟ ما الذى طرأ عليه ؟ كانت عيناه ترتفع عن الكتاب لتأخذ الصحراء بنظرة خاطفة ثم تعود للمطالعة . . ألقت الصوف عن حجرها ووضعت رأسها على يدها وأخذت تفكر ، حتى أحست أن جو الغرفة سيخيفها ، وأن دقات قلبها ستقف إلى الأبد ، لا . . إن قوة خفية جارفة تدفعها نحوه فكيف تردها ؟ .

فنهضت إليه .

- دائما فرجينيا ولف

فرفع وجهه عن الكتاب وقد أيقظه صوتها الناعم ، وقال ووجهه ضاحك :

- ما الذى تودين أن أقرأه . . ادجار ولاس ؟ .

- لا . . طبعا .

وكانت تعرف شدة تهكمه بالأدب الأجوف الفارغ .

وأضافت وهى تجلس قبالته :

- و إنما .. كفى فرجينيا ؟ .
- لا أستطيع .
- لماذا ؟ . .
- لأنى أحبها جدا .

فوجف قلبها ورف لونها وأدارت الكلام على وجوه أخر ومضيا ساعة فى حديث ممتع حتى قرب موعد العشاء فتعشيا فى الشرفة ، وكان عشاؤ ها معه ، لأن زوجها يتعشى عشاء خفيفا قبل نومه مباشرة ، وتعشت الجاريتان أيضا ونامتا فبقيا وحيدين .

وكانت الليلة مقمرة والصحراء هاجعة والريح رخاء وإن كان الشتاء قد حل - على أن السماء كانت تغشاها السحب الخفيفة التى أخذت تتكاثف وتشتد بالتدريج فقال وعينه إلى الأفق .

- ستأخذنا السماء .
- لا أظن هذا .

وإن كانت على يقين من ذلك ، ونهض عن كرسيه ومشى إلى جرس عند الباب فضغط عليه وعاد مكانه .

- ما الذى تريده ؟ .
- كوب ماء .
- ولكن نجمه نامت .
- سأقوم لأشرب . .

ونهض فوضعت يدها على عاتقه .

- سأجىء لك بالماء .
- هذا لا يمكن . .

فرشقته بنظرة طويلة فأذعن .

وقامت فأحست بقطرات المطر على يدها فسرها هذا ، ولما جاءت بالماء شربه مرة واحدة وأعطاها الكوب وعينه ضاحكة شاكرة ، فوضعتها على نضد فى الغرفة ، ثم تقدمت إلى باب الشرفة الزجاجى فأغلقته عليه ، وكان متجها إلى الصحراء ، ولكنه انتبه على حركة الباب وهو يغلق ، فابتسم وبقى فى مكانه ، على أن المطر كان قد اشتد فنهض عن الكرسى ومشى إلى الباب ووقف عنده ، وهى قبالته ترقبه ضاحكة ، والمطر يبلل شعره وينحدر على خديه ، وكان أبيض طوالا صلب العود قوى الجسم عريض الجبهة براق العينين عادى الملامح مرسل الشعر فى غير نظام ، ووضع يده على الزجاج ورجاها أن تفتح فهزت رأسها رافضة ، وقد تهدلت خصل شعرها ولمعت عيناها وتورد وجهها ، وكان المطر قد انهمر فعاد

يتوسل فكررت الرفض ، وقربت وجهها من الزجاج ليصل إليه الصوت من فرجات الخشب ، وقالت بصوت ممزوج بضحكاتها الفضية :

- إنك تحب جاربو . . وجاربو تحب المطر .
فوضع وجهه قرب الزجاج وسأل :
- أحب من ؟ . .
- جاربو . .
- أحب من ؟

فلم تجب ووضعت وجهها على الزجاج وحدقت فيه شاردة ، فانحنى وألصق خده بالزجاج لتصل إليه أنفاسها ، فوضعت خدها على خده ، وحرك خده فحركت خدها ، وتحول مقربا شفتيه ببطء فقربت شفتيها حتى كانت الشفة على الشفة .

وبقيا هكذا مدة ، وقد استراحت لذلك وسكنت جوارحها وذهب عنها وعيها ، فأسبلت جفنيها وأخذت شفتيها ترجف على الزجاج تدريجيا حتى غابا عن بعضهما .

وبقى على هذا الحال أكثر من دقائق ثلاث ولما رجع إلى نفسه ودفع الباب ألفاه مفتوحاً . . على أنه لم يعرف الذى فتحه ، وكانت حكمت قد ردت عليها بابها .

نهضت حكمت عن فراشها قبل الفجر بقليل حافلة مذعورة ، فقد رأت حسنى فى نومها يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره بقوة وهى تتمنع وتصيح ، وجلست مرتاعة فى الردهة ودموعها تتساقط على مهل حتى تنفس الصبح فأيقظت إحدى الجوارى واشتغلت معها بإعداد الإفطار .

واستيقظ زوجها عند السابعة فدفعت إليه جريدة الصباح ، وهى تتكلف بسمة شاحبة ، وجلست أمامه حتى أعدت المائدة فنهضا إليها ، ولكن حسنى كان لم يصح بعد ، واليوم يوم جمعة وأخوه اعتاد الإفطار معه فى هذا اليوم من كل أسبوع ، وانتظرا حتى قربت الساعة الثامنة وهو لا يزال نائما ، فقال عاصم لزوجه :

- صحيه .

فرمقت زوجها بنظرة لم يفهم معناها ومضت عنه وهى تقول فى نفسها «أى أحمق ! » ومشت إلى غرفة حسنى وقلبها يضطرب بين ضلوعها ورجلاها تخذلانها ، وفتحت بابه برفق ودخلت ، وبدا لها أن تغلق الباب وراءها على أنها تصورت عينى زوجها تتبعانها فتركت المصراع كما هو ، وكان نائما على السرير ووجهه مصفر وشعره الطويل منفوش ، وأنفاسه عالية وأجفانه مقرحة ، وغطاؤه منحسر عن صدره ، فتقدمت على مهل حتى وقفت عند

أن تهتف باسمه ولكن صوتها خانها ، فوقفت ساهمة ، على أنها ذكرت زوجها على المائدة فاستجمعت شجاعتها وقالت بصوت راعش :

«ح . . . حسنى . . » .
وكان مستغرقا فى نومه .
- حسنى . .
وبدأت ترتجف .

ففتح عينيه بثقل عظيم ، وتحرك إنسانهما ببطء . . ببطء حتى انقشعت الغشاوة عن بصره واستقرت عيناه على محياها فذابت ملامح وجهه وشاع فى كيانه السرور فتألق جبينه ولمعت عيناه ، لقد انتقل من حلم إلى حلم .

- هيا لنفطر . .

وقد أشرق وجهها . . إنها لا تستطيع أن تواجهه إلا باسمة . ومشيا إلى المائدة مترافقين وجلسا جنبا إلى جنب كالعادة على أنهما أحسا بنظرات الزوج تبحث فى دخيلة نفسيهما عن شىء ! . . وذعرا .

وخيم الصمت على المائدة .

***

عاد حسنى ذات ليلة إلى المنزل متأخرا جدا بعد الساعة الأولى من الصباح ، وكان قد أمضى أسبوعا كاملا على أسوأ حال ، فلقد تضاربت فى صدره الانفعالات الباطنية وتشاجنت ، بعد أن أدرك أنه يسوق نفسه ويسوق الأسرة معه إلى هاوية سحيقة مالها من قرار ، وأنه سيفسد على أخيه هناءه وسعادته وعشه الزوجى الهادىء من حيث لا يحتسب فلقد كان لابد من وجود هذه العلاقة بينه وبين حكمت بعد عشرة دامت ثلاث سنوات ، وكان قد شعر فى الشهر الأخير بتطور عواطفه وتغير مشاعره ، وكان ذلك فى الوقت الذى أحس فيه أن رجولته قد تفتحت وأن قلبه الصغير بدأ يتحرك ، وأن عواطفه ومشاعره قد تغيرت تبعا لذلك ، فنظرته لها وللمرأة على العموم تبدلت عن ذى قبل ، وانقلبت تستقر على الجسم وتعجب بمحاسنه ومفاتنه وتقاطيعه ، وكان يكتم بطبيعته عواطفه ويطوى أشجانه ، على أن العواطف المكبوتة أرهفت أعصابه ووجهت طاقته العصبية فى الطريق المنتظر ، فكان معها فى الأيام الاخيرة شديد القسوة بادى القلق ظاهر الغضب ، يعنفها على أتفه غلطة ساعة الدرس ، ولم تكن تدرك شيئا من عواطفه المحبوسة أول الأمر ، على أنها أحست بها تدريجيا فى غضون تصرفاته الأخيرة معها ، وكان قد حاول بكل ما يملك من قوة أن يصرف هذا الحب الجارف عن قلبه ، على أن محاولاته كلها جاءت خائبة . فكان يغادر

المعهد في رفقة زملائه ويسمر معهم في الأندية حتى يقرب الليل من منتصفه ، فإذا عاد للمنزل اتقى مقابلتها في البيت، على أن الرغبات المكبوتة طيلة الليل كانت تنفجر في الصباح ، فكان أول ما يقع بصره عليها يهم بعناقها . وشد ما ارتاعت ووجلت لحاله حتى ساءت صحتها جدا ، فأشفق عليها وبارح المنزل مع الصبح من غير طعام ، ولم تشر هي بشيء من هذا إلى زوجها ، على عادتها في أمثال هذه الشئون ، وكانت في هذا حكيمة . وساءت أموره في الجامعة ، فانصرف عن المحاضرات إلى حدائق الأورمان بعد أن تصور رفاقه يعرفون حاله ويتحدثون بحبه ، وكان عليه أن يبسط في درس البلاغة قول بوفون « الاسلوب هو الكاتب » فاعتذر لأستاذه ، بيد أن سلوته الوحيدة كانت في الموسيقى ، فأقبل عليها بوجهه وواظب على حفلات التمرين ، وواصل دروسه التي كان قطعها مع بعض تلاميذه ، وكانوا في جهات متفرقة من المدينة ، حتى قضى اليوم كله متنقلا بين منازلهم النائية ، كل ذلك ليصرف ذهنه عن التفكير فيها ساعة الدرس على الأقل .

وكان قد بدأ يحس منذ أسبوع ، وهو عائد للمنزل بإحساس عجيب غامض يفضل معه من فرط ما يعتريه من اضطراب وشجن لو يرتد على عقبيه .

وثقلت وطأة الاضطراب على نفسه وهو متروح هذه الليلة حتى فكر أكثر من مرة في المبيت خارج البيت . ولما صعد الدرج كان الاضطراب قد بلغ منه منتهاه حتى وجف قلبه وعصب ريقه ، ففتح الباب بحذر - ومعه المفتاح - ولم ير أن يشعل النور في البهو لأن القمر كان يريق ضوءه ، وتقدم إلى غرفته ماشيا على أطراف أصابعه ، فما كان يود أن يحدث حركة يقلق بها النائمين ، فلما مر على غرفتهما سمع صوت قبلات تدوى في سكون الليل ، فتوقف عن سيره وسمر مكانه ، بعد أن تصورها بين ذراعي زوجها فألهبته الغيرة واشتعلت في رأسه نارها ، فوقف محملقا في الباب وقد دارت عيناه ، وفترت دقات قلبه ، واعتراه خاطر جنوني هم معه بأن يدخل عليهما الغرفة وينتزعها من حضنه . . فتتابعت أنفاسه وتلاحقت وتخاذلت رجلاه ، واختلجت عضلاته ، واضطرب جسمه كله وجاش .

ومادت به الدنيا .

ومال إلى الحائط فتساند عليها ، ومشى متخاذلا حتى بلغ غرفته فسقط على كرسي طويل فيها .

واستفاق بعد مدة فألفى نفسه جالسا عند مكتبه ، فنفض الغرفة بعينه حتى استقرت عيناه على صورة تجاه المكتب وكانت لأخيه وزوجه في لباس العرس ، فأمعن فيها البصر ، وذكر معها سعادة الزوجة وهناء الأسرة وعطف أخيه وحدبه عليه وسهره على راحته وحرصه على مستقبله ، فاستيقظ فيه شعور جديد أحس معه بمركزه في البيت في هذه الأيام الأخيرة فهو دخيل على الأسرة سيفسد عليها نعماءها .

و قام ملهيا بخاطر جديد ، فتناول حقيبته ووضع فيها بعض ملابسه وكتبه ، ولما فرغ من ذلك ، وقف فى الشرفة ، وكانت طلائع الفجر تطارد جيوش الظلام ، والتهب الأفق بالحمرة ، فأخذ يستقبل مطلع الفجر وهو ملتاع .

ثم استدار بعد أن تنفس الصبح ، وحمل حقيبته وشيع الصورة بنظره وقد تصور ابتسامة وادعة ارتسمت على شفة أخيه ، ومضى إلى الباب الخارجى فى حذر ، ولما احتواه الشارع استقبله هواء الصبح العليل ففتح رئتيه وتنفس وتمطى ، بعد أن أيقن أنه فعل خير ما يفعله . . رجل .

اجتاز باب الحديقة إلى فنائها الرحب ودار مع مماشيها ، ثم صعد الدرج وقد تملكه إحساس غامض لم يعرف مأتاه تماما ، ولم يكن ذلك للسكون المخيم على المكان ، أو الوحشة الشديدة البادية فيما حوله - لأن المنزل كان يقع فى نهاية هذه الضاحية «حلوان» من الجهة الشرقية ، وكانت الليلة ، على غير عادة ، شديدة البرد هوجاء الريح وإن كان الصيف على الأبواب - وإنما كان لشعور باطنى مبهم استحوذ عليه فى تلك الساعة بشكل عجيب . فراح يتصور معه أن زياراته لتلك الأسرة قد تكررت فى الشهور الأخيرة وتعددت لغير ما سبب قوى ظاهر ، وحتى زورته هذه مثلا فى مثل هذه الساعة من الليل - كانت الساعة لم تبلغ التاسعة - لم يكن يعرف الباعث عليها بالدقة ، وإن كان يردها للظروف القهرية التى جرته إلى هذه المدينة فى هذا اليوم ، ولم تخرج هذه الظروف القهرية عن زيارات لبعض معارفه الأبعدين ! .

بيد أنه قرر فيما بينه وبين نفسه وعزم وأكد وقطع - ولا بأس من هذا كله - على أن يخفف من زياراته فى المستقبل حتى يقصرها على زورة كل شهر ، وأن يروح يعتذر للسيدة والسيد - فى حالة الإلحاح الشديد من جانبهما طبعا - بأن أعماله الجديدة تتطلب منه ذلك ، ولم تتعد هذه الأعمال الجديدة التحاقه بالقسم الأدبى بإحدى الصحف الصغيرة ، وبدا له أن الخير كل الخير فى أن يفاتحهما بالأمر الليلة .

وكان قد وصل إلى الباب الخارجى عندما وصلت أفكاره إلى هذا الحد ، فضغط زر الجرس ونشر وراءه أذنيه يتسمع وقع الصدى وصوت الأقدام ، فهفا إليه همس ارتفع إلى كلام متقطع وعقبته خطوات عجلى ، وانفرج الباب ولاحت الخادم .

- أوه . . سيدى رشاد . .

وكأنها ما كانت تتوقع ، ولا يتوقع أحد معها ، مجيئه فى هذه الساعة من الليل .

- سيدك هنا ؟ . .

- لا . . سيدى خرج . .

واستدار صاحبنا وولى الخادم ظهره وفكر فى الرجوع ، فالوقت متأخر والزيارة - وإن كانت لأقربائه الأدنين - غير لائقة بالمرة فى الليل ، وفى الساعة التاسعة ، والرجل غائب ، على أن الخادم قطعت عليه سلسلة أفكاره بقولها :

- ستى عيانة .

- مين ؟ .

- ستى عيانة من مدة .

* * *

ومشى رشاد متئد الخطى فجاز الردهة وقد أحس بضغط دمه وازدياد ضربات قلبه ، ولم يكن ذلك لأنه سمع أن إحدى قريباته مريضة ، فإن كان ساوره من أجلها - دون شك - إحساس العطف الشديد ، على أن الاضطراب العنيف الذى اعتراه فى هذا الوقت لم يكن مبعثه هذا الخاطر وحده ، وإنما كان لشدة هاجسه وتبلبل خاطره وثقل وطأة أحزانه عليه ، وما كان هذا منه بحسن وهو مقبل على مريضة أقل ما تحتاجه تهلل السريرة وانشراح الصدر ، وكان قد وصل إلى باب غرفة المريضة ، فأدارت له الوصيفة الباب برفق ودعته يدخل ، فمشى خفيف الخطى ، وكانت المريضة متطرحة على السرير ، فلما بصرت به أرادت أن تعتمد على مرافقها وتستوى جالسة فأسرع هو يمنعها من ذلك ويقول :

- كما أنت . . استريحى .

وأخذ يدها مصافحا بحرارة ، وقد علت وجهها الشاحب حمرة خفيفة ، وند فمها عن ابتسامة حلوة وأشارت إليه .

- إجلس .

وكان الكرسى قرب السرير فدفعه إلى الوراء خطوتين فقالت برقة :

- لا . . لا يارشاد . . دع الكرسى مكانه .

ورنت إليه وقالت بصوت خافت :

- إجلس هنا .

فلم يكن بد من أن يذعن .

وجلس يرقب وجهها المصفر وقد تغضن الجبين وتكسر الجفن وخفت أهداب العين وارتسم الأسى على الشفة العطشى والفم الحالم ، وخف ضياء البشرة وغاض ماء العينين ، أواه . . كل شيء فيها كان يبعث على الشفقة الشديدة والأسف العميق ، وعلق بصره بها وجلس صامتا ، فعز عليه هذا الصمت وثقلت وطأته على نفسه ، فود لو يفتح الحديث بكلمة ، بيد أن مجرد التفكير في هذا أربكه وحيره حتى فاض وجهه بالحمرة !! وكانت المريضة ترمقه من وقت لآخر وكأنها تقول له بعينيها .

- مالك هكذا لا تتكلم ؟ قل شيئا .

وأخيرا خرج بصمته عن :

- لم لم تخبريني بمرضك ؟ .

- كنت أظنه لا يطول هكذا . . وحسبتها أنفلونزا خفيفة فإذا بها شديدة مضنية .

فقال في نفسه ساخرا «أنفلونزا لابأس . . لابأس . . ثم سأل :

- مريضة منذ ؟ .

- أسبوع .

- ولكنك الآن تسيرين إلى العافية بخطوات واسعة .

- أبدا . . أنا أسير إلى القبر .

- لا تقولي هذا . لقد شفيت تماما .

- نرجو من الله ذلك .

وكانت قد برقت عيناها عندئذ ثم تكسرت أجفانها مدة أطبقتها بعدها وكأنها تقول له دعنا من هذا الحديث إلى غيره أمتع .

ثم قالت فجأة وهي تبسم :

- ما أذكر أني رأيتك مريضا يارشاد . . أما أنا فما أذكر أني شفيت من مرض إلا لأعود لما هو شر منه .

وكان ذلك حقا ، فما ذكر نفسه مرض مرضا عضالا طرحه على الفراش ، غير مرتين او ثلاث في شبابه كله ، وكان ذلك في الوقت الذي يتخاذل فيه جسمه فلا يقوى معه على التماسك أو السير ، أما إذا تماسك واشتد قليلا ، خرج يؤم الحدائق ويمشي في الهواء الطلق فيذهب ما به تماما .

أما هي ، عفها الله ، فما كانت حياتها إلا سلسلة آلام جسمانية ونفسية لا حد لها ، فهي تسلخ العام كله تشكو وجع المفاصل وثورة الأعصاب وتضخم الكبد و . . ولم يكن أيسر عليها من أن ترضخ لحكم المرض ، وتقر بالأمر الواقع ، وتستسلم للفراش

وانقشعت عن المريضة سحابة جهمة غشيته هو بدوره ، فلم يحر جوابا ، واستطردت تقول – وكان ألذ شيء عندها الحديث معه .

– وكان حالنا على النقيض من ذلك ونحن طفلان صغيران ، فأنت كثير المرض ، وأنا موفورة الحظ من العافية ، فما أذكر أني مرضت وأنا فتاة مرضا يستحق التنويه ، أما أنت ، فشد ما لذعت فؤاد أمك ، وكانت تود أن تضيف «وفؤادي أيضا» ولكنها لم تجرؤ على هذا .

وأردفت بحزن :

– أما لماذا أنا مريضة دائما بعد زواجي فذلك ما لا أعرف كنهه . .

وصمتت بعد هذا ووجهها مربد متغير .

وأخذ رشاد يحدث نفسه «لم لا تعرفين سبب مرضك الطويل ؟ لماذا لا يعرف هؤلاء الأطباء الذين عالجوك كل هذه السنين منبع مرضك وأصل بلواك ؟ لم لا أقول لها بشجاعة : إن زوجك المخمور المريض هو الذي جر عليك هذا البلاء ، وأنك كالزهرة التي تتطلب دائما حرارة الشمس وماء الأرض ، لتنضر وتتفتح عن أجمل كأس ، وأطيب أريج ، وإلا ذبلت وصوحت .

ودقت الساعة المعلقة في الردهة الحادية عشرة . .

ولم يعد الزوج بعد .

لم يعد الرجل الذي تعلقت بأسبابه سعاد بعد .

لم يعد الزوج ، وإن قرب الليل من منتصفه ، حتى في الليالي التي تعاني فيها آلام الحمى وأوجاع المرض .

لقد لفه الشيطان في طياته ، فما عاد يفكر في الزوجة ولا الأسرة ولا البيت ، إنه دائما يفكر في نفسه ويعمل لنفسه .

خرج الرجل عن الأسرة ، ونفض يده من البيت ، ولم يعد الرجل للمنزل .

لقد كافح وجالد وغالب وهو على شط اليم ليحمله الموج إلى جوفه ، على أن الموج كان دائما يقذفه إلى الشاطىء لينطح رأسه بالصخور ، وليس عنده الرأس التي تتحمل نطح

الصخور ، فليعش فى دنياه ، ولتعش المرأة في دنياها .

إنه لم يعد الرجل الذي يصلح للمرأة .

لقد كافح وجالد وغالب ليصل حبل الأسباب التى تقطعت ، ويصلح الأمور التى فسدت ، على أن كل شىء كان يرتد إلى الضد على الأيام .

لقد كافح وجالد وغالب ليسترد الزوجة الهاربة ، إنها كانت دائما هاربة ، حتى فى غضون الساعات التى يخلو فيها معها ، إنها دائما هاربة عن دنيا الرجل إلى دنياها ، فلا بد وأن يعيش فى دنياه .

إنه لايستطيع أن يطويها تحت جناحه ، وهى هاربة هكذا ، فليدعها تهرب ، وليهرب كما هربت ..

ما الذى يعمله الرجل مع الشذوذ فى الجنس ؟ لا شىء ، لا حول للرجل فى هذا ولا قوة .

لابد وأن يعيش لنفسه .

يقامر ، ويغشى الحانات ، ويرود الأندية ، ويجلس مع الصحب ، ولا يفكر فى الزوجة مطلقا ، ولا يفكر فى المرأة مطلقا ، بعد أن لمس بيده ما بينهما من بعد .

لقد لفه الشيطان فى جوفه ، فما عاد يفكر فى الزوجة ولا البنين ولا الأسرة ولا البيت ، وإنما يفكر فى نفسه ويعمل لنفسه

***

ونظر رشاد إلى سعاد فرأى وجهها يصفر ، بعد دقات الساعة ، اصفرار وجوه الموتى ، فعز عليه هذا وآلمه ، ورأى أن يصرف ذهنها عن الخواطر المروعة التى حلت بها ، فأمسك قميصاً حريرياً ملقى على كرسى على يساره ، وقلبه بين يديه معجباً ببراعة صنعه وسألها :

- لمن هذا ؟ .

فصمتت كأنها ما سمعت ، ثم قالت ، بعد لأى ، بصوت خافت كأنها تحدث نفسها :

- له . . .

- ومن حاكه بلباقة هكذا ؟

فلمعت عيناها قليلاً وقالت :

- أنا طبعاً . .

وكان قد رجع إليها بعض الانشراح فأردفت :

- أول شيء حكته من الملابس ، وأنا صغيرة ، كان لك .

- لى أنا ؟ . .

- أجل ، بدأت أتعلم الحياكة وأنا فتاة فى سن المراهقة ، أقيم عندكم فى الريف ، وكان أول ما عملت جلباباً لك .

وأمسكت بيدها ملاءة السرير وأخذت تفركها فى حركة عصبية وقلق باد .

وقال رشاد وقد نكس رأسه :

- أشكرك . .

- لا . . أنا التى أشكرك لأنى لولاك ما عرفت شيئاً .

فقال وقد سره هذا :

- ولكن لماذا كان الجلباب لى أنا ؟ . ولم يكن لمختار أو كمال أو عثمان - إخوته .

- لأن هؤلاء جميعاً كانوا قد شبوا عن الطوق وانخرطوا فى عداد الرجال ، أما أنت ، فكنت صبياً فى السابعة ناحل الجسم ، كما أنت الآن ، ولكنك جميل الطلعة خفيف الظل ، وليس هذا حالك الآن طبعاً» ، واستضحكت مغمغمة بأشياء لم يتبينها ، ثم أضافت فى صوت ساحر«فما أثقل اليوم ظلك وأشد كبرياءك» .

- أشكرك . .

- العفو . .

وتطلعت بوجهها الباسم إليه ، وكان قد رفع وجهه إليها ، فتلاقت عيناهما ، ثم أطرق ثانية وخيم الصمت .

وكان ابنها إسماعيل - غلام فى التاسعة - نائماً فى ركن من الحجرة ، وقد دفع غطاءه عن جسمه ، فمشى رشاد إليه بخفة وضم الغطاء عليه كما كان ، ثم طبع على جبينه قبلة وعاد إلى مقعده ، فألفى سعاد تبتسم إبتسامة لم ترتسم على فمها من قبل أبداً ، ثم تطورت الابتسامة حتى انقلبت ضحكة جذلة ، فلم يجد بداً من أن يسأل :

- مم تضحكين ؟ . .

- ذكرت شيئاً على ذكر قبلتك لاسماعيل .

- ما هو ؟ .

- سر . .

- تخفينه عنى ؟ . .

- أجل ! . .

فتجهم وجهه وتغيرت سحنته .
فقالت قبل أن يتطور :
- أتود أن تعرفه ؟
فلم يجاوبها وازداد وجهه عبوساً ، فتجاهلت حاله وقالت :
- إستمع إلى اذن .
وغيرت من لهجة صوتها وواصلت حديثها :

- كنت ولوعاً فى طفولتك بركوب الحمير . . وكان والدك ينهرك عن هذا ويزجرك ، ويخاف من شرها عليك ، وهو يعلم مبلغ حب أمك لك ، على أنك كنت لا تفتأ تتحين الفرص لركوبها ، وحدث مرة أن قدم ضيف على والدك فى القرية وتحته حمار جميل - ولا بأس من هذا - نزل عنه وربط لجامه فى سرجه ، بعد أن شده إليه بقوة ، وأنت تلهو فى فناء البيت ، فبصرت بالحمار فطرت إليه ، وجررته إلى الخارج فطاوعك ، وأخذت تنظر يمنة ويسرة باحثاً عمن يعينك على ركوبه ، وأنا فى شرفة المنزل أرقبك ضاحكة ، وكان الوقت ظهيرة ، والدنيا صيفا لافحا حره شديد قيظه ، وقد خلى المكان من كل أحد ، ووقفت تنظر للحمار يائساً ، ثم إذا بك تبصر بجوار حائط بعيد دكة كان يسمر عليها القرويون ليالى الصيف ، فملت بالحمار إليها وارتقيتها واستويت عليه ، وأنا أرقص من الضحك ، وأخذت لجامه وعدوت به مقبلاً مدبراً دقائق عدة ، ولكن يظهر أن اللعين مل هذه المداعبة السخيفة فى مثل هذا الحر القاتل ، فألقاك عن ظهره ، فوقعت على وجهك مطلقاً لحنجرتك المطواعة العنان !! فصرخت أنا ، وأرسلت الخادم إليك فجاءت بك وأنت تعول إعوالاً يقطع نياط القلب ، وأخذتك منها وحضنتك ومسحت ما علق بوجهك من التراب ، وكان قد شج صدغك وسال منه الدم ، فغسلته عنك بسرعة خوفاً من أن تراك أمك على هذه الحال فتجن ، ولم ألبث ، وقد رأيتك تتألم وتبكى أن حضنتك وملت على جبينك بفمى فقبلتك ، فتركت البكاء مرة واحدة ، وهويت بيدك الصغيرة على خدى وصفعتنى صفعة قوية ، وكانت هذه أول صفعة منك لأول قبلة منى .

ففاض وجهه بالبشر وقال :

- وهل اقتصصت لنفسك ؟ .

- يوه . . أبداً . . ما كان أحد يجرؤ على أن يلمسك بطرف بنانه ، فلقد كنت مدللاً للغاية ، بيد أنى خفت بعد هذه الصفعة بأسك فما قبلتك وأنت صاح قط ، أما إذا جن الليل واحتواك الفراش وغرقت فى النوم قطعت فمك لثماً ، وكثيراً ما كنت تنام معى ، وكم مرة حضنتك وأنت طفل صغير بارد الإحساس !

ونظرت إليه ووجهها ضاحك .

فوضع يده على جبينه وأطرق مغالباً انفعالاً باطنياً شديداً . وسره تحسن حالها ، وجريان الدم فى عروقها ، وعودة الحياة تدب فى شرايينها ، فلم يشأ أن يشقق الحديث ، فقال وقد حول وجهه عنها :

- وأنا . . هل قبلتك بدورى فى ذلك الوقت ؟
- أبداً ما فعلتها قط فأنت دائماً . .
ولم تتم كلامها ، بل نظرت إليه سادرة وصدرها يعلو ويهبط .
- دائماً ماذا ؟ .
ورفع وجهه إليها .
- لا أعرف .

واغرورقت عيناها بالدمع بسرعة غريبة ، ثم سال دمعها على خدها ، وانطلقت بعد هذا تبكى فى صمت بكاءً مراً ، حتى أعولت ، فاستغرب لحالتها العصبية ، وقام عن كرسيه ، ووقف جنب سريرها ، وأمسك بيدها ليهدىء روعها ، فضغطت عليها بعنف ، وقد ازداد نحيبها ، وحرك يدها فى رفق ومسح عليها مهوناً ، وأراد أن يلمس كتفها وقد حولت وجهها عنه ودفنته فى الوسادة ، وهى تنشج نشيجاً يمزق الصدر ، بيد أن إرادة قوية أمسكت بيده عن فعل هذا ، فوقف يتردد ، ثم تماسك وتجاسر ولمس كتفها فسرى فيه مثل الكهرباء ، وتدفق دمه فى عروقه ، ووجف قلبه وعلت أنفاسه ، وأدار كتفها ليرفع إليه وجهها ، فلاقته عيناها المخضلة فى نظرة طويلة أخاذة ، نفذت إلى قلبه ، واستحوذت على لبه ، فعلق بصره بوجهها ، وأخذا ينظران إلى بعضهما مدة طويلة ، وقد احتبس النفس وزاغ البصر ، وسكنت كل جارحة فى الجسم ، وسكنت كل خفقة للفؤاد ، وبقيا هكذا مدة ، حتى غشى عينيه ضباب كثيف ، وأمسى بعده لا يبصر ولا يعى شيئاً ، واستفاق على صوتها وهى تهزه هزات عنيفة وتقول :

- أتحبنى أم لا ؟ .
فوقف جامداً كالمأخوذ متعجبا من هذا السؤال الطارىء .
وكررت ملحة :
- أتحبنى أم لا ؟ . . أتحبنى أم لا ؟ . . تكلم . . تكلم . .
وقد بدت التعاسة المرة على ملامح وجهها المضطرم .
فقال بعد لأى بصوت خافت :
- أحبك . .

ولم يكن بد من هذا فى مثل هذا الموقف ، فمدت يدها بحركة عصبية عنيفة وأمسكت بيديه ، وجرته إليها بكل ما تملك من قوة ، ثم رفعت يديها بعد هذا إلى عنقه ، وقد استوت

على سريرها محاولة أن تجذبه إلى صدرها ، ولكنه دفعها عنه برفق ، وكانت قد قامت فتشبثت بعنقه وارتمت على صدره

ولقد أثر فيه هذا تأثيراً بليغاً فلف ذراعيه حولها ، وهم أن يهوى على فمها بقبلة ، ولكنه أحس بيد وضعت على عاتقه فجأة ، فجمد دمه وأحس ببرودة الثلج تسرى فى عموده الفقرى فجفل وتلفت مرتاعاً ، فإذا بابنها إسماعيل واقف بجواره ، وهو يبكى وينتحب ويهتف بأمه .

وتلفتت الأم مذعورة فبصرت بإبنها ففتحت له ذراعيها .
- إسماعيل . . إنت صحيت يا بابا . . تعال يا حبيبى . . تعال . .
وضمته إليها وهى تبكى بكاءً مراً .

* * *

وقف رشاد على إفريز المحطة يرقب القطار الذى سيقله إلى المدينة ، وهو مشتت الخاطر ذاهب اللب مروع الفؤاد ، وقد طافت برأسه شتى صور الصبا وأيامه ، فعاد يذكر سعاد فتاة فى سن المراهقة تمرح فى منزل والده فى الريف ، وتداعبه وتحنو عليه ، وهى عادة فى لباس من القطيفة الزرقاء شد على جسمها فأبرز مفاتنه وأظهر محاسنه ، ورجع يذكر ليالى الشتاء فى القرى ، وهى التى يحلو فيها السمر ويلذ الحديث وتروق الحكاية ، وذكر نفسه وهو جالس بجانبها منصتاً لأحاديث العجائز من القرويات ، وملتذاً بضحكاتها وتعليقاتها على كل قصة ! فإذا أخذته عيناه نام فى مجلسه ، وصحا على حركتها وهى تحمله إلى فراشه ، ثم تقبله وتغطيه وقد تنام معه . وما كان أحلى عنده من لذة الدفء الذى كان يحسه وهو فى حضنها ، ثم حرارة شفتيها على شفتيه ، ياالله للصبا وأيامه .

ثم تصور نفسه بعد ذلك رجلاً ألقى بنفسه فى غمار الحياة ، ولكن الحياة أبداً مدبرة عنه توليه ظهرها ، فقد عالج كل شىء وعاد من كل عمل بالخيبة المرة ، عالج الموسيقى ثم تحول عنها بعد الإخفاق إلى التدريس ، ثم نفض من هذه يده بعد أن ساءت حاله إلى الصحافة ، وصدف عن هذه إلى الأدب ، والأدب للفن ! وأخفق فى هذا كله ، لم تكن حياته إلا سلسلة متعددة الحلقات من الخيبة المرة والتعاسة المضنية ليس إلا .

على أنه لماذا أخفق ؟ هل كانت تنقصه الأداة ؟ أكانت تنقصه الموهبة ؟ أكان يعوزه الطبع ؟ لا . . لا . . لقد كان قوى الأداة موهوباً بالفطرة . ولكنه كانت تعوزه الروح . . الروح . . الروح القوية الجارفة التى تطغى على كل شىء ، وتذلل كل عقبة ، وتعبد كل طريق ، لقد كان ينقصه القلب النابض بحرارة الحب لو أن هذه المخلوقة المنكودة قالت له منذ سنوات ما قالت له الليلة ، لبدل غير الرجل ، وأمسى غير الشريد المتشائم القوى الشك ، الضعيف الثقة بكل شىء فى الوجود . هل يؤمن الآن بحبها ؟ وهل يؤمن بالحب

جملة . لا . . لا . . هذه سخافات لا حد لها . بيد أنه لم لا يحبها الآن بعد أن تيقن من حبها ثم يروح يستقبل الحياة من جديد ، ويمشى فى مسالكها بقلب مضىء .

وكانت عيناه عند هذا قد لمحت ضوء القطار ، وهو قادم من بعيد ، ومقدمته تقدح الشرر وترمي اللهب ، ولمع الخط الحديدى عن بعد ، فرجف قلبه وغلى دمه وأخذ يرمق الخط ساهماً ، وقد وقفت سلسلة أفكاره وجمد دمه فى عروقه وتصلبت عضلاته . . ماذا عليه لو أنهى حياته فى دقيقة واحدة فتطرح على هذا القضيب الحديدى ، وفى ثانية يتطاير فى الجو إرباً ، لماذا يعيش مخلوق مريض مثله ؟ إن الحياة للأقوى والأصلح ، لا للمرضى والضعفاء أمثاله ، لا إرادة ولا قوة ولا أمل يبرق فى السماء ولا نجم يلوح فى الأفق ، لمن يعيش ؟ وهتف به هاتف ، «عش لها» فأجابه مستخفاً «ومن هى ؟» إنه لم يعرفها بعد ، إنها ليست له . . إنها لرجل آخر . . أجل لرجل آخر .

وتصورها . وهي متمددة على السرير مريضة منكودة ، ونظراتها إليه ، فعاد دمه لهذا الخاطر يضطرب متدفقاً فى شرايينه ، وقالت له نفسه ، ماذا عليك لو ضممتها إليك مرة واحدة ، ثم أنهيت حياتك بيديك غير آسف على شيء فى الوجود ؟ ماذا عليك لو ضممتها إلى صدرك مرة واحدة ؟ ثم لتقم الساعة بعد ذلك . مرة واحدة وليحدث الله بعد ذلك أمراً .

وتصور نفسه واضعاً فمه على فمها ، وهى بين ذراعيه ، فرفع عينيه إلى السماء ، وهو سادر ، والسحاب المركوم يتكاثف ليحجب سارى القمر والريح القوية ترنح سامق الشجر ، بيد أنه ما رأى القمر ولا أحس بالريح ، لقد كان كيانه كله محصوراً فى كيانها ، ماذا عليه لو ؟ . .

وقرع سمعه صفير القطار وهو داخل المحطة ، فانتبه مذعوراً ووقف يتردد ، هل يركب القطار أو يعود ؟ يعود إلى أين ؟ يعود إليها إنها تناديه ، إنها باسطة ذراعيها له ، إنها له وما كانت لسواه قط . . أبداً أبداً ما كانت لسواه .

أجل فليرجع إليها ليكون لها إلى الأبد .

وصفر القطار وتحرك ، وهو جامد كالتمثال ، ثم عدا ولحق بآخر عربة ، وجلس فى آخر مقعد ، يدخن ويرمق نجماًبعيداً فى الأفق .

الأعمـــى

تمر ترعة الكامل بقريـة « س » وهى قرية صغيرة من قـرى الصعيد ، فتشـطرها شطرين غير متساويين ، فقد جارت على الجانب الايسر بقدر ما أضفت على الايمن ، فاتسع هذا واستفاض حتى أصبحت منازله وبساتينه ونخيله وأعنابه ، لايحدها البصر ولا تحصرها العين ، واستدق ذاك واستطال حتى قامت منازله الصغيرة على شط الترعة ذليلة منكسرة واجمة ، تشكو إلى الله ظلم الطبيعة بعد أن شكت جور الإنسان الذى خلفها سوداء قذرة تمرح فيها الحشرات من كل لون وجنس .

وإذا استقبلت القرية وأنت قادم على جسرها الطويل ، بصرت أول ما تبصر بمنزل صغير من هذه المنازل بنى بالطوب الأسود ، وخط جواره بستان ، ليس فيه سوى نخلتين ! مالت إحداهما على الترعة ، حتى غرقت فروعها فى الماء ، وسمقت الأخرى فى الجو ، حتى ناطحت بسعفها السماء ، ولا تدر النخلتان ثمرا الآن ، ولا يرجى منهما شىء فى المستقبل ، فقد جف عودهما وذهب شبابهما . وتقيم فى هذا المنزل منذ أكثر من تسعة أعوام أرملة فى الخمسين ، وهى امرأة دمثة الطبع - على خلاف العجائـز من مثيلاتهـا - ناحلة الجسم معروقة العظم واهية البناء ، تستريح فى بيتها معظم العام ، حتى يهل رمضان فإذا هل ، خرجت فى الهزيع الأول من كل ليلة حاملة على ذراعها صفيحة قديمة تطوف بها على منازل القرويين ، وهى تنقر نقرا خفيفا ، وتتغنى بأغنية قديمة ، قل من يدرك معناها ومبناها من سكان القرية ! على أنهم كـانوا يهبـون من مضاجعهم عنـدما يصـافح سمعهم إيقـاعها وغناؤها ، ويبسطون موائد السحور ، وإن كان الليل لم ينتصف بعـد !! وهذا العمـل الضئيل لايجلب لها فى الغالب رزق شهرين أو ثلاثة ، فكيف تقتات باقى العام ؟ وكيف تعيش ؟ هذا هو السؤال ، على أن الذين انحدروا من الريف ، يعرفون تمام المعرفة أن هنـاك الملايـين من أمثالهم يضعـون دائما أيـديهم على بـطونهم ليحفظوا بـذلك التـوازن الاجتماعى لتخمة الأغنياء . مثل هذه الايم السواد الأعظم من الفلاحين الذين لا يعرفون وخيرهم ألا يعرفوا ، أنهم أتعس المخلوقات البشرية فى الدنيا جمعاء . أنهم مخلوقات ذليلة

تعسة ، لصقوا بالأرض ، حتى أكلتهم الأرض ، وأفنوا عصارة حياتهم فيها ، حتى استنفدت قوتهم واستفرغت جهدهم ، ولو رأيتهم وهم عائدون من الحقول مع مغرب الشمس ، والصفرة الباهتة تعلو وجوههم ، والغبار القذر يملأ أعينهم ويسد أنوفهم ، لعلمت أنهم أتعس الناس فى الناس ، وأشقى الطبقات العاملة على الإطلاق . أنهم مخلوقات مريضة فقدت بهجة الحياة ونعيمها واستسلمت صاغرة للمرض والفناء .

ويسكن مع هذه الأيم أعمى فى الثلاثين من عمره ، وهو شاب أسمر فارع ضليع الجسم مفتول العضل وثيق التركيب ، وهو المؤذن لمسجد القرية منذ أن شب عن الطوق وانخرط فى عداد الرجال ، على أن الذى جمع بين هذه الأيم العجوز ، وهذا الأعمى الشاب ، لم يكن قرابة ولا نسابة ، وإن كان القرويون يسمون العجوز «أم سيد» وسيد هو الأعمى ، وكانت المرأة تمتعض وتهتاج لهذه التسمية فى أول الأمر ، وهى التى لا «سيد» لها ، ثم ما لبثت أن استراحت لها على مرور الزمن حتى قر هائجها وسكن ، وحتى تعمدت ألا تدفع هذا القول بما يكذبه ، وهى المتيقنة بأن الجدل فى أمثال هذه الأمور غير مجد فى الواقع ، فمن الذى يقف فى وجه التيار الجارف ، ومن الذى يمكنه أن يدفع ألسنة الناس الطويلة جدا إلى حلوقها ، لا أحد على التحقيق .

على أن المنزل لم يكن للعجوز والشاب فى الحقيقة ، وإنما هو لرجل ملاح يعمل فى النيل ويقضى فيه العام كله ، ولايهبط القرية إلا زمن التحاريق ، فإذا جاء ، بات فى سفينته ، فقد ألف الرجل النيل ، ونسى منزله على توالى السنين .

وكان المسجد الذى يؤذن فيه الأعمى فى طرف القرية الشمالى ولكى يبلغه لابد له أن يجتاز الترعة وعليها جسر ضيق ، يجوزه المبصر وهو واجف حذر ، فكيف بالأعمى ! ثم يدور بعد ذلك فى دروب وينعطف فى منعطفات ، ويجتاز بساتين من النخيل يكثر فيها الحسك والشوك ، وعلى الرغم من هذا كله ، فإن الرجل كان يبلغ المسجد وكأنه المبصر الحديد البصر ، فلا يضل ولا يتباطأ فى سيره ، ولايعتمد على حائط ، ولا يستند إلى جدار ، وشد ماتعجب لذلك وتدهش ، على أنك متى سمعت القرويين وهم يقولون إن الرجل يبصر بقلبه ذهب عنك العجب كله .

وإذا طلع الفجر على القرية ، وهى غارقة فى سبات عميق ، وكل شىء فيها ساكن هاجع ، فلا نأمة ولا حركة ، اللهم إلا سامقات النخيل وهى تترنح مع النسيم الوانى ، وسيقان الزرع وهى تتمايل مع الريح الرخاء ، طلع الأعمى إلى سطح المسجد ، وانطلق يؤذن فى صوت حلو النبرات عذب الرنين ، ينفذ إلى كل قلب ، ويهفو إلى كل أذن ، ومن الذى يسمعه وهو يقول :

حى على الصلاة . .

فيتأخر بعد ذلك عن الصلاة . لقد كان صوته لينا شجيا يرن فى سكون الليل رنين اللحن العذب الأخاذ ، فيهب له القرويون من مضاجعهم ، ويخفون إلى المسجد خاشعين صامتين .

وكان الرجل محبوبا من أهل القرية جميعا إلا النساء والأطفال . أما النساء فيكرهنه لأنه يزجرهن عن بئر المسجد ، ويمنعهن من ملء الجرار منها بقسوة وغلظة ، ينقلب صوته الحنون عند محادثتهن إلى صوت أجش مرعب أحيانا ! والقروية لاتستغنى عادة عن ماء البئر خصوصا زمن الفيضان ، عندما يصبح الماء عكرا نصفه طين . وكم تغفلنه مرارا ، وهو الأعمى ، وهن النجل العيون ، على أن سمعه المرهف دائما كان يغيظهن أشد الغيظ !! فاذا أدلت إحداهن الدلو فى البئر وحركت «الجبيذ» (البكرة) وهو خشبى يحتاج للسقى بالزيت ليحبس صوته فى جوفه ، صر هذا فيمد الأعمى قامته ويقول بصوت جاف :
- مين ؟ .

فيتركن الدلو والجرار ويرحن يقعقعن الحلى ، ويطرن على وجوههن هاربات ، وقد تقع إحداهن على وجهها ، فتخوض فيها الأخرى من فرط الرعب ، ويقمن وجلات مذعورات ضاحكات أيضا ، على أن هذا لم ييئسهن من البئر اليأس كله ، فهن يعلمن أنه يتروح بعد العشاء ، فإذا بصرن به خارجا من المسجد انطلقن إلى البئر وهن واجفات أيضا ، فشد ما كانت تخيفهن عصاه الغليظة وإن كانت لم تصافح إحداهن حتى الآن .

ومن هنا نشأت العداوة بينه وبينهن واشتدت مع الزمن وتمكنت على الأيام .

أما الأطفال فكانوا كلما بصروا به على الجسر ، وهو فى طريقه إلى منزله ، تقوده عصاه ، وصدره إلى الأمام ، وسمعه مرهف ، ورأسه مستو ، وقامته منتصبة ، وخطواته ثابتة متزنة ، جروا وراءه يسبونه ، وقد يحصبونه بالحصى أو يرمونه بالحجارة ، وهو صامت باسم لايلتفت إليهم ولا يكلم أحدا منهم ، حتى يقرب من بيته ، وهنا يطلع عليهم كلب للجيران أسود ضخم يربض دائما على الجسر ، فينطلق وراءهم حتى يشردهم فى الدروب . وشد ما غاظ هذا الكلب الأطفال ، حتى تسمعهم يهمسون خوفا من أن يسمعهم الكلب «لولا هذا الكلب ابن الكلب .. لكان الأعمى .. » وإن كانوا يقرون بينهم وبين أنفسهم أنه قلما كانت تصيب الرجل حصاة واحدة من كل ما يرمونه به من حصى وحجر .

ولم يكن لهذه العداوة سبب ظاهر فى الحقيقة ، اللهم إلا الطبع الشريد الذى ينزع بالأطفال إلى السوء ، ويحبب لهم أذى الضعفاء من الناس .

تأخر الأعمى مرة فى المسجد حتى زحف الليل ، وتكاثف الظلام واشتد ، فسمع وهو راقد فى ركن من أركان المسجد صوت الدلو فى البئر ، فاستوى على قدميه ، ومشى على أطراف أصابعه كاتما أنفاسه ، وصدره يضرب ، وجسمه كله يهتز ، حتى جاز صحن

المسجد وتيامن إلى البئر ، وقلبه واجف . وكان قد خفت صوت الدلو ، ووضح صوت «الجبيذ» فقال لنفسه ، لابد أن امرأة تجذب الدلو الآن وهى مشتغلة به فلا تسمع خطوات قادم . . ووقف برهة ثم صاح بصوت خشن :

- مين ؟ . .

فاستدارت المرأة وحملقت فى الظلام . أواه . . إنه سيد الأعمى على مدى ذراعين منها ، ورمت الدلو وأذهلها الموقف المرعب عن إبداء حركة ما ، فوقفت فاغرة فاها ، استعفتها غريزة الهرب بعد ثوان ، فولت هاربة ، فسمع وقع أقدامها فجرى وراءها ، وسمعه إلى خطاها ، وجرت حتى جاوزت المسجد ، وبودها لو تصيح بأعلى صوتها ، ولكن من أين لها القوة على ذلك ؟ وكيف يطاوعها الصوت ؟ وعثرت قدمها بحجر فى الطريق ، فكبت على وجهها مذعورة ، وأنت عند ذلك أنة قوية ، فجرى على الصوت وأهوى بيده العمياء ولمس كتفها ، وكان قد بلغ منه الجهد فوقف ويده ممسكة بكتفها ، ثم أنزل يده حتى قبض بعنف على رسغها ، وقامت المرأة متراجعة ، تود أن تفلت منه بكل ما تستطيع من قوة ، ولكنه ضغط على يدها بشدة ، وتحسس بيده الأخرى وجهها وقال فى صوت متزن :

- جميلة ؟ . .

- . . . . . .

ووقفت المرأة صامتة تهتز وترجف .

- لما لا تنادينى لأملأ لك الجرة ؟ . .

وقد رق صوته جدا ، فدهشت من تطور حاله وصمتت .

- لماذا ؟ . .

فشجعها صوته اللين وأجابت :

- انك لاتسمح لأحد بالدنو من البئر . . فكيف أناديك ؟ .

- ليس لواحدة أو اثنتين . وإنما عندما تجئن بالعشرات فتقطعن الحبل ، وتمزقن الدلو ، وتهشمن خشب الجبيذ . . فى البلد أكثر من أربع آبار قريبة ، فلماذا تجئن إلى هنا دائما ؟ .

- لأن هذه أعذبها ماء . .

- هذا الماء العذب كثيرا ما ينزح ! . .

- النيل فى فيضانه والماء كثير . .

- أجل . . أ . . أ . . ولكن . . أملأت الجرة ؟

- نصفها . .

- سأكملها لك .

وانقلبت إلى البئر ، فمشت وراءه مطمئنة ، وأدلى الدلو وهو يحس بعض الاضطراب ، فأخذ يدير الجيذ بسرعة ليملأ لها الجرة ويصرفها عنه ، ويبعدها عن وحدته وسكونه .

وقال وهو يفرغ الدلو بصوت خافت لين المخارج :

- إذا جئت مرة أخرى . . ناديني لأملأها لك .

- كتر خيرك .

وساعدها على حمل الجرة ، وانطلقت بها إلى بيتها ، ووقف ينصت إلى هزيز الريح القوية فى الحقل البعيد.

***

وأخذت جميلة بعد هذه الليلة تتردد على البئر دون خوف أو وجل ، كانت تجىء فى كل يوم مرة ، عند مطلع الفجر أو بعد آذان العشاء ، لأن زوجها لا يسمح لها بالسير فى طريق القرية إلا بعد أن ينام الناس . وتنقطع الرجل . . فهى فتاة فى رونق صباها رائعة الحسن غضة العود وزوجها يخشى عليها العين ! ولايحب لها ملاقاة شبان القرية الذين يقفون على رأس الطريق فى ساعات معينة من النهار ! وكانت تقابل سيد الأعمى فى غالب الأوقات التى ترد فيها البئر ، وكثيرا ما أترع لها الجرة ، وأعانها على حملها ، أو ملأ لها الحوض الصغير الذى على يمين البئر لتغسل وجهها ورجليها قبل ذهابها إلى بيتها ، وكانت تطوى كميها إلى مرفقيها ، وتحسر شالها عن شعرها ، وترفع ثوبها إلى ساقيها وهى منحنية على الحوض تغتسل . كانت تفعل ذلك ، دون خجل أو حياء لأن سيدا أعمى .

واستراح سيد على مرور الأيام لمحضرها حتى أصبح يشعر فى الأيام التى تتخلف فيها بالانقباض والوحشة ، كان يحس ، من أعماق نفسه ، أن شيئا ينقصه . شيئا يستريح معه ، وينشرح له صدره ، وتنتشى حواسه ، وتهدأ ثائرة أعصابه .

وكانت جميلة تدفعها غريزتها أول الأمر إلى الخوف منه واتقاء شره كرجل ، بصرف النظر عن كونه أعمى ، ولكنها مالبثت - بعد الانفراد معه مرة ومرات - أن استراحت واطمأنت ووثقت من عفته وخلقه ، حتى كانت تخرج معه إلى حد المداعبة ، كأن تخفى عكازه ، أو تخلع الدلو ، أو تقطع الحبل ، أو ترشه بالماء ، وكان يضحك لهذا حتى يرقص قلبه ، ويلوح لها بعصاه مهددا .

على أن هذا التآلف الذى بين سيد وجميلة ، لم يشجع غيرها من النساء على القرب من البئر ، لأنهن كن لا يعلمن بتغير حاله ، وإن علمن لايصدقن . ولم يكن هو يزجرهن عن البئر ، ويمنعهن من ملء الجرار منها ، لأنه كان يخاف على الماء فقط ، بل لأن شيئا خفيا فى أعماق نفسه ، كان يدفعه إلى النفور منهن وإبعادهن عن جوه . . دافع باطنى عجيب كان

يخرجه عن هدوئه وسكونه ، عندما يسمعهن يتحدثن على الماء أعذب حديث وأرقه ، كان يرجف له ويضطرب ، وهو الرجل وهن النساء . . شعور باطنى غريب كان يحمله على فعل ذلك ولم يستطع تحليله ولا تعليله ، وهو الجاهل الذى لم يذهب إلى المدرسة ولم يدرس علم النفس . لقد قضى الرجل حياته بعيدا عن جو المرأة فأخرجها عن دائرة تفكيره ، بعد أن خرجت عن دائرة وجوده ، ولم يعد يفكر فيها مطلقا . . ولم يعد يفكر فيها ولا يحن إلى لقياها ولا يستريح لرفقتها .

وكان يتضايق حتى من وجود أم سيد معه فى منزل واحد . وإن كان ينام بعيدا عنها ، ولا يلاقيها إلا نادرا - غالبا فى الأوقات التى كان يرجع فيها إلى البيت مبكرا ليتعشى - فكان يتذمر ويضطرب لمحضرها ، وإن كان يعدها أما . كان يرجف لوجودها معه ويحس بروحه تثور ، لأنه ما كان يحب أن يتصورها جالسة أمامه ترقبه وهو يمضغ الطعام ، ويقطع الخبز بأسنانه . وكان لا يعود لهدوئه وسكونه إلاَّ بعد أن يتنفس الصعداء فى قاعته .

ولما اعترضت جميلة طريقه ، أول مرة كان يحمل معه عصاه ليضربها ، ولكنه لما سمع صوتها عن قرب ، ووقف عند رأسها ، وأمسك بيده رسغها ، وصافحته أنفاسها ، تراجع ، وأيقن أنه أمام مخلوق لايستحق الضرب .

وأخذ بعد ذلك يترقب حضورها ، ويتأخر فى المسجد عامدا ليعينها على حمل الجرة ، ويملأ أذنيه من صوتها .

***

بقى الأعمى فى المسجد بعد أن فرغ المصلون من صلاة العشاء بساعة ، ثم مشى إلى جانب المنبر فتناول عصاه وأم الباب ، ولما بلغ عتبته سمع صوت الدلو فى البئر ، فنصب قامته وأرهف سمعه . . لقد جاءت جميلة على عادتها ، ولكنها متأخرة قليلا هذه الليلة ، واستمر واقفا وسمعه إلى الماء المتقاطر من الدلو كدفعات المطر غب سحاب ورعد ، ثم انقطع صوت الماء ، فأدرك أنها ملأت الجرة ، فدفع الباب وخرج ، ومضى تحت جدار المسجد خطوات . . ثم توقف عن سيره وأخذ يفكر . . ثم ارتد إلى حيث كان ، حاثا الخطى كأنما يسوقه سائق . . وعطف على البئر ، وقلبه شديد الخفقان .

- جميلة . .

- نعم . .

- أملأت الجرة ؟ . .

- أجل ! . .

وذاهبة إلى البيت ؟ . .

- أجل ! . .

وكانت الجرة على رأسها ، وقد تهيأت للسير ، فاستدارت ووقفت . .
ومد عنقه وقال :
- سأروح معك من غرب البلد . . لأن كلاب الشيخ عبد الكريم عادت من العزبة . . وهى تقطع على الطريق .
- هيا . .

ومشيا صامتين ، والليل ساكن والقرية نائمة ، والظلام مخيم ، حتى أحس بأنفاسه خلصت ، فأدرك أنهما خرجا إلى الخلاء . وبعد خطوات سمع حفيف الريح فى عيدان الذرة فأيقن أنهما قربا من الحقول ، وسأل وقلبه يرجف .
- أو صلنا بستان الشيخ حسين ؟ .
- قربنا . .

ولم يكن ألف هذه الطريق ، وإن كان يعرف أن هناك قناة صغيرة تمتد بين البستان وحقل الذرة وعليهما أن يعبراها لينحدرا منها إلى جنوب القرية ، ثم إلى حيهما . وكان منذ أن غادر البئر ، واقعا تحت تأثير خواطر عاصفة . اشتعل لها رأسه ، وجاش صدره ، فكان يتخلف عنها قليلا ويجعلها تتقدمه خطوات ، فهذه هى المرة الأولى الذى ينفرد فيها مع امرأة فى ظلام الليل وسكونه ، على أن تخلفه عنها لم يخفف من حاله ، بل على العكس من ذلك ، كان يفسح المجال لوضوح رغباته وتركزها وأخذها السبيل عليه ، فمضى وراءها والاضطراب يعصف بقلبه وصدره وكيانه ، حتى وصلا القناة فدفع لها عصاه ، ونزل وراءها فى الماء ، وغاصت أقدامهما فى الوحل ، وخرج ينفض رجليه فى العشب الممتد على حافة الحقل . وأنزلت هى جرتها وانحنت على الماء تغسل رجليها ، ثم انتصبت تصلح ثوبها ، وهو واقف خلفها يفتح رئتيه وصدره لهواء المساء العليل ، ويحاول أن ينحى عن رأسه الخواطر العاصفة التى ألهبت أليافه وهيمنت على كيانه .

وواجهته وقالت بصوت ناعم :
- ناولنى . .
فمد يده إلى الجرة . . فلمست يدها ، فكأنما لامسه لهب كاو ، فوقف ويده تلاصق يدها .

ثم أمسك بيدها ورفعها عن الجرة ، حتى استطاع أن يقبض عليها بقوة ، فمدت وجهها مشدوهة وقالت وصوتها يرتعش :
- ناولنى . .
فرفع يده إلى ذراعها وضغط ، وقد أحس بألياف لحمه تلتهب
- ن . . ناولنى ! . .

فأبقى يده ضاغطة على ذراعها ، وهو واقف يتردد .

- ما الذى تريده منى ؟ .

فلم يقل شيئا . ثم مال عليها وضمها إلى صدره وضغط على جسمها فتراخى ، وحملها على ذراعيه بسرعة ودخل بها حقل الذرة . .

***

مشت جميلة إلى بيتها خائرة القوى ، مرضوضة الجسم ،ذاهبة اللب ، وقد اسود فى نظرها الوجود ، واحلولكت الدنيا . . مشت ذاهلة ساهمة لاتحس بشىء مما حولها ولا تعرف إلى أين هى ذاهبة . . على أن رجليها كانت تقودانها ، بحكم العادة ، إلى بيتها . مشت تحملق فى الظلام ، وهى والهة مرتاعة ترى بعد كل خطوة شبحا ، وتتصور عند كل قدم حفرة . . لقد فعلتها . . مع من ؟ مع سيد الأعمى . . لقد ساقتها قوة أزلية إلى الهاوية ، لقد حملها المقدور الحتم إلى الوحل . . لقد جرفها التيار ، فغاصت فى الوحل إلى ساقيها .

إننا نسير فى الطريق مسوقين بقوة أعلى منا وأقوى ، قوة جارفة لانستطيع ردها ، ولا نقوى على دفعها ، تسوقنا فى الظلام إلى المصير الحتمى . . لقد غدت جميلة ، فتاة الريف العفيفة الطاهرة ، المرأة الدنسة القذرة التى غاصت بقدميها فى الوحل . . سيظل الوحل عالقا بها دائما ، وإن غسلت رجليها صباح كل يوم ومساءه ، سيظل الوحل عالقا بها أبدا .

وستذكر دائما أن قوة خفية ساقتها ، بمحض إرادتها ، إلى الوحل ، قوة أعلى منها لاتستطيع فهمها ولاتحاول فهمها ولا تعليلها . هذه القوة الخفية الأزلية تعمل دائما من وراء الحجب ، تعمل أبدا من وراء الغيب ، وتسوقنا إلى المصير المحتوم .

ستذكر جميلة ، الفتاة الريفية الجميلة المزهوة ، أن قوة خفية ساقتها إلى البئر ، لتقودها إلى الأعمى ، ولتجرفها إلى الحقل .

لا لذة ولا متعة ، ولا إحساس بشىء من هذا كله ، ولكنها استسلمت ورضيت ، لأنه حكم عليها بأن تستسلم وترضى .

لاإحساس بنشوة ولا شعور بمتعة ، وإنما مر كل شىء كالعاصفة الهوجاء وهى تلف كل شىء لفا .

لما فتحت عينيها على الدنيا الرحيبة الباسمة ، من قبل ، كان كل شىء قد تغضن وأربد وعلته غشاوات ولفه السواد فى جلبابه ، وطوته العاصفة الرعناء فى طياتها ، كل شىء قد انمحى من باصرتها ومات وذهب مع العاصفة ، وبقيت ظلمات يأخذ بعضها برقاب بعض . . وعليها أن تسير فى جوف الظلام وتمضى .

ستطلع شمس الصباح الجميلة على القرية الوادعة ، وستقابل القرويات ، وستتحدث وتبتسم وتضحك ولكن بأي وجه ؟ وأى لسان ؟؟ وستقابل الزوج ، عندما يطلع النور ستواجه زوجها وتقف أمامه ، ولكنه لن يعرف شيئا ولن تعرف النسوة شيئا ، ولكنها مع هذا ستشعر بالخجل وتغض الطرف وتنكس الرأس ، وهى الجميلة المزهوة التى تعلو على أقرانها ولداتها .

ستسير فى القرية مطأطئة الرأس ، خافضة الطرف ، لاتستطيع أن تقابل نظرة امرأة بمثلها . . ستفعل ذلك ما دام الإحساس بالجريمة يلازمها ، وإذا ما بارحها هذا الإحساس ستنسى ، ولكنها لن تستطيع أن تنسى كل شىء . ستذكر دائما أنها فعلت ذلك بمحض إرادتها ، وكان عليها أن تقاوم ، وتمزق الثوب وتشق الجيب وتملأ الدنيا صياحا . إنها لم تأخذ شيئا ، لم تأخذ شيئا مطلقا ، وأخذ الرجل كل شىء .

ولن تذهب إلى البئر بعد اليوم ، لا فى الصباح الباكر ، ولا فى الليل الزاحف ، لا وحيدة ولا برفقة أحد ، كل ما توده الآن هو أن تنسى ، هو أن تحاول أن تنسى . كل شىء فى الحياة يتغير فى ساعة ، يتغير فى ساعة أزلية مسطورة فى صفحة حياتنا . لقد غدت الفتاة المشرقة الضاحكة الناضرة ، المرأة المشوهة المنكسرة الواجمة . . بعد ساعة مرت كالعاصفة .

فتاة الريف لاتزال بخلقها البكر ، لايزال ضميرها حيا ، لم تخدره بهارج المدنية الكاذبة ، إنها لاتزال ترى الأشياء على حقيقتها . لا تزال بطبعها البكر ، طاهرة نقية ، قوية الإيمان عفيفة الإزار . . تستهول الجريمة الجنسية ، وتستفظع الخيانة الزوجية ، وترجف حتى من مجرد التفكير فيها . هكذا شعورها بفطرته ، تعرف من غير معلم ولا مدرسة أنها خلقت لرجل واحد ليس إلا . رجل واحد يأخذ منها قلبها وجسمها ، ويستغرق تفكيرها ووجودها ، وتدفعها فطرتها على أن تكون له أبدا . أما إذا زلت قدمها ، وجرفها التيار إلى الوحل مرة ! فما الذى تفعله ؟ . تحاول ما تستطيع من قوة أن تنسى . . لأنها لو ذكرت ، ربما عاودتها مع الذكر أشياء لا تحبها ، ولا تود التفكير فيها .

ولما أشرفت على الجسر الذى ستنحدر منه إلى حيها راعها نباح الكلاب الشديد ، إنها لم تنبح بمثل هذه الشدة مطلقا ، إنها تطارد فى ظلام الليل أشباحا مخيفة تروعها ، وأحست بوخز الإبر فى جسمها . أخذ جسمها يرتعش ، ومع الرعشة برودة الثلج . فمالت إلى جدار قائم فى الطريق واعتمدت عليه دقائق . ولما رجعت لها بعض قوتها استأنفت سيرها ، وتقدمت تسحب رجليها سحبا ، وقد آب لها بعض حسها ، على أن جسمها كان يشوكه مثل الشوك دائما . وأخذت عينها الترعة ، وماؤها يتدافع ويجرى . وقد تراقصت الصور فى مخيلتها واختلطت ، بعد خطوات ستصل المنزل وتلاقى زوجها . وحدقت فى الماء وهو يجرى

متدفقا منطلقا كالسهم لاشىء يقف فى طريقه ، يجرف معه دقيق الحصى والتراب ، ويحمل على متنه خفيف الريش ، لقد حملها التيار ، إلى أين ذاهبة ؟ إلى أين ذاهبة ؟

ما الذى سيحدث لو علم زوجها ؟ سيذبحها كما تذبح الفروج ليس أيسر على الريفى من ذلك فى سبيل عرضه وشرفه ، وهو ثروته الباقية على الأيام . ماذا يحدث لو علم لداتها ؟ ما الذى سيحدث لو علم أقرانها اللاتى تزهو عليهن بجمالها وتشمخ . سيمزقنها بألسنتهن وستغدو حديثهن فى كل سمر ، ومتعتهن فى كل مجلس . ما الذى سيحدث لو علم أهلها ؟ أخوها أقوى شباب القرية سيدفنها حية ، كما دفنت ناعسة ومبروكة وعزيزة ، من فتيات القرية اللواتى حامت حولهن الشبهات ، وعفى عليهن الآن ذيل النسيان ، فلا يستطيع أحد أن يذكرهن لأن فى الذكرى جريمة . . حتى ذكراهن عند القروى جريمة .

ونزلت من الجسر إلى الدرب الذى فى نهايته منزلها ، ومشت مستريحة إلى الظلام المتكاثف ، كل ما توده الآن هو أن تسير فى جوف الظلام متقية به أعين الناس . لقد مشت على الجسر راجفة مروعة تخاف أن يبصرها خفير الدرك ، ولكنها الآن فى جوف الظلام آمن وأسلم .

وتقدمت فى الدرب متخاذلة متثاقلة تحس الأرض تنشق تحتها ، تصعد أكوام الرماد الملقاة عند أبواب المنازل وتهبط معها ، وهى تتصور أنها ترقى تل الصحراء . ولما بلغت باب البيت وقفت لحظات . . ثم تجاسرت ودفعته .

وكان زوجها نائما على السطح فانتبه على حركة الباب وصاح بصوت جاف :

- تأخرت يا جميلة . .

وكان صوت زوجها يرعد . أواه ظنته نائما فإذا بعينه ساهرة . فلم تجب . وغضت رأسها ووقفت فى صحن البيت جامدة ، ولو بصر بها زوجها لرأى أغرب صورة ، ولم ينتظر جوابها فصمت ، ثم قال بعد مدة :

- إسقى البقرة واعلفيها . .

ومضت فترة قصيرة سمع بعدها بكاء فسأل بغضب وقسوة ، فأسخف ما فى نظر القروى بكاء امرأة :

- ما الذى جرى ؟

فلم ترد . . وزاد نحيبها .

- ما الذى جرى ؟

وانتصب وأطل على صحن البيت .

- ما الذى جرى ؟ .

- الجـ . . الجر . . الجرة . . آه . . أهيء .

- كسرت ؟ . .

- أجل . . آه . . أهيء . .

- وهل تستحق كل هذا البكاء ؟ . . كفى ! . .

- آه . . أهيء . . آه . .

- كفى . . بصوت راعد .

فحبست زفراتها وغيضت عبراته ودفنت وجهها فى حجرها ونام الزوج وشخر ! .

زحف الأعمى إلى المسجد قبل الفجر وهو متخاذل الجسم متسعر الجمجمة ، وكانت قد ساورته فى الليلة التى خلت حمى شديدة تصبب لها عرق يملأ القرب ، وبات ليلته يتقلب على مثل الشوك ، ويود من فرط الحمى المتأججة فى جسمه من يقذف به إلى اليم ، بيد أنه تحامل على نفسه لما لاح النور ومشى إلى المسجد متوكئا على عصاه ، فما من الآذان بد . أجل ما من الآذان بد ، كيف يغفل عن آذان الفجر ! .

وصعد إلى سطح المسجد ووقف ناصبا قامته مادا عنقه ، ويده على الساعة يتحسس بها العقرب ، حتى حان وقت الفجر فوضع يده عند أذنه وانطلق ! ! . . ولكن ما هذا ؟ ما الذى جرى ؟لقد اختنق صوته واحتبس ، وأصبحت الحروف تخرج من حنجرته مصفرة عاوية عواء الذئب . ما الذى حدث ؟ ما الذى جرى ؟ حاول مرة ثانية فأخفق . وتمهل لحظة ، وحاول مرة ثالثة ، فأخفق . وتمهل لحظة ، وحاول مرة ثالثة ، فأخفق أيضا . وهبط إلى صحن المسجد ، وهو يهتز اهتزاز القصبة الجوفاء فى مهب الريح العاصف ، وتقدم حتى وقف على رأس رجل نائم .

- شيخ على . . شيخ على . .

- نعم . .

- قم لتؤذن الفجر . . فصوتى لا يطاوعنى اليوم . . أصابنى البارحة برد شديد . .

وبارح المسجد قبل مطلع الشمس ، وسار على الجسر حتى بلغ الحقول المجاورة ، وكان قد نال منه التعب ، وبلغ منه الجهد فاستراح تحت شجرة من شجر السنط ، وضربه

هواء الصباح على اذنه فنام حتى القيلولة ، وقام وقد حميت الشمس وتوقدت الهاجرة ، وانقلب الهواء راكدا خانقا يلفح الوجوه بوهج السعير . واستوى على قدميه وأمسك بعصاه واتجه إلى القرية ، وكل شىء فيها ساكن وادع إلا الأطفال ، الذين لايقيمون للجو وزنا ولا يبالون بحر أو برد .

- أحمد ! . . سيد الأعمى .

- صحيح ؟ . .

- والنبى . .

وتجمع الصبية على الجسر ، ووقفوا صامتين وعلى شفاههم بسمات خفيفة ، حتى جاوزهم الأعمى ، وهو يسير سيره المألوف . ولما بعد عنهم قليلا ، رماه أصغرهم بحصاة استقرت عند صدغه . ما هذا ؟ لقد أصابته للمرة الأولى أول رمية من أصغر صبى ، مالذى جرى ؟ وانهالوا عليه بعد ذلك يدا واحدة حتى أمطروه وابلا من الحصى والحجارة . فاستدار لهم الرجل ، وقد تميز غيظا ، ولوح بعصاه يهدد ويتوعد ، فتفرقوا عنه واستأنف سيره بعد برهة قليلة ، واستأنفوا هم بدورهم حصاهم وحجارتهم ، فما أقل الصبر عند الأطفال ، وأصابه حجر فى الجانب الأيسر فشجه وسال الدم . وآلمه الجرح جدا حتى خرج به عن رشده ، فدار على عقبيه وجرى وراء الصبية يضرب بعصاه يمينا وشمالا ، ولا يبالى أين تقع وتصيب ، وهو مخبول تماما ، حتى أصابت ضربة قوية صبيا فى رأسه فجرحته جرحا بليغا ، ونزا دمه الأحمر فلطخ وجهه . وكان الكلب رابضا على الجسر فى ظل جدار لمنزل خرب . وعينه إلى المعركة التى حميت واشتدت ، فقام ينفض جسمه نفض الليث ، وتوثب وثبات جامحة ، ثم دار دورات سريعة يقذف فى خلالها الهواء بغبار رجليه ، ثم انقض على الرجل فمزق الجزء الأمامى من ثوبه ! وطار به ، والصبية تبصر هذا ولا تكاد تصدق . وشجعهم الكلب على معاودة الكرة على الرجل فانهالوا عليه ، وقد حموا ونشطوا ، يرجمونه بالحصى والحجارة ، حتى انطلق الرجل يسابق الريح . . وما زالوا يتبعونه حتى أجلوه عن القرية ، ولما كلت سواعدهم رجعوا إلى القرية ضاحكين ، . وانطلق هو يجرى كالمخبول لا يلوى على شىء .

* * *

وبصر القرويون فى صباح اليوم التالى وهم فى الطريق إلى سوق «المركز» بجثة ملقاة على قارعة الطريق ، ومنهم من قال إنها لسيد الأعمى ، ومنهم من أنكر ذلك .

على أن الذى نحن على يقين منه أن الرجل لم يدخل مسجد القرية بعد ذلك أبدا . .

- بدأ برد الليل .

- . . . . . .

- منظر البحر من هنا ساحر .

- . . . . . .

- أمعك ساعة ؟ .

- أجل . .

- كم الساعة من فضلك . .

- التاسعة إلا خمسا . . فى إمكانك أخذ قطار التاسعـة إلى كونستنـزا أو التاسعـة والخمس إلى كارمن سيلفيا .

- لست رائحة إلى هذه ولا تلك . . أنا أعيش هنا .

- تمشى إذن . . فالجلوس الطويل مؤذ . . يسبب الروماتزم ووجع المفاصل .

- روماتزم فى صميم الصيف ؟ .

- أجل . . فقدماك الصغيرتان على أرض حجرية ، والأرض فى الليل تفقد حرارتها بسرعة بعكس البحر .

- ما كنت أعرف ذلك .

- والآن قد عرفته .

- ولكنك تتكلم الإنجليزية جيدا أأنت هـ . . .

- مصرى . .

- مصرى ؟! . .

- أجل . .

- ظننتك هنديا .

- لماذا ؟ . .

- من لون عينيك .

- ما الذى فيهما ؟ .

- السواد والسر . . الذى يطالعك فى أعين الهنود .

- . . . . . .

- أتضربون نساءكم بالسياط فى مصر ؟ . .

- دائما . . خصوصا إذا أكثرن من الكلام .

وتحركت من طرف المقعد حتى أصبحت قريبة منه ، وحدقت فيه برهة ، ولكنه لم يلتفت إليها فأخذت تقلب حقيبتها فى يدها ، ثم شدت جوربها الوردى ، وشبكت رجليها وقالت :

- أجئت إلى هذه البلاد سائحا ؟ .

- أجل . .

فاستراحت لهذا ، ولمعت عيناها فى جوف الظلام وقالت فى استغراب :

- وتضيع وقتك فى الجلوس !! من الواجب عليك أن تتمشى وترى المدينة .

- ولكنى ضجرت بعد ساعة .

- لأنه ينقصك الرفيق .

- لم أفكر فى هذا الرفيق مطلقا .

- ألا تحب التنزه على شط البحر ؟ .

- لا . . ما ألذ الجلوس هنا . . تستطيعين التنزه وحدك ، فالمرء يجتلى مجالى الطبيعة وحده ، وهذا أحسن وأمتع .

واخرجت سيجارة، ومالت بوجهها ، وكان شابا أسمر براق العينين أقنى الأنف طويل الوجه والشعر ،يرتدي حلة رمادية من الصوف الخفيف ، وقالت بصوت منغم :

- أمعك ثقاب ؟.

- آسف . . لا أدخن . .

- وتتضايق من رائحة التبغ ؟ . .

- أحيانا .

فرمت السيجارة فى الماء .

فقال وهو يتكلف الحزن :

- مسكينة . . من بين رقيقتين إلى فم البحر الواسع فضحكت وتحركت من مكانها حتى لاصقته وقالت :

- أتأسف عليها ؟

- جد الأسف . . وعلى كل سيئة الحظ مثلها ، لقد كانت دافئة ناعمة ملتذة ، فتلقفها اليم فى لحظة ، وانقلبت من الدفء والحنين ، إلى البرودة والوحشة ، ومن يدرى مصيرها ربما . . فقاطعته باسمة :

- أتقيم فى فندق بيلونا ؟ .

- لا . . فى كونستنزا .

- وجئت ايفوريا اليوم فقط ؟ .

- نعم . .

- ألا تود أن تستريح خمس دقائق فى بعض الغرف المفروشة ؟ .

- ومن الذى قال لك أنى تعب ؟ .

فضحكت وقالت :

- يبدو لى أنك كذلك ، والأحسن أن تستريح .

- أشكرك . . ليس عندى وقت .

- أتظننى ؟ . .

- العفو . . لم افكر فى هذا مطلقا ، وإنما أنا رجل مريض مشتعل الرأس والذهن دائما ، أحتبس فى غرفتى طول النهار وأخرج مع الظلام لأجلس هنا محدقا فى البحر ، فتستريح نفسى وتهدأ أعصابى .

- وإذا طلع عليك القمر ؟ .

- أعود لمكانى . . لا أواجهه مطلقا .

- ألا تحب النور ؟ .

- أبدا ، أبدا . . أعيش دائما فى الظلام ، فى بلدى وفى قريتى ، حفرت لنفسى سردابا تحت الأرض ، لاينفذ إليه الضوء ولا تشيع فى جنباته الحرارة ، أهبط إليه مع مطلع الشمس ، وأقضى فيه النهار كله مستريحا ملتذا حاسا بالدنيا كلها تحط بثقلها على ، أتصور وأنا فى جوف الأرض وفى أعمق طبقاتها أنى أحمل الدنيا على صدرى ، أحمل الدنيا على عاتقى .

- لا أحد معك فى كونستنزا ؟ .

- لا أحد . .

- جئت وحيدا ؟ .

- أنا وحيد أبدا فى كل مكان .

- ويضايقك الرفيق ؟ .

- دائما . .

- والكلام ؟ .

- والكلام .

وانطلق يصفر فى صوت خافت .

- أتعرف لحن الدانوب الأزرق ؟ .

- لحن الدانوب الأزرق ؟ . . لا .

- إنك تعزفه الآن .

- أنا !! . . آسف ، ما كنت أعرف ذلك .

- أود أن تكون صريحا معى . . أنترقب أحدا .

- أجل . . صديق انطلق بزورق إلى روسيا الحمراء .

- وهل تظن أنه يعود الليلة ؟

- من المحتمل هذا إن لم يبتلعه البحر .

- ومتى رحل ؟.

- فى السابعة . .

- لك إذن ثلاث ساعات وأنت جالس على هذا المقعد كالتمثال ، حسبتك أول الأمر تمثالا ، فلقد مضى على هنا أكثر من نصف ساعة وأنت لا تحرك جارحة فى جسمك ، ظننتك والله تمثالا من البرونز !

- أنا هكذا فى الليل .

- ولكن من المستحسن أن تتلفت إلى اليمين أو إلى اليسار على الأقل !.

- وإذا تلفت مثلا ما الذى سأراه ؟.

- حاول . . وسترى !.

- حاولت مرارا وعدت خائبا . . شعر أشقر حرقه الأكسوجين . وعينان زرقاوان أضناهما السهر . . وأزالت المدنية ما عليهما من هدب وحاجب . . وبشرة شاحبة تتغضن قبل الأوان ، ثم المساحيق والألوان وطلاء المدنية الزائف على الشفة والخد ، لا . . لا . . لقد ضقت ذرعا بهذا .

- لا شىء من هذا كله .

- حقا ؟ . . ماذا إذن ؟ . .

- شعر غزير فاحم ، وعينان سوداوان فيهما بريق وحنين وشوق . .

- إيه ؟ . .

- وبشرة ناصعة البياض ، إلا قليلا من الحمرة الخفيفة على الخد الملتهب أحيانا . .

- ثم . .

- ثم فم صغير حالم ينفرج عن شفتين ورديتين ، أبدا ترتجفان !!.

- ثم ماذا ؟ . .

- ثم شباب وعافية ، و . . . فقاطعها باسما :

- وصوت موسيقى عذب . . يا إلهى ! أأنت رومانية ؟. فمالت عليه بوجهها حتى صافحته أنفاسها ، وهزت رأسها .

- وتقيمين فى ايفوريا ؟.

- فى كارمن سيلفيا . . أرأيتها ؟.

- لا . .

- إنها أمتع من ايفوريا وأجمل . ألا تحب أن تراها الآن ؟ نأخذ هذا القطار ونصل بعد دقائق .

- آسف لا يمكننى الآن .

- لماذا ؟.

- لأنى لا أعدل بهذا المكان بديلا . . ولا حتى الفردوس المنتظر .

- هذا قرارك ؟.

- أجل . .

- عم مساء يا سيدى .

ومدت يدها فشد عليها من غير وعى .

- عمى مساء يا سيدتى .

وتبعها ببصره وهى تسير الهوينى حتى احتواها الظلام .

***

ونهض عن مقعده ، ووقف عند السياج الحديدى يرقب البحر وهو يرمى الشاطىء بموجه المتكسر على بعض الصخور البعيدة ظلام يعقبه ظلام ، يأتى من بعيد ، يحمله البحر من عالم آخر ، من دنيا أخرى ، دنيا كلها ظلمات .

واشتدت الرياح وهاج البحر وماج ، وهو واقف مكانه يحدق فيه واجما ، ويده التى صافحت الفتاة تعتمد على الحديد ، وبقى هكذا حتى شعر ببرودتها تدريجيا . كانت يده منذ دقائق حارة يجرى فيها دم الشباب فعاد دمها ببطء يتقلص ويتراجع ، فرفعها عن السياج وأخذ يقلب البصر فيها ، هذه الفتاة لمست عندما صافحته شيئا خامدا فى أعماق نفسه فتحرك ، لم يدر بخلده أن يد الفتاة لمست دمه فتحرك من أعماق حسه ، ثم هبط كل

شيء ، بعد لحظات ، وعاد لحاله الأول، تقلص الدم وكر إلى ظلمات حسه ، إلى ظلمات نفسه ، فوقف واجما شاردا .

وتطور إحساسه عقب هذا ، فبارحه شعوره بلذة الوحدة وأخذ يعتوره الضيق وينتابه القلق وتكتنفه الوحشة . هذه الفتاة المسكينة شوشت عليه سكونه ، وأفسدت عليه وحدته ، من حيث لا تحتسب . شعر بعد براحها بالانقباض والضجر والتذمر ، فانمحت عن باصرته روعة الأفق وسكون الليل وبهجة الظلام . هذه المسكينة حركت ساكنه ، وأثارت ماضيه ورجعت أيامه .

ما الذى لقيه من الحياة وهو فى سن الشباب والفتوة ؟ ما الذى أخذه من الحياة وهو فى ربيع عمره وميعة صباه ؟ . . لا شىء . . لاشىء . .

وزادت به الوحشة فأخذ يتمشى على الشط ، وعينه إلى البحر ، وقد مات فى نظره كل ما كان ممتعا رائعا أخاذا ، البحر والليل والمدينة الهاجعة والمصابيح الخافتة الضوء . والسحب المتكاثفة والظلام المخيم ، والنجوم البعيدة المتألقة فى قلب السماء . عاد كل ما كان فى عينه منذ دقائق جميلا رائعا فتانا ، مشوها مغيظا محنقا . فرد عينيه عن البحر وأنصت لوقع قدميه القويتين على الأرض الحجرية ، وأخذ يرقب المتصيفين وهم يسيرون الهوينى على الشط مثنى . . مثنى . . رجل وامرأة دائما ، يسيران على مهل متلاصقين متلاحين ، يتجاذبان أحاديث الهوى ، ويتراشقان لحظ الصبابة ، فذاب قلبه حسرات .

كل ما فى الحياة يبغى رفيقا ، إلا هو . . لقد قضى حياته وشبابه وحيدا منعزلا مستفردا عن الناس أجمعين ، فأى حياة ؟ وأى شباب ؟ .

ووصل إليه صوت الهمسات والضحكات التى ترن فى سكون الليل ، وبدأ المرقص يعزف لحنا صاخبا مثيرا ، فارتد عن البحر متجها إلى المدينة ، وجاز الشريط الحديدى وأشرف على الطريق المرصوف ، وعلى جانبيه الأشجار كأنها الأشباح ، فأحس بالرهبة والوجل والذعر . فأن يعيش لنفسه ويسعد لنفسه ويشقى لنفسه بعد اليوم ، فذلك هو السعير المقيم .

لقد كان سعيدا بوحدته ، قانعا بعزلته ، ملتذا بوجوده ، فمن الذى ساق إليه هذه الفتاة ؟ من الذى رماه بهذا السهم ؟ لقد نفذ السهم إلى أعماقه فهز طياته ، لقد لمست الفتاة الوتر الحساس من قلبه وكيانه ، فتحركت نفسه وثار قلبه ، لقد كان ناعما بعزلته قانعاً بوجوده ، فمن الذى ساق إليه هذه الفتاة ؟ تلك إحدى القارعات .

كان لابد من المرأة فخلق لنفسه امرأة ، وكان لابد من الحب فانعم وجوده بالحب . . خلق امرأة لنفسه بنفسه ، وغمر كيانه بالحب لينعم ، ومضى الحياة يحلم ، وما كانت هذه

هى المرأة ، ولا هذا هو الحب .

لقد قالت له الفتاة إنه ينقصك فى الحياة الرفيق ، وهذا حق ، فما ينقصه فى الحياة غير الرفيق ولكن أين الرفيق الآن ؟ شعر بقلبه يحترق ويذوب بين ضلوعه .

حتى الحيوانات لها رفاقها فى الأجم ، حتى الشوارد لها قرناؤها فى البرارى ، حتى الطيور لها رفاقها فى الأيك ، حتى العجماوات والحشرات لها رفاقها على ظهر الأرض وفى أعمق طبقاتها ، فلم ينفرد ؟ كل ما فى الحياة يبغى رفيقا ، فلم يعيش وحيدا ولم يتعذب ؟ .

خلقت المرأة للرجل وخلق الرجل للمرأة ، ولا بد أن يتلازما ورمق المنازل الصيفية البيضاء وهى تلمع فى قلب الظلام ، والمصابيح القائمة فى الطريق ، ترمى الأرض بالضوء الأحمر الباهت ، وكان يسير متثاقلا ساهما شاردا ، حتى أشرف على طريق صغير يمتد من الطريق العام ، فضرب فيه ، ورأسه مفعم بشتى الخواطر الصاخبة ، وجسمه ثائر وروحه قلق جامح ومات فى عينيه كل شىء بالتدريج ، ولم يعد يحس بما يلذ ويمتع انقلبت الطبيعة جحيما يتلظى .

ومضى فى الطريق ، وقد أسرع من غير موجب ، حتى لمح عن بعد ظل امرأة تسير ببطء . . فمد قامته وجمع حواسه وانقلب كله بصرا . . ووضحت قامة الفتاة فى لباسها الوردى لما مرت تحت بعض المصابيح ، فوقف وبصره إلى ظلها الذى أخذ ينسحب وراءها ويتضاءل . . إنها بعينها لم تغير مشيتها ، تمشى الهوينى متثاقلة آسفة .

ووقف يحدجها بطرفه ، وهو كلما حاول أن يخطو وراءها ردته قوة خفية عن هذا فوقف فى مكانه جامدا . .

ثم استدار بعد هنيهة وأخذ يستقبل من طريقه ما استدبر ، وقد هدأت ثائرة نفسه نوعا . حتى قرب من الفندق الذى سيبيت فيه ، فأسرع نحوه وصعد درجاته صامتا ، ومال إلى غرفته وفتح بابها برفق ، ودخل واستلقى على مقعد ذى مسندين مستريحا إلى أثاث الغرفة الأنيق ، حتى سمع نقرا خفيفا على الباب فأذن للطارق ، فدخلت فتاة حسناء فى لباس أزرق جميل فأدرك أنها فتاة الفندق .

- مساء الخير يا سيدى . .

- مساء الخير يا سيدتى .

- تأخر السيد عن العشاء . . أتتعشى الآن ؟ .

- شكرا . . لا أشعر بالجوع . . أين حقائبى ؟

- عند صوان الملابس . . أتودها ؟

- أصغرها . . أشكرك .

وجاءت له بالحقيبة ففتحها ، وكانت مفعمة بكتب إنجليزية معظمها من طبعات «الباتروس» وقال وقد وضع كتابا منها على منضدة أمامه :

- لم أرك فى الصباح لما جئت . . أيبدأ عملك فى الليل ؟.

- أجل يا سيدى . . بعد السادسة .

- حتى منتصف الليل .

- إلى ما يقرب من ذلك .

وقال وهو يقلب صفحات قصة لجويس «أرومانية ؟» .

- نعم . .

- وسحت فى البلاد كثيرا ؟.

- رأيت المجر وبولندا .

- فقط ؟.

- فقط .

- ومصر ؟.

- مصر ؟ مصر العزيزة لم أرها بعد . . أحلم بالشرق الجميل دائما . . مصر والأهرام وأبو الهول والصحراء . . هذه دنيا أخرى ، دنيا حبيبة ساحرة ولكنها بعيدة كالفردوس .

- أتحبينها ؟ . . أقرأت عنها كثيرا ؟.

- جدا . . وأذوب شوقا إلى رؤ يتها .

وصمت ، ووجهه فى الكتاب ، فظنته استغرق فى المطالعة فهمت بالخروج . . ولكنها توقفت أدبا منها لما سمعته يقول :

- أتتكلمين الإنجليزية بجانب الفرنسية ؟.

- قليلا . .

- والرومانية ؟.

- بعض الأحيان أنساها !.

وزاد بريق عينيها المشبعتين بالنور ، ولمعت شفتاها القرمزيتان ، وكست الابتسامة الفاتنة وجهها الناضر الجميل ، فقال ضاحكا مستريحا لوجودها شاعرا بالسرور المحض .

– بعض الأحيان ينسى المرء كل شيء فى الدنيا .. حتى لغته ..

– أجل .. أستمكث هنا طويلا ؟.

– طول الصيف ..

– فى ايفوريا ؟..

– فى فندق «ب» .

وغمر كيانها السرور الباطن ، فاهتز عودها وأشرق وجهها ووقفت تلاقى نظراته القوية بنظرات لينة .. حادة !.

وتمدد على الكرسى الطويل وفتح الكتاب يطالع .. فأشعلت له مصباحا جانبيا ووضعته خلفه .. ثم مشت على أطراف أصابعها نحو الباب وهى ترميه بنظرات جانبية خاطفة ، ولما أدارت أكرة الباب ، انتبه على حركتها ورفع وجهه عن الكتاب ورشقها بنظرة .. فابتسمت ووقفت ويدها على مصراع الباب ، وقالت بصوت حلو الجرس :

– ألست فى حاجة لشيء ؟..

– لا .. شكرا .

– مطلقا ؟..

– مطلقا ..

وقد تلاقت عيناهما بضع ثوان ..

وسحبت الباب ، وراءها ببطء شديد ، وشيعته بآخر نظرة .. وعاد لكتابه واستغرق فى المطالعة ناسيا الدنيا وما فيها من ظلمات ، حتى أشرق النور .. نور الفجر .

فندق الدانوب

وقصص أخرى

فنـــدق الـــدانـــوب

عدت إلى كونستنزا ، ونزلت فى «فندق الدانوب» مرة أخرى ، كما شاءت كاترينا ، على الرغم من أنه ليس من الفنادق التى تشتهى فى هذه المدينة ، فهو يبعد عن البحر ، ويبعد كذلك عن أنظار السائحين ، والجانب الأكبر من حجراته لا يدور مع الشمس ، ولا يشرف على مناظر خلابة ، وهو إلى جانب هذا يقع فى قلب المدينة ، وعلى خطى قليلة من الخط الحديدى ، فالمقيم فيه ينام على صوت العجلات وهى تدور على القضبان ، وينهض على صفير القطر وهى تبرح المحطة !

على أن كل شىء يتحول فى نظرك إلى جمال وفتنة عندما ترى كاترينا . . تلك الفتاة الروسية الجميلة التى تعمل فى الفندق .

وكنت قد لبست حلتى وتهيأت للخروج عندما دخلت كاترينا غرفتى فحيتنى فى ابتسامة ساحرة ! وهصرت ستر النافذة ، وقالت ووجهها مشرق على الطريق :

«نمت نوماً عميقاً وحلمت بكاترينا كالعادة ؟»

«أجل ياكاترينا . . . وحلمت أننا نجرى على ساحل البحر فى كارمن سلفيا . . . وأنت تطفرين من المرح وتقذفيننى بالكرة . . . والآن هل تحققين هذا الحلم . . . ؟»

«مـاذا ؟ أتنـزه معـك ؟ والعمـل والفنـدق ؟ . . . أنـا لا أمشى مـع الشبـآن فى الطرقات ! . . .»

«طبعاً ياكاترينا . . . أنت لا تمشين مع الصعاليك من أمثالى . . . !»

«آه . . . صعلوك . . . ماذا تقول ، صنعلوك ؟ لا تقل هذا !»

ومالت بخصرها على مائدة صغيرة فى الغرفة وهى تهتز من الضحك وتزيح خصل الشعر المتدلية على جبينها ؛ وتمر بأناملها على فمها ، وقد تورد وجهها وأشرق محياها . . . ثم

سكنت نأمتها . . وأخذت ترنو إلىّ وعلى وجهها سحنة الفتاة الريفيـة التى لا تعرف من صروف الحياة شيئاً . . . وقالت بصوت حلو لين النبرات :

«أنت لا تعـرف شعور الفتـاة ياشـوقى . . . كيف أخلع رداء الحياء وأمشى على شاطىء البحر شبه عارية وعيون الشبـان تأكلنى ؟ كـلا . . . أنا فتـاة من أسرة روسيـة معروفة . . وأنت تقول لى هذا الكلام لأنك لا تعرفنى . . ترى أمامك فتاة فقيرة تعمل فى فندق . . هذا هو كل ما تعرفه عنى . . . إفهم شعور العذراء ياشوقى !»

«طبعاً . . . أنا أعرف شعور العذراء ياكاترينا . . . ولكن هذا لا يمنعك من التنزه معى لترى الدنيا . . . الدنيا ليست هنا فى هذا الفندق . . .»

فاحمر وجه كاترينا ، وأسبلت جفنيها ، وغضت رأسها كطفل صغير ارتكب عملا يعده مزرياً . . . ثم رفعت أهدابها وقالت بصوت خافت :

«كيف أخرج معك بهذا الثوب . . . ؟ أنظر . . . !»

ونظرت إلى ثوبها وكان يبعث على الرثاء حقاً . . . !

«أليس معك غيره ياكاترينا ؟»

فغضت رأسها ثانية ، وانسدلت أهدابها على هاتين العينين الزرقاوين اللتين لا تعرف من أسرارهما وتعابيرهما شيئاً . . .

ورفعت جبينها وقالت ويدها على عاتقى :

«أبداً . . . أنا فتاة وحيدة وفقيرة . . . !»

«سأجود لك بثوب جديد يا كاترينا . . .»

فاهتز جسمهـا . . . كأن سيـالا كهربـائيا سـرى فى ألياف لحمهـا . . . وطوقتنى بذراعيها ، وقالت وهى نشوى طروب :

«والآن ، سأجىء لك بالإفطار . . . وسنفطر سوياً . . . ولكن لا تأكل الطعام كله كما تفعل دائماً ، ولا تدع للصغيرة المسكينة كاترينا شيئاً . . . أوه . . . أنت مروع !»

***

رجعت ذات ليلة إلى الفندق متأخراً ، بعد أن قامرت وأفرطت فى الشراب . . . لعبت الروليت فى الكازينو وخسرت كثيـراً ، وطيرت الخسـارة الأحلام من رأسى . . . وصعدت درجات الفندق متثاقلا حتى بلغت غرفتى . . . وقد خيم السكون العميق على

الطابق كله . . . وفيما أنا أدير المفتاح فى الباب سمعت رنين قبلات فى إحدى الغرف . ثم صوت ضحكات . . ضحكات كاترينا بعينها ، فلا أحد يضحك مثلها بقلب طروب . . . وسمعت إثر ذلك صوتها وهى تتحدث فى همس . . . وفتحت باب غرفتى ودفعته ورائى بغيظ وحنق .

وبعد لحظات فتح الباب برفق ، ودخلت كاترينا وهى تتثاءب وعيناها شبه مغلقتين ، كأنها مستيقظة من نوم عميق . . . أو أفاقت فى التو من تأثير مخدر ! وجلست على الديوان وهى تفرك عينيها ووضعت ساقاً فوق أخرى ، ومالت بجسمها إلى الوراء وقالت وهى أشبه بالنائمة أو الحالمة :

«لماذا تأخرت هكذا ؟ كنت فى الكازينو طبعاً . . . لقد أبصرت بك ليزا مع بعض الغوانى . . .»

فصمت ولم أجب . . . ونظرت إلى هذه الفتاة وهى تتكسر وتتثاءب ، وتتصنع التعب الشديد ، وتحاول الاستفاقة من النوم ، وقد كانت منذ لحظة فى أحضان رجل ، وحاولت أن أقرأ فى عينيها شيئاً ينم عن حقيقة أمرها فلم أستطع

وجلست صامتة وهى تسارقنى النظر . ثم نهضت ومشت إلى صوان الملابس وجاءت لى بجلبابى ، فتناولته منها ، ودفعتها عنى ، فابتعدت قليلا ولم تقل شيئاً ، وظلت هادئة ووجهها ساكن الطائر ، ونظراتها لا تتغير .

وقلت بصوت خشن ، وقد تحول بصرى عنها :

«والآن أريد أن أنام يا كاترينا . . .»

«ألا تريد شيئاً . . . ؟»

فرفعت وجهى ونظرت إليها نظرة يتطاير منها شرر الغضب . . فوقفت فى وسط الغرفة أكثر من دقيقة وهى لا تبدى حراكا ، ولا تحرك ساكناً . . . ثم ت متثاقلة إلى الباب . . .

وأغلقت الباب وراءها بعنف وغيظ ، ولا أدرى لماذا كنت أحنق إلى هذا الحد .

وذهبت مرة إلى مطعم من مطاعم السمك الفخمة فى شارع كارول لأتعشى . . . بعد أن ترددت طويلا فى ولوج بابه . . وجلست فى ركن بعيد عن الخلق ، وأنا شاعر بالنفور والقلق . . . ودرت ببصرى الحائر فيمن حولى . . . كما ينظر الرجل الغريب إلى قوم لا يعرفونه . . . وشد ما كانت دهشتى عندما لمحت كاترينا جالسة إلى مائدة فى وسط القاعة مع كهل أنيق الملبس رائع المظهر . . وكانت ترتدى ثوباً من الحرير الفاخر لا ترى مثله إلا فى

قصور الامراء ! . ولما وقع نظرها على ابتسمت ، وأحنت رأسها فى أرستقراطية أصيلة ! . . . ولمحت فى عينيها وهى تنظر إلىّ ذلك البريق الخاطف الذى يبدو ثم يختفى فى لمح الطرف . . . ولا تعرف منه شيئاً على الإطلاق . . . ونظرت إلى هيئتها وبزتها ، وقارنتها بالنساء الجالسات فى المطعم فإذا بها تبزهن جميعاً . . . فهى آنق مظهراً ، وأحلى شكلا ، وأنضر وجهاً . . . ورجعت أذكرها وهى فى ثوبها الأبيض البسيط فى الفندق كفتاة ريفية ساذجة يبدو لك من مظهرها أنها لا تعرف من شئون الحياة شيئاً . . . وأدركنى العجب .

وغافلتها وهى تحادث صاحبها ، وانسللت إلى الخارج

وعدت من بعض المراقص إلى الفندق ، فوجدتها جالسة فى غرفتى منكبة على المكتب تكتب رسالة ! ورفعت وجهها لما شعرت بى . . . وتوقفت عن الكتابة ونظرت إلى وهى باسمة . . . ثم عادت تكتب ، وبعد دقيقتين طوت الرسالة وغلفتها وقالت :

«إننى أكتب رسالة إلى صديقة عزيزة فى بلغراد . . . هل رأيت ذلك العجوز الذى كان معى الليلة فى المطعم ؟ إنه عمى ! . . جاء أمس من بلغراد ، وحدثنى عن مرض كاتوشنكا العزيزة ، فجلست أكتب إليها هذه الرسالة فى الحال . إنها من أعز صديقاتى وقد طردنا الحمر معاً ، وكنا نعمل سوياً فى بودابست ، ثم طوحت بنا الأقدار . . ومازلت أنحط حتى وصلت بى الدرجة إلى العمل فى هذا الفندق ! هل تتصور أننى سأترك هذا اليهودى يحاسبك على هواه . . ويقدم إليك الكشوف فى آخر الشهر كأنك مهراجا من الهند . . . كل شرقى عند هذا الرجل الجشع مهراجا . . لا . . أنت طالب مسكين ياشوقى ، عندما يجىء ديمترى ويدفع لك بهذه الأوراق ألقها فى هذه السلة . . سأحضر الحساب ، فلا تسل عن ذلك اليهودى ياشوقى !»

وكانت تتكلم بسرعة كأنها تتلو من ورقة أمامها . ثم كفت عن الكلام ، ونظرت إليها فإذا بها ساهمة كأنها تفكر . . ولأول مرة أشاهد كاترينا تفكر فإن رأسها الصغير الجميل لا يتسع للتفكير . .

وطوقتها بذراعى وقلت لها :

«هل نذهب غداً إلى إيفوريا ؟»

«أجل . . ولكن ليس إلى إيفوريا . . أو كار من سلفيا . . أو مامايا . . سنذهب بعيداً بعيداً عن كل هذه البلاد . . »

وكانت تحلم ، وما أعذب الأحلام فى رأس فتاة فى مثل سنها وجمالها . . وضممتها إلى صدرى فسكنت واستراحت ، وأغمضت عينيها نصف إغماضة ، ثم انتفضت فجأة واعتدلت فى جلستها وصاحت .

«ما هذا الجنون ! . . أنت تعرف أننى عذراء . . أنت مروع !»

***

وسافرت من كونستنزا إلى مدينة صغيرة على الدانوب ، وعدت منها بقطار بوخارست السريع إلى الميناء مباشرة . ولم أشأ الذهاب إلى الفندق مخافة أن ألتقى بكاترينا فتبقينى أياما أخر .

ولما اقترب موعد السفر ، صعدت إلى ظهر السفينة ووقفت على الجسر أرقب حركة المسافرين والمودعين ، وقد علت وجهى تلك الكآبة التى تعلو الراحل عن بلاد يحبها . . بلاد قضى فيها أسعد أيامه وأمتع لياليه ، وكانت الشمس قد غربت ، وبدت تلك الميناء الصغيرة تتلألأ فى غبش الغسق . . وأخذت أستعرض فى ذهنى الصور الجميلة التى مرت على فى تلك البلاد . . مناظر سينايا الخلابة . . وشواطىء الدانوب الساحرة . . وحسان بخارست . . وغانيات كارمن سلفيا . . وفاتنات ممايا . . وفندق بولونا . . وفندق الدانوب . . وكاترينا . . أجل كاترينا . . واتكأت على السور الحديدى ، وعينى إلى الأفق ، وكل شىء يمضى سريعاً . . ولمحت فتاة تهبط المنحدر المشرف على الميناء ، وكانت تمضى على عجل ، وبصرها لا يتحول عن السفينة . . وفتحت عينى وتبينتها فكانت كاترينا . وقفت لحظة حائرة . . ثم نقلت بصرها فى الركاب . . ولمحتنى فجرت على الرصيف حتى وقفت أمامى وهى تلهث . . فنظرت إليها مشدوها وسألتها :

«ما الذى جاء بك . . ؟ وكيف عرفت أننى سأسافر اليوم ؟»

«هذا سهل ! . . دعك من هذا الآن كيف حالك . . ؟ شد ما تغيرت ونسيت كاترينا المسكينة التى لا يذكرها أحد . . !»

ولم أستمع لباقى حديثها . . فقد درت ببصرى فى الركاب لأحصى عدد الذين جاءت تودعهم كاترينا . . فلابد أن يكون منهم من نزل فى فندق الدانوب والتقى بها !

ورأت نظراتى . . وقرأت ما دار بخلدى . . فامتقع لونها وغضت طرفها . . ثم رفعت رأسها وقالت ، وقد اختلجت نبرات صوتها :

«شوقى . . هل تحسب أننى جئت أودعك . . كلا . . أنت مروع ! إننى جئت أرقب هذه السفينة وهى مقلعة وسائرة برهة فى الطريق الذى تسير فيه السفن إلى وطنى . . سأركب هذه السفينة يوما ما . . وأعود إلى وطنى ، وأرى بافلوفنا . . وسونيا . . وأولجا مرة أخرى . . إننى أجىء إلى هنا كل أسبوع وأرقب السفن وهى مبحرة . . وأتخيل أن ذلك اليوم سيأتى ولابد أن يأتى . . فلا تحسبنى أننى جئت أودع الصعاليك أمثالك !»

فاستغرقت فى الضحك .

«لا تقولى هذا يا كاترينا . . إننى مسافر اليوم وسأعود غدا لأراك ، ولا بد أن نلتقى ثانية . .»

«حقا . . ؟»

«أجل . . لا بد وأن أعود فى العام المقبل ، وكل عام بعده ، لأرى كاترينا . .»

«والآن أسكت واقترب . . أرأيت . . ؟ . . إننا لا نستطيع أن نتصافح ، إنتظر لابد من ذلك . .»

واحمرّ وجهها ولمعت عيناها . . وظهرت فى أبدع ما كونها الله . . وقد اختلجت شفتاها ، وتهدل شعرها ، ورف لونها وتورد خداها ، وعلت أنفاسها ، ومالت برأسها إلى الوراء ، وارتفعت بجسمها قليلا . . وانحنيت عليها . . والتقت يدانا وتصافحت أنفاسنا . .

ودوى صفير الباخرة . . وتراجعت كاترينا . . ووقفت جامدة كالتمثال وعيناها مخضلتان بمثل الدمع . .

وشيعتها ببصرى وهى تصعد المنحدر الذى جاءت منه ، ولكنها لم تكن تمضى مسرعة . . بل كانت تسير على مهل كاسفة البال حزينة . . كأنها استفاقت من حلم .

«تشرب . . . ؟»
«لا . . وأشكرك . . .»

فانحنى مساعد السائق ، ووضع القلة الفخارية المفحمة فى ركن من القاطرة ، وانتصب وهو يمسح بيده الماء السائل من جانبى فمه ، وتحول إلى النافذة وقال بعد أن لمح نور إحدى القرى :

«الفكرية ؟ . .»
«آه . . . . . .»
«. . . . .»
«فحم . . . . . .»

ففتح المساعد باب الفرن المستدير ، ورمق النار وهى تتضرم وتلتهب ، وطالعه وهجها وسعيره ، فارتد عنها وأمسك بجراف الفحم ، وقوس ظهره وغيب طرف المجراف فى المخزن ، ثم استدار وتقدم خطوة وعينه على الباب ، ورمى النار بالوقود ، فخمدت جذوتها وتلوت ودخنت ، ثم شبت وامتدت ألسنتها على الحديد والتصقت بجدران الفرن ، ودارت على جوانبها وسقفها ، وزادها تيار الهواء ضراماً وسعيراً . . ورمى المساعد النار بمجراف آخر ، ثم رقبها لحظة ، وكأنه شعر بحاجتها إلى المزيد فرماها بمجرافين معاً ، وضم الباب بيده ، ونصب قامته ويده على مقبض المجراف ، وطرف كمه الممزق يمسح العرق المتصبب الملوث بغبار الفحم وقطرات الزيت ، ونزلت يده على جنبه وتنفس ، وقال فى صوت هادىء تشوبه بعض المرارة :

«كل شىء تغير فى هذه الدنيا بعد الحرب . . حتى الفحم»

فسأل السائق ، وعينه على الطريق ، وظهره إلى مساعده :

«لماذا . . ؟»

فقال المساعد فى حماسة غير منتظرة ، وهو ثرثار ضامر ناحل الجسم معروق :

«كان الفحم قوالب ضخمة . . كارديف . . وكان القالب الواحديسير قاطرة بأسرها . . كنا ننزل القالب فى حوض الورشة ونضربه ضربتين على يافوخه ، ومثلها على جنبه ، فيتهشم ويتناثر ، فننضحه بالماء ، وندفع منه المجرافين أو الثلاثة فى النار وننام على حسه !! أما الآن فهذا الفحم كعيدان الذرة لا خير فيه . . »

فتحول إليه السائق بجانب وجهه ، وبصره لا يزال عالقاً بالقضيب ، وقال باسما فى خبث :

«تعبت . ؟ !»

«تعبت !! . . لا يزال نور المنيا باديا . رحم الله أيام الشباب كنا نعمل فى الورشة أكثر من عشر ساعات وقوفا على الأقدام ولا نفكر حتى فى الطعام . كان أحسن الله إليه . . .»

وحبس سيل الكلام بعد أن بصر بالسائق يتراجع إلى الوراء ويرقب البخار . . وسأله :

« ٥٩ ؟ . . »

«٨ . . . »

ثم نسى ما فيه من حديث وأمسك «بالأسطبة» وأخذ يلمع جوانب الفرن وعجز الآلة الضخمة ، ويزيل الزيت اللاصق بالحديد والنحاس ، والأنابيب الصفراء الملتوية . والمعدنية الدقيقة ، ولما وصل إلى محبس البخار بدا له أن ينفس عنه قليلا ففعل . وهب البخار القوى من بوق القاطرة وهو ينز وينش ، وطار مع التيار ، ولما قفل المساعد المحبس ثانية ، رضت أصابعه بعض المفاتيح الصغيرة ، فعبس وكشر ، وصمت محنقا ، وكان صمته منتهى ما يرجوه السائق !

وكان السائق واقفا عند نافذة القطار الزجاجية الصغيرة يرقب الطريق ، وهو يدخن ، وكان يتحول عن موقفه من حين إلى حين ليلمح الساعة وضاغط الهواء ، ودرجة البخار ومقياس الطريق ، ثم يعود إلى مكانه عند النافذة ، ويده فى سرواله الأزرق ، وسترته تنحسر عن صدره العريض القوى البارز ، وعلى كتفيه وفى طرف كمه الزيت الملوث بالفحم المنضوح . وكان فى وقفته ساكن الملامح هادىء النفس ، ثابت الجوارح ، راسخ القدم ، فعل الواثق من نفسه وعمله ، وكان لصلابة عضلاته ووثاقة تركيبه وقوة أعصابه أثر واضح فى ذلك .

أما المساعد فقد مال بظهره على ركن القاطرة تحت مخزن الفحم ، بعد أن أشعل سيجارة من جمرة جذبها من الفرن ، وانطلق يدفع الدخان ويفكر ، ونظره لا يتحول عن السائق الواقف أمامه فى حلته الزرقاء . ولما مد السائق رجلا وثنى الأخرى وعينه مستقرة على الطريق ، انتصب المساعد وحدجه بطرفه ، وتحول إلى ظله الجارى على الأرض ، وأنعم فيه النظر فى سكون حتى بصر به ينسحب بعد لحظات ، فرفع وجهه ، وكان السائق قد انحنى عليه وفى فمه سيجارة جديدة فأخرج المساعد سيجارته من فمه وناولها إياه ، وقد تلاقت أعين الرجلين واختلطت أنفاسهما ، ونظر المساعد فى حدة إلى عينى صاحبه العميقتين السوداوين ذواق البريق العجيب ، وإلى ملامح وجهه المعبرة القوية الساكنة ، وجبهته العريضة البارزة ووجهه الأبيض المستطيل . . وأحس بتضعضعه وخوره أمام قوة صاحبه وغلبته ؛ شعر أمام السائق بالعجز والضعف والونى ، فتحسر وتقبض ، ولما ارتد السائق إلى مكانه من النافذة أخذ المساعد يتفرس فيه ، ويقارن بين جسمه القوى المصبوب ، وبين نفسه ، وهو الناحل الضامر المعروق ، وفتق هذا التأمل المستكن ذهنه حتى أخذ يستعرض فى مخيلته عمل كل منهما ، وشغله هذا التفكير حتى نسى أن ينفض عن السيجارة رمادها ، أو يمحو عن فمه ما ارتسم عليه من أسى مشوب بالحقد والحسد . . وانطلق يحدث نفسه :

«ما الذى يفعله هذا السائق . . يحرك القطار فى المحطة ثم يتركه بعد ذلك للأقدار . . ويمضى معظم الليل واضعا يده فى جيوبه يدخن : ويتلهى بالنظر إلى الطريق ، وكل ما يعمله هو مراقبة عقرب الساعة ومقياس البخار والضغط والطريق . . وبعض الأحيان يتواضع ويمسح ما على الساعة من غشاوة !! ثم بعد هذا كله يلقى الأوامر ، غذ النار . . ند الفحم . . زيت الآلات . أما أنا فأظل الليل طوله واقفا على باب جهنم أضرمها وأغذيها وأصلى بنارها ، وأمسح ما على الحديد من غبار وفحم وزيت ، حتى يلمع ويصقل ، وجسمى عليه ضعف قاذوراته . وإذا وقف القطار فى المحطة نزلت تحت العجلات وانبطحت على الأرض لأزيت العدد الصغيرة والدوافع والجواذب ، وأمسح معدن الذراع ، فحتى هذا يجب أن يكون لا معا ! . وإذا ملأنا مخزن الماء طوقت الخرطوم بذراعى ، ودفعته عن الخزان بجسمى فيصيبنى هاطله ، ويزيدنى بلاء على بلائى . . هذا هو عملى وعمله ، ومع هذا فأجره ضعف أجرى ويزيد ، وأوقات فراغى وراحتى ليست كأوقات فراغه وراحته . . وامرأته عاقر وامرأتى تجىء فى كل عام بمولود سعيد ! وأولادى من فرط الطوى ضامرون مهزولون يترقبون الصيب من السماء ليربوا ويكتنزوا ويملأوا البطون بالطعام ، والسماء لا تجيب ! وهو فارع قوى مفتول يفور جسمه بحرارة الشباب ، وأنا قمىء ناحل معروق تقوست قناتى ، وشابت شياتى ، وأضحت جلدتى . تتخدد . والحياة تقبل عليه بوجهها وتدبر عنى . ومن يدرى ؟ ربما كان لقوته وسطوته سبب فى ذلك ، فما تحط الحياة إلا على أمثالنا من الضعاف المرضى المناكيد ، وما كنا مناكيد إلا لأننا مرضى ، ولو كنا

أقوياء مثله لخافت بأسنا ، واتقت شرنا ، وأحنت لنا الرأس فسرنا في مسالكها شامخين . . .»

«فحم . . .»

فاستفاق المساعد من خواطره على صوت السائق الرنان ، وفتح باب الفرن ، وأقبل على النار يغذيها بالوقود ، وهو صامت صابر .

***

عندما جاز القطار محطة ملوى كان الليل قد انتصف واعتدل الجو ، وهب النسيم العليل من جنبات الوادى الخصيب ، فأثر هذا الجو الرخى المنعش على خواطر المساعد ، فخفف حسده على صاحبه وزالت نقمته عليه ، ووقف ينصت لدوى القطار وهو ينهب الأرض ويطوى القرى والدساكر ، وقد خيم عليها النخيل وطواها الظلام فى جوفه حتى بدت صامتة موحشة رهيبة ، ثم بارح مكانه وأخذ يجرف بعض الفحم من المخزن ويهيئه على عتبته للنار ، وبعد أن فرغ من ذلك أشعل سيجارة ونظر إلى السائق وود لو يحادثه ، يثرثر معه فى أى موضوع ، ويتكلم عن أى شىء ، دون أن يكون لكلامه وقع أو غرض أو غاية ، فما كان يعنيه هذا ، وإنما حسبه أن يتكلم لأن الصمت يمله ويضجره ، ويأخذ بمخنقه ويثير أعصابه . وفتح فمه ثم أطبقه ، وكان يعرف أن السائق قليل الكلام طويل الصمت . وتنحنح وسعل وأطل من النافذة فطن فى أذنيه التيار الشديد ، وسفى فى وجهه الغبار وجرى عليه دخان الفحم ، وسمع صفير قطار من بعيد ، فبقى فى مكانه ليحيى سائقه إن أمكن ! ومر قطار البضاعة يجلجل على القضبان .

فقال المساعد وكأنما انبعث صوته من أعماق هاوية سحيقة : «٣٦٧ . . . ؟»

«نعم . . .

«من الأقصر . . ؟»

«آه . . وخزن فى أسيوط . . »

«توفيق شاكر . . ؟»

فهز السائق رأسه موافقاً ، وصمت المساعد لحظة كأنما يستعرض فى ذهنه صوراً باهتة يحاول بروزها ووضوحها ، وغير من نبرات صوته وهو يقول :

« كان سائقاً للقطار ٧٢ . . أنزلوه . . بعض الأحيان تتحكم الأقدار . . »

فلم يقل السائق شيئاً وأخذ يتمثل فى مخيلته صورة حادث توفيق كما سمعه من رفاقه .. ثم وضع يده على جبينه يتفرس فى الطريق ، يستشف الحجب ، ما وراء الغيب ، ما فى بطن الأقدار .

فقال المساعد وقد طاب له أن يجد ما يتحدث فيه :

«كان خارجاً من ورشة سوهاج . . ليوصل القطار إلى الأقصر كانت السرعة أكثر من اللازم ، وكان العامل يتخطى القضبان . . توفيق نفسه لايدرى كيف مات الرجل . . شهد عليه عامل «البلوك» واثنان من الخفراء . . »

فقال السائق وقد حز فى نفسه الأسى على صاحبه :

«سىء الحظ . . وكان عليه أن يحاذر . . »

فقال المساعد بصوت وان :

«يولد كثير من الناس ليموتوا تحت العجلات . . فما الذى يدفعه الحذر ، والسائق ، والكشاف ونور الكشاف ؟ مرت على المرء كثير من الحوادث العجيبة التى تبعث على الدهشة والتفكير العميق . . كنا قد بعدنا عن ديروط وفلاح مسكين ، على جمله ، ينتظر مرور القطار ، ومر القطار وفزع الجمل ، ورمى الرجل تحت العجلات . قد يكون مر على هذا الجمل مائة قطار وهو ساكن ثابت ، ولكنه جفل فى هذه المرة لسبب لانفهمه . . »

فقال السائق وقد بدت على وجهه البشاشة :

«ولكن إذا كان الفلاح قد رد الجمل عن حديد الممر وبعد به عن الشريط أكان يموت ؟»

«كان لا يستطيع فى تلك الساعة أن يفعل ذلك . . كان لابد أن يموت فمات . . »

ومر القطار على حقل كبير من القطن وقد تفتح ونور ، فتحول المساعد إلى الحقل ، وراقب السائق مقياس الطريق لحظات ، ثم أدار المحرك إلى اليسار قليلاً ، فقد بدأ الوادى ينحنى والشريط يدور ، وكان يعرف هذه الطريق أكثر من موضع أنفه من وجهه ، وهدأت حركة الآلات نوعاً ، ثم أرجع المحرك إلى مكانه بعد ثوان ، وارتد عن النافذة ووقف أمام الفرن ، وطرفه على الساعة والمقياس ، واستمر هكذا مدة ، ثم أدار المحرك إلى اليسار مرة أخرى فى شدة حتى تعدى الكثير من الدرجات ، فقد وصل القطار إلى طريق مرمم واهن لاتزال تجرى عليه أيدى العمال فى النهار . . ودار بخلده أن أحد العمال قد يكون ترك سهوا بعض الأدوات الحديدية على الشريط ، فمد بصره إلى نهاية نور الكشاف ، وثبت نظره على حديد القضبان . . وفكر فى نفسه أنه بعد نصف ساعة وستمائة ثانية سيدخل محطة

أسيوط ، وسره هذا كما سره خروجه منتصراً من الطريق المرمم . . وبعد أن لمح المقياس أدار المحرك بالتدريج إلى اليمين ، إلى نهاية ما تتحمله أرض النيل السعيد ! وكان يود أن يعوض بتلك السرعة الجارفة ما قضاه وهو سائر ببطء على الطريق الواهن . . وانطلق القطار كالسهم يطوى القرى ويزلزل تحته الأرض .

وقال المساعد :

«النيل عال . . وشديد . »

فقال السائق وقد تحول بوجهه إلى النيل فرأى بعض المراكب الشراعية تسير مغالبة التيار :

«أتخاف أن تتقطع الجسور ؟»

«لا . . جسور القطارات هى آخر ما يصيبه الأذى دائماً ،

وبقى نظر السائق ثابتاً على النيل ، وقد راقه هول الليل عند الأفق البعيد .

وأطل المساعد من النافذة وبصره على الأرض الجارية . . وخيم صمت عميق .

وقال المساعد بعد دقائق بصوت يرتعش :

«رجل . . . !»

«ماذا ؟ ؟ . . »

«رجل تحت . . ال . . »

فتلفت السائق فى سرعة البرق حيث أشار مساعده فرأى شبه شبح يضطرب فى غمرة الليل . . فصفر وألقى الشبكة وأدار المحرك إلى اليسار فى حذر شديد . . وكان قد فوجىء بالأمر فاضطرب جسمه قليلاً وجاشت نفسه . . ثم حبس البخار . . وأحس بعد مدة بضغط الفرامل وجلجلة العدد ؛ وقد أجبرت على البطء على غير انتظار ، ووقف وروحه تثور ، ونفسه حانقة ساخطة . كان يود أن يدخل محطة أسيوط فى الساعة الواحدة والدقيقة الرابعة والعشرين . . منذ خمس سنوات لم يتأخر فى حياته مرة . . مرة واحدة . . كان دائماً يحاذى الرصيف وعقرب الثوانى على الستين . . كم كان يشعر بالفخر والزهو والشموخ والتعالى على الإخوان ، كم كان يشعر بالزهو والفخر وهو المعروف بأنه المسيطر على الحديد والنار . كان إذا تأخر فى أثناء الطريق يغذى النار ويدفع البخار ويجهد العدد ليدخل المحطة فى ميعاده . . ولكنه الآن سيتأخر . . لأول مرة فى حياته كسائق سيتأخر . . سيتأخر . . لا دقيقة ولا دقيقتين ولا ثلاثاً . . بل أكثر من ذلك ، شعر بنفسه تذوب حسرات ؛ أحس

بالآلات تئن وتتوجع وتدق كالطبول . . كانت ضربات الضاغط والدوافع وسحبات الذراع ووجمات «البستون» . . تدوى فى أذنيه كالطاحون البالية ، كالمدافع المنطلقة على غير هدى فى وادى التيه . . أحس بدمه يفور . . وروحه تثور . . حتى عقدت جبينه السحب . . ولكن يده القوية كانت لاتزال على المحرك ، والقطار يحبس نفسه ويغالب قوة دفعه . . أى مأفون هذا الرجل الذى عبر الشريط هكذا وألقى بنفسه إلى التهلكة . . ؟وتصور الرجل وقد تمزق وطارت أشلاؤه ، وطحنته العجلات ، وجرى دمه مع الزيت فتفطر قلبه على الرجل المسكين . ووقف تتملكه أعصابه الحديدية صامتاً . . حتى أحس بعد مدة بالآلات تجلجل وتطبل ، والبخار ينش ويئز ، والذراع يغلب ويجاهد ، ويطوح بنفسه فى ثقل ، ثم يدركه الونى فيحتضر .

ونزل السائق ودار حول مقدمة القاطرة ، ثم انحنى ودخل تحتها يفحص العدد الصغيرة والآلات المحركة ، وخرج بعد دقائق ووجهه ينضح عرقاً ، وعلى معارف وجهه الساكنة آيات الهدوء المطلق ، ورآه مساعده وهو يستقيم بظهره القوى عند العجلات الأمامية ، ثم يتراجع خطوتين إلى الوراء ويتقدم تجاهه ، وهو يضرب بقدميه الزلط الملقى بجانب الشريط ، وكان لصوت قدميه دوى مسموع فى الليل الساكن . وتوقف المساعد عن مسح عمود الذراع وقبض براحته على «الأسطبة» الملوثة بالزيت القذر ، وقال وهو يميل بوجهه إلى حيث صاحبه :

لاشىء . . ؟

«لاشىء فى العجلات الأمامية ، وإنما أثر الدم واضح فى التروس الخلفية التى أخذ عنتها الرجل ، على أن العدد سليمة ولا أثر للحم ولا عظام . .»

فصمت المساعد كأنه يفكر ؛ ثم استأنف عمله وكان المشعل الصغير الذى فى يسراه ينتفض ويخبو ويشتعل ، ويميل لسان اللهب يمنة ويسرة تبعاً لهبات الرياح . . وكان الزيت قد امتزج بعرقه الهاطل وسال من يده على ساعده ، ولوث الكثير من جسمه ، فمسح الزيت فى سرواله ، بعد أن رمى الأسطبة على الأرض ، ودارت يده حول ذقنه ورفع المشعل إلى ما فوق رأسه ، واستدار ومد بصره ، وكان الكثير من الركاب يطلون من النوافذ ، ووجوههم إلى الخلف ، وظلهم للواقف منهم على الأبواب ، واضح على الأرض ، وعامل العربة الخلفية يتحدث مع «الكمسارى» وحولهما بعض الناس .

واعتمد السائق على حديد النافذة وأخذ يدخن ونظره مسدد إلى الوراء حتى رأى عامل الإشارة يلوح برايته ، فقال لمساعده :

«اطلع . .»

فطلع المساعد إلى القاطرة ، ووضع المزيتة جانبا ، وبعد السائق عن النافذة بعنائية ووقف أمام الآلة يحدق فى الساعة ثم مد يده وأدار المحرك إلى اليمين قليلاً فتحركت العجلات الأربع الأمامية الصغيرة فى بطء وثقل شديد ، ودارت العجلات الأربع الكبيرة التى خلفها على الفارغ ، ارتفعت عن القضبان ودارت على الفارغ فى سرعة وجنون . وزفر القطار ، وأز البخار ونش ، وشال الذراع وحط ، وتحركت العجلات الأمامية ، ولامست العجلات التى خلفها القضبان ، وشال الذراع وحط وتقدم القطار وهو يئن ويتوجع وينوح ، وتقدم القطار فى بطء وحزن من غير صفير ! . .

تعتريني فى كثير من الأحايين حالات نفسية أضيق فيها ذرعا بنفسي ، وأحس بثقل الحياة عليّ ، أحس بالبيئة الخانقة المهلكة تأخذ بمخنقى وتكتم أنفاسى ، وأشعر بأنى سجين معذب يعانى آلاما لا حد ولا نهاية لها . تأخذ الدنيا الباسمة المشرقة تـظلم فى عينى ، ويستحوذ الضجر والقلق والنفور عليّ ، وأحاول عبثا أن أعرف علة هذه الأحزان ، أحاول عبثاً أن أعرف الباعث الدقيق الخفي على هذه الأزمات الشديدة المضنية فلا أستطيع ولا أوفق ، ولا أزداد بعد البحث إلا غماً وكرباً .

فى هذه الأوقات العصبية أشعر بحنين بالغ إلى التشرد ، أشعر بشوق ملح يحملنى على أن أتخطى القيود والموانع ، وأتحرر من الأغلال ، وأدوس بقدمى على التقاليد البـالية ، فأبرح منزلى فى أى وقت من الليل ، حتى فى الساعات الأولى من الصباح ، وأجوس خلال الشوارع وأضرب بقدمى فى الأزقة الضيقة على غير هدى ولا دليل ولا قصد أرسل نفسى عـلى سجيتها ، وأفتـح صدرى لهـواء الليل السـاجى ، وأبعث بصرى فى قلب الـظلام المخيم ، وأستأنس بالوحشة ، وأستريح إلى رهبة الليل وسكونه وهوله ، وأشعر بعد ذلك بالراحة التامة المطلقة ، أشعر بأنى غدوت حراً طليقا يخرج بجسمه ونفسه وحسه عن الدائرة الضيقة المميتة ، ويحلق فى الفضاء الفسيح .

أشعر بالسعادة العميمة تفيض على جوانحى ونفسى ، وأتقدم فى طرقات المدينـة سعيداً جذلا طروبا ، ثم أخرج منها إلى أحضان الطبيعة وأتوغل فى أعماقها ، وأسير محاذياً للنيل ، وأعبر الكبارى والسدود وأجتاز الحدائق والبساتين ، وأنا ممتلىء نشاطا وقوة . ثم أعود فى أخريات الليل إلى الشوارع الهادئة فى الأحياء الأفرنجية ، وأميل إلى حانـاتها ، أغشى الحان الذى يروقنى لأريح جسمى ، وأهدىء من ثائرة جوفى بعد الرياضة الطويلة فى الخلاء .

ألج أى حان من هذه الحانات الصغيرة التى تسدل على واجهاتها الستر الحريـرية

الزرقاء ؛ ويتعاقد فى سمائها دخان التبغ ، ويعبق جوها برائحة الكحول ، وأشعر فيها بأنى انتقلت عن هذا العالم الفانى بضوضائه وضجيجه وصخبه ، إلى حيث الهدوء التام ، والسكون الشامل إلى الحد الفاصل بين دار الأحياء والموتى أشعر بأنى قريب من الموتى من سكون الرمس ، حتى فى الساعات التى يرتفع فيها صوت السكارى وهم يتمايلون على الطاولة الرخامية ، ويرفعون عقائرهم بالغناء الصاخب ، راقصين ضاحكين مرحين ، حاسبين أن الدنيا بأسرها ترقص معهم وتغنى لغنائهم ، حتى فى الأوقات التى يفيض فيها هؤلاء المساكين بفنون الأحاديث ، ويتحدثون عن آلامهم وأحزانهم ، تحت تأثير عقلهم الباطن ، مع من يعرفون ومن لا يعرفون من الناس ، فى هذه الحانات الصغيرة تنمحى الحوائل والفوارق بين الناس ، ويشعر كل إنسان بأنه صديق حتى لمن يجاوره ، فيحادثه ، ويكشف له عن مكنون صدره ودخيلة فؤاده . أشعر فى هذه الأوقات شعوراً حقا بقيمة حياتى ، أشعر بأنى أعيش لنفسى ، بأنى وجدت فى هذه الحياة الدنيا لأنعم وأتمتع وألتذ بأطايبها وملذاتها إلى أقصى ما يتمتع به إنسان ، وأضحك مع الناس وأقهقه وأغنى .

دخلت حاناً من هذه الحانات الصغيرة فى ليلة من ليالى الشتاء ، وكان ضيقاً مستطيلا ونوره الأحمر خابيا كابياً ، وهذا ، زاده فتنة فى ناظرى وسحراً . وكان خاليا تقريباً إلا من بعض الشبان الفقراء ؛ جلسوا يحتسون الخمر فى ركن قصى منه . وكان عند رخامة الحان الطويلة خمسة من الرجال من بينهم ثلاثة من ذوى الأسنان ، تعرف من هندامهم القذر ، وشعرهم المرسل على جباههم ، وعيونهم الحمراء الدامية ، أنهم غارقون فى الشراب إلى الأذقان ، وكان أقرب الجالسين إلى شاب يرافق فتاة صفراء نحيلة من الفرنجة عليها طابع الهم والشقاء ، ويعلو وجهها ظل الموت الزاحف ، وكانت هى الفتاة الوحيدة فى الحان إذا استثنينا تلك الفتاة السمراء القصيرة الجالسة على الباب ، مستقبلة الداخلين ومشيعة الخارجين بابتسامة لا معنى لها .

جلست فى ركن منعزل من الحان ، وأنا تعب مكدود معنى وطلبت كأساً من الخمر ، وشغلت نظرى بقراءة الأوراق الملصقة على الزجاجات الموضوعة على الرفوف أمامى ، كان القلق رغم المشى والتنزه فى قلب الطبيعة ، لا يزال يهيمن على كيانى ووجدانى ، ومضى علىّ أكثر من نصف ساعة وأنا جالس وحدى ، أفكر وأتخيل ، وأرسم على دفتر أمامى دوائر وخطوطا وأكتب بضعة أسطر وأمحوها ، وفرغت من شرب الكأس وطلبت غيرها ، بعد أن أحسست بالصداع يصدع رأسى ، وتراخت أعصابى وثقل جسمى ، فاضطجعت على الكرسى ، وأرسلت بصرى فى سماء الحان ، وأخذت أستعرض فى ذهنى الحادثات التى مرت بى فى سنى حياتى ، وشغلت جانباً من تفكيرى ووقتى . فكرت فى الأصدقاء فى المدرسة ، فى رفاق الحداثة ؛ فى المخلوقات العزيزة الحبيبة التى يضرب بيننا وبينها الدهر ، ويبعدها عنا الزمن فى كل ما يسر ويسوء فى هذه الحياة الدنيا ، فكرت فى هذا كله ، وأنا

أرفع عيني إلى سقف الحان ، وبصرى سادر حالم ، والكأس الدهاق يتصاعد منها الحبب ويرغو .

وخفضت طرفي ونفضت به جوانب الحان ثم رددته إلى المائدة التي تجاور مائدتي ، فلمحت فتاة جالسة إليها ، وكان ظهرها إليّ ووجهها إلى الباب ، فأبعدت وجهي عنها أول ما رأيتها ؛ فجيرتى لأى إنسان ؛ حتى وإن كان امرأة ، فى ساعة كهذه مما يزيد فى همى وشجنى ، ويرهف أعصابى . . وشعرت بعد دقائق بالضيق يشتد ويتمكن ، فرحت أنقر بإبهامى على المائدة ، وأدير الكأس فى راحتى ، وأوجه عينى الحمراوين إلى الباب . وأود لو أنفذ من خلال الستر وأخلص إلى الطريق وأتسلى بالنظر إلى المارة ، ثم عن لى أن أغادر الحان وأستأنف تجوالى فى الطرقات . . فقد كان قلقى لا يحتمل ، كانت عيناى لا تقويان على المطالعة . وشفتاى لا تستسيغان الكأس ، وأنفاسى لا تعب من جو الحانة . بيد أنى أحسست بخور وثقل فى جسمى ، وعجزت عن النهوض ، فاعتمدت بمرفقى على حافة النضد ، ووضعت رأسى على راحتى ، وأطرقت مغمض العينين كالمستغرق فى النعاس . . . وبقيت هكذا مدة طويلة والفكر تدور فى رأسى وتصطخب حتى استيقظت على صوت ناعم قريب منى خيل إلى أنه يناديني . . . فرفعت رأسى وتلفت فألفيت الفتاة التى لمحتها من قبل تحادث الساقى ، وكانت قد استدارت بالكرسى وواجهتنى ، وكانت عيناى سابحة فى سحب من الهم فلم أستطع أن أتبين ملامح وجهها لأول نظرة ، ثم انقشعت الغشاوة عن بصرى بالتدريج ، ورأيتها لأول مرة وهى تنظر إليّ بقوة ، وقد لفت نظرها شرودى ووجومى ، وتبادلنا النظرات . . وبقيت أحدق فيها دون وعى ، هنيهة ، وشعرت بعد هذه النظرة بالحوائل والموائد التى كانت بيننا تنمحى فى لحظة ، شعرت بأنى أعرف هذه الفتاة من المهد . كثيراً ما نرى أناساً لأول مرة ، ونحس معهم بعد أول مقابلة وأول نظرة بأننا نعرفهم من زمن بعيد جداً إلى أقصى ما يحصيه عقل إنسان ، وهذا ما حدث لى بالدقة أول ما رأيتها .

وسددت طرفى إليها ، وأنا ذاهل شارد ، وقتاً لا أحصيه . . ثم أغرقت عينى فى قرار الكأس بعد أن تصورت نظراتى تثير اشمئزازها . . . ولم يكن يعنينى فى ذلك الوقت شعورها نحوى ، لم أفكر فى هذا مطلقاً ، لم أفكر فى محادثتها أو معرفة أى شىء عنها . كانت ككل فتاة تمر على وتسترعى انتباهى وتبقى صورتها برهة فى ذهنى ، ثم تختفى وتضيع مع مثيلاتها . وشربت جرعة من الكأس ونظرت إلى وجهها الأبيض المشرب بالحمرة الخفيفة الذاهبة وأحسست بجسمى يهتز . وبقلبى يرتجف بشدة . . وتلاقت أعيننا مرة ثانية . . لا . هاتان العينان السوداوان الساجيتان اللتان تشعان الإشراق والسحر والنور لا يمكن نسيانهما بسهولة ، ستبقى صورتهما هنا مطبوعة فى ذهنى إلى الأبد ، إنهما تغايران العيون التى شاهدتها وألفتها ، قرأت فى أعماقها شيئاً غريباً غامضاً لم أقرأه فى عينين بشريتين من قبل . . وأجالت

طرفها فى جوانب الحان ، وأخذت فى خلال ذلك أتفرس فى جسمها الفائض سحراً على ثوبها السنجابى الصوفى المرقش ، وشعرها الأسود المرسل وراء جيدها الطويل الأتلع ، وقبعتها الرمادية المائلة على جبينها المستوى المشرق ، وهدبها المسبل على عينيها ، وشعرت بعد ذلك بشعور لذيذ ، انتشت له جوارحى ، وتفتحت نفسى ، وانزاحت الغشاوة عن بصرى ، وذاب الهم فى صدرى . . نسيت الوجود بمشاغله وأحزانه ، وفكرت فيها وهى جالسة على قرب منى ، وعليها ذل الفقر وعناء الشقاء الشديد . . وأحنيت رأسى مدة ، ثم رفعت وجهى نحوها ، وتبادلنا النظرات فى هذه المرة أكثر من نصف دقيقة كاملة . . شعرت بأنى أتضعضع أمامها ، وأفنى بكليتى فيها ، فى نظرات عينيها ، فى السحر العجيب الفائض من وجهها ، وكانت نظراتى نظرات المأخوذ بسحر جديد لم يألفه ، لم تكن كأولئك الفتيات اللواتى تبدو عليهن مظاهر الخلاعة أول ما يأخذهن الطرف ، بل كانت رغم حياتها المضطربة محتشمة ساكنة ساجية الملامح جداً ، تتحدث عيناها وشفتاها بما تنطوى عليه نفسها . . نفسها الغاصة بالكرب المثقلة بضروب الإيلام ، ومع هذا كانت تبتسم من حين إلى حين بسمة خفيفة شاحبة لا تعبر عن سرور باطن . . ورفعت الكأس إلى شفتى وأفرغته كله فى جوفى ، وتنفست بصوت مسموع ، أرسلت زفرة حارة من صدرى ، كان جوفى يغلى بتأثير الكحول الحامية ، ونفضت رأسى وعصرت عينى ، وتحولت إليها ، فرأيت دلائل الاستغراب مرتسمة على ملامح وجهها ، ولعلها كانت تعجب لصمتى وسكونى ، وتدهش لوجومى وأنا فى وفرة الشباب والفتوة .

وكانت رغم بياضها مصرية الدم والنظرات والبسمات ، تنفرد بوجه إنسانى تعبر ملامحه عن أسمى النفوس البشرية وأنقاها ، وهذا ما جذبنى إليها ، ورفعنى عن مستوى الناس وتقاليدهم وتفكيرهم ؛ وجعلنى أفكر فيها بقلبى . . . وراعنى أنها نهضت عن كرسيها واستوت على قدميها وخطت نحو الباب ، وهى تسوى ثوبها وشعرها ، وأذهلنى أنها لم تلتفت إلى ، ولم تعرنى بالها ، وتصورت أنها تجاهلت وجودى عامدة !! وبقيت بعدها شاخص البصر واجما ، لا أحس بشىء مما حولى ، ولا أستطيع أن أحدد انفعالى وأوضح مشاعرى ورغباتى . ثم انسللت من الحان وأنا أشد الناس عذابا وألما .

***

كثيرا ما ألتقى بفتيات أشغف بهن بعد أول نظرة ، وتبقى .

صورهن واضحة فى ذهنى أياما ، ثم تصرفنى عنهن الأيام ولاأعود أذكرهن بعد ذلك أبداً . على أننى لم أستطع فعل هذا مع فتاة الحان ، فلقد بقيت صورتها ماثلة أمام نظرى أينما رحت وغدوت وحللت . بقيت كما شاهدتها أول مرة ، والابتسامة الخفيفة الشاحبة تخطف على شفتيها كما يخطف البرق فى الظلام والليل ، وكان الشوق يتسعر فى أعماق نفسى ويسوقنى إلى الحان لعلى أراها ، ولكننى كنت كلما لمحت بابه من بعيد ، أحس بقلبى ينتفض بين

ضلوعي ويمزق صدري، وأقف شارداً وجسمي يرتجف ، ورأسي يدور ، والنور يتراقص أمامي ، والعرق البارد يتصبب على جبيني . كنت أشعر بحنين ممزوج بالرعب والذعر الشديدين ، فأنتفض وأفرق وأرهب الخان ومن فيه ، وأعود أدراجي سائراً على غير هدى كالشريد الطريد ، تتقاذفني الحوارى والأزقة متخبطاً فى جوف الظلام .

وتشجعت ومررت على الخان مرتين فى ليلتين متعاقبتين ولكنى لم أرها فيهما . . فكدت أجن . . . ودفعتنى قدماى فى ليلة من الليالى إلى الشارع الذى فيه الخان ثم ألفيت نفسى . . دون وعى . . جالساً إلى المشدة التى جلست عندها فى المرة الماضية . . واسترحت على الكرسى ، ووليت وجهى شطر الباب ، بعد أن جمعت حواسى كلها فى نظراق المعلقة بمصراعيه . . وكلما دخل داخل قفز قلبى ، وارتعش جسمى ، وانتفضت جوارحى وكانت الساعة تقرب من التاسعة ، والليلة باردة ظلماء ، شديدة الريح ، ومع هذا فقد دفعت الكرسى خطوة إلى الأمام ليخلص بصرى إلى الطريق . . كنت أود أن أكون أول من يراها وهى قادمة من بعيد ، وأول من يلمح ثوبها ، وكنت على يقين راسخ فى أعماقى بأنها ستأتى ، ونفذ بصرى من فرجة الباب المثنى وامتد إلى الشارع ، واستقر على بقعة بعيدة هناك . . . فى ميدان سليمان باشا ، تخيلتها قادمة منه ، وبقيت على ذلك الحال أكثر من ساعة وبصرى مستقر على الميدان لا يتحول عنه ولا يطرف ، وروحى تفور داخل نفسى ، وقلبى يزداد وجيبه كلما رأيت ثوباً سنجابياً يلوح عن بعد ويمضى . . . وانحصر نظرى فى المرأة فقط ، وأغلقت كل الصور الأخرى التى تمر فى الطريق . . . وتراقص الضوء وماج الناس واضطربوا ، واختلطوا ثم غابوا عن نظرى ، وأصبحت لا أرى إلا ثوباً سنجابياً يلوح ويمضى . . . يبدو عن بعد ثم يختفى ، ياللعجب اختلط على ذهنى المحموم ، وتغشانى الهم ، وأصبحت لا أرى إلا ثوباً سنجابيا يبدو من بعيد فإذا قرب منى ضاع فى زوايا الطريق وولى .

تحولت عن الطريق وأغمضت عينى . ضاع كل أمل فى مجيئها ، وقرب الليل من منتصفه ، ومرت بى ساعات ثلاث قضيتها فى جحيم وعذاب وقلق . . لم أعرف فى حياتى مرارة الانتظار كما عرفتها فى تلك الليلة . وخيل إلى أنى واعدتها وأنها أخلفت وعدى ، ولهذا كان شعورى بالتعاسة والخيبة لا يصور . . واختفى الطريق وخيم الظلام والسحاب على الخان ، وسبحت بكليتى فى سواد كثيف ولم أعد أرى شيئاً . . . ثم رجعت لرشدى ونقدت الساقى ؛ وتحاملت على نفسى ، وتقدمت ، وأنا أميد من الشجو تجاه الباب . ودفعت مصراعه الأيسر فقاوم ثم استلان ، وأزحت الستر وتخطيت العتبة ، فإذا بى أصطدم بها !! يالله !! وقفت عدة ثوان أرميها بعينى مجنون ، وأحسست بموجة من الغضب تجتاحنى ، فتطاير من عينى شرر يصهر الفولاذ ، وماتت قبضتى فى حديد الباب ، وسمرت فى مكانها مروعة ، وقد طير منظرى المرعب صوابها ، وخلصت أنفاسى وانطفأ وهج عينى وهبطت

حرارق . . . وبرقت عيوننا معا ببريق غريب ... ثم اختلج طرفها وأسبلت جفنيها ، وأحسست بأنفاسها تروح على وجهي .. ثم رفعت أهدابها ونظرت إلى نظرة طويلة جمعت فيها كل ما يمكن أن تقوله امرأة لرجل، ولاقتها نظراتي فى ثبات وصمت ، وكان فى هذه النظرة الطويلة الكفاية . .فأفسحت لها الطريق ومضيت فى الشارع ، وأنا أصفر وأغنى .

***

ورأيتها ذات ليلة جالسة فى ركن من الحان مع فتاة فى سنها ، فاتخذت لنفسى مكاناً يقرب منها . . ولما رأتنى ابتسمت فى سرور وغبطة ، وشاع فى كيانها المرح فرن ضحكها الموسيقى فى أرجاء الحان ، وكان له وقعه فى قلبى . وبارحت الحان وهى ترمينى بنظراتها ، ولم أشعر بعد فراقها بألم ولا حزن ، بل كنت على أحسن حال ، وأتم سرور .

وأصبح الحان بعد هذه الليلة من ضروريات حياتى ، كنت أدلف إليه فى الساعة الثامنة من كل مساء ، وأبقى فيه حتى تنقضى ساعتان من الصبح ، وكانت الفتاة تجىء أحياناً فى التاسعة ، وأحياناً فى العاشرة ، وتبقى إلى نصف الليل . . ولم أحاول طوال هذه الساعات محادثتها ، فقد كان الاضطراب والخجل يعقدان لسانى !!

وجاءت مرة قبل ميعادها بساعة ، والحان خال من رواده تقريباً ، وحيتنى بابتسامة فاتنة ، وخلعت قبعتها وجلست على كرسى يلاصق مائدتى . . وحملنى قرب جسمها من جسمى على أن أبعد عينى من سواد عينيها ، وأن أخفى اضطرابى بأى سبيل ، ففتحت كتاباً معى ، ومضيت أقلب صفحاته . . واستغرقت فى المطالعة حتى استيقظت على صوت جاف خشن دوى فى جنبات الحان ، فرفعت رأسى ، فرأيت بائع أوراق «النصيب» واقفاً أمامها يدفع لها ورقة ويحملها فى خشونة على شرائها . . وسمعت صوتها الناعم الفضى النبرات ، وهى تصرف الرجل بالحسنى ، ورأيت الحياء . . الحياء الشديد الذى لا يظهر على وجوه الكثيرات من بنات الأسر يغمر وجهها ، ويلون وجنتيها بلون الجمر ، والبائع الجلف لا يزداد مع الحياء إلا جرأة . . فأشفقت عليها ، وناديت الرجل ، فتحول إلى وتناولت منه ورقة ، وأخذت أحادثه لتعود الفتاة فى خلال ذلك إلى هدوئها . ثم مددت يدى نحوها فى اضطراب !! ورجوتها أن تجذب بيدها الجميلة ورقة . . فرفعت وجهها فى استغراب وترددت وابتسمت . . وصوبت عينيها فى أعماق عينى ثم قالت بصوت خافت : «ولكنى منكودة الحظ . . . أو كنت على الأقل كذلك . . »

وانقطع صوتها . . وشعرت بكلماتها الأول تسحق قلبى . ورأيت وجهها يرتفع عن الورق ويستقر على شفتى . . . كانت تود أن تعرف أول كلماتى . . كنت أود أن أقول لها شيئاً لم أقله من قبل ، ولكنى أحسست بلسانى يقف فى حلقى ، وتداركت نفسى وقلت فى صوت خافت متهدج : «أرجوك أن تتناولى ورقة . . . »

فمدت يدها الرخصة .. وأمسكت بالورق وأخذت تقلب فيه ، وتتفرس وتفكر وتحلم .. وأناملها الدقيقة فى أثناء ذلك تنتفض .. ثم قدمت لى ورقة ، وهى تضحك ، وغمغمت بشىء لم أسمعه . . .

ونقدت الرجل لينصرف ، أحسست بأن وجوده يضايقنى ويفسد علىّ سعادتى .

وبقينا صامتين مدة فى ارتباك وخجل !!

ثم سألتنى فى صوت خافت ، وقد أشرقت صفحة وجهها :

«سكير . . . ؟ !»

«معاذ الله . . . !»

«لماذا تجىء إلى هنا كل ليلة إذن . . . ؟»

«كل ليلة ! ما كنت هنا أمس ولا قبل الأمس . .»

«ولكنى أراك كل يوم . . . !»

ومالت بعنقها إلى اليسار قليلا وأظهرت كل أسرار قلبها فى صفاء عينيها .. ثم فتحت شفتيها الرقيقتين الحالمتين لتفسح طريق أنفاسها .

وسألتها وبصرى يضطرب مع خلجات شفتيها : أين . ؟ . . «أين شاهدتينى . . ؟»

«رأيتك سائراً فى الطريق . . أو دائراً فى قلق وحيرة حول الخان ، كأنك تبحث عن شىء عزيز فقدته . . لماذا تفعل هذا . . ؟»

كنت أبحث عن وجه إنسانى . .»

«ووجدته . . ؟ !»

«أجل . . أخيراً . .»

وظهر فى عينيها الدهش مختلطاً بسرور النفس وابتهاج المشاعر وسألت بصوت لا تسمعه أذناها .

«أين . . ؟»

«هنا . .»

«ها . . ولماذا تبحث عن الوجوه الإنسانية . . أأنت رسام . . ؟»

«أجل . . وكيف عرفت ذلك . . ؟»

«قرأت فى عينيك آيات الفن . .»

«شكراً . .»

«أهذا ثناء . . ؟»

«بالطبع . .»

«آسفة ما كنت أقصد هذا . . ما أجهلني ! . .»

«على أي حال شكراً . . !!»

ولماذا كان هذا الوجه السعيد إنسانياً . . لماذا يتميز عن وجوه الناس ! . .»

لأني كلما رأيته ، أنسى ضعف الناس وضعف نفسي . .

وأدرك تلك القوة الخفية التي تحركنا وأضع الحياة بخيرها وشرها في ميزان واحد . . .

«وإذا غاب عنك هذا الوجه . . .»

«أرتكب كل حماقات الناس أجمعين . . وأكون كأشد المتزمتين منهم سخفاً وحمقاً»

«أتحبه إذن . . آه . . آسفة . . أتحب أن تراه دائماً ؟»

«في كل لحظة وحين . . .»

«لماذا . . ؟»

«لأني أقرأ في عينيه شيئاً غريباً غامضاً يرتجف له قلبي . .»

«أتجالس النساء كثيراً . . ؟»

«لماذا . . ؟»

«لأنك ثرثار . . . !»

«آسف . . لقد أزعجتك بفلسفتي الجوفاء . . .»

«هذا صحيح . . والآن أصمت واشرب نخب صحتك وصحة الوجه الإنساني !»

وسألتني بعد لحظات :

«لماذا كنت تحدق فيّ بشدة أول ما رأيتني ؟»

«كنت أحاول أن أذكر أين قابلت هذا الوجه وهاتين العينين . .»

«وتذكرت . . !!»

«نعم أخيراً . . . .»

«قابلتني أنا !! وفي أي مكان . . ؟»

«من زمن بعيد جداً . . قبل أن توجدي . .»

«أوه . . صه . . .»

ووضعت يدها على فمي .

وانطلقنا نتحدث ، ونتبادل النظرات والبسمات في سكون وتأمل ، ولم أسألها بعد ساعة من الحديث الممتع عن اسمها كما أنها لم تسألني عن اسمي . أقبلت بوجهها على وجهي ؛ ويدها مستريحة على طرف المائدة فأمسكت بيدها لأول مرة ، وشعرت بلذة عنيفة

قوية تتدفق مع دمي ، وضغطت على يدها في قوة وحرارة . . . كنت أود أن أعبر لها من أقصر طريق عما تكنه جوانحي ، ويحمله قلبي ، وكان وجهها الساكن الهادىء الجميل يكتسي بحمرة الشفق ، ويذوب لونه ويرف على خدها فيزداد نضاره ويزهو ، وكان شعرها بعد أن خلعت قبعتها ، يكون هالة فاتنة لجبينها ووجنتها ، وينسدل مراراً على عينيها ليحجب عني بريقها ونورهما ، فكانت تدفعه إلى الوراء وهي تهز رأسها ، وتبتسم أعذب ابتسام وأفتنه .

مرت على وأنا جالس معها لحظات لن أنساها ما عشت ، اختلستها من غفوة الزمن وأراها لا تعود . . مرت على في سرعة البرق . . وأنا مأخوذ بسحر جمالها . . صور حياتي كلها من اللحظة التي وجدت فيها حتى التقيت بها . ما أغرب المصادفات ، إنها التي تخلق الأشخاص حقاً وتغير سيرة حياة الإنسان كذلك ، لم أكن أعرف وأنا أدخل الحان في غلس الليل وسكونه أني سألتقي بأعز إنسان في حياتي . . . بالمرأة الوحيدة التي أحببتها . . المرأة الوحيدة التي شعرت معها بأني إنسان يعتز بإنسانيته ووجوده ، ويعرف قيمة حياته ، ويقدر مصيرها ، لقد كانت حياتي قبل أن ألتقي بها تسير على منوال أليم معذب . . كنت كمن يعيش في صحراء جرداء ولا رفيق ولا أنيس ، كنت كمن يعيش في مغارة سحيقة في أعمق طبقات الأرض حيث الظلام والفناء والعدم ، أرزح تحت ثقل الوحدة المميتة ، وأفني حيويتي ، وأشرب أحزاني ، وأعصر قلبي وفكري ، وأشعر بأني أسير نحو الفناء ببطء . . أسوق نفسي إلى حتفي . . كانت أعصابي بعد مطالعاتي المستمرة ، وعملي كرسام قد وهنت وضعفت ؛ وتداعى معها جسمي ونشط تفكيري ، وسبح خيالي في لجج من الهم ، وتراكمت الخواطر على ذهني المحموم . كنت واقعاً تحت تأثير خواطر عاصفة ، أتعذب لعذاب الناس ، وأتألم لآلامهم ، وأشقى لشقائهم وبؤسهم ، أرى الفقراء إخواننا في الإنسانية يشقون ويتعذبون ويتساقطون حولنا تساقط الفراش حول اللهب ، ونحن لا نفعل شيئا لأجلهم ، لا نفكر في إسعادهم وانتشالهم من بؤسهم وفتح أبواب الحياة لهم . . كان نظري إلى المرضى والضعفاء والمساكين ، والذين قست عليهم الحياة وشردهم المجتمع ، ولفظتهم الإنسانية ، كله عطف وإشفاق على مصيرهم ومآلهم .

قضينا في الحان أكثر من ساعة ونصف ساعة في حديث ومرح وغبطة . قربت وجهي من وجهها وعيني من عينها وقرأت في أعماقها لواعج صدرها ، أحلامها وأمانيها . . وأحسست ، وأنا قابض على الكأس ، براحتها تلامس يدي ، فضغطت عليها ، وأمسكنا بالكأس معا ، وسرت نشوة لذيذة قوية في عروقي ، ورفعت يدها عن الكأس ، وقبضت عليها بشدة ، ورأيت السرور يتألق في جبينها ويشرق على وجهها ، كانت في حاجة شديدة إلى من يعطف عليها ويرحم مصيرها ، ويعرف آلامها ويخفف عنها أحزانها . ما أحلى السعادة التي يشعر بها أولئك الذين يحسون ويعرفون أن هناك مخلوقات بشرية تعطف عليهم

وتحبهم . . . تحبهم يالله !! ما أسعد الساعة التي تمر على المرء وهو على يقين من أن هناك إنسانا مثله يجاويه عطفاً بعطف ، وقلباً بقلب ، وشعوراً بشعور . شعرت فى تلك اللحظة أنها انقلبت فتاة أخرى ، وأن روح الشر الخبيثة التى تجرى فى دم المرأة قد رسبت وتخدرت فى أعماقها . . وبدت أمامى هادئة وادعة صافية النفس حالمة ، تتعطش للمستقبل المجهول ، وتتمنى أعذب الأمانى ، وتسبح فى جو من التأملات اللذيذة . كم مرة امتزجت أنفاسنا ، ونحن نتقارب بالشفاه ونتلامس ، وكم مرة شعرت بعينيها الجميلتين تنفذان إلى أغوار نفسى . وكم مرة تضاغطت أيدينا وتماسكت وتشابكت ونحن نهتز ونرجف من فرط الشعور بالسعادة التى لا تحد .

ولما هتفت بالساقى لنبرح المكان ونرتاض قليلا خارج المدينة سمعتها تقول بصوت خافت فيه كل ما تملك من عذوبة ورقة :

«اسمح لى أن أدفع الكأس التى شربتها وحدى . . .»

فقطعت عليها حديثها بنظراتى المؤنبة القوية ، وغضت طرفها وفتحت حقيبتها وضربت يدها فيها ، وراعنى أن يدها أخذت ، بعد ثوان قليلة ، ترتعش . . . وترتعش رعشات عنيفة مفزعة ، وانقلب وجهها الضاحك الباسم ، فى لحظة ، إلى وجه أصفر أغبر السحنة . فى ثانية واحدة تغير كل شىء فيها ، كانت شفتاها المتقلصتان تختلجان بشدة وتلوذان بأسنانها . وقبضة يدها لا تزال تنتفض فى ثنايا الحقيبة .

ونقدت الساقى وانصرف ، وأمسكت بيدها ، ورأسها لا يزال منكساً ، فأحسست بجسمها يرتعش كله ، ووضعت يدى تحت ذقنها ورفعت وجهها إلى . . . فيا أروع ما رأيت ! رأيت عينيها غارقتين إلى أقصاهما بالدمع . رأيت أجمل عينين فى الدنيا ترسلان أصفى دمع .

وقالت بصوت ناعم خافت متقطع :

«لم أكن أعرف . . . أ . . . أ . . .»

ووضعت يدى على فمها . . كنت أعرف ما ستقوله ، وأشعر وأقدر مركزها ، لقد انجرح كبرياؤها أبلغ جرح . . ولما أمسكت بكلتا يديها وقبضت عليهما بشدة كان جسمها ينتفض كله .

فكرت فى كبريائها المجروح ، وأدركت لأول مرة فى حياتى قيمة المادة وحقارتها أيضاً . فكرت فى أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة التى يحبسها الأثرياء عن الضوء لا تساوى دمعة صافية من دموعها . فكرت فى أن هذه الدنيا بمن فيها ومن عليها لا تستحق دمعة رقراقة من عبراتها ، كنت أود لو أمتلك الدنيا بأسرها لأفديها بأحزانها . أحسست بجو

الحان يأخذ بعقلي .. لقد جرح إحساسها . . يالله ! لقد رفعت إلى أسمى موضع في نفسي . . . ونهضت وأنهضتها ؛ وتأبطت ذراعها وخرجنا من الحان نضرب في الطرقات في صميم الليل على غير قصد : وكانت الليلة من ليالى الشتاء القارة التى لم تألفها القاهرة منذ سنوات ، كانت قاسية البرودة شديدة الريح ، ومع هذا فما أحسسنا بها ولا أعرنا بالنا إليها . . سرنا متلاصقين نسمع صوت نعالنا فى الليل الساكن ؛ ودقات قلبينا فى أعماق الكسون المخيم ، ونرى أنفاسنا المبهورة المتلاحقة وهى تسبق وجهينا ، وشعرت وهى بجانبى بإحساس عجيب غريب ، أحسست بقوة عظيمة تسرى فى جسمى انتفخت لها أوداجى وشمخ أنفى ، خلت نفسى بعد أن تدفق الدم فى شراييني أقوى من الناس جميعاً فرحت أضرب الأرض بقوة ، وأطوح بذراعى فى الهواء بعنف ومرح وفتوة . وددت لو اعترضنى معترض لأبرهن لها عن قوتى التى لاتحد ، وددت لو اعترضنى إنسان لأضربه الضربة البكر التى ترديه ، وددت لو حملتها على ذراعى وحلقت بها فى السماوات ، فوق المنازل وأعالى الأبنية ، وفوق الأسوجة والمعترضات والسدود ، وفى جو الحدائق وفوق سماء الأنهار ، وأنا أضحك وأقهقه وأغنى وأفيض على الدنيا بأسرها ببعض سعادتى . كانت سعادتى فى ذلك الحين تكفى لإسعاد المحزونين فى الدنيا جمعاء وفناء الآلام والأحزان من البشر . كانت تكفى لوضع الناس فى صعيد واحد وجعلهم سعداء هانئين .

فكرت وهى مستريحة بجسمها على جسمى ؛ وادعة حالمة ؛ فى هؤلاء الذين يثيرون دفائن هذه المخلوقات الضعيفة ، ويدعونها تنفث السم ، فكرت فى هؤلاء المخنثين الذين يبكون ويركعون أمام المرأة ليبعثوا فى أعماقها الاحتقار والسخط على جنس الرجال جميعاً .

فكرت فى هؤلاء المرضى الذين ينوحون ويبكون ويموتون أمامها من الخور حاسبين أنهم يستدرون عطفها ، ويستقرون فى قلبها . وما يبعثون فى نفسها إلا كل ضروب الاشمئزاز ، فكرت فى هؤلاء الذين لا يفهمون المرأة على بساطتها وسطحيتها ويروحون ينسجون حولها الأسرار ، فكرت فى هؤلاء الشعراء المساكين الذين لذعتهم بمثل الجمر وكوتهم بنارها ، وهى لا تملك إلا عذابهم وإيلامهم ، لأنهم لا يستحقون إلا التعذيب والإيلام . فكرت فى هؤلاء التعساء الذين يشوهون جمال الحب بدموعهم وزفراتهم وتنهداتهم التى لا آخر لها .

وكنا قد بلغنا جسر إسماعيل فأوغلنا فيه ، ثم اعتمدنا على حواجزه ، وأخذنا نحدق فى الماء الجارى تحتنا ، والطبيعة الناضرة حولنا ، وبعثها منظر السماء والماء ؛ وجمال الطبيعة السابحة فى غيابات الكرى ، والنخيل السامق على الشط ، والأضواء الراقصة على صفحة الماء ، على أن تتحدث عن آمالها وأحلامها وأمانيها التى ذوت وصوحت وراحت أباديد . .
ولما بدأت تحدثنى عن صدر حياتها وضعت يدى على فمها لتصمت ، لم أكن أحب أن أعرف شيئاً مطلقاً يتصل بماضيها ، كنت لا أود أن أفسد علىّ سعادتى الراهنة . . كنت لا أحب أن

أعرف عنها أكثر من أنها مخلوقة جميلة وادعة التقت بى عرضاً فى ليلة من الليالى ، واستسلمت بكليتها لى ، بجسمها ونفسها . . فما شأنى وماضيها . . طغت علىّ موجة إنسانية رفعتنى عن الشهوات الشخصية والأنانية ، وجعلتنى إنساناً يعيش لساعته . . يعيش لوقته .

وأخذت أجول بطرفى فيما حولى ، ثم أحدق فى جسمها الممتلىء الرشيق الفاتن ، وأسبح فى عينيها النجلاوين الضاحكتين ، وأحس بجاذبية غريبة تجرفنى نحوها ، وتحملنى على أن أنسى الزمان والمكان وأطوقها بذراعى ، وأضمها إلى صدرى ، ووقفت ساهماً ، مبهور الأنفاس ، شديد ضربات القلب ، وذراعاى تودان لو تضمانها إلى قلبى ، وتضغطانها على جسمى ، وشفتاى تتعطشان إلى شفتيها ، كنت أحب أن أعصر جسمها ، وأفنى فيه حيوتى وأدفن أحزانى .

وقالت بصوت مرتعش وقد أدركت بغريزتها ما يجول بخاطرى :

«كمال . . اشتد البرد . . هيا»

فنظرت إليها فى غرابة وقلت :

«كيف عرفت إسمى . . . !»

فقالت باسمة «قرأته هنا . . » .

وأشارت إلى جبينى .

وضغطت على ذراعى وقربت منى . . مشينا على رصيف الجسر حتى تخطيناه وانحدرنا إلى الشط ، وسرنا على العشب الأخضر المطلول ، وكان السكون عميقا شاملا ، والطبيعة هاجعة ناعسة ، وطرف الجيزة الفيحاء يبدو بنخيله وحدائقه وبساتينه ، غائصا فى لجج الظلام ، ولم تكن الليلة مقمرة فاسترحنا إلى الظلام ؛ وإلى ظل النخيل الممتد على أديم الماء . ولم تكن سعادتنا مستمدة من الطبيعة الجميلة الضاحكة بل كانت خارجة من أعماق نفسينا . وجلسنا على العشب الندى ، ورحت أذكر قريتى الحبيبة على النيل وطفولتى وملاعب صباى ، أيام كنت أقضى النهار طوله أصطاد السمك ، وأسبح فى الماء . رجعت أذكر الليالى الصيفية المقمرة التى كنت أتنزه فيها فى النيل مع لداتى من أبناء أعمامى . . . نخرج بزورق صغير كل غروب ساعة الطفل ، ونرسله مع التيار ، ثم نشرع فى التجديف الخفيف اللين ، ونغنى على وقع المجاديف الغناء الريفى الحزين ، حتى يجرفنا التيار ، ويرمينا إلى جزيرة القرية الصغيرة ولما تسمع كلاب الجزيرة الهائجة أصوات المجاديف تتوثب نحونا نابحة ، فيخف إلينا الفلاحون ، ويزجرون الكلاب بالطوب ، ويمسكون الضوارى منها من أعناقها . ثم يتلقونا بالبشر والترحاب والتهليل . ونجلس حولهم خارج العرائش نأكل البطيخ ونسمع أحاديثهم وسيرهم وأقاصيصهم الطلية عن عصاباتهم فى الليالى

السوداء وهم يسطون على العزب . . يفيضون معنا بفنون الأحاديث حتى يقرأوا على وجوهنا النوم ، فينهض منهم ثلاثة أو أربعة أشداء مفتولون ، ويأخذون ناصية الزورق بحبل طويل يديرون طرفه الآخر على أكتافهم ، ويرسلونه وراء ظهورهم ؛ ثم يسحبون الزورق ؛ ويمشون به قرب الشط فى صمت وعناء وسكون ، ونحن خلفهم مستقلون على سطحه ، مستسلمون لأعذب الأحلام ، لا نفكر فى آلامهم ولا نشعر بتعبهم ، ولا نقدر عواطفهم الجميلة النبيلة ، ولا حتى نشكرهم ، وما أحسبهم كانوا فى حاجة إلى شكرنا . لا زلت أراهم وأتصورهم الساعة وهم يشمرون عن سواعدهم ، ويطوقون خصورهم بأطراف ثيابهم ، وينحنون على الماء ؛ والحبل يغل عنقهم ويدمى ظهورهم ، وأرجلهم تتخبط فى الماء وتغوص فى الوحل ، فإذا أدركهم التعب ، غنوا غناء حزينا يختلط مع خرير الماء المتدفق من السد القريب ، ويستقر فى أعماق قلبى . هذا المنظر الذليل المستكين سيبقى هنا راسخاً فى أعماق ذهنى إلى الأبد . هنا عند مركز الباصرة ستبقى هذه الصور حية كما شاهدتها من سنين .

***

وأخذت على سيل خواطرى وذكرياتى بقولها :

«ما الذى تفكر فيه . . ؟»

فتحولت بوجهى إليها ، وكانت ترقبنى فى تأمل ، وتعجب لشرودى ، وتجهل ما يدور فى ذهنى ، وأمسكت بذراعيها وجذبتها نحوى ووقفت وأنفاسى تمازج أنفاسها ، وصدرى يضطرب مع صدرها ، وعينى سابحة فى نور عينيها . يا لله . . ستمر السنون وتنقضى الأعوام ، وتطوى الحادثات ، وتنمحى الصور وهاتان العينان مستقرتان هنا . . هنا تحت عينى . . تنظران من وراء الحجب إلى ، تلحظانى من وراء الغيب المجهول . . إنكما هنا بجوارى تسهران على وأكتب على نوركما هذه الصفحات ، وفى اللحظة التى سينطفىء فيها هذا البريق ، سينطفىء سراج حياتى .

***

ودعنا جسر إسماعيل ، وما يحيط به من مناظر ومباهج ومتع ، وكنا ننظر إلى الماء الجارى تحتنا ، والطبيعة الناضرة حولنا ، والسماء الباسمة فوقنا ، ونتمنى لو تواتينا الشجاعة لنفنى ، لنفنى معا بعد أن أحسسنا والشعور مشترك ببلوغ الغاية والوصول إلى نهاية . أحسسنا بأننا وصلنا بمشاعرنا وعواطفنا إلى نهاية ما نحب ونرجو . كنا نود لو ننحدر إلى جوف اللج ، ونروح مع تياره ، ونغوص فى أعمق أعماق أثباجه ، ويطوينا البلى معاً ، ونحن متلاصقان جسمى على جسمها ؛ وصدرى على صدرها ، وشفتى على شفتيها ، وأنفاسى تمازج أنفاسها ، ورضابى سابح فى رضابها ، وروحى تخرج مع روحها فى وقت

واحد ولحظة واحدة . لم أكن فى تلك اللحظة آسف على شىء فى الوجود . الإنسان يعيش فى حياته مرة . . مرة واحدة يشعر فيها بقيمة نفسه ، ويحس بوجوده كإنسان . ثم بعد ذلك يفنى . . يعيش ميتا حيا .

وسرنا نقطع شوارع المدينة على مهل ، مسترسلين فى ألذ الأحلام ، غافلين عما حولنا ، ناسين الريح المصفر والبرد الشديد ، حتى قرع سمعنا أنين حاد يشبه العويل ، فوقفنا جازعين ، نسترق السمع ونرهف الحس ، ونمد البصر فى قلب الليل ، وإذا بنا نلمح على ضوء بعض المصابيح ، شبحا أسود ، قابعا تحت جدر بعض الأبنية العالية ، فمشينا نحوه بخطى جفلى ، فلما قربنا منه رأينا امرأة شريدة من طريدات الليل ، على بدنها ثوب أسود مهلهل ضمته على جسمها ، وغطت بأطرافه رأسها ، وتجمعت وتكمشت والصقت ركبتيها بذقنها ، ودفنت وجهها فى الجدار ؛ وهى ترتعش وتنتفض من البرد ، وتئن وتنوح ، وتنشج نشيجاً يفطر الأفئدة ويهز المشاعر .

والتصقت بى الفتاة ، ورفعت عينيها المغرورقتين بالدمع وصمتت ، وبقيت تنظر إلى المرأة بوجه ملتاع وكأنها تود أن تقول :

«ألم يمر عليها إنسان . . ؟!»

وأخذ جسمها بعد ذلك ، يرتجف بشدة ودموعها تتساقط فى حرارة ، فشددت عليها بذراعى وأبعدتها عن هذا المنظر المؤثر بعد أن أدركت ما يجول بخاطرها ، وأخذت أحدثها حتى انصرفت عما تفكر فيه وهدأت وسكنت ، وكنا قد بلغنا المنزل ، فدفعت بابه الحديدى ، واحتوانا الفناء المظلم . . ووقفت عند عتبة السلم وأشرت عليها بأن أحملها على ذراعى لأصعد بها السلم فرفضت . . ثم وافقت . . ولم أدر من أين أتتنى تلك القوة العظيمة التى أعانتنى على حملها دون عناء وجهد ، صعدت بها الدرجات على مهل ، وكنت أقف بين الفينة والفينة لأحدق فى وجهها ، وأملأ عينى من حسنها ، وأرقب شفتيها الورديتين وهما تنهلان من رحيقها ، وأشتهى لو غمرتها بقبلاتى . . ثم أعود أستأنف ارتقاء الدرج فى تراخ وكسل . كنت أود أن أطيل إلى أقصى أمد زمن سعادتى ، لم أشعر فى حياتى كلها . . فى سنى أيامى الخوالى ، بمثل الشعور الذى شعرت به فى تلك الليلة ، وهى تطوق عنقى ، وتلصق جسمها بجسمى ، وتضع قلبها على قلبى ، وتسبح بعينيها فى عينى ، لقد أحسست لأول مرة فى حياتى بلذة الحس التى لا تحد ، بالنشوة اللذيذة التى تغمر الجوارح كلها وتفيض على نفس الإنسان وحسه .

ولما بلغت باب مسكنى أنزلتها فى رفق على الأرض وفتحت الباب ودخلت البهو ، وأشعلت النور ، ووقفت أمامها ألهث . . فوضعت يدها على عاتقى ورمقتنى ، وهى ساكنة الملامح ، بعينين تفيضان حناناً وفتنة . . ثم مشت تستعرض الصور الزيتية المتناثرة على

الجدران . وأدركت بعد السكون الذى طالعها من جوانب البيت أنى أعيش وحدى . ونقلت البصر فيما حولى ، ورجعت أذكر هذا المنزل الذى قضيت فيه جانباً عظيماً من حياتى وحيداً مستفرداً لا يؤنسنى فيه إنسان ، مضيت فيه شطراً كبيراً من نهارى وليلى ، وحيداً منعزلاً ، فى حى هادىء يقرب من حى الموتى ، وشعرت لأول مرة بأنى فى حاجة شديدة إليها ، إلى ابتسامتها ، إلى النور المشرق من عينيها .

وأمسكت بيمناها وجذبتها إلىّ ، فراعنى أن ظهر راحتها مخضل بالدم . . فحدقت فيها مبهوتاً ، وهى تبتسم فى خفر أحلى ابتسام ، وقربت منى ودار ذراعاها حول عنقى ، فرفعت يدها الدامية عن عاتقى وقربتها من شفتى ، وأدمت النظر فى سواد عينها وفهمت . . لقد غاصت أظافرى ، وأنا لا أعى فى لحمها . . ووضعت شفتى على يدها وأخذت فى نهم أشرب الدم . . وأحس بلذة وحشية غريبة هزت كيانى ، وكرت بى إلى طبيعتى الأولى . . . إلى إنسان الغاب . وتراخى جسمها واستلانت عضلاتها ، وأطبقت جفنيها ، وحبست أنفاسها ، فحملتها على ذراعى ودخلت بها مخدعى وأضجعتها على السرير ، دونْ أن أشعل النور ، وطوقت خصرها ، وضغطت على بدنها ؛ وأنا أهتز وأرجف ، ودفنت رأسى فى حجرها وصدرى يغوص فى جسمها ، وأنا أرتعد وأنتفض وأخاف . . أخاف المستقبل المجهول بظلامه وسحبه ، أخاف أن تفلت من يدى ، وتروح مع الرائحين ، فتذهب وراءها سعادتى وحياتى .

كانت الطريق بين مزرعة صالح وقرية «ك» طويلة وموحشة ، وكان بعض الفلاحين العائدين من المزرعة بعد الغروب يتحاشونها ويسيرون فى طرق كثيرة بين المزراع . على أن الذين كانوا يتروحون بدوابهم ، وهم غالبية الفلاحين ،.كانوا يضطرون مجبرين إلى اتخاذ الطريق البعيدة لأن أرجل الدواب تفسد الزرع والنبت ، كانوا يمشون فى سكة معبدة بين الحقول ، حتى يبلغوا ترعة الجرف ، فينحدرون إلى قاعها ، ويصعدون منها مستوين على جسر القرية ، ويدورون مع الجسر العتيق البالى حيثما دار ، مجتازين بساتين النخيل والأعناب ، وأشجار السنط ، حتى يدخلوا القرية مع العشى ، وهم لا هثون مكدودون، من ثقل البرسيم على ظهورهم ، ومن فرط ما يلاقونه من إعنات البهائم النافرة التى تظل طول الطريق تضرب بحوافرها الأرض ، وتقطع الجسر فى خطوط حلزونية وهى تخور وتصهل وتهدر فى مرح ونشاط ، لأنها شبعت من خير الأرض ، وشربت من ماء النيل ، واستدفأت بحرارة الشمس ، وقضت النهار كله فى جو بهيج طلق .

وكان الفلاحون الذين يسوقون الدواب من الحقول ، من فتيان القرية الأشداء ، الذين ألفوا سير الليل فى الليالى الظلماء ، ومع هذا فقد كان عمدة القرية يهون عليهم وحشة الطريق بإخراج خفيرين من أحسن الخفراء يتطلعان ويعسان على الجسر ، وبعض الأحيان يواصلان السير حتى المزرعة .

وكان من بين الفلاحين الذين يتخذون طريق المزرعة الطويلة الكثير من الغلمان . وكان هؤلاء أسبق أهل المزرعة إلى الرواح . كانوا يبدأون فى حش البرسيم عندما تميل الشمس نحو الأفق ، وتقرب من قرن الجبل ، وترسل أشعتها الصفراء على الحقول ، ويكومونه خارج الحقل ، ثم يضمونه فى حزم صغيرة يربطونها بسيقان الزرع اللين ، ويحلون الدواب من أوتادها ، ويضعون على ظهورها الخيش الثقيل ليقيها برد الشتاء ، ويوثقون أفواه البهائم النافرة بكمامات من الليف المحكم الفتل ، ويحملون ظهور الحمير والجمال بالبرسيم ، ويرسلونها فى الطريق وهم وراءها يحثونها بالعصى ، ويغنون على وقع

حوافرها الغناء الريفى الحزين . . كانت أصواتهم الحلوة ترن فى سكون الغسق ، وتدوى فى جوف الليل ، فيهتز لها الزرع ، ويغنى الطير ، وتنحنى لها أعناق الإبل وتسكن البهائم الهائجة ، ويحمل الهواء الرخى صداها إلى القرية ، فترقص لها قلوب الأمهات طرباً ، ويرحن يهيئن العشاء من العصيد والفت لأفلاذ أكبادهن القافلين من المزرعة .

وكان الفتيان وهم يدخلون القرية مع العشاء لا يحسون ، مع طول الطريق ، بتعب ولا نصب ، ولا يشكون من سوء الحال ، ولا يعرفون المصير . كانوا يقطعون الطريق ضاحكين صاخبين ، كانوا دائما يضحكون للزمن ويبتسمون للحياة ، ويقضون النهار فى الحقل يلعبون «الطرطقة» والكرة الليف ، ويأكلون الخبز الأسود بالحلبة والجبن ويشربون من لبن الضأن ، ويشعلون فى بكائر الصباح النيران فى أطراف الحقل ، ويجلسون حولها يتحدثون ويتندرون ويفيضون بأعذب الأقاصيص والسير ، ويذكرون لياليهم المقمرة الممتعة ، والزمن رخى ، ووجه الحياة بسام .

وإذا بلغ الفتيان القرية ، وقربوا من شجر السنط القائم فى شماليها انحرف الساكنون منهم فى شرق البلد عن الجسر ، وواصل الذين يقيمون فى أقصى القرية وغربيها سيرهم فى الطريق ، ثم تفرقوا طرائق على رأس الدروب ، وعصيهم تعمل بحمية ونشاط على ظهور الحيوانات الثاغية الراغية .

وكانت القرية تظل النهار طوله فى صمت ووحشة وسكون ؛ حتى تغرب الشمس ، ويهل عليها الغلمان من الحقول ، فتعود إلى حياتها ونشاطها ومرحها ، فلا تسمع إلا صهيل الجياد وخوار الأبقار ، وهدير الإبل ونباح الكلاب ، وصوت العصى على الدواب الهائجة ، لتستكين فى مرابطها ، وتستنيم إلى الحظائر الضيقة بعد الحرية المطلقة فى الخلاء ، وبعد صلاة العشاء ، تحلب البهائم ، وتعود القرية إلى سكونها وصمتها .

وقل ما كان يتأخر الفتيان فى المزرعة إلى ما بعد الغروب إلا فى الليالى التى يبكرون فى صباحها إلى المدينة بائعين البرسيم ، ومع هذا فما كانوا يشعرون وهم راجعون فى الطريق بخوف ولا رعب ، ولا يرهبون شيئاً من عوادى الليل ، لأن القرية مع وقوعها فى صميم الصعيد ، وبجوار قرى تكثر فيها جرائم القتل والنهب ، آمنة مطمئنة وأهلها وادعون مسالمون .

تأخر الفتى نعمان فى ليلة من الليالى فى المزرعة ، لأنه اشتغل وحده بحش ثلاثة أحمال من البرسيم للسوق . . وكان غلاما فى السابعة عشرة من عمره ، أسمر فى حمرة ، حديد البصر مديد القامة ، محبوبا من رفاقه ولداته . . . وهو وحيد أبويه . . رجع نعمان وحده فى سكون الليل إلى القرية ، وتحته أتان مهزولة ؛ وأمامه دابتان قويتان . . بقرة حمراء ، وجاموسة سوداء فتية من خيار الجاموس . . مشهورة فى القرية بلبنها وسمنها ، وما تدره على

أصحابها من خير عميم ، وكانت مع طيب عنصرها جافلة نافرة ، فأخذ الغلام راسها وشد عليه . . وحمل أتانه بالبرسيم ، وساق البقرة أمامه ، ومشى فى غلس الليل وحده شاعراً بالسكون العميق والظلام الشديد .

ولم يكن من عادة نعمان التخلف عن رفاقه فى المزرعة ، ولهذا شعر فى هذه الليلة ببعض الخوف والذعر ، وكان اليوم على خلاف الأيام غائماً مقروراً كثير السحب ضرير النجم ، خيم ظلامه قبل الأوان ، وضرب العشى بجرانه على الحقول والمزارع ، وذاب الشفق الأحمر فى سواد فاحم سد عرض الأفق . وهبت الرياح شديدة قوية فترنح لها الزرع ؛ وحف الشجر القائم على جوانب الطريق . وكان أرهب ما يخشاه نعمان ، على الرغم من أنه الريفى القح ، مروره بالدواب فى فحمة الليل ووحشته على البساتين . فكان يرتعد لهذا ويرتجف فوق الأتان ، ويقبض بيده على زمام الجاموسة ، ويحث البقرة على الإسراع فى صوت خافت جازع . . واشتد الظلام وغرقت القرى فى لجته ، وأصبح نعمان لا يرى أبعد من مواضع حوافر الدواب ، وكان وهو يرفع نظره إلى الأفق ، ويرتد به إلى الحقول المجاورة ، يرى ألسنة نيران تشب ثم تخبو فى المزارع البعيدة . . وكان لو مضها ولمعانها فى جوف الظلام ، منظر مرهوب ترتعد له الفرائص رعباً . وكانت البقرة لا تسير على جانب واحد من الجسر وإنما أخذت تميل إلى اليمين مرة وإلى اليسار أخرى ، وترك نعمان حبلها على غاربها . . . مد لها طرف الحبل كلما تياسرت وقربت من النيل . . وأخذ يرقب قلوع المراكب البيضاء ، وهى لبياضها فى سواد ما هنالك نور يتألق ، ثم يسمع بين الفينة والفينة مجاديف الصيادين وهى تجزر بزوارقها عن الشط . . وسمع نباح كلاب شديد على العدوة الأخرى من النيل ، بدأ فجأة ، واستمر دقائق كاملة ، ثم خيم سكون الرمس ، وبقيت حوافر الدواب وأظلافها تضرب الأرض بقوة وعنف .

وأشرف نعمان على بستان «عمر» وهو نخيل وسنط وأعناب ولبخ يمتد من حافة الجسر ويغوص فى قلب الحقول ، وكان من أكبر بساتين القرية وأغناها بالثمر وأشدها مع ذلك وحشة . لأنه يترك معظم العام من غير حراس ؛ ولا يخفره زمن الأعناب والتمر ، إلا شيخ طاعن من الفلاحين . . . وأطلت على نعمان فروع النخيل ، وهى تميل مع هبات الرياح ، وكأنها فى عراك دائم مع أشباح الليل فوجف قلبه فرقا . واندفع الدم إلى رأسه ، ولم يستطع رغم رباطة جأشه أن ينزع عن ذهنه المخاوف المفزعة التى ساورته ، وكان خوفه على الدواب أضعاف خوفه على نفسه بل لم يكن خوفه على حياته يستقر فى بؤرة شعوره إلا إذا تصور القتل على أبشع صوره . . . الطعن بالسكاكين والتمثيل بالجسم ، وتمزيقه شر ممزق ثم رميه كأحقر أنواع الكلاب فى النيل .

وصمت كل شىء حوله ، وبدا الليل فى هوله مفزعا مرهوباً ، وغاصت الحقول والمزارع فى لجج الليل ، وانقطعت ألسنة النيران البعيدة ، وزادت الثورات النفسية تأججاً

مشوبة بأقسى ضروب المخاوف ؛ وتياسرت البقرة على عادتها لما حاذت سور البستان ؛ ولعلها كانت تخاف رهبته كذلك ، ومالت إلى النور الضئيل المنبعث من النيل . وخيل لنعمان أنه يرى نور سيجارة تومض فى البستان . . . ثم سمع صوت إنسان ، وزحف أرجل حذرة ، وتقلب بطن كبطون الثعابين . وتحركت بعده أوراق الشجر وتمايلت الفروع . . على أن هبوب الريح فى تلك الآونة بشدة طردت من رأس نعمان فكرة وجود الإنسان إطلاقا ، وبقى مع هذا خائفاً يتوجس ، حتى خلصت أرجل الدواب من سور البستان ؛ فتنفس الصعداء ، وأصلح حمل البرسيم المعلق على جانبى الأتان ؛ واعتدل على ظهرها وتهيأ للسير السريع . . وكان مستغرقا فى خواطر لا علاقة لها برهبة المكان مطلقاً . . وانحنى الجسر فجأة إنحناء شديداً ، وتمهلت معه الدواب ، وأطل نعمان على جوف الترعة بجانبه ، وكانت قد عمقت وغابت فى أعماق الأرض ، حتى بدت كالمغاور السحيقة التى يضل فيها إنسان العين . . وتلفت مذعورا على صوت أقدام سريعة دوت فجأة . . . وأخذته على غرة ضربة نبوت قوية من أشد السواعد وأقواها ، حطت على صدغه ، وانقلب بعدها عن ظهر الدابة يهوى من حافة الجسر إلى بطن الترعة كالحجر الساقط من قرن الجبل ، مقلباً ظهر لبطن ، حتى استقر فى قاع الترعة فاقد الحراك . . وجفلت الجاموسة النافر ، وانطلقت تسابق الريح إلى القرية . وانطلقت على أثرها رصاصة طاشت عنها ، تبعتها أختها أسد وأحكم ، فأصابت فخذها الأيمن ، ونفذت منه ، وخرجت تئز وتدمدم فى الجو . وتقطر الدم من فخذ الجاموسة على الجسر وزادتها الرصاصة هياجا وذعراً .

وقامت على صوت الرصاص الكلاب فى المزارع ، وخف على صياح الجاموسة ونواحها الخفراء والأهالى من القرية ، وخرجوا متفرقين فى المزارع كأشباح الليل الهائجة . .

انقطع عبدالحق والدنعمان عن صلاة الفجر فى مسجد القرية واحتبس فى منزله أياماً طوالا . ولم يكن مع الذين واروا ابنه فى التراب على الرغم من أنه دفن فى ظلام الليل ، كما أنه لم يتلق تعزية واحدة من إنسان ، على عادة أهل الصعيد فى أمثال هذه الأحوال ، وكانت أشق الأشياء على نفسه أن يجر بعد الحادث إلى بيت العمدة ليدلى بمعلوماته إلى المحقق ، وكانت أجوبته عن أسئلة هذا موجزة مقتضبة خالية من دلائل الاتهام ، وإن كان ذهنه قد ابتدأ يحصر الجريمة فى أشخاص معينين بالذات ، فقد ذكر شجارا حدث بينه وبين بعض جيرانه فى الحقل كاد يجر إلى أوخم العواقب ، لولا أن مشى بينهما بعض الناس ، وذكر نزاعا بينه وبين بعض المالكين عند ضم المحصول ، استعملت فيه الهراوات ، كما ذكر أن الغلام نفسه تشاحن مع رفقائه أكثر من مرة ، وكان آخر المشاحنات غالبا التهديد والوعيد . .

على أن القتل لم يكن للقتل بل كان للسرقة ، قتل الغلام الأعزل لأن اللصوص استضعفوه فى ظلام الليل وأرادوا سلبه مواشيه وقد فعلوا . .

أخذت هذه الخواطر المروعة تطوف فى ذهن الأب ، وصورة الجريمة على بشاعتها ماثلة أمام ذهنه . ولم يستطع ، رغم إيمانه المطلق بعدل الله ويقينه الجازم برحمة ربه ، أن يتعزى ويتأسى ، فلقد فقد بهجته فى الحياة ، ومتعته فى هذا الوجود . . حشاشة نفسه . . ولده الوحيد القائم على زراعته ، الحارس لدوابه ، الجانى لمحصوله ، ولده النافع . . ولم يستطع وهو الرجل الحديد الأعصاب الشديد الأيد ، القوى القلب ، أن يأخذ بزمام نفسه ويضبط جأشه ، بل كان دمه تحت تأثير الصورة البشعة التى مات عليها ابنه يغلى فى عروقه ، ويمزق أعصابه ، ويطير لبه .

وكان الحادث مع وقوع مئات الحوادث من أمثاله فى الريف حديث أهل القرية جميعاً ، وكان المغرمون منهم بتصيد الأخبار ، والإضافة إليها من صناعة وجدانهم يزيدون فى وصف الحادث زيادة عظيمة . . وأخذ شيوخ القرية والراسخون منهم فى الإجرام يسترقون السمع ويمدون البصر علهم يهتدون إلى الفاعل ، ولقد كان نعمان أحسن لهم من فلذات أكبادهم وأطوع لهم من أرحامهم وخطا بعضهم بعد جهود متواصلة خطوات موفقة وكاد أن يزيح القناع عن وجه الجريمة . . لولا أن عارضا تافهاً اعترض فى ذلك الحين فضيع هذه الجهود سدى .

***

أخذ عبد الحق على مر الأيام يستبشر بالصبر وينزل على حكم القدر فعاد إلى عمله فى المزرعة بنشاط وعزم ، وأضاف على زراعته فدانين من ضعاف الأرض أخذ على نفسه إصلاحها وتسميدهما ، وكان موسم الزراعة قد حل فى جزيرة القرية وهى على العدوة الأخرى من النيل ، فبكر مع المبكرين فى الذهاب إليها . . بيد أنه كان يتخير فى غدوه ورواحه أوقاتاً تختلف عن أوقات الفلاحين .

وكانت أشد الأشياء وقعاً على نفسه وأشدها إيلاماً لقلبه ، منظر زوجه فى البيت ؛ فقد انقلب كيان الأم بعد أن مات عنها وحيدها ، فذبل جسمها وجف ماء شبابها واصفر لونها ، وتخدد وجهها ، وبرزت محاجر عينيها . . وكانت المسكينة تنزوى سحابة النهار ، وطول الليل فى ركن مظلم من البيت ، لا تحادث أحداً ، ولا تخاطب زوجها . . وكان هذا يرى فى بريق عينيها كلما واجهته تعبيرا ناطقا عما فى نفسها ، وتعنيفاً مؤلما على موقفه كرجل . . على أن الرجل لم يكن مقصرا قط ، فعلى الرغم من مرور أكثر من أربعة أشهر على هذا الحادث المروع فإنه كان لا ينفك يبحث ويتسقط الأخبار ، ويجمع ما يطير من أفواه الناس ، حتى أعياه الأمر وأضناه ، ففتر عن البحث وترك الأمر للأيام وهى وحدها الكفيلة بإظهار الجانى . . فليست حوادث القتل من الحوادث التى يمكن أن تضيع معالمها ويختفى أمرها عن الناس جملة مهما كان القاتل أوالسارق من الحذر والحيطة وبعد النظر ، وبراعة الذهن والتفنن فى ضروب الإجرام . . وقد يحدث عرضا حادث تافه ، أو يجرى حديث

بسيط أو يقع أمر حقير . . فيزاح ستر الجريمة ويظهر أمرها للناس . والقرويون بطبيعتهم فيهم الصبر وعندهم الأناة . فما يتسرعون ولا يركبون متن الشطط ، ولا يسددون السهم إلى غير قلبه . . ولا يصوبون إلا إذا أبصروا هدفا ، وتراهم فى كثير من الأحايين يدعون القاتل يمرح ويلهو حتى ينسى نفسه ، وهم فى الوقت عينه يضيقون عليه الدائرة وينصبون حوله الشباك حتى يقع فى الفخ .

***

عاد عبد الحق فى ليلة من الليالى من جزيرة القرية متأخرا على خلاف عادته . فلم يجد معدية القرية فى مرساها وانتظرها حتى عيل صبره . . فأخذ يتمشى على شاطىء النيل عله يجد زورقا من زوارق الصيادين ينقله إلى القرية . . وكانت الليلة ظلماء ساكنة الريح موحشة الصمت فتثاقل فى سيره وأرهف حسه . . حتى سمع صوت مجاديف خفيفة فمد قامته وسدد بصره فى حجب الظلام ، فبصر بسواد يتهادى نحو الشط . . فلبث قليلا ثم هتف بمن فى الزورق فألفاه يجزر عن الشط بعد أن كان يقترب منه ، وهى حركة طبيعية مألوفة من الصيادين . . من سكان المدينة على الأخص ، فهم يرهبون الريفيين ويتقون بأسهم ويتحاشون وجودهم ، ويتصورون أنهم بالإجماع لصوص فاتكون ما يخرجون فى رهبة الليل إلا لتصيد الناس . . وما أسهل من أن يغير فاتك قروى على زورق من زوارق هؤلاء الضعفاء المساكين ، فيسلبه ماله ، ثم يلقى بمن فيه فى النيل !

وابتسم عبد الحق لما رأى الزورق ينقلب على عقبيه ، ويرتد عن الشط . . ثم سار فى طريقه بعد أن صب اللعنات على من فيه . . واتجه نحو السد حتى غابت عنه القرية ، وانقطع عنه نباح كلابها . . وكان قد قرر الرواح حتى ولو بلغ السد ، ودار كل هذه الأميال ، لأن تخلفه عن بيته سيبعث الوساوس والشكوك فى نفس زوجته الثكلى ، وربما طير صوابها ، وسمع على بعد صوتاً يشبه صوت أقدام تتخبط فى الماء . . فدلف نحو الصوت حتى اقترب منه . . فوجد صيادا يجر زورقاً صغيراً ويغالب به التيار الشديد فسر لمرآه ، ورأى أن يتسلل خفية ، حابساً صوت أقدامه ، حتى يقترب منه . . فأخذ يتلصص فى مشيته حتى كان بجانب الرجل ، وبادره بالتحية فرد الصياد ، وفى صوته الرهبة ، وعلى ملامح وجهه الجزع . .

فأخذ عبد الحق يحادثه حتى سكن طائره ، واطمأن قلبه ، ثم رجاه أن يعبر به النيل فقبل ، وأخذ يطوى الحبل وفى حركة يديه دلائل التذمر .

وانطلق بهما الزورق وكان الصياد على عكس الصيادين . . وهم يلزمون دائما جانب الصمت حتى لا تخيب شباكهم . . ثرثاراً كثير الخلط فى الكلام . فأخذ يقص على عبد الحق طرفاً من سيره ونوادره ، وحوادثه مع القرويين الذين يتأخرون فى الحقول . . ويطلبون

الرواح بعد نصف الليل ، وبطونهم خاوية . . ! واستمر فى ثرثرته الفارغة حتى بلغا منتصف النيل ، وهنا انطلقت رصاصة فى الجو ، وهى تدمدم . . وأزيزها عند آذانهم .

فقال الصياد وهو يشد على مجاديفه :

«دائما الرصاص فى القرى . . دائما الرصاص فى الليل . . لو كنت واقفاً لقتلت . .»

فقال عبد الحق ، وقد نبشت الرصاصة دفائن شجنه :

«عمرك طويل . . . !»

فقال الصياد ضاحكا ، وقد سره أن وجد ما يسل لسان صاحبه بعد طول احتباس وطول صمت :

«أجل . . فعمرى طويل حقاً . لقد مرت رصاصة ، ذات مرة ، هنا عند شحمة أذنى . . فأخذت أذنى تطن ساعة . . وكان ابن اللعينة «علام» جالساً فى المؤخرة يضحك . . أجل والله كان يضحك والرصاص يصافح رأسى ، وهو رابض كالليث لا يغير جلسته ، ولا تغيب الابتسامة عن وجهه . . وكانت عيناه تلمعان كعينى صقر يريد أن ينقض على فريسته . .»

وصمت الصياد قليلا ليصلح مجاديفه ثم استطرد :

«وجدنى الملعون على الشاطىء . . فقال بلهجة الآمر وفوهة بندقيته عند أنفى : هيا أعبر بى النيل مسرعاً . . هيا . . وكان الشرر يتطاير من عينيه . . ثم سمعت على إثر ذلك الرصاص يدمدم . . فأدركت أنه مطارد فحركت المجاديف وأنا أنتفض من الذعر . . وكان يقول بصوت أجش . . أسرع ولا تتحدث . . وإلا فأنت تعرف مصيرك . . وبالطبع أنا أعرف مصيرى هناك عند سفح الجبل ! . . ولهذا لم أتحدث بما جرى لأحد ولن أتحدث ! . .» وانطلق الرجل فى ثرثرته وصاحبه لاه عنه بما يدور فى رأسه من خواطر ، حتى اقتربا من الشاطىء . . وهنا لمح عبد الحق سوادا يتحرك على بعد . ثم وميض سيجارة . . فلما كان الزورق على مسافة أمتار من الشاطىء ظهر رجل ضخم الهامة ، بادى الطول ، قد عصب رأسه وأسفل ذقنه بعجار أسمر ، وغطى بندقيته وألواح كتفيه بملحفة لا لون لها . . وكان يتمشى وهو يدخن ، فلما اقترب منه الزورق ، قال موجهاً كلامه إلى الصائد ، وكان صوته خشنا مرهوباً ، كأنه يتردد قبل خروجه من حنجرته فى أعماق بئر مالها من قرار :

«أحمد . . .»

فأجاب الصائد :

«نعم يا علام . . مساء الخير . . من أين . . !»

«من القرية طبعاً . . !»

«وما الذى تريده فى هذه الساعة من الليل يا أخى . . ؟»

«أريد الرواح . . هل تتصور أنى سأبيت هنا ؟»
«لا طبعاً . .»
«من معك . . . ؟»
«رجل طيب من القرية عم . . »
فأتمم عبد الحق كلام الصائد :
«عبد الحق . .»

فصمت الرجل ولم يقل بعد ذلك شيئاً ، ووقف يدخن . . وكان الزورق قد بلغ الشاطىء ، فنزل منه عبد الحق ، وواجه الرجل ، ورأى فى بريق عينيه ، وملامح وجهه الساكنة الصارمة . . ما ألهب خواطره . ولما اقترب عبد الحق منه ضاقت عينا الرجل قليلاً ، وتقلصت شفته السفلى بعض الشىء ، وانفرجت أسنانه ، فعل من يهم بالكلام ، ولكنه تراجع وتماسك ، لسانح فى ذهنه ، فابتسم ابتسامة نكراء ، ومر عليه عبد الحق دون أن يحييه . . ولما نزل الرجل فى الزورق ، وقف يرقبه على بعد حتى غاب عن بصره ، واحتواه النيل .

* * *

كان الشتاء قد حل ، والقصب قد نضج ، واستوى عوده وسمقت فروعه . . وكان عبد الحق فى طريقه إلى القرية ، وقد ترك المعدية ، واتخذ لنفسه طريقاً وسطاً بين مزارع القصب الكثيرة التى لا يأخذها الطرف . كانت آلاف مؤلفة من الأفدنة لثراة أهل البلد وعيونها وهى خير محصول وأجنى ثمر ، وكان الرجل يمضى فى الطريق وحيداً وهو يشخص ببصره من حين إلى حين إلى النيران البعيدة المشتعلة فى أقصى المزارع ، وكان الليل فى هزيعه الثانى ، والرياح عاصفة ، والبرد شديدا قارسا ، وحملت الريح إلى عبد الحق صوت كلاب أخذت تنبح بشدة ، ثم خفت صوتها تدريجيا ، ثم حمى الصوت واشتد مرة أخرى ، وانقطع بعدها فجأة . . . فوقف فى مكانه ورمى ببصره فيما حواليه ، وقد ساورته خواطر الريفى الذى يعرف أن لهذا النباح المفاجى فى جوف الليل سبباً . . . ولم تكذبه فراسته : فقد أهلت عليه من أقصى الطريق ماشية تساق سراعا ، مالبث أن تجنب بها سائقوها الطريق المألوف ، وتياسروا بها إلى بطن واد قريب يتجه إلى النيل . . فوقف عبد الحق هنيهة ، وبصره مستقر على الدواب ، ثم انخرط فى إثرها بعد أن خاف أن تغيب عن نظره . . وسار فى بطن الوادى ثم كمن فى بعض المغاور التى يحفرها الفلاحون لشواديفهم ، ورقب بعينى نسر . . وبعد لحظات مرت الماشية أمامه . وكانت كلها أبقارا من بينها ثور ضخم هائج ،

قد من انفه ، وأخذ من قرنيه ، وكان على الرغم من الضرب الشديد النازل على ظهره وجنبه ، لا يغير خطوته ، ولا يحرك جلده ، وإنما أخذ يدفع رأسه إلى فوق ، ويرمى ضاربه بنظرات ينخلع لها قلب الشجاع ، وكانت الأبقار كلها تحولت عن طريق الثور وحادت عنه ، ترد على أعقابها لتكون وراءه دائماً . . وتصور عبد الحق أنه يرى بقرته فى هذا القطيع ، رأى بقرة تشابه بقرته ، ولكنها لم تكن غراء مثلها . . نظر إلى هذه البقرة وأمعن فيها البصر وقلبه يزداد وجيبه ، والذكريات المرة تنهش رأسه ، ثم انقلب بصره عنها ، واستقر على شىء آخر . . على الرجال الثلاثة الذين كانوا يسوقون الدواب ، وعلى واحد منهم على التعيين ، وكان يمشى فى المؤخرة بعد الماشية بخطوات ، ويتطلع من حين إلى آخر إلى الخلف . . . تذكر أنه رأى هذا الرجل بقامته الفارعة ولفتاته ونظراته الحادة . . كان هو علام بعينه الذى حدثه عنه الصياد ، والذى التقى به عرضاً فى تلك الليلة التى تأخر فيها فى الجزيرة . كان علام فى هذه الليلة صارم الملامح ، ولكنه كان خفيف اللفتة قلق النظر ، يتأهب للحوادث .

ولما قربت الماشية من النيل ، رأى عبد الحق مركباً راسية طاوية قلوعها ، مالبث أن خرج منها نوتيان عرف أحدهما ، كان هو صاحبه الصياد بعينه . . . فنظر عبد الحق إلى هذا الرجل ومرت على شفتيه ابتسامة . . ونزلت الماشية فى المركب دون أن يتبادل الرجال الخمسة كلمة واحدة . . وحدث أن سقطت رجل بقرة من الأبقار بين دسر المركب ، فتركت كما هى . . .

وسارت المركب صوب الجزيرة ، وعاد عبد الحق إلى القرية .

* * *

وصل إلى سمع عبد الحق ، بعد ذلك الحادث بأيام ، همس يدور على أفواه الناس . . . ذلك أن هذه الحيوانات سرقت فى فحمة الليل ، ثم حبست شهوراً فى بعض البساتين ، لا تخرج لمرعى ولا تساق لمسقى . . حتى هدأت عنها الألسنة وغفلت العيون . . وهنا سربت على هذه الصورة فى سواد الليل ورحلت مع قطعان كبيرة إلى جهة نائية . . وعلم أيضا أن بقرة وأتاناً حبستا فى هذا البستان بعينه . . ثم أخذتا فى فجر يوم ولا يعلم أحد إلى أين ذهب بهما . . وإن كان يحتمل - لأن السرقة صحبتها جريمة قتل - أن البقرة ذبحت . . أما الأتان فألقيت فى النيل ، وكان علام هو الذى سرق الدابتين . . وعلى ضوء هذا واصل عبد الحق جهوده ، فعلم بعد بحث مضن استغرق أياماً أن اللصوص كانوا فى تلك الليلة الشنعاء سبعة . . وكانوا يقصدون مزرعة غنية لبعض الثراة . . ثم فلتت من أيديهم الفرصة ، بعد أن علموا فى اللحظة الأخيرة أن الخفراء ساهرون ، وعلى أتم استعداد . . والتقوا وهم مرتدون خائبون بنعمان عن عرض ، فوجدها علام فرصة ذهبية سانحة . . وحرض رفاقه . . فرفض منهم عربيان أصيلان أن يسرقا غلاماً أعزل على صورة

دنيئة لا يرتكبها إلا الجبناء . . ووافق على نهبه الباقون . . وكمن لـه علام وأخـذه على غرة . .

وعرف عبد الحق بعد ذلك الشيء الكثير عن علام هذا . . وهو أنه مجرم يسكن عزبة . . «ج» . . ويعيش على السرقة والنهب . . فيترصد التجار العائدين من الأسواق ويسلبهم ما لهم ومتاعهم ، ويفر بغنيمته فى الحقول فرار الثعلب . . وهو مع لصوصيته ، لا يغفل نداء قلبه . وحاجة جسمه ، فهو يتردد على أرمل من جميلات القرية مات عنها زوجها منذ سنتين ، وخلفها وحيدة الأهل . . وهى مع جمالها سيئة الخلق عصبية المزاج حادة الطبع . . وكانت فى صباها مطمع أنظار الشبان من الأعيان ثم كبـرت وترهـل جسمها نوعاً ، على مر الليالى ، فتركها هؤلاء . . وانحط مستواها بعدهم وأصبح لها ولع غريب بالفتيان الأشداء الذين دون العشرين ، وكانت تغريهم وتستحوذ عليهم بكل الوسائل . . وكان يساعدها على هذه الحياة الماجنة بيتها القائم فى طرف القرية منعزلاً عن سائر البيوت ، وحوله بساتين كبيرة من النخيل والأعناب . . وكانت مع حياتها الماجنة هذه ، تتحدث دائماً عن سمعتها وشرفها وتكثر من الترحم على زوجها . . . المرحوم !

وكان علام يتردد على هذه المرأة فى بعض الليالى المظلمة ، ويرجع إلى عزبته عندما يرسل الفجر أول بصيص من النور .

* * *

كانت المعدية الأخيرة ، والنقلة الأخيرة ، من غرب النيل إلى شرقه وكانت غاصة بالفلاحين العائدين من المزارع ، والقافلين من السوق ، والراجعين من المدينة . . كانوا يتحدثون عما شاهدوه فى المدينة وما ابتاعوه من السوق ، وقد نشروا على عواتقهم شيلانهم الزاهية ، وملاحفهم الحمراء الجديدة . . كانوا مبتهجين فرحين ، تطوف فى رءوسهم ذكريات الصور الجميلة التى مرت عليهم ، وأخذت بألبابهم . . كانوا يديرون رءوسهم من حين إلى حين إلى مؤخرة المركب ، حيث يجلس نفر من أبناء الأثرياء الراجعين من المدرسة ، والعائشين فى المدينة ، كانوا عندهم صورة حلوة للعيش الرغد ، والتمرغ فى النعيم ، والتمتع بمباهج الحياة وملذاتها دون أن يضربوا فأساً أو يبذلوا جهداً . . كل جهودهم تنحصر فى تقليب صفحات كتاب ! وهل فى هذا جهد . . هل جهود سكان المدينة جميعاً من هذا الطراز . . . إذن ما أحلى العيش فى المدينة .

كانوا ينظرون إلى هؤلاء الطلاب نظرة إكبار وإجلال ، وهم خير مثال يحتذى ، وخير آمر يطاع ، كانوا ينصتون إلى كل كلمة تخرج من أفواههم ، وكل حديث يدور بينهم ، علهم يهتدون إلى نور العلم ، ويخرجون من الظلمات .

وكان النسوة الجالسات فى ركن منعزل من السفينة يتطلعن إلى هؤلاء الطلاب ،

ويملن على بعضهن هامسات باسمات ، وخدودهن الوردية تفيض بماء الحياء ، وعيونهن الناعسة تلمع ببريق أخاذ .

وكان عبد الحق وعلام من ركاب هذه السفينة أيضا بيد أنهما لم يكونا متجاورين . . كان كل منهما يحادث رفاقه .

أما صاحب السفينة وقائدها فقد أسند جنبه الأيمن إلى مقبض الدفة ، وطفق يتطلع إلى السماء ويرقب القلع . . ثم عالج أخيراً حبلاً قريباً منه ، وشد به على ناصية القلع ، عله يشيل . . ولكن هيهات ! فقد كان الهواء معاكساً والتيار القوى يرد السفينة إلى الخلف أكثر مما يدفعها القلع إلى الأمام . . حتى وقفت المركب فى وسط النيل ، كأنها لا تتحرك ، أو كأنها تتراجع ، وأخيراً صاح النوتى وهو يحول الدفة :

«حسن . . عباس . . هيا ياأولاد إلى المجاديف . . .»

فنهض إلى المجاديف أربعة من الشبان الأشداء ، ظهر أثر تجديفهم بعد قليل من الزمن ، فقد تقدمت المركب مغالبة التيار ، على أن النوتى لم يقنع بجهود الشبان الأقوياء فأخذ يهيب بهم ويحثهم بقوله :

«ما هذا ! ما هذا التجديف ! رحم الله أيام الشباب ، كنا نقود أنا وصالح مركباً تحمل خمسمائة أردب . . ونحمل الأردب من القمح كما يحمل حسن حزمة من القش . .»

فقال أحد الطلاب يمازح النوتى :

«ومع هذا فقد ضربك عبد المقصود وطير أسنانك . .»

«من قال لك هذا يابنى ؟ . . هل كنت حاضراً . . ؟ صحيح أنه ضربنى ولكنه لم يطير أسنانى . . وقد شكوت هذا الشاب الطائش إلى ربى فانتقم منه شر انتقام . .»

«عندما يضربنى رجل على فكى الأيمن ، لا أدير له الأيسر ، وإنما أضربه على أم رأسه فأطير فكيه معاً . .»

فسأله أحد الفلاحين وهو يضحك :

«وإذا ضربتك امرأة . . ؟»

«أعرف كيف أرضيها . . !»

«ها . . ها . .»

واتجه الفلاحون جميعاً إلى هذا الطالب . . وقد كان كلامه طيب الوقع على

نفوسهم . . وإن كانوا لايتوقعون منه مثل هذا الكلام .

واعترض عليه أحد رفقائه :

«كيف تطير فك مخلوق بشرى مثلك . . هذه وحشية وفظاعة . . وإجرام . . دع أمره إلى الله وهو خير مقتص . .»

«هذا صحيح . . أنا مسلم بأنى لو ضربت إنساناً مثلى على أم رأسه أعد فى نظر الناس ، ونظر الاجتماع وحشاً وفظاً غليظ القلب . . ولكن المرء فى مواقف كثيرة لايملك أمر أعصابه ، وزمام نفسه . . يعود إلى فطرته ، إلى طبعه البكر قبل أن يهذب ويشذب ، فلا يرده حلم ولا يردعه زاجر . . عندما يضربنى إنسان فيطير لى سنة لا أدعه حتى أحطم أنفه . . أفعل هذا دون وعى منى ، ثم بعد ذلك أفكر هل أحسنت صنعاً بعمل هذا أم أسأت . . هل فى عملى هذا وحشية وجرم . . أفعل هذا ثم يأتى بعد ذلك دور التفكير ، ودور الندم . . من منكم يستطيع أن يغل يده إلى عنقه عندما يعتدى امرؤ على عزيز لديه . . إبنه . . فلذة كبده . .»

«هذه أعمال إجرامية تجر إلى الفوضى . .»

«هذا حق . . ولكنها قد تحدث عكس ما تتصور تماماً ، فمتى عرفت أنك متى صفعتنى سأصفعك ، تراجعت وجبنت حتى ولو كنت أشجع الشجعان . . من منكم يجرؤ على صفعى الآن وأنا ألقيه فى النيل ! . .»

فقال شيخ مهدم «أنا . .»

ونهض . . فضجت المركب بالضحك .

وكان عبد الحق ينصت إلى هذا الحوار الدائر بين الشبان باهتمام شديد . . والخواطر السابحة فى قرارة ذهنه قد طفرت وعادت تهيمن على شعوره ، وما زال يغلب انفعالات نفسه ، حتى غفل عما يدور حوله واستغرق فى أمر نفسه ، وهو شارد ساهم . . .

ولما فتح باب منزله فى غلس الليل كان قد اعتزم أمراً .

بارح عبد الحق منزله فى ليلة من الليالى وسار صوب المزارع ، وكان يمضى سريعاً وفى جسمه قوة لم يعهدها من قبل ، وكان مستريح الذهن هادىء البال ، قد أزاح عن صدره كل ما كان يثقله ، وصرف عن ذهنه كل ما كان يقلقه ويحيره فى الماضى ، ووجه نفسه إلى أمر واحد تجمعت فيه قوته وحيويته . . ولهذا شعر بدم الشباب يسرى فى ألياف جسمه ، وبقوة عظيمة تحمله على المضى فى طريقه . . وكان يرتدى رداء أسود فوقه عباءة من الصوف الثقيل ، وتحت هذه بندقية من النوع الجيد . . وكانت الليلة حالكة الظلام ، شديدة

الريح ، والشتاء فى صميمه ، وبرده الحاد يقطع الأنفاس ، ويحبس الناس فى بيوتهم من الغروب ، فلا يتخلف من الفلاحين فى الحقول إلا أولئك الذين اتخذوا للشتاء عدته ، فبنوا لأنفسهم عرائش من عيدان الذرة ، وأشعلوا حولهم النيران وجلسوا يصلون . . وكان عبد الحق لايقصد حقلاً من الحقول البعيدة التى يتخلف فيها الفلاحون ، وإنما كان يقصد حقلاً قريباً من القصب يطوق الجانب الشرقى من القرية ، كان يمر فيه علام كلما عاد من منزل المرأة التى يتردد عليها . . إتقاء للعيون ، ودفعاً للشبهات . . ولما بلغ هذا الحقل مضى قدماً فى طريق ضيق بجانبه ، ثم ارتد إلى حيث اختار ودخل بين القصب ، وجلس متمدداً يدخن . ومضت عليه ساعة . . وعادت بعدها إليه الهواجس التى كانت تبلبل خاطره من قبل ، رجعت إليه خواطر المتردد ، رجعت إليه الصور التى تمر على المجرم قبل الساعة الفاصلة . قبل ارتكاب جرمه بلحظات . . والتى يخرج منها وقد قطع بأمر . . وقف وقفة الرجل الحائر عند مفترق الطرق المتشعبة والذى لايدرى من أين يمضى ويسير . . عاد إلى إنسانيته ، وإلى طبيعة الخير فيه ، تذكر وتصور لأول مرة فى حياته أنه سيقتل إنساناً ، بشرياً مثله من لحمه ودمه . . عربياً من جنسه . . شاباً ناضر الإهاب ، فتى العود أمامه الحياة الطويلة ، وليس شيخاً مثله قد بلغ من العمر أرذله ، ومن الحياة منتهاها . . بيد أنه شاب متمرد . . شاب تمرد على الحياة ، وتمرد على الاجتماع ، وخرج على القانون ، وغدا مجرماً . . ولكن من الذى دفعه إلى الإجرام ، من الذى رمى به فى هذه الطريق . . ؟ من الذى سلبه نفسه وقلبه وجرده من إنسانيته ، ورجع به إلى وحشيته الأولى وجاهليته الأولى ، من الذى ألقى به إلى التهلكة فأصبح منبوذاً مطروداً ؟ من الذى فعل به كل هذا ؟ ظلام الجهل . . بلاء الفقر . . قسوة المجتمع . هل فى هؤلاء الغلمان المهذبين من أبناء الأعيان الذى رآهم فى المركب منذ أيام متمرد . . ؟ هل فيهم جاهل تقرأ على وجهه دلائل الإجرام كما تقرأ على وجوه هؤلاء الريفين الذين يتقاتلون على أتفه الأشياء .

لماذا يقتل الإنسان أخاه الإنسان ؟ ليأخذ بثأره . . ولماذا يأخذ بثأره ؟ لماذا يفعل هذا ؟ لماذا لايدع الأمر لربه وهو خير مقتص ؟ لماذا يثور هو الآن ويضطرب اضطراباً لم يعهده فى عمره ؟ لماذا يتراجع بعد أن جمع أمراً . لماذا يفكر هكذا ؟ لماذا قتل هذا المجرم إبنه . . ابنه الوحيد الحبيب نعمان . . مبتغاه فى هذه الحياة الدنيا ، لماذا ضربه ورماه فى جوف الترعة على هذه الصورة المنكرة . ؟ وأصبح عبد الحق لايرى الآن إلا ابنه . . ولم يكن يراه وهو يعمل فى الحقل أو وهو راجع من المزرعة ، وإنما رآه وهو ملقى فى بطن الترعة مضروباً كأحقر الكلاب . وهاج على هذه الصورة هياج الليث الكاسر . . ومسح العرق ، ورمى طرفه إلى أقصى ما يبصر ، وسمع حسا فأنصت وسدد بصره ، وانبطح على وجهه ، وألصق البندقية بكتفه الأيمن . وصوب ماسورتها من بين عيدان القصب ، وكان قد تخير مكاناً مناسباً فى بطن الحقل يشرف منه على طريق صاعد قرر أن يأخذ فيه غريمه . . وجذب

أكرة البندقية وسمع حركة الرصاصة تندفع إلى الماسورة متهيأة لضغط الزناد . . وكتم أنفاسه وأنصت . . ومرت ساعة رهيبة وعاد كل شيء ساكناً موحشاً . . وتحركت عيدان القصب ، واشتد البرد واستولى على عبد الحق القلق ، وخاف أن تفلت منه الفرصة ، وسمع فجأة حس إنسان ووضح الصوت وكان يعرف صاحبه ، فتراجع إلى الوراء خطوات وعينه لاتتحول عن الطريق ، وقرب صاحب الصوت . . وكان سقاء القرية يمشي وراء حماره الذى حمله بالقرب حتى انحنى ظهره ، وهو يضربه ضرباً موجعاً مع أنه ضامر هزيل أعرج . . ولما قرب السقاء من مكمن عبد الحق تلفت . . كأنه يسمع أنفاساً . . ثم مضى وراء حماره وقد حلى له أن يغنى .

وعاد عبد الحق إلى مكانه الأول ، وقد شعر بعد مرور هذا السقاء بالارتياح الشديد ، وقد انتفت عن رأسه الهواجس التى ساورته أول الأمر ، وهو متردد بين الإقدام والإحجام ؛ وعاوده الحنين إلى الانتقام ، وأصبح فى الساعة التى تمر على المذهول ، وقد وقفت سلسلة أفكاره جملة ، وغفل عن كل شيء حوله إلا ما انتوى . . وكانت الرياح كلما توغل الليل تزداد شدة وعصفاً ؛ فثارت ثورة النيل ، وهاجت مزارع القصب ، وتمايلت بساتين النخيل ، وتطايرت فروع الزرع الجافة ، واغبر الجو واكفهر ، فجمع عبد الحق حواسه كلها فى باصرته ورقب الطريق . . ولاح على بعد شبح إنسان ، ثم رجل فى ثوب داكن ، وقد غطى رأسه وعنقه وكان ثابت الخطوة يمشى على مهل ، ولا يعير باله لما يجرى حوله ، ولما قرب من مكمن عبد الحق تمهل فى سيره جداً ، وتلفت كالمذعور وهنا صوب عبد الحق ونشن وضغط على الزناد . . وبصر به يهوى مع ومض البارود .

***

أخذ عبد الحق سمته إلى المقبرة لأول مرة بعد حادث ، إبنه ولقيه فى الطريق ، وهو راجع منها قبل الفجر ، مجذوب من هؤلاء المجاذيب الذين يترددون على الأذكار فشخص فى وجهه ، ثم مد له يده ، وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء وقال له :

«إنا لله . . . . . .»

فانتفض عبد الحق ومد إليه يداً ترتعش ، والتقت أعين الرجلين وكانت عينا المجذوب تلمعان فى بلاهة وخبث . . أما عينا عبد الحق فقد أخذتا تنطفئان بالتدريج . .

طريق الفنـــــاء

عندما تطفأ مصابيح الغازفى شارع عماد الدين ، فى حى الملاهى ، وتبدأ بشـائر الصباح فى الحى الجميل ، تتحرك عجلات الترام على القضبان ، يسير الترو من أول محطة إلى نهاية الشارع على درجة واحدة من السير ، ولكنه عندما يقرب من عمارة «بولاد» ويميل إلى شارع الملكة نازلى يخفف من حدة سيره ، ويحبس من سرعته ، وهذا مايجعل العجلات الخلفية تصر وتدوى وهى تزحف على القضبان . عند هذا المنحنى الـذى يهدأ فيـه سير الترام ؛ وعند مفترق الطريق ، وعلى الرصيف الأيسر إذا استقبلت الشارع الأول بوجهك وجعلت الشارع الثانى وراء ظهرك ، تجلس امرأة من أولئك التعساء المناكيد الذين يقضون الليل على الرصيف ؛ تجلس وهى تدير ظهرها للطريق تستقبل بوجهها الحائط . . تستقبل بوجهها جدار بعض الأبنية الشاهقة القائمة هناك ، تستقر عيناها على الجدار ولا تتحول عنه إلا لماما . . فلذة كبدها ، وبعض نفسهـا وجسمها ، ينـام هناك ، وليست تحت رأسـه الوسائد ، ولا عند جنبه الرياش ؛ ولا فوق جسمه الغطاء الصوفى الثقيل . . لا . لا . . . إذا فكرت فى هذا فقد أسأت إلى الاجتماع الانسانى وقلبت أوضاع الحياة ، ، وشوهت حقائق الوجود ! ليس عليه سوى ملاءة سوداء خفيفة ممزقة الأطراف ، ملوثة الجوانب ، تديرها أمه على عنقها فى النهار ، وتطرحها عنه إلى ابنهـا فى الليل . . وجسمـه كله على الأرض المقيرة الباردة ، وجنبه الأيمن يلاصق الجدار وكان إذا وضعته أمه على جنبه الأيمن لا ينقلب إلى الأيسر ، ولا يتحرك حركة الغلام المعافى وإذا فتح عينيه يتململ قليلا ويدفع ذراعه المعروقة إلى الأمام فى حركة مشلولة وانية ، وتنفرج الأصابع قليلا كـأنها تشير إلى شىء . . . ثم يسترخى الذراع ، ويتمدد على الأرض ، وأمه ترقب هذا بعين دامعـة ، تعرف أنه لا يستطيع الحركة ، لايستطيع حتى التعبير عن آلامه الدفينة ، لايستطيع حتى التلمر . . . كان صدره الواهن يتمزق ويتمزع ، ولكنه لايستطيع أن يعبر عن هذا بغير السعال الشديد الذى يزيد صدره تمزيقاً .

وعندما يتلع الضحى ، يفتح الصبى المسكين عينيه ، ويدور ببصره الرجراج فى الطريق ، وهو يتململ فى ثقل وفتور ، وفى عينيه رغبة قوية تعرفها أمه ، فتنحنى عليه ، وترفعه عن الأرض . وتضمه هنيهة إلى صدرها ، ثم تجلسه فى حجرها وهى تهز وركيها ، وتمسح شعره بيديها . إذا نظرت إليها وهى تنحنى بجسمها على جسمه وتقبل بوجهها على وجهه ، وتضع شفتها على شفته ، رأيت حنان الأم فى أكمل صوره وأبدع مظاهره ، إنها تود لو تسكب من دمها فى دمه ، وتنفخ من روحها فى روحه . . . كانت تمر بأنفاسها اللينة على وجهه ، وتلصق جسمها الحار بجسمه ، ليعود إلى العافية ، ويفىء إلى الصبا ، ليلهو ويمرح ويلعب كالصبيان ، ولكن هيهات ، . كانت تنظر إليه دائما بعين مخضلة بالدمع والأسى يحز فؤادها ويفطر كبدها . تيقنت أخيراً أن أمره أفلت من يدها . . . الغلام الحبيب الوحيد لم يعد لها . . الغلام الحبيب يذوى ويذبل ويموت فى بطء وعذاب وألم . . . الإنسان الوحيد فى جو حياتها يتألم ؟ وينتفض من البرد ، ويرتعد من الحمى الشديدة المضنية ، بعد مولده بأيام كانت على يقين من موته ، ولكنه عاش فأدرك ربيعه الثالث . كيف . . ؟ لا تستطيع أن تفهم . كان دائما مريضا ، لاصقا بالأرض ، ناحلا هزيلا أصفر الوجه ، غائر العينين شاحب الجبين ، لا يبتسم ولا يضحك ، ولا يتحدث بصوت عال ، كان صوته خافتاً مذبوحا كأصوات النائحات النادبات ، وكانت عيناه منطفئتين ذابلتين ، أبداً تتعطشان للنور . لم يكن كالغلمان اللذين يكسبهم النوم فى العراء مناعة طبيعية ، بل كان على النقيض من ذلك ؛ يزيده البرد وتقلب الجو مرضاً على مرضه . وكانت أمه تملأ بصرها منه وقلبها يتقطع ، ونفسها تحترق وتذوب ، وتغشاها سحب الهم ، فتغض طرفها ، وتنكس رأسها وتفكر ، وهى تعبث بطرف جلبابها الأسود ، الذى يلف جسمها الممتلىء اللين ، أو ترسم بأصبعها على الأرض دوائر وخطوطاً أوسع من دائرة حياتها الشقية . فإذا زلت طرحتها عن شعرها عادت تصلحها وتسبلها على وجهها ، وتديرها على جيدها ونحرها ، وتتركها حتى تلامس الأرض المغبرة . وكان لباسها الأسود يكسبها جمالا فوق جمالها وحسنها . . . فعلى الرغم من تعب الحياة ونكد العيش ، فإن جسمها ووجهها احتفظا بشبابها ونضارتها وعافيتها . كل ما يغيرها عن الأخريات من لداتها اللاتى هن فى مثل سنها ، ولكنهن لسن فى مثل بؤسها . إن وجهها الجميل كان دائما حزينا باكياً ، على أن جسمها بقى بضا لينا ناضراً . وإذا أمعنت النظر فى نحرها ، رأيت الحد الفاصل بين الجسم الأبيض الناعم والنحر الأسمر الملفوح بشمس الصيف . وإذا مدت ساقيها لتستدفىء بحرارة الشمس ، رأيت ساقين خدلتين فى بياض ونعومة وفتنة ، تشوبهما حمرة خفيفة تأخذ فى الزيادة كلما قرب الساق من القدم المشقق الباطن من تعب السير فى الطريق .

وعندما يظهر النهار ، وتشتد حرارة الشمس ، تميل إلى اليمين لتفىء إلى الظل . . إلى ظل عمود المصباح القائم هناك ، وكثيراً ما كانت تعروها سحب الهم ، فتمد راحتها على

حجرها ، وصدرها ينوء بثقل الحزن الدفين القاتل ، ويضطرب من الخيبة الشاملة المحيطة ، لم تكن وهى تبسط يدها تستجدى ، ولا كان شعورها الباطنى يوافقها على أن تسأل المارة . . أبداً . . أبداً . . ما كانت تفعل ذلك . . كانت تجلس فى صمت وسكون ، ورأسها مطأطأ وغلامها على حجرها . ويدها على فخذها ، فإذا نظرت إليها ، وأخذتك الشفقة عليها ، ووضعت فى يدها شيئاً . . . رفعت طرفها الضارع إليك ، فتذهل أمام نظراتها الذليلة وتفتن . . إنك لا تستطيع أن تواجه هاتين العينين السوداوين اللتين تديمان النظر إليك فى سكون ولكنك لا تقرأ فيهما شيئا مطلقا ، لا تعابير الشكر ولا دلائل الثناء . . . تثبت العينان فى محاجرهما مدة ولا تطرفان ، فإذا انسحبت من أمامها ، تنطبق الأهداف الوطف على العينين الساجيتين ؛ وينطفىء السحر العجيب لحظات ، ثم تعود العينان لتستقرا على الأرض .

وحين يولى النهار ويسقط الليل ؛ وتشعل مصابيح الشوارع؛ وتتلألأ ثريات الملاهى والمقاهى ، تكثر الحركة فى الطريق ، وتبدأ السيارات الفخمة التى يقودها الشبان الناعمون الطائشون تخطف فى الطريق ، فإذا مرت أمامها دفعت الوحل إلى الرصيف بقوة وجنون ؛ فيحط الكثير منه على ثوبها ، فلا تراها تنفضه ولا تحرك ساكنا ، ولا تحرك شفتيها بسب ولا لعن ولا تذمر ،ولكنها تديم النظر فى المكان وبصرها سادر كأنها تتخيل وتتصور وتحلم .

وحين يخف رواد مقهى «بيرون» ترى المرأة غلمان الشوارع عن بعد يجمعون أعقاب السجاير فى حذر وخوف ورعب يبدأ هؤلاء الغلمان العمل فى ساعة معينة من الليل . لا يتأخرون عنها ولا يتقدمون ، وهى الساعة التى تنتقل فيها المرأة من مجلسها لتتهيأ لعملية النوم الشاقة فى العراء ، تزحف فى بطء حتى تلاصق جدار العمارة ، وتضع غلامها فى حجرها حتى يستغرق فى النوم أولا ، ثم تنام بعده إن طرق جفنيها نوم .

ولم تكن الليلة ككل الليالى ، بل كانت شديدة البرودة ، قوية الهواء . كان الهواء يهب من ميدان المحطة ، وينخرط فى شارع الملكة نازلى ، فيرنح الأشجار ويضرب الوجوه ، وعندما يميل إلى شارع عماد الدين ، يدفع إلى العمارة التى تجلس تحتها تياراً شديداً قاسى البرودة عنيفها . كانت الرياح المتفرقة فى الميدان والشارع الواسع تتجمع فى هذا الشارع الضيق ؛ وتهب مصفرة عاوية كعواصف البحر الموج ، وهى تهز نوافذ الدور وتنقر على زجاج النوافذ ، وكل ما عملته المرأة لتقى نفسها وغلامها من شر هذا الليل الأليل ، وهذه التيارات الهوائية العنيفة ، أنها استدارت وولت التيار ظهرها وانحنت على غلامها ولفت جسمه فى طرحتها السوداء البالية ، وكونت من جسمها وقاء لجسمه . . ولكن الرياح كانت شديدة وعاصفة ، فلم تستطع احتمالها ؛ أحست بالإبر الحادة تشك سلسلتها الفقرية ، وبسكين مسننة تعمل فى ظهرها ، فأخذت تنتفض وترتعد وترجف . ليس من السهل أن تواجه هذه الليلة بثبات كما كانت تفعل كل ليلة ، فلقد كان بردها لا يحتمل وقرها

لا يطاق ، كان البرد الشديد يسقط من السماء ، ويتصاعد من الأرض ويهب من كل جانب ، فأحست بجسمها المستقر على الأرض يثقل ويتخدر وبساقيها تفقدان الإحساس جملة . لم تعد تعرف ما عملت فيهما الأرض البادرة وبقى جسمها الأعلى يتلقى البرودة فى صبر ، كان صدرها يضطرب ، وذراعاها تلوذان بصدرها ؛ وأذناها حمراوين فى لون الدم ، وأسنانها تقضقض ، وعيناها سابحتين فى الدموع . واستيقظ الغلام المسكين على صوت الرياح ، ولكنه لم يكن يتكلم ولا يتحرك ولا يبين ، كان يلاقى البرد الشديد وهو لا يستطيع التعبير عن آلامه ، وموضع الداء من جسمه ، وهذا ما روع قلب الأم ولذع فؤادها . فلما طوقته بذراعيها ، ورفعته عن حجرها . ودفنته فى صدرها ، كان جسمه الصغير يرتعش بشدة ، وقد تجمعت قوته الحيوية كلها فى أطرافه ، كان كل ما بقى من حياة وقوة ، يدفع ذراعه الناحل على صدره ، ويرعش ساقيه بشدة ؛ فأطبقت عليه ذراعيها وضمته إليها فى عنف ، وقربت وجهه المحتقن من وجهها ، ونظرت فى عينيه الذابلتين ، ثم غمرته بقبلاتها ، وأحست بشفتيه باردتين ميتتين ، ورفعت وجهها الباكى إلى السماء ، فرأت السحب السوداء القاتمة تخيم ، وتضرب برواقها . كانت الليلة مع برودتها ضريرة النجم ، شديدة الظلمة ، تنذر بالسحاب الهاطل . . .

وأخذ المطر بعد هزيع الليل الأول يسقط مدرارا ، ابتدأ بالرذاذ المتقطع ، ثم تدفق وانهمر وأخذ يضرب الأرض ، ويسيل الماء فى الشوارع . وقل ما يحدث مطر كهذا فى القطر كله ، وفى القاهرة على الخصوص ، ولكنه يحدث غالبا فى العام مرة ليشعر السكان بالشتاء الحق . كان المطر مندفعا غزيرا ، وكانت المرأة منحنية على غلامها تتلقى ضربات المطر على ظهرها فى سكون . . كان الماء يجرى تحت رجليها وفخذيها الراقدين على الأرض ، وكان ثوبها الخفيف المبلل يلتصق بجسمها فيزيده رعشة ورجفة ، وكان همها منحصرا فى وقاء غلامها من شر المطر ، ولكن المطر كان غزيراً قوياً فلم تستطع معه صبراً .

كان المطر يسيل من صدرها إلى صدره ، ووجهها يبلل وجهه ، فأدركت الخطر العظيم ؛ وشعرت بالموت الزاحف . وشخص بصرها إلى السماء مدة وأخذت تفكر ، فكرت فى تغيير المكان ، وذكرت بوابة فى شارع محمد على كثيرا ما أمضت تحتها بعض الليالى الماطرة ، فنهضت فى حذر وهى تطوق غلامها وتضمه إلى صدرها ، ثم مشت به فى الشارع على مهل ، وكان الشارع يلمع ، والمصابيح تبدو فى صقاله كالنجوم البراقة ، وكانت كلما أوغلت فى الطريق زاد المطر فى تهطاله ، فكانت تقف تحت شرفات الأبنية لتستريح قليلا ثم تواصل سيرها ، وكثيرا ما كانت تقف على أبواب المطاعم فتصافح أنفها رائحة الطعام الناضج ، والشواء المقدد ، وترى الناس جالسين حول الموائد يأكلون ويشربون فى جشع واستهتارونهم ، وتحس بمعدتها تقرقر ، وتذكر غلامها الجائع المقرور الذى لم يأكل بعد وجبة الصباح شيئا .

ولما بلغت مطعم «الأمريكين» كان المطر قد انقطع فجأة وكان المطعم غاصا بالناس ، فالتصقت ببابه الزجاجى ، وأخذت تستعرض ما فيه ، وأحست بحركة طفلها على صدرها . فتح الغلام النعسان عينيه فى ثقل وتعب فخطف بصره النور ، كان نور المطعم قوياً باهراً ، حتى أطبق الغلام أجفانه هنيهة ، ثم فتح عينيه ثانية ، بعد جهد ، وأخذ يحدق فى المطعم بقوة ، جذبت بصره الحلوى من وراء الزجاج ، وكانت فى صحاف واسعة ، والآكلون عليها وقوف ، يدفعونها إلى حلوقهم بشراهة ونهم . وكانت عيونهم لاتتحول عنها حتى وإن كانت أفواههم فائضة بالطعام ، وكان الكثير منهم يسقط الحلوى على الأرض ثم يدوسها بنعله ويتناول غيرها وهو يقهقه .

رأى الغلام هذا كله . ثم رفع يده المرتعشة وأشار بها إلى الحلوى وهو يحاول الكلام ، فرمقته أمه بطرفها ؛ وقلبها يتلذع بلذع الجمر ، وأنزلت ذراعه فى رفق ، وبارحت المكان على عجل . ولما وصلت إلى أول شارع محمد على كان الطفل قد تشبث بعنقها ، واستراح على صدرها ونام . أحست بجسمه البارد الضامر يلتصق بجسمها ، وكان الجو ، بعد المطر ، قد تغير وشاع فى جنباته الدفء ، وصحت السماء ، ولمعت النجوم ، ولكن الغلام لم يشعر بشىء من هذا كله ، فقد دفن وجهه فى نحر أمه ونام ، ومرت أنفاسه الهادئة على جسمها ، فكانت ترتجف قليلا ، ولكنها كانت تشعر بالرضى عن نفسها ، وتفىء إلى الحنان الأبوى المحض . كانت رجلاه منثنيتين ومرتكزتين على خصرها ، فعاقها هذا عن جد السير فى الطريق ، فجاء خطوها وجلا محاذراً . وسمعت الساعة الكبيرة المعلقة فى ميدان العتبة الخضراء تدق . . . دقت الساعة الواحدة صباحا . . . دقت دقة واحدة ولكن صوتها كان قوياً تمدد ورن صداه فى الحى كله ، لأن الليل كان قد سكن ، والرياح الهوج قد قرت ، والسماء الهاطلة قد كفت والطبيعة الثائرة قد هجعت تماماً . . .

كان كل شىء يسمع بوضوح ، وكان الشارع مغلق الحوانيت خالياً من المارة ، وبقى فيه السكارى المعربدون ينسلون من الحانات القذرة التى تمتد على جانبى الطريق ، كانوا يمشون فى الطريق ثملين مترنحين يفوهون بألفاظ لامعنى لها ، ولكنها كانت تعبر عن آلامهم المنقمعة ، وعن نفوسهم المعذبة الشقية ، وعن أوجاعهم التى لاتحد ، وكان بعضهم يصطدم بجدار الأبنية ، ويهوى على الأرض ثم ينهض مترنحاً صاخباً ، ويقطع الشارع فى خطوط حلزونية عجيبة ، ثم يغيب فى ظلمات الأزقة المعترضة ، فبعث منظرهم المروع فى نفس المرأة الرعب والجزع ، فكانت ترتعد وتضطرب وتخاف الوحشة المخيمة على الطريق . كانت البواكى القائمة تبدو كالقبور المظلمة فاغرة أفواهها لتبتلع الناس أحياء . وكان سيرها كله على الرصيف ، وهذا ما زادها وحشة ورعبا ، ودفعها إلى أن تميل إلى الحانات لتستأنس بأصوات السكارى الصاخبين فيها ، بأصوات الناس أيا كان لونهم ومشربهم ، فلقد كانت الوحدة لا تحتمل ولا تطاق وكان الغلام قد استغرق فى النوم ، واستلانت عضلاته وقرت

أعصابه وهجع جسمه . . . نسى الليل بوحشته ورهبته وظلامه ورعبه ، والدنيا وما فيها من آلام وأوجاع .

***

فى صباح اليوم التالى وبعد الفجر بقليل ، سارت المرأة فى ثوب الأمس ، وفى نفس الطريق الذى بدأته فى الليل ، بدأت من المكان الذى انتهت إليه لتواصل سيرها حتى نهاية الطريق . كانت تتجه نحو القلعة كما كانت أمس ، ولكنها كانت تخطو خطى أبطأ وأمهل وأثقل من خطى الليل ، لم تكن تفكر ولا تدور ببصرها فى الحوانيت ، ولا تستأنس بالمارة ؛ فقد كانت عيناها ثابتى الحملاق مشدودتين إلى بقعة سوداء هناك ، بعيدة جداً . كانت تنظر إلى الأمام فى خط مستقيم ، ولا ترى فى الوقت نفسه أبعد من خطاها . كان إنسان العين قد حسر ، والدمع قد جف ، والأنفاس قد اعتلجت فى الصدر واحتبست ، والجسم قد سكن وتصلب . وكان طفلها كموضعه من الأمس كان على صدرها ، وجسمه ملاصق لجسمها ، ولكنه ما كان اليوم يتنفس ، ولا كانت يداه تتعلق بشىء ، ولا رجلاه ترتكز على الخاصرة ولا جسمه الذاوى يرتعش ، ولا يده الناحلة تشير ، ولا قلبه الصغير ينبض ، كان كل شىء فيه قد جمد وسكن ورقد رقدة الأبد ، ويبقى فقط وجهه الصغير الجميل يبتسم .

وعندما بلغت ميدان باب الخلق ، أبصرت برجال ثلاثة ينحدرون إلى الطريق من شارع حسن الأكبر ، وكانوا يسرعون ويلهثون ، وعلى أكتافهم نعش خشبى مغطى بالحشائش !! وكانوا يسيرون فى صمت رهيب محزن ولم يكن فيهم واحد يذكر الله ، أو يصلى على النبى أو يترحم على الميت . كانت تبدو على وجوههم جميعا آيات التعب وعناء المشى الطويل الشاق ، ولكن واحداً منهم لم يكن حزينا ولا مكتئبا ولا يبدو عليه أنه يمت للميت الفقير بصلة ، كانت آية الضجر بادية على وجوههم واضحة فى ملامحهم ، وكلهم يحس بثقل النعش على كتفيه ، ويود لو يغافل الناس فيلقيه على الأرض ! كانت جنازتهم رهيبة محزنة رغم استهتارهم المطلق بمن يحملون من الموتى ! وكان الرجل الذى فى المؤخرة أصلبهم عوداً وأشدهم ساعداً ، لأن عليه ثقل النعش كله ، ولهذا طوق خاصرته بنطاق أسمر دار على جلبابه الأزرق ، وشد من أزره . وكان رغم برودة الشتاء وصلابة عضلاته ينضح عرقاً ، وكان أحد الرجلين الأماميين يتلفت يمنة ويسرة فى بلاهة ، وكأنه ينتظر رأى المارة فيه !! ثم يفتح فمه ويطبقه ، ويمد شفتيه حتى يجاوز بهما أرنبة أنفه ، ولعله كان يصفر بصوت خافت !

كان سير هؤلاء الثلاثة أسرع من سير المرأة ، فسبقوها وزادت المسافة بينها وبينهم ، على أنها كانت تسير فى طريقهم ، وتترسم مواضع أقدامهم ، ولكن شتان بين ما يحملون وما تحمل . إنهم يحملون رجلا فقيراً معدماً ، جاء إلى الدنيا وخرج من الدنيا ، فلم تشعر بفراقه ، كما أنها لم تشعر بوجوده ، ولكنها تحمل على صدرها كل ما تملك وتحب وترجو فى

هذه الحياة الدنيا . . أمنية نفسها وقبلها، ومنتهى سعادتها ومجتلى أحلامها ، لم تكن معه تحس بفقر ولا شقاء ولا جوع ، كان جو حياتها أبدا ضاحكا مشرقا بوجوده ، كان حياتها وسعادتها وكل شيء عندها ، وها هي تحمل سعادتها وحياتها وتسير بها فى طريق الفناء وحدها . . . كانت الطريق طويلة شاقة . . . وستقطعها وحدها ، وهى تحمل على صدرها أعز شيء لديها .

الزوجة المصـــونة

مع أن أصدقاء زكى أفندى وزملاءه فى الديوان ، ألفوا أن يشاهدوه مبتسما ، ولكنه لفت أنظارهم واسترعى انتباههم فى هذا الصباح على الخصوص ، فقد زادت الابتسامة حتى غطت وجهه الضامر ، وحتى طوى خالد أفندى صحيفة الصباح التى كان يطالعها وأخذ يحدق فيه مدة عله يستطيع أن يفهم هذا التغيير العظيم الذى طرأ على صاحبه ! . . . ولم يكن زكى أفندى يعنيه انتباه أصحابه إليه ، بل كان يفكر فى أمر استغرق تفكيره طول الليل . . وقلبه على فراشه . . وفتق سبل التأولات فى ذهنه ، فلما استقر رأيه على كتابة رسالة فى هذا الصباح الباكر ، قبل أن يخط حرفاً فى الديوان ، رجعت إليه نفسه وفاء إلى مرحه ، وزادت ابتسامته البلهاء حتى غدت عريضة تستغرق كل ملامح وجهه . . . ومع أن القهوة كانت تجىء إليه فى الساعة الثامنة وكان يبقيها على ، حافة المكتب ، حتى الثامنة والربع على الأقل ، لأنه يتذوقها باردة ، ولكنه فى هذا الصباح شربها حارة جداً حتى ألهبت شفتيه الغليظتين ، وأسالت العرق من أنفه الملتوى ، وهو أول ما يصيبه التعب من جوارح جسمه ! ولم يكن إخراج الرسالة من المكتب بالجهد الذى يعبر عنه زكى على العكس من ذلك داعياً لازدياد سروره وسكونه إلى نفسه وعمله ،ولما كان القلم على القرطاس ، وانحنى الرأس على الورق بعد أن تهيأ الجسم كله لعملية الكتابة الشاقة ، عند زكى افندى ،

ابتدأ الرأس الصغيرة يفكر ، ويفكر تفكيراً ملحاً فيه براعة وحذق حتى سطر القلم أخيراً .

«عزيزى أحمد

«كنا قد اتفقنا أن يكون تشريفك القاهرة أنت وزوجتى المصونة يوم الثلاثاء الماضى ، ولكن الثلاثاء مضى وانقضى بعده الأربعاء والخميس ولم تشرفا ، ومع اطمئنانى التام على عنايتك بزوجى وسهرك على راحتها ، وتوفير أسباب الهناء لها ، بكل الوسائل . لكنى سمعت أن جو الاسكندرية تغير ، وأن بشائر الخريف حملت طلائع الرطوبة ، وأخاف أن تؤثر هذه الرطوبة على زوجتى العزيزة . . . » .

وهنا فكر زكي أفندي في الرطوبة كثيرا ، وقدر ما تجره على زوجته من ويلات ، واخذ يتصور زوجته وقد أصابها البرد وابتدات تسعل . ثم تطور الحال واشتدت العلة حتى اضطرت إلى الاستدفاء في الفراش . . . وتصور أيضا صديقه أحمد وهو واقف بجانبها ، يقدم لها فناجيل الشاي ويجس نبضها ، ويقيس درجة حرارتها ، ثم يغطيها بالبطانية الصوفية بعد أن يلف بها رجليها وأسفل جسمها . . فاستاء لمرض زوجته المسكينة ، ولكنه سر لوفاء صديقه وقيامه على خدمتها وتمريضها على أحسن منوال !

ثم رجع إلى رسالته وأضاف .

«وأخاف عليها شر البرد ، وأنت تعلم أن جسمها الرقيق لا يتحمل مصائبه ؛ وتعرف أيضا أنها ما كانت تطيق البقاء في البحر طويلا ، واحتمال حرارة الشمس وهي مستلقية على الرمال ، تعرف أنها ما كانت تصبر على الحرارة فهي تكرهها بقدر ما تبغض الرطوبة . . . ! »

وهنا رجع يذكر سفره إلى الإسكندرية ومعه زوجته ونزولها ضيفين على صديقه المخلص أحمد رفيق صباه في المدرسة ، واستحمامهم الثلاثة في البحر ، وتمضية معظم الصباح على الشط مستلقين على الرمل ، أو سابحين في اللج ، أو لاعبين بالكرة . وكثيرا ما كان أحمد يداعب زوجته بضربها بالكرة على خدها ، أو شد رجليها وهو تحت الماء . . وذكرها وهي تضحك كثيرا حتى يطفر الدم إلى وجنتها ، ويسيل لعابها . ثم ذكر نفسه ، وقد اضطرته ظروف عمله إلى الرجوع إلى القاهرة ، وترك زوجته مع صديقه تستكمل راحتها ، وتسترد صحتها الذاهبة في تعب العمل في البيت . . وكان الاتفاق على أن تبقى بعد سفره أسبوعا واحداً ولكنها بقيت أسبوعين وثلاثة وأربعة . وكان كلما طلب منه العودة لأنه بدونها لا يستطيع العيش كما يجب . . رجته في رسالة رقيقة بدأتها بزوجي المحبوب - وسرته هذه التسمية وشيعت الابتسامة في جوانب فمه ورقصت قلبه - في أن يمهلها يومين أو ثلاثة على الأكثر . وذكر أيضا ، وهو يبتسم ، أن آخر قرار حاسم قررته هو العودة يوم الثلاثاء الماضي ولكنها لم تشرف أيضا . . ! وهذا ما دعاه إلى أن يضيف بحرارة :

«أنت تعلم يا صديقي الوفي حبي الشديد لزوجتي وقلقي على صحتها حتى وإن كنت على يقين من أنها نازلة عندك أحسن منزل . . وتعلم أن الذي ركن واستراح إلى الحياة الزوجية الهادئة القانعة السعيدة لا يمكنه أن يستمر عزبا وحيداً مستوحشاً شهراً بطوله ، ومع شكري على راحتها وتوفير أسباب السعادة لها ، ولكني أرى يا صديقي أنها أجهدتك وأتعبتك أكثر من اللازم ، وأنه جاء دورك الآن لتستريح بعد كل هذا الجهد الشاق الذي بذلته معها ، فمن رياضة في الخلوات إلى سباحة في البحر إلى أشياء أخرى كثيرة ممتعة . . وما أراها بعد هذا كله إلا زادت في الوزن . . ! »

وهنا تذكر زكي أفندى زوجته ، وهى تلح عليه دائما فى وزن نفسها كلما مشيا فى شارع عماد الدين ، وبصرت بالموازين القائمة فى الطرقات . . ومع أن الفارق فى الوزن بين اليوم والثانى كان ضئيلا وضئيلا جداً ، ولكنها كانت لا تفتأ تدفع القروش بسخاء بحجة أنها اليوم أحسن . . وأنها تود أن تطمئن . .

وختم رسالته بقوله :

«وأخيراً أرجوك يا صديقى العزيز رجاء حاراً أن تقنع زوجتى المصونة بالعودة ، وتعمل على سفرها يوم الخميس فى أول قطار . ويسرنى أن ترافقها لتمضى بيننا أياما هانئة . . » .

«قبلاتى الحارة إلى زوجتى وتحياتى القلبية إليك . . » .

وغلف زكى أفندى الرسالة ، وهو يفكر فى خلال ذلك ، فى زوجته المصونة ، وهى جالسة فى القطار ، وبجانبها أحمد افندى وقد اضطرهما الغبار الشديد إلى إغلاق النافذة ، وقطع الطريق الطويل بالحديث الشيق ، وتبادل النكات الطلية ، بل وفعل ما هو أكثر من ذلك . . . .

الحب الأول

كانت الساعة العاشرة من إحدى أمسيات يونيو ، وكنت متمددا على سريرى ، أفكر فى مصير المباراة التى سنقيمها غداً بين فتيان حينا وحى الحلمية ، عندما سمعت والدتى تقول لأبى على العشاء :

«وصلتنى عصر اليوم رسالة من إحسان وقد بعثت السمن والجبن بقطار الركاب ، وهى بخير وعافية ، وتدعو حلمى لتمضية أيام فى القرية . . . فما رأيك ؟ . . .»

فأجاب أبى وهو يمضغ طعامه :

«لا مانع عندى . . والأمر إليك . .»

فقالت أمى :
«أنا لا أستطيع أن أرد لها طلباً . . . فليسافر إذن . .»

وكان والدى يفوض أمرى فى مثل هذه الشئون إليها ، وهى التى كانت تحبسنى دائماً معها مدة عطلة الدارسة الصيفية الطويلة ، وترفض كل الدعوات التى تجىء من أقربائى فى الريف ، لأنها تخاف علىّ من الغرق ، والعطلة عادة زمن الفيضان ، أو تخشى شر حشرات القرى ، وهى تبارح أوكارها فى الصيف ، على أن الأمر اختلف فى نظرها مع إحسان الفتاة اليتيمة المسكينة كما كانت تنعتها دائما ! . . . فلقد كانت من أحب قريبات أمى وأعزهن عندها خصوصاً بعد أن ماتت جدة إحسان وخلفتها وحيدة فى منزل أبيها الكبير ! . . .

وكنت فى ذلك الحين فى السادسة عشرة من عمرى ، وكنا نسكن فى شارع القاصد بعابدين ، وقد مضى على أكثر من ست سنوات لم أر فى خلالها القرية ، ولم أنتقل من القاهرة إلا للتصييف مع الأسرة فى المصايف ، حتى أصبحت متشوقا جداً لرؤيتها متلهفا على تمضية جزء من العطلة فى الريف ، بعد أن ضقت ذرعاً بالقاهرة وضجرت بما فيها . فالأمر لا يعدو تمضية النهار فى لعب الكرة مع الرفاق ، ثم حبس المرء فى المنزل من الساعة

السابعة مساء . فلما سمعت موافقة والدى على سفرى طار قلبى فرحاً ، ورحت أتصور القرية عندما كنت أزورها مع أبى مرة فى العام قبل أن يفتر عن زيارتها بالتدريج ، ثم ينقطع دفعة واحدة ، وكان ذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الموت يحصد أفراد أسرتنا حصداً . . فكره والدى القرية وتحول عنها إلى الإسكندرية .

ولم يغمض لى جفن طول الليل من شدة الفرح ، ومضيت الليل مكونا فى رأسى صوراً ذهنية رائعة عما سأشاهده فى الريف الجميل من مناظر ورؤ ى ومتع ولذائذ ، على أن السرور لم يكن خالصاً ، فقد ساورتنى الهواجس ، وانتابنى بعض القلق ، بعد أن دار بخلدى أن والدتى قد تغير رأيها فى الصباح ، وعلى الأخص بعد أن فوض لها والدى الأمر والسيدات متقلبات متلونات . فربما عرضت الأمر على بعض صاحباتها فتبسط لها هذه مشقة السفر فى براعة فترفض . وشق على هذا حتى رحت أتضرع إلى الله طيلة الليل ألا يزورنا من الجنس اللطيف أحد ، وأن تشغل كل واحدة بما يصرفها عن الزيارة حتى ولو بالمرض المفاجىء ! . فلقد كان شوقى إلى تمضية أيام فى القرية لا يصور .

***

وأخذت أمى فى الصباح تعد العدة لسفرى ، وفى الساعة العاشرة من مساء اليوم نفسه تحرك بى القطار إلى الصعيد . . . . ووصلت مع مطلع الشمس فألفيت فى انتظارى على المحطة خادمنا سعيد .

واستويت كالفارس على جواد أدهم مطهم ، والخادم خلفى على حمار أشهب ضخم . وبلغنا القرية فى الضحى .

وترجلت . . . ووقف الخادم على الباب الكبير يقرعه .

وفتحت خادمة سوداء نصف ، فما وقع بصرها علىّ حتى افترت نواجذها ولمعت عيناها ، وولت عنى تصيح بأعلى صوتها :

«سيدى حلمى . . . ستى . . . سيدى حلمى . . . ستى . . . ستى . . .»

ودوى الصوت فى جنبات الفناء الرحب ، وسمعت بعده خطوات سريعة غير منتظمة ، ثم صوتاً ناعماً يقول فى غمرة سرور ونشوة مرح :

«صحيح . . . ؟!»

ثم قرب وقع الخطوات وظهر أثرها على السلم وأنا واقف فى الفناء محير أذوب خجلا ، والخادمة السوداء الملعونة لم تفكر مطلقاً إلا فى مرحها ، فلم تقدم لى كرسياً ولم تحينى بكلمة ، وإنما وقفت أمامى ضاحكة وأسنانها البيضاء تومض بين شفتين غليظتين فى سواد الفحم . . .

ولاحت على الدرج فتاة هيفاء رائعة الحسن بديعة التكوين ، فلما بصرت بى توقفت عن سيرها برهة ، ثم استأنفت هبوط الدرج على مهل وفى خجل ظاهر . فلقد كبرت فى عينيها من أول نظرة فيما كانت تتصورنى يافعاً فى هذا الجسم . ولا فى هذا الطول ، والحق أن جسمى كان يكبر سنى بمراحل .

وتصافحنا ، ومالت بى إلى غرفة قريبة تطل على البستان ، وأخذت تسألنى عن أبى وأمى وإخوتى ودراستى ، والقاهرة وضواحيها وملاعبها ومسارحها ، وتعجب كيف أنى كبرت جداً وتغيرت حتى غدوت رجلا . .

ثم قالت :

«أظنك تعباً معنى من السفر الطويل وتحتاج للراحة . . .»

والحق أننى كنت كذلك ، فصعدنا إلى الطابق العلوى ومهدت لى السرير لأنام ، فنمت حتى العصر .

ولما قمت من فراشى أعدت المائدة للغداء فتغدينا ، واسترحنا بعد الغداء قليلا ، ثم قامت معى ترينى المنزل ، بعد أن تغير وأضيفت إليه حجرات ، وامتد حوله بستان وأطلت منه على الماء شرفات ، فطفت به حتى بلغنا السطح ؛ وكان واسعاً يحفه سور عال ، وفى ناحيته الشمالية المطلة على النيل غرفة أنيقة صغيرة كثيرة النوافذ ؛ لها شرفة مغطاة بالخشب لتحجب الواقف فيها عن أنظار المارة على الجسر ، وأثاثها فخم ولكنه حائل اللون باهت عملت فيه السنون ، وبها فوق هذا سرير وكنبة وصوان للملابس نصف بللوره مهشم !

ونظرت إلى إحسان وقالت وعلى شفتيها ابتسامة فاتنة :

«ستنام هنا . .»

فقلت :

«ما أمتعها غرفة . . . !»

فأردفت .

«وحدك . . . !»

فوجمت والمنزل مع رحابة جنباته واتساع أرجائه ليس فيه إلا جاريتان تقومان على خدمتها ، أما الخدم من الرجال فهم ، وإن كانوا كثيرين فى الاسطبلات والحقول فلا يسمح لأحد منهم بأن يلج باب المنزل مطلقاً ، فلقد كان الشيخ عبد المجيد والد إحسان يحرم على الخدم الاختلاط بالنساء ورؤيتهن كعادة الأسر الكبيرة فى الصعيد ؛ فإذا عنت للخادم

حاجة ، وقف تحت فناء البيت وهتف بمبروكة أو فطوم ، ولهذا كان المنزل موحشاً يشعر الغريب بالوجل على أنها لما أضافت :

«أتخاف ؟ . . .»

قلت :

«طبعا لا . . .»

وجلسنا فى الغرفة نتحدث حتى ولى النهار ، وزحف الليل وهى مقبلة على بوجهها ، وأنا مأخوذ بحلاوة حديثها حتى حان موعد العشاء ، فجلسنا نتعشى ، وهى قبالتى ، تقطع لى شرائح اللحم ، وتقدم الخبز ، وتملأ أكواب الماء ! وتبالغ فى العناية بى وهى مشرقة جذلة . وإذا رفعت بصرى عن الصحن إلى وجهها ، تمهلت فى مضغها ونظرت إلى باسمة وقالت :

«كل . . إنت مكسوف ! . . .»

«أنا ! . . أبدا . . .»

ولما فرغنا من العشاء أقبل علينا بعض أقربائى من فتيان وفتيات وكانت منازلهم ملاصقة لمنزلها ، وجلسنا نسمر إلى أن قرب الليل من منتصفه . على أنى شعرت أثناء وجودهم ببعض الضيق .

ثم انصرفوا إلى منازلهم وقالت إحسان :

«أنت تعبت هيا ننام . . .»

وسوت لى سريرى . ونامت بالقرب منى على الكنبة . . . وتبادلنا النظرات والبسمات ، حتى أخذنا النوم معاً .

ونهضت فى الصباح الباكر تهيء طعام الإفطار ، فقد آلت إلا أن تعمل كل شىء بيديها ، وأنا أرقبها وهى تعمل البقلاوة ، وتصنع الفطيرة بالزبدة . وتقلى العجة . . ودخان الموقد يحف بجبينها ويمر بشعرها فتلمع عيناها وتدمع ، ولكنها مع هذا كله كانت جذلة طروب

«ابعد عن الدخان . . . مالك وهذا . . .»

هذا ما كانت تقوله لى ، وأنا جالس جنبها القرفصاء ، وقد بدا لى أن أشترك معها فى دحى الرقاق ، وكانت مبروكة فى ناحية منا تقلى العجة فى موقد من المواقد . . وراحت تجىء بالماء وتركت المقلاة على الموقد تغلى وتنش ، فلحقت بها النار فانقلبت المقلاة كلها ناراً

صفراء ترمى باللهب القوى، فتحولنا إليها ووقفنا واجمين .

وجاءت إحسان ، وقد تغير لونها ، وعلت أنفاسها ، بسيخ طويل من الحديد وأرسلته إلى المقلاة ، ولكنها انزلقت عن حاجز الموقد الجانبى ، وانقلبت فى قاعه فطايرت من رشاش السمن الملتهب ما وصل إلى رجلى ، فأحسست بلذع الجمر ، ولكنى تماسكت وتجلدت فى شجاعة !!

«رجلك . . .»

ونظرت إلى ملتاعة .

ووقفت مبروكة تصطك أسنانها ، وتجحظ عيناها ، وقد بدا لى أنها خرجت عن رشدها تماماً .

وأمسكت مع إحسان بطرف السيخ ، ويدى على يدها لنخرج المقلاة من الموقد ، على أن إحسان جفلت وخافت من شر النار ، وقالت بصوت يرتعش :

«إذهب بعيداً . . .»

ولكنى لم أذهب .

«إذهب بعيداً . . .»

ولا يزال صوتها راجفاً ، ولا زالت تحذر وتنظر إلى نظرة عطف ، بعد أن عقد لسانها ، وعجزت عن الكلام ، وسحبنا المقلاة سوياً إلى خارج الموقد ، وبقيت بقايا السمن تنش وتئز بصوت مفزع . .

ولمعت ابتسامة باهتة على الشفة المختلجة ، وتألق بريق خاطف فى العين الدامعة ، ووضعت يدها على كتفى ورافقتنى إلى الطابق العلوى . . .

« رجلك . . . ؟ » .

« ليس بها شىء . . . » .

فكشفت عن ساقى ، وهى خجلى ، وكان الحرق فى مقدم الساق ظهر فى خط أحمر يلتهب . . فوضعت يدها عليه ، وهى تتلوى ، ورفعت وجهها إلى ، وقد اخضلت عيناها بالدمع . لقد كان عطفها على غير عطف الأم وعطف الأب ، عطفاً جديداً أشعرنى بسعادة لذيذة وأشرف بى على دنيا حالمة .

وربطت الجرح بيدها البضة الناعمة ، وأنا أحس بنشوة غريبة هزت أعماق نفسى ، حتى لتمنيت معها لو كان جسمى كله جراحا .

وبقيت فى الفراش يومين كاملين كانت فى خلالها نعم الطبيب .

ولما قويت على السير خرجت مع بنى عمها نطوف بالقرية ، فزرنا السوق ، وتمشينا على النيل ، وتحدثنا مع بعض الملاحين ، ورأينا مغرب الشمس فى النيل ، وهو أبدع مناظر الريف على الإطلاق . .

وقضيت معها بقية اليوم نتحدث ونلعب ألعاباً مسلية ممتعة ، حتى حان وقت النوم ، فقمت متثاقلاً ، وألقيت بنفسى على السرير ، ووقفت هى بجوارى تبتسم ، وفى عينيها بريق أخاذ . وبعد أن رمت على جسمى ملاءة قطنية . . خففت ضوء المصباح ، ومضت إلى الأريكة لتنام .

نمت نوماً هادئاً ، واستيقظت قرب الفجر ففتحت عينى ، فألفيت الظلام مخيماً لأن الهواء أطفأ المصباح ، ورحت أتقلب ، وأدفع الغطاء القطنى برجلى مرة ، وأرده على مرة أخرى وأحلم حلم اليقظة وأفكر . . أفكر فى إحسان . . . فلقد استيقظت ، وهى تحتل بؤرة شعورى ، وأخذت أسترجع صورة أيامى الماضية . . . وداع والدى ، وسفرى وركوبى الجواد إلى القرية ونزولى عند إحسان ، وحديثها الطلى وروحها الجذاب ، وحادث النار ولعبى مع الرفاق ، حتى بدت خيوط النور تتسرب إلى الغرفة من النافذة المفتوحة المطلة على الماء ، وهفا النسيم العليل وأرسلت مقدمة الفجر ألسنة الضوء الحمراء .

وقمت برفق مخافة أن يحدث السرير حركة فتصحو ، فما كنت أود أن أقطع عليها سلسلة أحلامها اللذيذة ، ونزلت من فوق السرير ، ومشيت نحوها ولكن الظلام كان مخيماً فلم أستطع أن أتبين من وجهها الصبوح شيئاً ، وخفت أن أرتطم بها لو قربت منها ، فملت إلى النافذة ، وكان الماء يلمع فى ظلام الليل ، وقد بدا الأفق يذوب سواده وتشتد حمرته ، وأخذت النجوم تأفل متعاقبة ، وبقيت منها نجوم قريبة تستقبل الفجر وتتطلع إلى الصباح . وزادت حمرة الأفق ، وخفت شدة الظلام ، ولمعت صفحة الماء ، وأخذ الماء يترنح ويرسل موجه الخفيف إلى الشاطىء ، وبدت فى السماء سحب خفيفة أخذت تتجمع عند الأفق الوردى ، وطارد الفجر الظلام ، وأرسل وراءه سهامه البيضاء حتى ارفض جبين الأفق كله عن لون اللجين . . وهب النسيم ، وتحرك الماء وصاحت الديكة ، وحلقت عصائب الطير ، وانطلق المؤذن فى القرية ، وبدا القرويون على الجسر وزاد الضوء فى الغرفة ووضح جبين إحسان . . .

وحولت بصرى إليها وهى نائمة نوم الملائكة تحلم حلم الأطفال ، وقد غطت جسمها بلحاف أزرق خفيف بان منه وجهها وعليه خصل شعرها الغداف الناعم ، وكانت أنفاسها هادئة ، وعيناها مقفلة وأجفانها مسبلة .

ولم أر الشمس فى طلوعها وهى أبدع شىء فى القرية ، فقد اشتغلت عنها بإحسان . وبصرت بالشعاع ينفذ من النافذة ويستقر على المرآة الصغيرة التى عكسته على فراشها ، وهى لا تزال مستغرقة فى النوم تتنفس تنفساً هادئاً ، ووجهها باسم قليلاً . . ربما كانت تحلم أحلاماً لذيذة وتسرح بعقلها الباطن فى دنيا الأحلام .

وفتحت عينيها بثقل ، وكان أول شىء لحظته سريرى ، فلما لم ترنى عليه تغيرت ملامحها قليلاً . ودارت ببصرها بسرعة فوجدتنى واقفاً أرقبها باسماً ، فقالت وهى تنهض وعلى شفتيها أجمل ابتسامة :

« انت صحيت . . » .

ونادت على مبروكة فلم تجب . فخرجت من الغرفة وأنا وراءها فألفينا السوداء نائمة فى جدار الغرفة على لحاف قديم . فوقفت عند رأسها وهتفت بها ، وهى تغط فى نومها ، فلم تحس . فركلتها برجلها بعنف وهى ضاحكة . فقامت الخادم مذعورة .

« يوه . . يوه . . ستى . . ! » .

***

ورأينا فى أصيل يوم جميل أن نتنزه ، عندما يقبل المساء ، فى زورق وما خيم الظلام حتى كان الزورق راسياً عند الباب الخلفى للحديقة . وخرجنا به أنا وهى وابن عمها صلاح ، وهو فى مثل سنى ؛ وخادمتها مبروكة وأجلسناها مع الخادم فى الخلف ، وأخذت أجدف أنا وصلاح ؛ ولقد كنت ، كما تصورت ، بارعاً فى التجديف للغاية ، وبدأنا نبعد عن القرية ، ونوغل فى اللج ونتعمق فى جوف الظلام فلقد كان القمر لم يطلع بعد ، ورأينا أن نمتع الطرف بطلوعه ونحن فى قلب الماء لنحظى بأبهى منظر . وأعملنا الأيدى فى المجاديف حتى غابت القرية عن أبصارنا وقد لفها الليل فى جلبابه ، ولم يبد منها على مرمى البصر غير نور خافت ينبعث من بعض المصابيح القائمة عند بيت العمدة وما يجاوره من أبنية . والواقع أنى شغلت بالتجديف عن إحسان لأن السباق بينى وبين ابن عمها كان عنيفاً جداً . ولقد كان أصلب عوداً وأقوى ساعداً ، ولكنى كنت أبرع فناً وأحسن توفيقاً . أجدف عن صنعة ، وهو يجدف عن فطرة ، ويتكل على ساعده ، وأتكل على مرانى . فكانت الغلبة لى دائماً ، فأنا الذى أحول الزورق إلى ناحيته ، وكم صفقت إحسان وهى جزلة طروب . . .

ثم تركنا المجاديف ، لما طلع القمر ؛ وخلينا الزورق يجرى كيف شاء ، وأخذنا نتجاذب أطراف الأحاديث بيننا ، وعيناى تلتقى بعينيها ، فأرى بريق السرور فى العينين النجلاوين ، وبسمة الرضا على الشفة القرمزية . كم كنت سعيداً فى ذلك الوقت كم

شعرت فى أعماق نفسى بالسرور المحض ، وشد ما تمنيت لو خلا الزورق من خادمتها وابن عمها وبقيت معها وحيداً ، كنت أحس عند ذلك بإحساس غير الأول وبسعادة غير التى أحسست بها .

فى غمرة الطبيعة الضاحكة ، وبين أحضان الريف الهادىء ، وفى الجو الطلق المشبع بالحرية ، وتحت سماء الصيف الزرقاء ، تتفتح النفس ويتحرك القلب .

هل أحست وهى التى تكبرنى بأعوام ثلاثة ونحن نتلاقى بالأعين ونتضارب بالأيدى ، عن عمد ، بأنى أحببتها ، هل أحست ، ونحن نصعد درج البيت لننام ، بأنى كنت أود أن أقف معها فى جوف الظلام لأضمها إلى صدرى ، وأغمر شفتيها بلثماتى .

ووقفت جنب سريرى قبل النوم مدة وهى باسمة ، ولما تلامست يدانا لتحية المساء ضغطت على يدها بعنف . . هل فهمت ؟ أطرقت وعلت وجهها حمرة الخجل ، وانسحبت فى هدوء إلى فراشها .

ومضى أسبوعان ونحن أصدقاء . وكانت أشد الأوقات وطأة على نفسى هى الساعات التى أتغيبها عنها ملبيا دعوات الآخرين من أقربائنا وما كنت أود على شغفى بالسباحة ، وصيد السمك مع غلمان القرية ، أو ركوب الجياد على الجسر ، أو لعب الكرة فى السوق . ما كنت أود على فرط ولعى بكل هذه الأشياء أن أبتعد عنها . لقد كان يعترينى وأنا أصغى لأحاديثها ، وأستمع لقصصها إحساس غريب لذيذ ، يهز أعماقى ، وأنسى معه كل شىء حتى نشوة المرح التى تعترى راكب الجواد ، أوهزة الفرح التى تلازم صائد السمك ، أو فترة الحماسة التى تنتاب لاعب الكرة .

وحمل إلينا البريد ذات صباح رسالة من والدى يطلب فيها عودتى إلى القاهرة . وقرأت الخطاب والهم يعصر قلبى . سعادة أيام تنقضى فى لحظة . . . ولم أستطع أن أتبين الإحساس الذى اعتراها بالدقة ، وكل ما رأيته أن حركاتها تغيرت ، وحديثها فتر ، وابتسامتها غاضت .

وأخذوا فى اليوم الثانى يعدون العدة لعودتى ، ففتحت إحسان حقائبى وأخذت تضع فيها ملابسى ، وأنا قبالتها أتفطر لوعة . . والخدم فى المطبخ يعدون هدية الريف لسكان المدينة .

وبعد ساعة رأيت ، وأنا واقف عند النافذة ، جواداً يسحب من الاصطبل ، ويتبختر نحو البيت فى مرح ، إنه ما كان يعلم أنه سيحمل سعادتى معه إلى الأبد ، وعلقت البصر بالجواد حتى وقف أمام الباب يضرب برجليه الأرض ، فاغرورقت عيناى بالدمع ، وارتددت عن النافذة فألفيتها قبالتى ترقبنى ساهمة شاردة ، فوقفت أمامها وقلبى يمزق

ضلوعى ، ودمعى يتفجر من عينى ، وبقينا هكذا مدة طويلة وأنا ذاهب ملتاع القلب حتى أحسست بيدها على يدى ، وضغطت عليها وجذبتنى إلى الأريكة ، وأخذت تلاطفنى تفرك يدى مرة ، وتشد شعرى أخرى حتى ضحكت .

وصرفت الخادم بالجواد حتى صباح الغد .

ومضيت ليلة لا أنساها ما عشت . . .

وتزوجت إحسان بعد ذلك بعامين . . وانقطعت بعدها عن زيارة الريف .

من أيام الصـــبا

كنا خمسة . . . خمسة من الشبان المتمردين على الجماعة والخارجين على حدود الناس ، والذاهبين مع مرح الشباب ولهوه . . . كنا قد انقطعنا عن المدرسة ، وتخلفنا عن الرفاق ، وسرنا مع نزق الشباب وطيشه ، فطردنا من الأهل وحرمنا من الصحب ، وتقطعت بنا الأسباب . . . وذهبنا على وجوهنا نبغى العيش من التصعلك والتشرد وركوب متن الأهواء . . ثم ارتددنا على أعقابنا وضمتنا القرية الحبيبة بعد طول شتات . . فانطلقنا نعمل فى الحقول ونشرف على حراسة المزراع .

وكانت الأيام المشردة قد مسحت ما على أجسامنا من غضارة المدينة ولينها ، فالتفت سواعدنا واشتد عودنا ، وأصبحنا أقوى ساعدا وأعظم قوة من هؤلاء الريفيين الذين يقضون حياتهم بين أحضان الطبيعة ، ناعمين بالحياة الحرة ، فى الهواء الطلق والجو المشمس . .

كنا جالسين فى حقل من حقول المزرعة وحولنا الأجران ، والليل ضارب بجرانه والصمت رهيب . . . وكنا قد تأخرنا عن زمن الحصاد ، فحرمنا بذلك من أمتع «أيام الصبا» ولهوه . . . كنا نقف وراء صفوف هذه السواعد القوية وهى تطوى سنابل القمح طيا ، وخلفها الفتيان الأشداء يكومون الأحمال ، وينيخون الإبل ، ونساء الفلاحين يلتقطن السنبل الساقط ، ويجمعن قوت الأيام السود . . . وكنا نزجر العجائز الدميمات منهن ، وندع الصبايا الجميلات يتوغلن حتى الحقول . . . كانت أسواطنا تخطىء دائما . . . ومع ذلك ، فما قطعنا القلوب حسرات ، ولا ندمنا على مافرط منا من إثم . . . . كنا ذاهبين مع الصبا بقلوب نزقة ، لا نحسب لأوضاع الناس حسابا . . نتخذ من عطلة الصيف ، وأيام الحصاد مرتعاً خصباً لشبابنا الجامح وعواطفنا الجائشة . . ونظل النهار بطوله واقفين فى قلب المزرعة تحت لفح الشمس ، لا نكل ولا نمل ، لأننا نرى فى كل ساعة وجهاً فاتناً صبوحاً من تلك الوجوه القروية النضرة التى تستغرق الطرف ، وإن كانت تعيش فى ظلام الفقر وبؤسه . . .

فإذا أقبل العشى انطلقنا وراء الإبل المحملة بالقمح ، وخلفها الجمالون يحدونها بأصواتهم الشجية . . . حتى تبلغ الأجران ، فتناخ الإبل وتفك عنها أحمالها ، وهى تهدر هديراً قوياً كان يبعث فينا النشاط والحماسة والقوة . . .

فإذا تمت الأجران وعلت كالأطواد ، اتخذنا من ظلالها وأوكارها أعشاشا لغرامنا كان كل شىء فى تلك الساعات النزقة إغتصاباً وقسوة . كانت لنا الساعة التى نحن فيها لم نكن نفكر فى المستقبل ، ولا كانت عيوننا ترتد إلى الماضى . كنا نطوى الشهور فى المزارع بين الرياض والغياض ؛ ولا نرى منازلنا إلا نادراً . كان من الصعب علينا أن نحبس قوتنا الدافقة ، وحيويتنا العظيمة بين الجدران . كنا كالأعشاب البرية وهى تنمو تحت أشعة الشمس على أتم غراس وأنضجه ، نفتح سواعدنا عندما يشعشع النور ، ونستقبل بصدورنا ندى الفجر ، ونود من قوة عضلاتنا لو نقاتل ونرضى تلك الغريزة الفطرية فى الإنسان .

كنا مسلحين دائماً حول أجسامنا أنطقة البارود ، فإذا أقبل الليل وضل إنسان العين فى سواده ، صوبنا بنادقنا فى كبد الفضاء ، وأطلقنا النار ، وأرسلنا عيوننا وراء سهام البارود النارية وهى تخترق حجب الظلام الكثيف ، وملأنا خياشيمنا برائحة البارود .

كانت تلك الليالى من أمتع ليالى حياتنا وكانت ذكراها تبعث فينا الحماسة والنخوة . . . كنا نذكرها وكأننا ننظر إلى حلم جميل ولى .

رحنا نسترجع تلك الذكريات الحلوة ، ونحن جالسون فى هذه الليلة الصيفية المظلمة على جرن عال يشرف على أجران المزرعة ، والظلام من حولنا شديد ، والمكان موحش رهيب . . .

وكان جرن كبير من الأجران قد ذرى وأعد قمحه للمخازن وكان علينا أن نسهر عليه حتى تنطوى فحمة الليل ، فأخذنا نتبادل الأحاديث الممتعة ونطرد النوم بكل الوسائل . . . أوقدنا النار ، وشربنا الشاى ، ولمعنا البنادق ، وملأنا خزاناتها بالرصاص .

وكان ينهض واحد منا كل ساعة ومعه كلبان من كلاب الحراسة فيدور حول المزرعة ويتفقد مرابط الخيل وحظائر الماشية . . .

ونهض أحدنا ، وكنا مستغرقين فى الحديث فلم نشعر بغيابه . . وسمعنا على غرة نباح كلاب شديد قادم من شرق المزرعة . . . ثم ومض البارود ، وأز الرصاص ، وملأ الدخان عنان الجو ، فنهضنا مسرعين واتجهنا إلى الناحية التى سمعنا منها صوت الطلقات . . . ثم خفنا أن تكون هذه حيلة بارعة لتبعدنا عن المزرعة ، فعدنا إلى مكاننا وأعيننا لا تتحول عن سهام النيران الحامية . . .

وانقطع صوت النار وبقى صوت الكلاب ، وأخذ نباحها يقترب منا . . ثم برز شبح فى الظلام ، فصوبنا بنادقنا وهتفنا بالقادم . . . فرد علينا إسماعيل ، أحد رفاقنا ، بصوت أجش . . . واقترب منا وهو يلهث ووجهه يتصبب عرقاً ، وغدارته تفوح منها رائحة البارود . . .

فصحنا فى صوت واحد :

« هل أصبت . . . ؟»

«لا ولله الحمد . . . وإنما كدت أن أقتل . . . وكل ذلك بسبب هذين الملعونين . . . »

واستطرد وهويشير إلى واحد من الكلبين :

«لن ترافقنى مرة أخرى يا مسعود ! . »

فسأله رفيق له :

«هل مررت على القرية ؟ . . »

فأجاب فى إيجاز متعمد :

«أجل . . . »

«وهل كان من الضرورى ذلك فى هذه الساعة من الليل . . . ؟»

«أجل . . . كنت فى حاجة إلى تبغ . . . »

«أكنت فى حاجة إلى تبغ أم كنت فى حاجة إلى شىء آخر . . . ؟»

فصمت ولم يجب على أن وجهه كان ناطقاً بفعلته . .

وسأله أحدنا مازحاً :

«أكنت تعس حول المزرعة أم كنت تسطو على بيوت الناس ؟ هكذا والله هى الحراسة . . . »

وضحكنا جميعا ، وعدنا إلى مكاننا الأول من الحقل ؛ وجلس إسماعيل ناحية ، وأخذ يمسح بندقيته ، وعلى وجهه سمات من ارتد خائباً بعد جهاد طويل .

وسأله أحدنا :

«ولكن لماذا أطلقت النار . . ؟»

«أنا لم أبدأ بإطلاق النار ، وإنما هم الذين بدأوا . . .»

«هم . . . ! من هم . . . ؟ من الذى أطلق عليك النار . . . ؟»

«بصر بى بعض الفلاحين عندما نبح هذا الكلب الملعون وظنونى لصاً . . . وكنت على قيد أذرع من خبائها . . . فأطلقوا النار فى الهواء . . . فغبت فى جوف الظلام وأطلقت طلقتين معاً . . وجريت وحلت لى هذه المطاردة ، وتصورت نفسى لصاً يبغى السرقة لا مخلوقا دنيئاً يسطو على خباء امرأة فى غلس الليل وتحت ستاره ! وبادلت الفلاحين الطلقات السريعة ، فظنونى عصابة كاملة من الأشقياء ثم راوغت تحت جناح الليل ووليت هارباً .

«ما كان أحلاها قتلة . . . !»

«أجل والله ما كان أحلاها قتلة . . . وما كان أطيب وقع النعى على نفسها . . . !»

وقال عثمان وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، وكان أشد رفاقنا بطشا وأعظمهم قوة :

«أى مشقة يلقاها الرجل دائماً وهو فى طريقه إلى الرذيلة ومع ذلك لا يزدجر . . !»

وصمت برهة ليشعل لفافة تبغ . . . والابتسامة لا تبارح وجهه القوى التعابير ، الدقيق الملامح . . . ثم أجاب على سؤاله بنفسه :

«لماذا ؟ . . . أجل لماذا ؟ لأن ركوب الصعب من الأمور دائماً شائق ، أم لأن الاستيلاء على ما فى حوزة الناس فيه إمتاع ولذة ؟ ماذا كان يحدث ياصاح لو رآك زوجها . . . أى موقف حرج . . دفعت نفسك فيه . . . وأى مصيدة ؟ . . أنا أعرف أن المرأة هى علة الشقاء الإنسانى . . . كما أنها قد تكون علة هنائه أيضاً . . . ذكرتنى أيها الأخ الشهم بحادث كدت أن أنساه فما تحدثت به لإنسان ، بيد أنى أشعر برغبة قوية تدفعنى إلى أن أقصه عليكم . . »

فسررنا وتوقعنا فى حديث صاحبنا مغامرة ممتعة نتسلى بها حتى انبلاج الصبح .

ونظرنا إليه فى شوق ولهفة ، وكان قد أطرق ، ثم رفع وجهه وقد غامت عيناه قليلا ، ثم لانت ملامح وجهه وأنشأ يقول بصوت واضح النبرات :

«كنت فى التاسعة عشرة من عمرى وفى أول دراستى العالية ، وكان قد مضى على سبعة أعوام فى القاهرة قضيت جانباً منها مع بعض أقربائى ، ومضيت الجانب الآخر مع بعض الأسر الفرنجية التى تنزل عن غرفة من سكنها للطلاب البعيدين عن أهليهم . . . وكنت دائماً أتخير الأسر الهادئة الكريمة الخلق . وأقمت مرة مع سيدة أجنبية ، وكانت صبية جميلة وحديثة العهد بالقاهرة . وكان زوجها يعمل سحابة النهار ، وجزءاً كبيراً من الليل ،

وكنت أرجع من المدرسة فى الساعة التى يكون فيها الرجل قد عاد إلى عمله . . . ولهذا ما كنت أراه إلا نادراً . وكانت الزوجة مع جمالها دمثة الطبع ، طيبة الأخلاق ، تعنى بى عناية فائقة ، ترتب غرفتى وتنظم كتبى ، وترتق ملابسى الممزقة ، وتعمل لى أكثر مما تعمل لزوجها . وكانت تحب أن ترى مافى القاهرة من حسن ، فزرنا معاً أجمل الضواحى وأنضر البساتين ، وهى تزداد بى كل يوم تعلقاًوألفة ، حتى توثقت بيننا عرى المودة وأصبحت تترقب عودتى من الجامعة أكثر مما تترقب عودة زوجها من عمله ، وأصبحت ألج عليها غرفتها فى أى وقت ، وأراها على أى حال تكون عليه . . .

ومرت أيام وأنا لا أحس بوجود الزوج معنا فى منزل واحد وأصبحنا من وفرة السعادة كأننا فى حلم جميل . . .

رجعت مرة إلى المنزل ساعة الظهر ، فلم أجد السيدة فى ردهة البيت كعادتها ، وكنا فى قلب الصيف ، والحر شديد فتمددت على فراشىً ونمت . واستيقظت قبل مغرب الشمس وهتفت باسمها فلم تجب . . . فنهضت من فراشى ومشيت نحو فسحة البيت فرأيت باب غرفتها موارباً فأدركت أنها نائمة .

وحركت بابها برفق . . . ودخلت وعينى على السرير . . . فوجدت جسماً ممدداً ملتفاً فى ملاءة بيضاء . . . وحلى لى أن أداعبها قبل إيقاظها فتقدمت من السرير حتى قربت منها وجذبت رجلها فلم تتحرك . . . فتحولت إلى خصرها ودغدغتها . . . ووقفت أرقب حركة جسمها وأنا لا أكاد أتماسك من مغالبة الضحك المكتوم . . . وتحرك الجسم أخيراً وانزاحت الملاءة . . . وظهرت مقدمة رأس . . . رأس صلعاء . . . !

فذهلت وسمرت فى مكانى مبهوتاً . . .»

«كان وجه زوجها . . . ؟»

«أجل . . .»

فانفجرنا ضاحكين . . . ولما هدأت عاصفة الضحك عاد الصديق إلى حديثه .

«كان موقفاً حرجاً . . . فشدهت . . . ووقفت ذاهب النفس وجسمى يتصبب عرقاً . ثم رأيت نفسى أقول فى غضب بصوت المحموم . . »

«ساغادر الغرفة ياسيدى . . . !»

فنظر الرجل إلى دهشاً . . . وقال وهو يصعد فى بصره .

«ستغادر الغرفة ! ما السبب ياسيدى ! . . ما الذى جرى ؟ . .»

«أثاث الغرفة رث ... ثم هي بعد ذلك متناهية فى القذارة . . .

«كيف ذلك ياسيدى ولقد جئنا لك بكل شىء جديد ؟ . . .»

«أبداً إنها غاية فى القذارة . . .»

«وتدفق من فمى كلام لا أعرف له مرمى وكان لابد من ذلك لأنجو بأعصابى .

وعدت إلى غرفتى وأنا لا أكاد أتصور شيئاً مما حدث ، ولازمتنى حالة من الهدوء غريبة . . . ثم لبست ملابسى وخرجت إلى الطريق . . . وهنا عادت إلى الخواطر ، وأخذت أتصور الموقف على شناعته وحال الزوج بعد أن يرجع إلى نفسه ، ويدرك أنى كنت متهجما على مخدع زوجه . . . وواضعا يدى على سريرها . . . وجسمها . . . !

وظللت جزءاً كبيراً من الليل وأنا متردد بين العودة إلى المنزل ، أو إيفاد صديق ليجىء لى بمتاعى وكتبى . . ثم رأيت الرأى الأول ، واتجهت صوب البيت وأنا مقدر كل الأحداث . . وكان الزوجان قد ناما . . وبقيت أساهر النجم حتى الصباح . . .

ورأيت الزوجة فى اليوم التالى جالسة تقرأ فى كتاب على أريكة فى الردهة . . فمررت بها وأنا أذوب خجلاً . . . وتطلعت إلى وجهها فرأيته لا ينم على شىء مما حدث بينى وبين زوجها ، فقد كانت تبتسم فى مرح . . فغاظنى هذا وبلغ منى الألم مبلغه .

وقضيت بعد ذلك أياماً فى البيت ، ونظرى لا يقوى على مجابهة الرجل ، وكان يغيظنى منه بروده وهدوؤه وامتلاكه زمام أعصابه وكنت أتخيل أنه بلغ مبلغاً من خبث الطوية وبراعة الحيلة وأرى فى صمته تبييتاً لأمر فى نفسه ، وكنت أود لو يثور ويضاربنى وتنتهى المعركة بيننا على أسوأ الفروض .

وجاءت عطلة العيد فبارحت الغرفة إلى الريف ، ولم أعد إليها بعد ذلك أبداً . . . تركتها مخلفاً فيها أمتعتى وكتبى . . وهى تذكار دائم على أيام هنية .

ولا زلت أرى المرأة وزوجها كلما ذهبت إلى القاهرة . . وأغلب الظن أنهما لم يغيرا المنزل . . كما أن الرجل لا يزال على حاله هادئاً بارد الطبع لا تعبر ملامح وجهه عن حزن أو فرح أو أى انفعال نفسانى . . أو عاطفة من عواطف الجنس البشرى .

أما المرأة فقد أصبحت بادنة نوعاً ! . .

* * *

وفرغ صاحبنا من قصته وانطلق يدخن ، وعدنا نشرب الشاى ، وكان الفجر قد قرب ، وبدت خيوط النور فى الأفق ، فدرنا حول المزرعة لآخر مرة ، وكنا قد تعشينا فى أو

الليل ، فلما دنا الفجر أحسسنا بجوع شديد وكان الطعام سيجيء لنا عند الشروق ولا طاقة لنا على انتظاره ؛ فقد اشتدت علينا وطأة الجوع ، وأخذت بطوننا تعصرنا عصراً . . .

وبعثنا اثنين منا إلى حديقة كروم قريبة ليحملا لنا منها ما يمسك بطوننا ، وجلسنا فى انتظارهما بصبر بالغ وقد انقطعنا عن الحديث ، وإذا بنا نسمع نباح كلاب المزرعة فجأة . فصوبنا أبصارنا تجاه الصوت فرأينا غباراً شديداً يسد عرض الأفق . ومددنا أعناقنا فأبصرنا قطعاناً كبيرة من الضأن قادمة من الطريق الزراعى الكبير ومتجهة إلى بعض القرى القريبة . . . وظهر أمامها رجلان ضخمان يلوحان بعصوين طويلتين . . وحول القطيع كلاب كاسرة تطوقه من كل جانب ، وخلف القطيع امرأة ترتدى دثاراً أسود فاحماً . . . وتهش بعصا رقيقة على الغنم ، وتزجر فى صوت رنان كلاب المزرعة عن كلابها . .

وقربت القطعان منا . . . وكان أحد الرجلين معلقاً فى عنقه مزماراً طويلاً . . أما الآخر فكان يحمل على ظهره قربة ضخمة فيها متاعهم . . وأخذنا نرقب القطيع بعينى الصقر حتى بعد عنا ، فشيعنا بأبصارنا وبطوننا الخاوية تمزق أحشاءنا . وحدجنا الأحمال الصغيرة التى تتوثب حول القطيع الماضى فى طريقه بعيون جائعة ، ومر فى ذهننا خاطر سريع ، ودون أن ننبس بكلمة انسللنا فى أثر القطيع متجنبين طريقه . . . وجرينا شوطاً ، ثم كمنا فى جرن كبير من أجران القمح الهش فى أقصى المزرعة ، ومرت قطعان الضأن ، وملأ خياشيمنا الغبار المتطاير من أرجلها . وكانت المرأة لا تفتأ تتلفت يمنة ويسرة وتضرب الصغار بعصاها . . . وجاوزوا حدود المزرعة ، وابتدأ الرجل حامل المزمار يزمر ، ومدت القطعان أعناقها ثم تقدمت فى صمت وسكون عجيبين . وانقطعت المرأة بعد صوت المزمار عن الكلام ، وسكنت حركة الكلاب وانقطع نباحها . وكان فى القطيع جمل صغير طول الطريق يتوثب ويركض فى كل اتجاه ، ويضرب برجليه الأرض ، فلما سمع صوت المزمار سكن أيضا واستقام بأعجوبة كسائر رؤوس القطيع . . . وكنا قد تهيأنا لنقتنصه . . . فما سمعنا صوت المزمار حتى شلت أيدينا ، وعجزنا عن الحركة ، وبقينا ممددين على الأرض وعيوننا تتطلع إلى السماء وتتأمل النجوم . . . ورجع المزمار الحلو يتردد ، كأنه مزمار دواد يبعث من وراء الأجيال ويدوى فى هذا الليل ، وهذا السكون . وظللنا فى مكمننا حابسين أنفسنا ، وصوت المزمار يهفو والقطيع يسير ونحن نرقبه عن بعد ولا نستطيع أن نتحرك .

ورجعنا إلى مكاننا من الحقل ونحن لانستطيع أن نعلل هذه الظاهرة الغريبة التى اعترتنا فى تلك الساعة . أكان ذلك من تأثير الموسيقى ، أم شعور آخر أيقظته الموسيقى .

وعاد الرفيقان الذاهبان فى طلب الكروم . . . وكان أحدهما يحمل كروما أما الآخر فكان يحمل شيئا آخر . . . كان يحمل حمل الضأن الذى أفلتناه من أيدينا .

وأشعلنا النار و شويناه .. و كنا ننظر إلى اللهب الأحمر وهو يشوى لحمه . . . ونتصوره منذ لحظات وهو يجرى ويتوثب بين رفاقه مرحا سعيد طروبا ، فيعصر الهم أفئدتنا .

ولما جلسنا نأكل انقطعنا جميعا عن الكلام ، كأن على رؤسنا الطير . وكانت كل قطعة من اللحم تستقر فى جوفنا تمزق أحشاءنا تمزيقا . . . كنا نتصور أن الحمل لايزال يجرى ويتوثب ، والقطيع يسير والمزمار يزمر .

بعــــد العـــرس

عنـدما فكـر «مختار» فى الـزواج بعد سن العشـرين مباشـرة ، لم يجـد من ذويـه الاعتراضات الجمة التى تعترض غيره من الشبان ، صحيح أن جدته ، لعنها الله ، أدخلت أنفها الطويل فى المسألة ، ونعتت العروس بنعوت لا يمكن أن تصدر من سيدة محترمة مثلها ! ولكن مختاراً قضى على كل تخرصاتها وأكاذيبها بدليل منطقى واحد ، وضع هذه العجوز الحمقاء على الرف ، وأقام حول العروس الجميلة نطاقاً من الموانع ، وقد وصفها بأحسن مايمكن أن توصف به امرأة ، وبرهن على ذلك بأدلة مادية محسوسة . . .

وعلى الرغم من أن مختاراً كان شاباً مجرباً - كما يعد نفسه - فقد أخذ يتصور ، فى الأيام التى سبقت حفلة الزفاف ، أنه مقدم على عمل جليل الشأن عظيم الخطورة ! صحيح أن له دراية بالنساء ، وأنه خالط ومازح وداعب ، فى مدى العشرين سنة التى تصرمت من عمره ، الكثير منهن ! ولكن الزواج - كما تخيل - أمر يختلف عن كـل هاتيـك الأمور ، فليست المسألة مسألة دفوف تدق ، وموسيقى تصدح ، وباب يغلق على العروسين ، إنما هى أكثر وأعمق من ذلك بكثير . ولهذا قضى الأيام القليلة التى قبل العرس وهو على حال من الاضطراب لا تحتمل . وعلى الرغم من أنه شاهد العروس مرتين ، فى خـلال تلك المدة ، وتحدث معها منفرداً فى الشئون العامة وتناول السياسة الدولية وحقوق النساء ، فإنه لم يستطع مطلقاً أن ينزع عن فكره خطورة الأمر الذى هو مقدم عليه وغموضه . على أنه شوهد فى اليومين السابقين ليوم الزفاف مباشرة هادىء النفس قرير العين مثلوج الفؤاد ، حتى أنه أشرف بنفسه على تنظيم الغرف وإعداد الفرش ، وداعب - فى أثناء ذلك - بعض الخدم والحمالين وعمال الصوان ، وكتب بنفسه وخطه كثيراً من بطاقات الدعوة !

ولما مرت حفلة العرس بسلام . . قضى العريس الأسبوع الأول من شهر العسل فى المنزل ، وهذا عمل مألوف وشائع بين الشبان ، على أن العريس شعر بعد هذا الأسبوع الذى لا يدرى كيف قضاه ، بالضجر المشوب بالندم ، وأحس بأنه سجين ، وأنه بـدأ

يتعذب ، وأنه كان عليه أو يومين على الأكثر ، فليس فى المسألة ما هو جديد وممتع على الإطلاق ! وفكر - وارمضته الفكر - فى حل يخرجه من هذه الـورطة . واستقر رأيه أخيراً على أن يتريض فى الضواحى ، واستحسن أن تصاحبه العروس فى هذه النزهة الجميلة ، وقبلت العروس مسرورة ، ودخلت غرفتها لتتزين وتتهيأ للخروج .

ولبس الزوج ملابسه فى أقل من خمس دقـائق ، وجلس فى البهو يقلب بصـره فى صحيفة من صحف الصباح ، وينتـظر فراغهـا من زينتها . . . ومضت خمس دقـائق ، وعشر ، وعشرون ؛ وهى أقصى مدة كان يقدرها ويمكنه احتمالها ، وبدأ بعدها يعيل صبره ويضجر ! وسدد بصره إلى باب غرفتها المغلق . . وكان لا يرى داعياً لإغلاقه ! . . وأنصت مدة . . وتصور أنه يسمع حفيف ثياب حريرية تزل فى رفق عن جسمها الناعم ، حتى تجرد الجسم من كل ما عليه تماماً ! فخجل من هذاالمنظر العارى ، وحاول طرده من ذهنه بكل الوسائل ، فأغلق عينيه ! واستمر على ذلك مدة لا يمكنه تحديدها بالضبط ، ورفع رأسه على صوت باب قريب يوصد بشدة ، ومرت عليه الخادم ، وعلى ذراعيهـا ملابس مكـوية ؛ وانسابت إلى إحدى الغرف . . . وانتصب على أثرها ، وأخذ يتمشى فى عرض البهو ويقف من حين إلى حين على باب زوجته ويتسمع ! وكان القلق قد استحوذ عليه بشكل عجيب ! فعن له أن يهتف بها ، ولكنه عدل عن هذا الخاطر بعد أن رآه تدخلاً مباشراً فى شئونها الخاصة ، قد يجر إلى ما لا تحمد عقباه ! واكتفى بأن مد شفته وأخذ يتمتم ويزمجر . . . واندفع الدم إلى رأسه ، بعد خمس دقائق أخرى ، وأحس بتراخ فى أعضائه وثقل وتعب أعقبته ثورة فجائية انتفضت له جوارحه كلها ، وهم معها بأن يحطم عليها بابها . . . ولكنه تمالك نفسه ، وراح يزيد فى سرعة مشيته ويضرب بنعليه أرض البهو بصوت مسموع .

ودار مصراع الباب ، وأطلت العروس ، فاهتز طرباً وطار من رأسه كل مـا كان يزعجه ، ولكنه روع بعد ثوان بما سمره فى مكانه كالتمثال الأبله ! فقد خرجت العروس لتنادى الوصيفة ، لأمر استبطأتها فيه ، وراعه وأدهشه وأذهله ، أنها لا تزال فى لبـاسها الأول !! . وقف حائراً وعلى وجهه كل علامات الدهشة مجتمعة ! يسائل نفسه : ما الذى عملته المصونة فى مدة الثلاثين دقيقة التى خلت إذن ؟ لعلها كانت تفكر فى انتقاء الثوب الموافق للصباح !. ولم تقرأ العروس شيئاً مما على وجهه . وكانت سطحيـة النظرة ككـل امرأة . ولهذا ابتسمت له فى دلال وخفر ، ودخلت غرفتها ، وتركت الباب فى هذه المرة مفتوحاً .

وعاد مختار يذرع أرض البهو آسفاً حانقاً ، ويقف على بابها هنيهة كلما مر عليه ليرقبها وهى تسرح شعرها . . . ولما انحنت لتلبس جوربها . لاحظ لأول مرة أن فى ساقيها التواء ظاهراً ، فامتعض لهذا جداً ، وحول وجهه عن الباب ، وهو يعجب ويدهش من أنه لم يلاحظ ذلك من قبل ، مع أنه شاهد الساقين عاريتين عن قرب مراراً .

وحاول أن يذكر حادثاً خطيراً مر عليه فى حياته ، فى هـاتين الساقين ، ولكنه لم يستطع أن يذكر حادثاً أشد خطورة من الزواج نفسه !، وأخذ يرمق زوجه بجانب عينه ، ويرى فى كل حركاتها وسكناتها ، وهى تتزين وتجرى بـالأحمر عـلى شفتيها وخديها . سخفاً لا يطاق . وتصور أنها تتوانى فى زينتها لتتعمـد غيظه وكيـده ، فساوره خاطر كاد يدفعه إلى أن يدخل عليها الغرفة . ويحطم كل أوانى الزينة ، وزاده غيظاً أن أشد الناس غباء يستطيع أن يلاحظ ما هو عليه من سوء الحال ، ولكنها لم تلاحظ شيئاً ، بل كانت تبتسم فى بلاهة ، وتتوارى عنه فى ركن من الغرفة ، لأنها خجلى من نظراتـه الحادة !.

وخرجت تتهادى وتقول له بعينيها «ما أجملنى . . .».

***

وهبطا الدرج صامتين . . . وخرجا من شارع البيت إلى ميدان الحلمية . وكانا قد قررا البدء بحدائق القبة ، ثم المطرية والمرج - إن أمكن - ولما كانت العروس لم تألف وجوه الناس الغرباء ، كما أنها لا تحب الجلوس وحدها فى مجلس النساء فى الترام ، فقد استقلا عربة إلى المحطة ، وجلسا يتحدثان ويتبادلان البسمات والنظرات ، ولاحظ مختار أن فى حديثهما على بساطته كلفة ظاهرة ، وأنه لأول مرة فى حياته ، يعير باله للمارين فى الطريق . ويواجه نظراتهم بغيظ وحنق !.

ولما بلغا محطة كوبرى الليمون ، كان القطار على الرصيف يدخن ، فأسرعا إليه ، وجلسا متقابلين فى أول مقعد مما يلى الباب ، وكانت العربة غاصة بالركاب تقريباً ، ولم تبق إلا مقاعد قليلة خالية متناثرة هنا وهناك تنتظر الركاب الجدد ، وكان مقعدهـا أطول من مقعده ومعداً لراكبين ، فكان مختار كلما دخل العربة راكب جديد يسارقه الطرف ، ويخشى شر جلوسه بجوار زوجته !!، وكان يشتد اضطرابه وينخلع قلبه ، إذا وقف الراكب فى أول الممر ، وعينه على المقعد ، ويبدا له أنه يشاور نفسه ، ودفعه القلق إلى أن يطل من النافذة ، ويراقب كل القادمين الجدد ، وأخذ مع مرور الدقائق يتضايق ويضجر ويتأفف ، ويتصور أن القطار يراوغ لتعذيبه وإيلامه ، وأن عيون الركاب - لسبب لا يفهمه - تحـدق فيه ، وتسخر منه ، وتهزأ وتضحك أيضا . ورأى شابـين قادمـين من بعيد ، وهمـا يتضاربـان ويقهقهان . وواحد منهما يجذب الآخر من طرف سترته ، ويحاول إيقاعـه على الأرض ، فأحس لقدومهما بالخطر الزاحف ، ونهض بسرعة وجلس بجانب زوجته ، وتشاغل معها بالحديث حتى يمرا ، ودخل الشابان العربة ، ودارا ببصريهما فيها . . ثم جلس واحد منهما أمام مختار دون تردد ، ودخل الآخر فى جوف العربة ، وشعر مختار أن كابوساً ثقيلاً حط عليه فجأة ، فانقطع عن محادثة زوجته ، ووضع رجلاً على رجل ، وأظهر الاستياء والتذمر .

ومرت أكثر من دقيقة ، تحقق بعدها أن الراكب الجديد يبادل زوجته النظرات بشراهة ، وأن بصره كثيراً ماينحدر عن وجهها ليستقر على ساقيها ،

وبعض الأحيان يتطاول على فخذيها ! فاحتقن وجهه ، وأحس بالدم الفائر يغلي في عروقه ، وأخذ يرمي الراكب بالنظر الشزر ؛ وهذا لا يعيره باله ، ولا يحس بوجوده ، وإنما أخذ وهو باسم في خبث - كما تخيل - يرمي عليه سحب الدخان الكثيف ، وزاد مختار غيظاً ودهشه أن زوجته كانت تبادل الراكب نظراته وبسماته ، وهي طروب ، ويكاد الدم يطفر من خديها ، وهذا أمر لم يحصل لها من قبل على الإطلاق .

وتحرك القطار وكانت الدنيا في صميم الصيف ، والهواء مع سرعة القطار شديداً ، وباب العربة الزجاجي بالياً تنقصه المفاصل . فأخذ ، كلما زاد التيار ، ينفتح ويندفع منه الهواء إلى داخل العربة بشدة ، ويرفع ثوب زوجته حتى ساقيها ، وبعض الأحيان يتمادى - إذا كان شديداً جداً - إلى فخذيها ، فكان مختار يجن ويرمي زوجته بنظرات مفزعة ، والمسكينة تضطرب ، ويحمر وجهها ، وتضع يدها على طرف ثوبها ، وتنحني على الأرض ، وينهض هو ليرد الباب ، ويكاد من الحمق يحطمه ، ويرتد إلى مكانه ، وتعود الزوجة إلى جلستها وهدوئها ، وهنا يهب التيار من جديد وينفرج الباب ثانياً ليرتفع الثوب . . . فاشتد سخط مختار وغيظه وبدت على وجهه أمارات التعاسة بكل معانيها ، وأخذ الراكب الذي أمامه يبتسم ويكتم ضحكاته في صدره ، ورآه مختار فود لو يضاربه ويخنقه ويهشم له أنفه ، ولكنه ذكر موقف زوجته من هذه المعركة الحامية ، فكتم ثورته وجلس يدور ببصره في العربة شارداً ، فرأى الركاب جميعاً متحولين إليه ، وأنه غدا محط أنظارهم ، وموضع سخريتهم وضحكهم وتسليتهم في الطريق ، فود من فرط التعس لو يبكي .

ولما نزلا في حدائق القبة ، ومشيا في شوارعها ، كان الهم لا يزال جاثماً على صدره ؛ وحادث القطار لا يزال ماثلاً في ذهنه ، فصمت واكتفى بالنظر إلى المنازل والحدائق والحقول البعيدة ، كما أنه لاحظ المارين وهم يأكلون زوجته بنظراتهم . وكان أشد الناس نظراً الشبان . وحمله هذا على الصمت والتفكير ، فراح يذكر نفسه وهو يمشي في الطرقات وحده هادئاً مسروراً لا يعنيه من أمور الناس شيء ؛ وكثيراً ما كان يحدث نفسه بصوت عال - متى سمحت الظروف - ويغني أيضا متى طاوعته الحنجرة ، ويتغدى وهو ماش ، ويمص القصب أيضا .

أما الآن فإنه لايستطيع حتى التحدث بصوت مرتفع ؛ لأن عليه أن يحافظ على كرامة الزوجة المصون ، ويرعى التقاليد ؛ ولم تكن زوجته تعرف ما يدور بخاطره ويشغله عن الحديث معها ، ولاسيما وهما في أول نزهة ، وفي شهر العسل أيضاً ، وحز في نفسها هذا ،

وبدت دلائل الحزن والكرب على وجهها ، وكان مختار يحدق فيها من حين إلى حين ويشمئز من الأحمر الصارخ الذى لطخت به شفتيها ونفضته على وجنتيها ؛ وتبين ، بعد طول النظر والتأمل ، أن وجهها جملة ينقصه الجمال الأخاذ . . فالجبين مثلا ضيق ؛ والوجه مستطيل أكثر من اللازم ، والذقن بارز جداً ؛ ثم أرنبة أنفها . . !! وهدبها وعيناها . . !! ثم هى بعد هذا كله متناهية فى الغباء ؛ ومن سخرية الأقدار أنها تفكر كما يفكر هو ، وتشغل ذهنها بالتوافه من الأمور .

ما الذى يمكن أن تفكر فيه المرأة ؟ تغيير الثوب . . شراء المساحيق . . زيارة الصديقات . حفظ النوع ! ، المجىء إلى هذه الدنيا بمخلوقات شقية مريضة . . واء ، واء ، واء . النسل ، أجل النسل ، وتصور نفسه وقد جاء كل عام بكتلة من اللحم والدم لامعنى لها ، فأحس كأن أحداً يأخذ بمخنقه ويضغط على يافوخه . وتخيل صياح الطفل وولولته فى حجرات البيت وإطلاق حنجرته طول اليوم بأعذب الأنغام ! ، ولا أحد يستطيع أن يفهم علة بكائه . مربية تدفعه فى عربة إلى الحدائق . إلى جهنم بكل هذه الأشياء ، خدم ! . . سيدى . . إلى جهنم الحمراء بسيدهم هذا إن أنجب . . وبسيدتهم هذه إن أنجبت أيضاً !! .

وبعد أن أذهلته الفكر ، رجع إلى نفسه ، ورأى أن يستعصم بالصبر ويسلم أمره إلى الله ، وبدأ يحادث زوجته فى اقتضاب عن كثير من الأشياء ، وراعه أنها بعد دقيقة واحدة انطلقت تهضب بالقول وتفيض وتسح وتسهب فى وصف التوافه من الأمور ، وتسأل أسئلة سخيفة لامعنى لها ، وتثرثر فى صبر عجيب عن أشياء لاتخطر على باله ، ولا يعرف عنها شيئاً على الإطلاق .

وزاده هذا كله بلاء على بلائه ، ومرت عليهما سيارة كبيرة من السيارات العائدة إلى القاهرة ، فأوقفها ، وأركبها فيها ، وركب وراءها وهى ذاهبة اللب من الحيرة ، وكان قد رأى أن العودة هى خير ما يمكن عمله خوفاً من تطور الحال بعد أن تتكشف أمامه عيوب زوجته ـ وهى كثيرة ـ وتبدو على حقيقتها وبشاعتها ، وجلسا فى مقعد خلفى وعينه على الحقول والأبنية ، والشمس فى صميم الضحى . وأخذت العروس كلما مرا على منزل جميل أنيق تتمناه لهما ، وكان العريس يبادلها هذا الشعور على أن يكون المنزل – فى سره – له وحده ! وسمع على غرة صياح طفل حاد ، فتلفت ، فرأى طفلاً على صدر سيدة في ركن من العربة يولول ويصيح ويدفع رجليه ويديه بقوة ، فاستاء منه الركاب . وعبثاً حاولت السيدة إسكاته بكل الوسائل . وأخيراً انحنى رجل جالس أمام السيدة- ويبدو عليه أنه زوجها – وحمل عنها الطفل وضمه إلى صدره هنيهة ، ثم رفعه على يديه وأخذ يهزه ويدلله . وحدق مختار بشدة فى هذا المنظر الممتع ، وانطلق الأب يداعب الطفل ويربت على خده ويشد أصابعه ، حتى كف عن الصياح وأخذ يبتسم ويضحك . ووضع مختار نفسه فى مركز هذا

الرجل فكاد يغمى عليه ! وراقب زوجته فغاظه أنها تبتسم ، وأن وجهها . يفيض بالعطف والحنان على الطفل . وأنها تود لو يسمح لها الرجل الغريب ويدعها تحمله على صدرها لحظة . وابتسمت لزوجها ابتسامة ذات معنى وكأنها تقول له بعينيها «أنظر . . ما أحلى الأطفال !»

فارتعد لهذا وشحب لونه ، وحول وجهه بعيداً عنها ، وصمت حتى نزلا من العربة ، وركبا مرة أخرى عربة إلى المنزل العامر .

***

ودخل كل منهما غرفته وأغلق عليه بابه ، وكانت الغرفتان متجاورتين وبينهما باب صغير . . واضطجع مختار على كرسى طويل . وهم الدنيا كلها يحط على صدره ويدير رأسه كالرحى ، وأخذ يخفف من حدة أعصابه المرهفة بهز ساقيه . وسمع فى غمرة كربه أنات وزفرات متقطعة عقبها بكاء شديد ، ينبعث من الغرفة المجاورة ، فأدرك أن زوجته تبكى . وجلس فى مكانه غير مهتم أولا ، ولما اشتد البكاء أحس بسكاكين حادة تمزق أعصابه . فنهض عن كرسيه ثائراً وتقدم نحو الباب ليضربها ضرباً موجعاً . . وهنا خف البكاء فتمالك نفسه واكتفى بأن ينظر من فرجه الباب ، فشاهد أبدع المناظر على الإطلاق . . رأى زوجته نائمة على السرير على بطنها ، ووجهها مدفون بين الوسائد ، ورجلاها تعملان زاوية مع جسمها المرتعش مع ضربات رجليها فى الهواء ، وارتفاع نشيجها الممزق لصدرها . وبعث فيه المنظر مع ما فيه من إيلام كل ضروب الاشمئزاز . فبعد عن الباب ، وراح يتمشى فى أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، حتى أحس بخور وضعف وفتور ، فاضطجع على الكرسى ، وأخذ يهز رجليه وساقيه وهو يحس بتوتر أعصابه ، وضيق وطأة أنفاسه على صدره ، وتحسس بيده اليمنى علبة ثقاب كان يعرف موضعها من مائدة قريبة دون أن يحول رأسه ، وأشعل السيجارة ، ونفخ دخانها ، وهو مغمض العينين واستراح إلى وضع السيجارة بين أصبعيه . . وأخذ ينقر بيده اليسرى على حافة الكرسى نقرات منتظمة ، وعينه من وقت لآخر تستقر على وجهه فى المرآة أمامه ، وراعه أنه قد تغير فى ساعات قلائل تغيراً يفزع . ومرت عليه حوادث اليوم على بساطتها مجسمة مروعة ، وكان كغيره من الشبان المرضى بالأعصاب تروعه توافه الأمور ، وتفزعه حقائرها وتأخذ عليه مسالك تفكيره ووعيه ، وتهد كيانه وجسمه ، فلا يستطيع معها أن يفعل شيئاً على الإطلاق ، يجد نفسه معطل القوى فانى الجهود خائر العزم وكان الخاطر التافه يفزعه ويرمضه ، ويحمله على التفكير فيه يوماً ويومين وثلاثة ، ولا يبعده عنه ويخلصه من إساره إلا خاطر آخر جديد يتخذ هيئة الأشد خطورة .

ولم يكن وهو جالس هكذا يفكر تفكيراً منتظماً ، أو يستطيع أن يوجه ذهنه إلى شىء معين بذاته ، فقد كان الزوج مثلا يختلط بصديقين أو ثلاثة ؛ رافقوه قبل العرس إلى بعض الحوانيت ، ثم بأمه وهى تشرف بنفسها على إعداد الفطائر ، وذكر إخوته الذين اعتذروا

عن الحضور لأسباب قهرية ؛ ثم والد العروس بغطرسته التي لا مبرر لها و تطاوله على الكثير من الخدم بالسباب والشتم البذىء الذى لايصدر حتى من أحقر أبناء الشوارع! على أن خواطره مع تضاربها ، وتنقلها ودورانها حول العرس لم ترتد مطلقاً إلى السبب المباشر للزواج مثلا ؛ وإنما كانت تحوم حول أمور تافهة حدثت فى يوم العرس بالذات . فقد ذكر بوضوح أن مصباحاً كهربائياً تهشم ، وأن كرسياً من الكراسى التى حول الموائد قد تحطمت ساقه كذلك ، وأن تلميذاً من أقاربه صدمه خادم يحمل صحاف الطعام ، وصب عليه صحن ملوخية بما فيه ، فتلوثت حلته الجديدة التى أعدها للعرس ، وبكى التلميذ بكاء مراً على الرغم من أنه حمل إلى مجلس السيدات ! . . ورفض سماع المطرب . وذكر أيضاً أن كثيراً من المتطفلين على الأعراس أخذوا يشوشون على المغنى فى بداية الليل ، حتى اضطر على الاستعانة بثلاثة من فتوات الحى ؛ ونجحت هذه الطريقة فعلا . ذكر هذا كله ولم يذكر مثلا أهم حادث فى تلك الليلة عندما أدخل على العروس ، وود من فرط الاضطراب والخجل لو تنشق تحته الأرض !! ولم تكن خواطره مع تفاهتها تبعده عن النظر إلى المستقبل المجهول بعين القلق ! فقد أخذت طلائع المستقبل تبدو مع استحالتها قريبة الحدوث .

وأحس بعد نصف ساعة من التفكير الملح المضطرب بالحمى تسرى فى جسمه ، فأخذ يرتعش رعشات عنيفة ، دارت معها أرض الغرفة فى عينيه ، وخفت حدة الأصوات فى الشارع ، وسكن كل شىء فى الحى ، ورفع ذراعه بعد مدة إلى جبينه ، ومسح العرق المتصبب . ثم تحامل على نفسه حتى بلغ السرير وتمدد عليه ، وضم الغطاء على جسمه وهو يرتعد ، واصفر فى نظره كل شىء فى الغرفة ؛ وعاد العرق يتصبب ، وثقلت أجفانه ، ونام نوماً متقطعاً تتخلله أحلام مزعجة ، فيها صياح طفل ، وسقوط سيارة فى ترعة ، وعراك بين عروسين جرهما إلى المحكمة الشرعية . . ! وفتح عينيه قبل المغرب ، وتململ فى الفراش ، وحاول النهوض فلم يستطع . . ورجع إلى نومه المتقطع وأحلامه المزعجة ! وكان الجدال بين العروسين قد تطور واشتد فى الحلم حتى نطق الزوج بكلمة الطلاق ، وهو يصيح بأعلى صوته ، واستيقظ على الصوت ، وعصر عينيه وهو يفكر فى الطلاق تفكيراً جدياً !

اعتدت أن أصيف كل عام عند سيدة أجنبية تقيم فى الرمل ، وكانت امرأة غريبة الأطوار بادية الشذوذ ، تحيط نفسها ويبتهابجو من الهدوء المطلق ، فلا تحب أن ينزل عندها أحد من المصيفين على الرغم من أنها كانت فى أشد الحاجة إلى المال ، وكان نفورها من جنس الرجال لاحد له ، فقابلتنى فى أول الأمر بمنتهى الحذر والتحفظ ثم أنست بى على مر الأيام . وكنت لا أرى طول مدة إقامتى معها رجلا غيرى يدخل المنزل . . فهى تدع عند السلم الخارجى حقيبة صغيرة من القماش يلقى فيها باعة الخبز والخضار واللحم ما تحتاجه لطعامها . . فلا يراها منهم أحد ولا تراهم . وكانت غرفتى تطل على البحر وبعيدة عن غرفتها ، فكنت لا أراها ولا أسمع صوتها إلا نادراً . . بيد أننى كنت أسمعها تتحدث عصر كل أحد مع امرأة علمت أنها جارتها ، وأنها المرأة الوحيدة التى تزورها .

ومرت الأيام وأنا لا أسمع إلا صوت المرأة وهى تناغى القطط ، أو تحادث نفسها ! وكان الهدوء الشامل الذى يخيم على البيت يحبب إلى الإقامةفيه جانباًكبيراًمن النهار والليل . . فكنت أجلس فى الشرفة وأشرف على البحر ، وأمتع بصرى بما يحيط بى من مناظر الطبيعة الخلابة . . وأنا لا أسمع فى أرجاء المنزل إلا دقات الساعة المعلقة فى البهو ، وهى تدق من حين إلى حين . . وكان هذا الصمت يحملنى على التأمل ، وتوجيه نظرى إلى هذه المرأة لأعرف علة وحدتها المرة . . بيد أننى كنت كلما حاولت أن أجر لسانها إلى الكلام لعلى أعرف بعض حياتها ، وبعض سرها أرتد خائبا . . فهى امرأة من طراز نادر فى الذكاء والحذر . . ومن اللواتى يقلن لك بأعينهن إذا ما تجاوزت معهن الحد فى الحديث إلى هنا ونفترق ! على أن هذا الكتمان كان له أثره السىء على أعصابها ، ووقعه المر على نفسها ، فقد بدت عليها عوارض الشيخوخة قبل الأوان . . وثقلت عليها الوحدة فكانت تشتد فى الكلام لأتفه الأسباب . . وساء ظنها بالناس أجمعين ، فكانت تتصور أن خدم العمارة التى تسكنها يتآمرون على قتلها ، وأن إحدى الجارات مشتركة معهم فى تبييت الأمر وتنفيذ الجريمة . . ! وكنت أجاهد لأصرف ذهنها عن هذه الخواطر . . وأعرض عليها التنزه فترفض ، فلا تراها

إلا محتبسة فى غرفتها مريضة النفس حزينة .

لقد كان منظر هذه المرأة يبعث فى نفسى الشجن بأقصى ضروبه . . وكنت أسائل نفسى . . هل هى واحدة من اللواتى لهن ماض مروع هل هى إحدى ضحايا الرجل . . ؟ ما معنى هذا الحزن وما سبب هذه الوحدة . . أليس لها أقرباء ؟ . . ما من رسالة وصلتها . . رسالة واحدة لم تصلها من إنسان طوال مدة وجودى فى بيتها . . ولما رأتنى ذات يوم أكتب رسالة وأجعل العنوان باسمها . . نظرت إلى فى ابتسام وقالت :

«إن موزع البريد لايعرفنى . . فما حمل لى رسالة قط . . اجعل رسالتك على عنوان آخر . . »

كان صوت هذه المرأة الهادىء مشوباً بمرارة تقطر حزناًإن قلبها يتفطر ، وجسمها يذوى على التدريج . . لا أنا ولا أحد من الناس يستطيع أن يفعل شيئاً لأجلها الآن . . لقد خرج أمرها من يدنا . . إنها الآن تعيش لنفسها بكل ما تحمل هذه الكلمات من معان وحدبها على القطط لا يغير هذه الكلمات ولا يلونها بلون آخر . . لقد اتجهت عاطفة الرحمة عندها إلى الحيوان بعد أن حرمت من الإنسان ، واتجهت اتجاها قويا فيه حنان أكيد وعطف شديد . . لقد قمت ذات صباح من النوم فزعاً على صوتها وهى تولول وتنوح . . فعلمت أن قطاً من القطط قد مات . . واحدا من أبنائها . . كما كانت تنعت هذه الحيوانات دائماً . . وأشهد أنى ما رأيت أحداً يبكى على ميت كما بكت هذه المرأة على قطها .

جلست ذات يوم ، بعد أن تغديت ، على السرير لأستريح قليلاً . . وحملت لى السيدة قدحاً كبيراً من القهوة . . فأخذت أشرب وأدخن . . وكان معى كتاب من تلك الكُتب القديمة النادرة الطبع التى أغرم باقتنائها ومطالعتها دائماً . . إن هذه الكتب تحمل بين طياتها أسرار القرون ، وعبير الدهور . . فتحت الكتاب وأخذت أطالع . . وكان باب الغرفة المؤدى إلى فسحة البيت موارباً . . فسمعت صوتاً إنسانياً خلوا يرن فى البهو . . واستمر الحديث بين صاحبة البيت ، وصاحبة هذا الصوت الجديد مدة . . وألقيت الكتاب وتسمعت . كان صوتاً جديداً يختلف عن صوت جارتها . وانقطع الحديث وسمعت حركة أقدام تقترب من غرفتى . . لم تكن أقدام المرأة . . كان خطو هذه أسرع وأخف وأنشط . . ووجهت عينى ناحية الباب ، ومر ظل أمام الباب الزجاجى الكثيف . . ظل امرأة طويلة القامة . . هذا هو كل ما استطعت أن أتبينه . . وكان الزجاج الكثيف ، والباب الموارب لايسمحان لى بأن أرى أكثر من ذلك . . ومر الظل أمام الباب أكثر من مرة . . كانت ذاهبة إلى المطبخ وعائدة منه ، وكانت تغنى فى رواحها ومجيئها بصوت أخذ بمجامع قلبى ، وأسر لبى . . لم أسمع صوتاً أحلى من هذا الصوت . . لم تكن تغنى بلغة أعرفها ، ولكن الصوت كان موسيقياً ، واضح النبرات ، لين المخارج ، حلو الرنين . . وتحركت من فوق السرير ،

ومشيت نحو الباب لأفتحه وأرى صاحبة هذا الصوت الجميل . . ولكن يدى وقفت على مقبض الباب لاتحركه . رأيت أن هذا لايليق . . وتبدل رأيى وتراجعت . . وملت إلى النافذة ، وأنا أرمى الجو بدخان سيجارق . . والصوت يهفو إلى حلواً قوياً . . وبعد الصوت عن سمعى ، ثم انقطع . . وانطلقت أتمشى فى أرض الغرفة بخطى رتيبة ، مستعرضاً الصور المعلقة على الجدران .

***

عدت إلى البيت لأنام بعد منتصف الليل بقليل ، فألفيت غرفة صاحبة البيت مضاءة على غير عادة . . وسمعتها تحادث السيدة صاحبة الصوت الجميل الذى سمعته فى أصيل ذلك اليوم . . ووجدت أن يداً جديدة مرت على المنزل كله ، فغيرته ولونته بلون آخر ، وذوق آخر . . فقد رتبت الصور ، وغير موقع الأثاث ، وغطى المصباح الذى فى غرفتى بالحرير الأزرق . . وفرش السرير بعناية وتغير كل شىء فى الغرفة ، وشعرت عند دخولى فيها بجو أنيق ممتع . . ونمت نوماً عميقاً مريحاً . . واستيقظت مبكراً عسى أن أوفق إلى رؤ ية السيدة الجديدة . . وكنت أسائل نفسى هل هى نزيلة جديدة أم قريبة من قريباتها . . ومرت أيام دون أن أشاهدها . . وكنت أسمع صوتها ، وحركة أقدامها ، وأرى نافذتها المفتوحة ، وغرفتها المضاءة . . هذا هو كل ما كنت أراه . . ولم أحاول غير ذلك ، وتركت لقاءها للمصادفات ، فإن الأقدار هى التى تربطنا بأناس لم يكن لقاؤ هم فى الحسبان ، أو الاتصال بهم يخطر على بال إنسان .

***

رجعت ظهر يوم إلى المنزل ، وأنا شاعر بألم فى إحدى عينى . . وكان الجو شديد الحرارة ، كثير الغبار ، وأغلقت نوافذ الغرفة ، وتمددت على السرير . . وحملت إلى صاحبة البيت قليلاً من الماء الساخن . . فغسلت عينى ، وأحسست ببعض الراحة . . وسمعت المرأتين تتحدثان . . وسمعت خلال الحديث لفظة«أكسيدبوريك» فأدركت أن الحديث يتعلق بى . . وتحدثت المرأة مع البواب . . وسمعت حركة أقدام السيدة الجديدة فى البهو . . ثم مضت مسرعة إلى المطبخ . . ولمحت ثوبها وهى ماضية أمام بابى .

ولما جاءت صاحبة البيت بمحلول البوريك ، وغسلت عينى أدركت اليد التى صنعته وودت لو أقبلها . . وأكبرت فى هذه السيدة هذا الخلق النبيل مع إنسان لم تره ولم تعرفه .

شغلت هذه السيدة بعد ذلك تفكيرى ووقتى ، وتشوقت إلى رؤ يتها للغاية . . .

***

وخرجت من غرفتى ذات أصيل ، واجتزت البهو وانحرفت إلى الصالة ، فوجدت صاحبة البيت جالسة على أريكة بالقرب من الباب الخارجى . . . وبجوارها سيدة فى مقتبل

العمر ، وروعة الحسن . . فأدركت أنها النزيلة الجديدة

فلما أحست بى صاحبة البيت قالت :

« كيف حال عينك الآن . . ؟ »

« بخير وأشكرك . . . . . »

وكانت السيدة الأخرى فى أثناء ذلك الحديث قد أطرقت . . فنظرت إليها بجانب عينى لحظة ثم أضفت :

«وكل ذلك بفضلك . . . »

فأجابتنى صاحبة البيت وهى باسمة مشيرة إلى السيدة التى بجانبها . . .

«لقد كان هذا رأى مرغريت . . . »

فتحول نظرى إلى مرغريت ، وهى مطرقة . . وأخذ قلبى يزداد وجيبه . . ورفعت رأسها . . ورأيت وجهها الصبوح الفاتن لأول مرة ، وتشربت روحى من حسنه . . . وتبادلت معها كلمات قليلة ، ووجهها فى خلال ذلك يحمر ، ويرف لونه ، ويزداد سحره .

وأحنيت رأسى ، وخرجت إلى الطريق ، ومخيلتى تسبح فى بحر من الأحلام اللذيذة .

***

وقدمت لى ذات صباح قدح القهوة بدل أختها . . فتقبلته شاكراً ممتناً ، وأخذت أحادثها . . فتوردت وجناتها . . وظهر عليها الحياء الذى بدا منها عند ما قابلتها أول مرة . . وعاد إلى عينيها ذلك البريق الفاتن الذى يشاهد فى عينى العذراء قبل أن تنخرط فى البكاء ، أو تنفجر من الضحك .

***

وخرجنا فى ليلة من الليالى لنتنزه لأول مرة . وسرنا نحن الثلاثة على شاطئ البحر بعد أن أسدل الليل ستائره ، وأوحش الطريق ، ومضى الناس إلى منازلهم . وكنت أبادل مرغريت النظرات والبسمات ، وأشد على يدها خلسة ! . . وكنا نتمهل فى السير عن عمد لتتقدم «المدام !» وشعرنا بعد مضى دقائق قليلة بأن وجودها يضايقنا ، كان هذا هو إحساسنا المشترك دون أن ننبس ببنت شفة ، ولعل المدام قد شعرت بغريزتها بذلك ، فقد أشارت علينا بالعودة قبل أن يهبط البرد ، فأخذنا الطريق إلى المنزل صامتين .

ولما حييت مرغريت تحية المساء وانصرفت إلى غرفتها وأغلقت عليها بابها ، وقفت برهة أنظر إلى الباب الموصد دونى . . وقلبى يزداد خفقانه ويشتد .

واحتلت مرغريت بعد هذه الليلة مركز شعورى ، ونفذت صورتها إلى سويداء قلبى ، وكنت أراها فى كل مكان . . أنام وصورتها فى ذهنى ، وأصحو وصوتها يرن فى

أذن . . لقد استولت على كيانى ، وغدت امرأة أحلامى .

وألفيتها ذات ليلة ساهرة تكوى بعض الملابس . . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أشاهد فيها مرغريت وحدها ، فإن عين العجوز لا تنام أبداً ! . . وجلست أحادثها ، وأشترك معها فى عملها ، وهى تضحك وترفع المكواة الحامية فى وجهى لأبتعد وإلا وضعتها على قلبى !.

ولما فرغت من عملها أشرت عليها بأن نجلس قليلا فى الشرفة حتى نشعر بالنوم . . فنظرت إلى غرفة أختها المظلمة لحظات . . ثم مضت معى .

وجلسنا نتحدث فى الظلام . . وطوانا الليل فى جلبابه . . واستغرقنا فى الحديث ، وغفلنا عن كل شىء فى الوجود . . وشعرت لأول مرة بالسعادة الحقة ، تهز مشاعرى وترقص قلبى . . حتى خيِّل إلىّ أن لا أحد سوانا فى المنزل ، وأن أختها رقدت رقدة الأبد .

وبعد تلك الليلة انمحت الفواصل ، وانزاحت الستر ، وتبددت الظلال التى كانت بينى وبين مرغريت . . وامتزجت روحانا . . وازداد وجدى بها حتى أصبحت لا أقوى على فراقها لحظة . . فكنا نخرج إلى المدينة فى الصباح ، ونستريح فى البيت وقت الظهيرة . . ونتنزه فى المساء على ساحل البحر بين المندرة وسيدى بشر . . بعيداً عن الناس ، فإذا حان وقت النوم رجعنا إلى البيت . . وافترقنا أمام المدام .! ويظل كل منا ساهراً فى غرفته حتى ينطفىء النور فى غرفتها وينقطع حسها . . . وهنا تفتح مرغريت باب غرفتى فى رفق وحذر شديدين . . . وتهمس . . ووجهها يشرق فى الظلام :

«فتحى . . هل أشعل النور . . أوأهتف بالمدام . .؟ فتحى هل أنت فى حاجة . . ؟»

فأطوقها بذراعى وأغمر فمها بقبلاتى ، ونظل نتناجى ونحلم حتى تبدو خيوط النور فى الأفق .

***

وكان عندها مجموعة من الصور تمثلها فى مختلف أطوار حياتها . . فقدمتها لى . . وأخذت أقلب المجموعة وهى جالسة بجوارى . . فرأيت صورتها ، وهى طفلة صغيرة فى بوادبست . . وجزيرة مرغريت . . . .

وسألتها :

«هل سميت جزيرة مرغريت باسمك . . لأنك أجمل فتاة فى المجر . . !» .

فضحكت وقالت :

«فى المجر . . فقط . . !؟»

«فى العالم يا مرغريت . . »

فقبلتنى فى فمى وهى طروب . . ومضيت أقلب الصور حتى استوقفتنى صورة فتاة شديدة الشبه بها .

فسألت مرغريت عنها . . فنظرت إلى ثم أطرقت وراعنى أن وجهها قد اكتأب وعلاه الوجوم . . وتحير فى عينيها الدمع . . فطويت الصور . . ورفعت وجهها إلى وجهى . . فارتمت على صدرى وهى تنتحب . . فأخذت أمر بيدى على شعرها وأغمرها بقبلاتى . . حتى هدأت . . ثم رفعت وجهها إلى وقالت :

«أعرفت صاحبة الصورة . . . ؟»

«أجل يا مرغريت . . وآسف لحماقتى . .»

«لا تقل هذا ولماذا أكتم عنك . . لقد أصبحت عندى أكثر من أخ . . إنها أختى . . لـ . . وقد انتح . . . انتحرت . . كانت صغيرة . . وغريرة . . . . وعش : . . . عشقت زوج أختها . . زوج المدام . . . .»

وضعت يدى على فم مرغريت . . بعد أن رأيت جسمها عاد يهتز ويرتجف . . ولم أكن أود أن أسمع شيئا عن هذه المأساة ، وأدركت كل شىء يتصل بهذه المرأة الغريبة ، وعرفت علة نفورها من الرجال وعزلتها المطلقة عن الناس . أدركت كل هذا بسرعة وأخذت أحادث مرغريت فيما يصرفها عن هذه الذكرى حتى هدأت ، فخرجنا لنتنزه .

***

ومرت الأيام سراعاً ونحن فى سعادة لا تقدر . . وكنا نمضى معظم الليل فى الغرفة نتسامر ولا نحس بأن فى العالم سوانا . . . وانمحى كل شىء فينا . . ونسينا مدام «تـ» التى أدركت كل شىء وعرفت كل أمر وصمتت ؛ كانت تعرف أن الكلام لا يجدى . . وأننا مستغرقان فى حلم لا نصحو منه أبداً . . وكانت مرغريت تدرك أيضا حال أختها . . فيعتريها سكون ووجوم ، وتطوقنى بذراعيها وهى ترتجف وتبكى . .

وشعرنا مع الأيام بنظرات المرأة تشتد وتحتد وجو البيت قد تكهرب ، وأصبح خانقا . . فكنا نمضى الساعات فى صمت . .

وقررنا ذات ليلة العودة إلى القاهرة . . لنقضى معا ما بقى لنا من عمر . . وشعرت بعد هذا القرار بالهدوء المقرون بالسعادة الحقة . . .

وأخذت أرتب الحقائب ، وأعد كل شىء للرحيل . . وذهبت إلى المدينة ، وتركت مرغريت تهيىء نفسها للسفر ، وعدت إلى المنزل فى ساعة متأخرة من الليل وأنا سعيد حالم . . وحاولت النوم فلم أستطع فقد طيرت النوم من عينى . . فرأيت أن أذهب إلى غرفة مرغريت . . وأوقظها لنقضى ما بقى من الليل معا . . ونهضت من الفراش . . وفتحت

باب غرفتى وتقدمت على أطراف اصابعى فى الردهة . . حتى قربت من باب غرفتها ، و وصل إلى سمعى صوت بكاء مختنق . وصوت مرغريت وهى تتحدث بصوت خافت ، فأدركت أن أختها معها فى الغرفة . . وساورنى القلق وأنصت . . فإذا بالحديث يخصنى ، فوقفت فى وسط البهو ذاهلاً شارداً ، وأنا لا أسمع إلا بكاء المرأة المختنق ، وصوت مرغريت وهى تهدئها بصوت خافت ثم سمعتها تبكى معها . . فأحسست بقلبى يتفطر لوعة وأسى . . وسمعت المرأة تقول لأختها وهى تنشج :

«لا تتركينى وحدى . . بعد كل الذى حدث . . لقد وجدتك أخيراً . . وأصبحت مالى فى الوجود سواك . . فلا تتركينى وتذهبى معه . . »

وارتفع النحيب . . وتكرر الرجاء . . وانقطع الصوت وخيم صمت القبور .

وتحاملت على نفسى حتى بلغت غرفتى . وتمددت على السرير وجسمى يحترق ، وراسى يشتغل والعرق يتصبب على جبينى . . وعيناى فى وقدة الجمر . . وأطرافى تتقلص . . والسيجارة بين أناملى والأفكار تموج فى رأسى وتتصارع . . لقد من الله على بالسعادة بعد شقاء طويل فهل أرفضها . . وأرفضها فى سبيل امرأة فى عداد الموتى . . حية كميتة لا فائدة من وجودها ، ولا خير يرجى منها ، لقد انقطعت صلتها بالحياة وصلتها بالناس ، وتقطعت بها الأسباب . . فما ذنب هذه المسكينة وهى فى نضرة عمرها ؛ ورونق صباها حتى تشقى مع هذه المرأة الشقية إلى الأبد . . هل إذا انتزعتها منها سأنتزع نفسها . . هل أذهب بحياتها . . ولماذا لا أذهب بحياة من لا يصلح للحياة ولا تصلح له . . وقفت عند هذا الخاطر العاصف أترنح . . وهل يمكن أن نظل سعيدين بعد هذه المرأة . . إنها ثالث لا ينفصل عنا ولا يتجزأ . . إنها معنا فى حياتها ومماتها . . شئنا ذلك أو لم نشأ . .

وانطلقت أتمشى فى أرض الغرفة بخطى سريعة كالنمر المحبوس فى عرينه . . . والأفكار تشتعل فى جمجمتى وتعصف ، حتى شعرت بمثل الحمى تسرى فى عروقى وبحلقى يجف . . فاتجهت من غير وعى إلى المطبخ لأشرب . . ووقع بصرى وأنا أدير صنبور الثلاجة على بلطة معلقة فى الحائط . . رباه هل أمسك ببلطة رازكو لنيكوف وأحطم هذه الجمجمة . . وأمسكت بالبلطة ! فأحسست بثقلها وأخذت يدى ترتعش ، وجسمى يهتز والعرق يتفصد . . رحماك ياسيد الكتاب بين أعقل الناس وبين الجريمة غير قيد شعرة !

هل أقتل هذه المرأة ، وأقتل مرغريت ، وأقتل نفسى . . وتفتحت عيناى فى رعب وجزع . . واشتد الظلام ولم أعد أرى شيئا .

ووجدت نفسى ممددا على فراشى والعرق يتصبب . فاستويت على قدمى ، تحت ثورة الحمى ، وأمسكت بحقيبتى . . . . وخرجت أضرب فى ظلام الليل على غير هدى ولا سبيل .

سكون العاصـــفة

كان خالد أفندى يتردد على مقهى « الحرية » فى مدينة المنصورة أصيل كل يوم ، ومع أن المقهى يشرف على النيل ، ويقع فى أجمل بقعة فى هذا البلد ، فإنه لم يحاول مطلقاً أن يملأ عينيه مما حوله من جمال وسحر . . . فهو لم يشاهد منظر غروب الشمس فى النيل ، ولا طلوع القمر من وراء السحاب ، ولا الزوارق الشراعية وهى تسبح فى ظل الغسق . . كما أنه لم يعبر جسر طلخا قط ، ويرى ما وراء الجسر من مناظر خلابة فى مدى السنين التسع التى قضاها فى المنصورة منذ أن نقل إليها كاتباً فى تفتيش الرى !

وكان يجلس على ناصية الطريق زمن الصيف ، فإذا جاء الشتاء ، انتقل مع الجالسين إلى الجزء الشتوى من المقهى ، على الرصيف الآخر من الطريق ، وألقى بنفسه فى مكان ضيق يعج بالخلق ويزهق الأنفاس . هذه المقاهى الغريبة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها تضم خلقاً عجيباً من صعاليك الأرض ، ومحترفى النرد ، وأصحاب العقول الذهبية الذين يدخلون أنوفهم فى كل شىء على ظهر البسيطة ، وينتقدون أنظمة الاجتماع الإنسانى قاطبة ! ويشعرون بأنهم ضحية نظم فاسدة لا سبيل إلى إصلاحها ، فما يعوزهم هو شىء خارج عن نطاق البشرية وحدودها ، على أن خالد أفندى كان يختلف عن هؤلاء جميعاً ، فهو رجل قد جاوز بسنه عمر الشباب ، وحاد بتفكيره عن تفكير المخبولين ! . . . بيد أنه كان يتفق معهم فى الحيرة والقلق ، والشعور المطلق بالنقص أبداً ، ولهذا ظلت حياته تسير على منوال واحد ممل معذب . . . وكان قد أدرك الجيل الذى يتزوج فيه الشبان قبل الأوان ، فتزوج معهم وأنجب ؛ وكان زواجه من فتاة طيبة من أسرة كريمة ، والأسر الكريمة كثيرة الود ، فالزوجة عند عماتها وخالاتها ، وخالات عماتها وعمات خالاتها ، كما أنهم محط الرحل فى المدينة لكل من يشرف المدينة من الأهل والصحب . ولهذا فر خالد أفندى من المنزل إلى المقهى ، وقعد على حافة الطريق يرقب الرائحات والغاديات بعين عطشى . . .

ولما امتد لهب الحرب ، وكثر عدد المهاجرين إلى الشرق ؛ اكتظت المنصورة بالخلق ، وازدحم منزل خالد أفندى بأفراد أسرته من المدن المعرضة لشر الغارات ، فلما مضت الأيام

على غير حادث . وقفت حركة الهجرة ؛ وسئم المهاجرون تكاليف العيش الجديدة ورجعوا إلى بلادهم بالتدريج ، ورحل ضيوف خالد أفندى ورحلت معهم زوجته ، فقد رافقت أختها إلى القاهرة ، وهكذا أصبح خالد أفندى وحيداً فى المنصورة ، أو أعزب إلى أجل ! وتنفس الصعداء . وشعر بالحرية المطلقة فى غدوه ورواحه ، وراح يحن إلى أيام شبابه وهو [illegible]

وكانت تمر أمامه ، بعد غروب كل شمس ، فتاة رائعة الحسن جذابة الملامح ، من هؤلاء اللواتى تدفعهن الفاقة إلى العمل . كانت تبيع الحلوى ، وتمر على الجالسين فى المقهى ضاحكة مازحة . . وكانت تخص خالد أفندى ببعض وقتها ومزاحها ، لأنه رجل وقور ، حسن السمعة ! وكان يمازحها ويتلطف معها فى الحديث ، ثم يشيعها بنظراته النهمة ، وكان جسمها أكبر من سنها بارز المفاتن رائع التكوين . وفى عينيها بريق وإغراء قل أن يجتمعا فى عين امرأة . وكان خالد أفندى يدرك هذه المحاسن كلها ولكنه كان يرد نفسه عنها تورعاً . على أنها لما مرت أمامه فى ذلك اليوم تتثنى وتميل بجسمها وعلى شفتيها الرقيقتين ابتسامة ؛ وفى عينيها ذلك البريق الأخاذ ، استوقفها وابتاع منها بعض الحلوى ، وهو يضاحكها ويداعبها ، ثم همس فى أذنها كلاماً . . فتورد وجه الفتاة ، وغضت رأسها ، ثم مضت عنه ، وهى تهز رأسها ضاحكة ، وغابت فى جوف الظلام .

وظل ساكناً فى مقعده لحظات ، وهو ينفض المكان بعينيه ويرقب ! ، ثم اندفع فى الطريق الذى سارت فيه ، وقد زاده تمنع الفتاة حماسة وثورة . وأوسع المجال لخطاه لما اجتاز المقاهى المتناثرة على حافة النهر حتى بدأ يلهث ونفض جسمه العرق . يالله . . . إنه يسير الآن فى الطريق الذى كان يتنزه فيه مع زوجته وأولاده مساء كل خميس حتى يبلغوا شجرة الدر ! لقد مات الآن فى نظره كل شىء وانمحت الذكريات وأسدلت الستار على الماضى كله بخيره وشره . وأصبح لا يرى الآن تحت تأثير العاصفة التى ألهبت جسمه وأشعلت النار فى كيانه ، غير نساء عاريات سابحات فى النهر يتضاحكن ويهتفن به !

ويصر بها وهى تجتاز ميداناً صغيراً على رأس الطريق ينعطف إلى المدينة ، فجمع حواسه فى باصرته ، وانطلق فى أثرها .

* * *

ومضى معها تحت ستار الظلام إلى البيت ، ودارت ببصرها فى جوانب القاعة فى تهيب وخجل . ثم جلسا للعشاء . فأرغمها على الشراب فزال عنها حياؤها بالتدريج ، وتفتحت نفسها ، فانطلقت تغنى وتتبختر فى أرض الغرفة كالطاووس الجميل .

ولعبا بعد ذلك الورق . . وتكدست أمامها أكداس القروش ! فرمقته بعينيها وسألته وهى سكرى :

« هل تعطينى كل هذه النقود حقاً . . . ؟ »

فضحك وطمأنها

وظهر عليها التعب وبدأت تتثائب . ورق لون وجهها من فعل الخمر ، وانفرجت شفتاها ، واحمرت عيناها ، وثقلت أهدابها ، وتفككت أوصال جسمها . فارتمت على أريكة بالقرب من المائدة وظلت تحادثه من حين إلى حين ، وتنظر إليه بعينيها الناعستين ، حتى أحست بلين الفراش فنامت . . .

وبقى فى مكانه يحتسى القهوة ويدخن ، وعيناه سابحتان فى قرار الكأس . ثم رفع بصره إليها ، وهى نائمة حالمة ، وقد تهدل شعرها ، وتوردت وجنتاها ، وظهرت على وجهها كله آيات الطفولة البريئة ، وانمحت تكاليف العيش ومظاهر الصنعة من جسمها ونفسها . . فأشرق روحها وبدت على فطرتها . . وبان لون جسمها فى بياض العاج ونعومة الحرير . وكانت إحدى ذراعيها تحت رأسها والأخرى عند خصرها . . فتحرك الجسم قليلاً وارتفعت الذراع حتى جاوزت العنق ، وغاصت الأنامل الرقيقة فى الخد المورد ، وانحسر الثوب عن الساق ، وانزاح الشعر عن الجبين واهتزت الشفتان قليلاً ، وتحرك الجسم حركة من يود الصحو ، على أن الأهداب بقيت مطبقة ؛ والأجفان مسبلة ، والنفس هادئة حالماً .

ونظر إلى هذه الصورة الرائعة وهو سادر ساهم ، فنهض عن مقعده ووقف أمام النافذة المغلقة ، وفتح مصراعيها ، ومر هواء الصيف المنعش على وجهه ، وأشرف على الليل وأطل على الوادى الصامت . ورأى لأول مرة فى حياته محاسن الطبيعة ، وبدائع ما أبدع الله وصور ، واعتمد بجسمه على النافذة وبصره يخترق حجب الليل ويعبر النيل والجسر وما وراء الجسر ، حيث تتجلى الطبيعة فى أروع صورها ، وسبحت عيناه فى الظلام ، واستغرق فى تأملاته ومرت فى ذهنه صور كثيرة واضحة وغامضة . . الحرب . والغارات . . والريف والقرية . . وزوجه وأولاده . . وشعر بطراوة الهواء ولينه وهو يصافح وجهه ، وبجسمه يعود إلى حالته الطبيعية ، ورأسه يصفو من فعل الخمر ، فانثنى على النافذة ، وانطلق يتمشى فى أرض الغرفة ، وعينه على الفتاة النائمة ووقف أمامها لحظة . . ثم انحنى عليها ، وحملها على ذراعيه كطفل صغير ، ومشى بها إلى مضجعه ، وأضجعها على السرير بحنان ورفق ، وأسدل على جسمها ملاءة خفيفة ، وأبقى وجهها الناضر عارياً ، وانسحب من الغرفة سائراً على أطراف أصابعه !!

ونام على أريكة فى الردهة نوماً عميقاً هادئاً تشوبه ألذ الأحلام .

الفهـرس

فندق الدانوب

وقصص أخـــرى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٠٨/١٩٨٦

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٨٥٢ - ٩

٣٧٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب